

@ketab_n
Follow Me
6.1.2016

دوستويفسكي

المراهق

الجزء الأول

ترجمة: سامي الدروبي

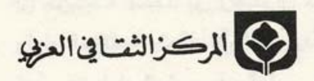
دوستويفسكي

المُراهِق

1

ترجمة: سامي الدروبي





Twitter: @ketab_n

لقد طُبعت أعمال الكاتب الروسي الكبير «دوستويفسكي» أكثر من مرّة.
ونحن نعيد طباعتها بموجب عقد مع ورثة المترجم الأستاذ سامي الدروبي بعد إعادة تنضيدها وإخراجها في حلّة جديدة

Twitter: @ketab_n

الكتاب: **المراهق (1) (رواية)**

المؤلف: **دوستويفسكي**

المترجم: **سامي الدروبي**

الطبعة الأولى، 2010

ISBN 978-9953-68-459-6

يُنشر هذا الكتاب بموجب عقد مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم



tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

جميع حقوق هذه الترجمة محفوظة لـ:

الناشر: المركز الثقافي العربي

بيروت والدار البيضاء

بيروت ــ لبنان

ص.ب. 5158 ـ 113 الحمرا

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01352826 ـ 01750507

فاكس: 01343701 ـ 961+

الدار البيضاء ــ المغرب

ص.ب.: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 522 ـ307651 522

فاكس: 2305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma cca@ccaedition.com www.ccaedition.com

---

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم والمركز الثقافي العربي غير مسؤولين عن أفكار وآراء المؤلف، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء المؤسسة والدار.

Twitter: @ketab_n

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

إن كان الحلم في حد ذاته أمراً مشروعاً، فإن الأكثر إلحاحاً في ظل التحديات التي تواجه واقعنا العربي، هو العمل على تحويل الحلم إلى مشروع حقيقي على الأرض. وإذا كان العصر الذي نعيش فيه يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ترى إلى الترجمة باعتبارها جسراً لاستيعاب المعارف العالمية واللحاق بالعصر.

لقد عبّر صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي عن مدى الحاجة للتعامل العاجل مع مقتضيات العصر عندما قال: «إن أهم ما في الاقتصاد الجديد هو الفكرة التي تنفّذ في وقتها». وعليه فإن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم تعتقد بحزم أن إحياء حركة الترجمة العربية، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، هي فكرة حان وقتها، ولا يجوز تأخيرها.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص في العام الواحد، بينما تنتج دول منفردة في العالم من حولنا أضعاف هذا الرقم.

في ظل هذه المعطيات أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر ترجمة تلك الأعمال إلى العربية. ومن أهداف البرنامج أيضاً العمل على إبراز الوجه الحضاري للأمة عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من

Twitter: @ketab_n

اللغات العالمية إلى اللغة العربية في خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد. وما الكتاب الذي بين يديك، عزيزي القارئ، إلا دفقة في نهر معرفي نأمل أن يجري غزيراً ليروي الظمأ، ويسقي بساتين النهضة العلمية، وصولاً إلى التنمية الشاملة في الوطن العربي.

إن مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم على ثقة بأن هذا الكتاب سيكون بمثابة خطوة إلى الأمام في سبيل تحقيق رسالتها الكلية، المتمثلة في تمكين الأجيال المقبلة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار النيّرة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، بالإضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني:
www.mbrfoundation.ae

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عن المؤسسة:

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة شخصية من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، الذي خصص للمبادرة وقفاً قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار). وجاء الإعلان عن تأسيسها في كلمة سموّه أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت، الأردن في أيار/ مايو 2007.

تهدف مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة نابعة من الواقع المحلي، للتعامل مع المشكلات التي تواجه مجتمعاتهم. ولتحقيق هذا الهدف، حدد سموه ثلاثة قطاعات استراتيجية لعمل المؤسسة، وهذه القطاعات هي: المعرفة والتعليم، والثقافة، وريادة الأعمال وفرص العمل.

Twitter: @ketab_n

مقدمة

«وحتى بعد وفاته بمائة عام يظل تأثير دوستويفسكي ينمو ويتسع بدءاً بأرض وطنه حيث حظي بالاعتراف به وهو على قيد الحياة، وامتداداً إلى بلدان أوروبا وأمريكا وآسيا. وهذا التأثير لا يقتصر على الأدب وحده بل يمس نمط الحياة، وأسلوب التفكير والعواطف البشرية. إن الأجيال المتتالية تقرأ أعماله لا باعتبارها مؤلفات أدبية بل بوصفها دراسة للطبيعة الإنسانية، ويتصور مئات آلاف القراء في شتى أنحاء العالم أبطاله وكأنهم معارفهم القدامى».

إن هذه الفقرة المقتبسة من حديث للكاتب المكسيكي المعروف أوكتافيو باس تعبّر أصدق تعبير عن موقف الأدب العالمي المعاصر كله من دوستويفسكي، فقد أصبح الحديث عن هذا الأدب مستحيلاً دون التعرض لتراث الأديب الروسي العظيم. فدوستويفسكي ينتمي إلى أولئك الأدباء الذين تملك مؤلفاتهم قدرة التأثير الحاسم على نفوس القراء وشخصياتهم وتحديد مصائرهم بالمعنى الدقيق لعبارة «إعادة بناء الإنسان». يقول الناقد الأدبي السوفياتي فلاديمير دنيبروف «إن قراءة رواياته تعتبر حدثاً في حياة الإنسان. فعندما نقرأ كتبه نلج عالماً شعرياً على درجة عالية من التكثيف والتركيز بحيث يضيء أفق الحياة الفعلية بوهج المعاناة الفنية الهائلة، ولا نعود نرى العالم كما كنا نراه قبل الاطلاع على مؤلفات دوستويفسكي».

ولد فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في 11 تشرين الثاني

Twitter: @ketab_n

عام 1821 في أسرة مطبب بمستشفى للفقراء. واكتسبت حياته منذ الطفولة طابع الشقاء والدراما. وترك احتكاكه المبكر بالفقر وآلام البشر انطباعات حزينة في نفسه (كانت شقة آل دوستويفسكي ملحقة بالمستشفى). ومما فاقم الأمر أن أباه كان ذا طبع قاس صعب، كما ماتت أمه مبكراً (عام 1837). ورغم حب فيدور دوستويفسكي للشعر والأدب منذ صغره، فقد ألحقه أبوه بكلية الهندسة في بطرسبرج، حيث كان عليه أن يدرس، بدلاً من الأدب، «الخرائط» و«الاستحكامات» والمدفعية. غير أنه في هذه المؤسسة التعليمية الحربية (1838–1843) التي مر فيها بكثير من اللحظات الصعبة المرة، أدرك مهمته الحقيقية في الحياة. وهنا أيضاً بدأت تتشكل معتقدات دوستويفسكي حول عدم كمال «هذا العالم» والتي أيقظت فيه مشاعر الغضب والألم للإنسان المهان المعذّب. فجاء انتاجه الأول رواية «المساكين» (1845) متناولاً مقتل المخلوق «الذليل» المهان من قبل الجميع، والذي ينمو فيه وعيه بذاته رغم كل شيء وتستيقظ فيه الروح الإنسانية العميقة. وسرعان ما أصبح اسم مؤلف «المساكين» معروفاً للقراء في روسيا قاطبة. ووصف الناقد الروسي العظيم بيلينسكي (1811–1848) موهبة دوستويفسكي بأنها «غير عادية وأصيلة» وأشار إلى أنه «في أوّل عمل يقدمه قد انفصل بحدة عن جمهرة كتّابنا كلهم...».

بعد ذلك صدرت له «المِثل» (1846) و«ربة البيت» (1847) و«الليالي البيضاء» (1848) و«نيتوتشكا نيزفانوفنا» (1849). وعندما ظهرت آخر قصة من الأعمال المذكورة كان الكاتب سجيناً في قلعة بطرس وباول. أما سبب اعتقال الأديب الشاب (في 22 نسيان 1849) فكان انضمامه إلى جماعة «البتراشيفيين» التي أسسها ميخائيل بتراشيفسكي (1821–1866) الذي كان يدعو لأفكار الاشتراكية الطوباوية. ونظراً لانتماء دوستويفسكي إلى هذه الجماعة المتبنية لبرنامج معادٍ للحكومة ولنظام

Twitter: @ketab_n

القنانة، وجزاءً لقراءة رسالة بيلينسكي إلى الكاتب الروسي نيقولاي جوجول في إحدى جلسات الجماعة، وهي الرسالة التي منعت الرقابة نشرها، حكم على دوستويفسكي بالإعدام. وقد خفف هذا الحكم قبيل تنفيذه بلحظات، بناء على «أمر كريم» من الإمبراطور نيقولاي الأول، إلى الأشغال الشاقة لأربعة أعوام والخدمة العسكرية جندياً لمدة ست سنوات. وبعد أن مرّ دوستويفسكي في 22 كانون الأول 1849 بطقوس الإعداد لتنفيذ حكم الإعدام، أُرسل في اليوم التالي إلى سجن أومسك في سيبيريا حيث قضى فيه أربع سنوات (1850–1854) ثم أُلحق بعدها جندياً بكتيبة سيبيرية مرابطة في مدينة سيميبالاتنسك، فخدم فيها حتى عام 1859. وفيما بعد (1861–1862) اختار دوستويفسكي عنوان «ذكريات من بيت الموتى» للكتاب الذي وضعه عن تلك السنوات الرهيبة التي قضاها في الأشغال الشاقة. وكان دوستويفسكي على يقين أنه ما كان ليبقى على قيد الحياة لولا أن تدخل في حياته أناس رائعون مثل النائب الليبرالي ودارس سيبيريا ألكسندر فرانجل، والمتنوّر القيرغيزي تشوكان فاليخانوف، وماريا ايسايفا التي أصبحت زوجته.

وفي عام 1859 حصل دوستويفسكي على الإذن بالانتقال أولا إلى مدينة تفير (مدينة كالينين حالياً) ثم إلى بطرسبرج. وفي تلك الفترة نشرت له قصص «حلم العم» (1859) و«قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها» (1859) ورواية «مُذلّون مُهانون» (1861). لقد كانت السنوات العشر التي قضاها الكاتب خارج الأدب مأساة له بلا ريب، ولكنها لم تضع هباء. فقد تمكن خلالها من معرفة شعبه عن كثب، ولمس بنفسه العذاب الذي تتشبع به الأرض «من قشرتها حتى مركزها». وليس صدفة أنه بعد الأشغال الشاقة والمنفى بالذات تعزز إيمان دوستويفسكي بإمكانية التقدم البشري العام وبنمو قوى الشعب الروسي الروحية. وفي الفترة من 1861

Twitter: @ketab_n

إلى 1865 أصدر دوستويفسكي بالاشتراك مع أخيه ميخائيل مجلة «الوقت» ثم مجلة «العصر».

لقد كانت الستينات فترة صعبة ومؤلمة في حياة دوستويفسكي الخاصة، إذ فقد في وقت واحد تقريباً اثنين من أعزّ الناس لديه: زوجته (التي ماتت بالسل عام 1864) وأخاه ميخائيل (1820–1864). وفي عام 1866 يتعرف دوستويفسكي على فتاة شابة هي آنّا جريجوريفنا سنيتكينا (1846–1918)، المتخصصة في الاختزال، والتي أملى عليها روايته «المقامر». وسرعان ما أصبحت زوجته وأخلص صديق ومعين له في الحياة.

وفي الستينات والسبعينات وضع دوستويفسكي أهم رواياته، «الخماسية العبقرية» التي شكلت مرحلة هامة في تاريخ الأدب الروسي والعالمي، وهي روايات: «الجريمة والعقاب» (1866)، «الأبله» (1868)، «الأبالسة» (1871–1872)، «المراهق» (1875)، «الاخوة كارامازوف» (1879–1880). وفي الوقت نفسه استمر نشاط دوستويفسكي الصحفي فظل يصدر «يوميات كاتب» شهرياً لعدة سنوات.

وقد أصبحت كلمته عن بوشكين، التي ألقاها في الاحتفال بإزاحة الستارة عن تمثال هذا الشاعر الروسي العظيم في موسكو عام 1880، وصيته الروحية بحق. فقد حاول دوستويفسكي الذي ظل طوال حياته يعتبر بوشكين مثلاً أعلى للجمال والأخلاق لا يمكن بلوغه. حاول قبل وفاته (9 شباط 1881) بأشهر قليلة أن يجمع حول بوشكين أفضل ما يوجد في روسيا، ودعا إلى الاتحاد وإلى الهارموني العام العظيم. وأكد دوستويفسكي في كلمته عن بوشكين أنه «أنْ تصبح روسياً حقيقياً معناه ربما فقط.. أن تصبح أخاً لجميع البشر». لقد أصبحت فكرة أخوة البشر هي الخلاصة الأخيرة لتأملاته وأسمى ذرى إبداعه.

لودميلا سراسكينا

Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

– 1 –

لقد فرغ صبري، فها أنا آخذ بكتابة قصة خطواتي الأولى[1] في طريق الحياة. وكان يمكنني مع ذلك أن أستغني عن هذا. إن هناك شيئاً محققاً لا ريب فيه، هو أنني لن أكتب سيرة حياتي عن غير هذه الفترة، ولو قدِّر لي أن أعيش مائة سنة. فلا بد أن يكون المرء حقيراً في شدة افتتانه بنفسه حتى يتحدث عنها بغير خجل ولا حياء. وشفيعي الوحيد في ما أفعله الآن هو أن الذي يحدوني إلى الكتابة ليس ما يحدو إليها سائر الناس: إنني لا أكتب بغية الحصول على إعجاب القارىء ومديحه. ولئن خطر ببالي فجأة أن أسجّل، كلمةً كلمة، كل ما وقع لي منذ السنة الماضية، فإنما تدفعني إلى ذلك حاجة داخلية: إن الوقائع التي تحققت قد أذهلتني. وسأقتصر على تسجيل الأحداث، متحاشياً، بكل ما أوتيت من قوة، أن أتعرض لما هو غريب عنها، ومتحاشياً ألاعيب الأدب وزخارف البيان. رُبّ أديب يسلخ من عمره ثلاثين عاماً في الكتابة، ثم هو يجهل آخر الآمر لماذا كتب طوال هذه السنين. ولست بالأديب على كل حال، ولا أنا أحب أن أكون أديباً. وعندي أن استخراج ما تنطوي عليه نفسي ووصف عواطفي من أجل أن أعرضها في سوق الأدب هي في نظري من الأمور المعيبة والوضيعة. ومع ذلك أتنبأ، على كره مني واستياء، أنه قد يستحيل عليَّ أن أتحاشى وصف عواطفي تحاشياً كاملاً وأن

Twitter: @ketab_n

أتجنب عرض تأملاتي وأفكاري ولو كانت عاميّة: فإلى هذا الحد يسقط العمل الأدبي بصاحبه ولو كان لا يفعله إلا لنفسه. وقد تكون هذه الأفكار على جانب عظيم من العاميّة، ذلك أن ما تقدره أنت نفسك قد لا يكون له أية قيمة في نظر إنسان غريب. ولكن لأدع هذا كله جانباً، إذ فرغت من التمهيد، ولن أعود بعد الآن إلى شيء من ذلك. فلأبدأ العمل، وإن لم يكن ثمة شيء أعسر من الشروع في تأليف كتاب، وربما لم يكن هناك شيء أعسر من الشروع في عمل على وجه الإجمال.

- 2 -

سوف أبدأ أو قل إنني أريد أن أبدأ مذكراتي بيوم 19 ايلول[2] من السنة المنصرمة، أي على وجه الدقة باليوم الذي التقيت فيه أول مرة بـ. .

ولكن. . لأن أذكر الشخص الذي التقيت به سلفاً على هذا النحو، في حين أن أحداً لما يعرف شيئاً فذلك أمر مبتذل؛ بل إنني لأعتقد أن هذه اللهجة نفسها مبتذلة، فهأنذا أقع في الزخرفة الأدبية بعد أن آليت على نفسي أن أجتنبها. ثم إن مجرّد رغبة المرء في الكتابة لا تكفي، على ما يبدو، لأن يكتب على نحو جيد. وأحب أن ألفت نظركم أيضاً إلى أنني أعتقد أنه ليس هناك لغة أوروبية تصعب الكتابة فيها كما تصعب الكتابة في اللغة الروسية. لقد أعدت الآن قراءة ما كتبت في هذه اللحظات، فلاحظت أنني أذكى كثيراً من هذا الذي كتبته. فلماذا تكون الأشياء التي يعبّر عنها إنسان ذكي أغبى كثيراً مما يبقى في ذهنه؟ لقد لاحظت هذا الأمر في نفسي غير مرة، ولاحظته في ما أقوله للناس طوال هذه السنة الماضية الحاسمة، ولقيت من ذلك عذاباً أليما.

ورغم أنني أبدأ باليوم التاسع عشر من أيلول، فسأقول بكلمتين من أنا

Twitter: @ketab_n

وأين كنت قبل ذلك التاريخ ثم ما لعله كان قائماً في ذهني، ولو جزئياً، في ذلك الصباح من التاسع عشر من أيلول، بغية أن أيسِّر الفهم على القارئ، وربما على نفسي أيضاً.

- 3 -

أنا طالب قديم من طلاب المدارس الثانوية، وقد بلغت الآن السنة الواحدة والعشرين من عمري. اسمي دولجوروكي، واسم أبي الشرعي ماكار ايفانوف دولجوروكي، وهو قن سابق من أقنان الأسياد آل فرسيلوف. أنا إذاً ابن شرعي، رغم أنني ولد غير شرعي إلى أقصى حد، ونَسَبي لا يساور الشك فيه أحداً من الناس. وإليكم تفصيل ذلك: منذ اثنين وعشرين عاماً زار مالك الأطيان فرسيلوف وعمره خمسة وعشرون عاماً، (وهو أبي بالذات) أراضيه في مقاطعة تولا. وإنني لأفترض أنه كان حتى ذلك الحين إنساناً تافهاً، وأستغرب كيف أن هذا الإنسان الذي خطف بصري منذ طفولتي إلى هذا الحد، وأثّر في تكوين نفسي تأثيراً يبلغ هذا المبلغ من القوة، وألقى ظله عليَّ زمناً لعله طويل، لا يزال إلى اليوم لغزاً في نظري من وجوه لا حصر لها. ولكنني سأعود إلى هذا الأمر من بعد. إذ لا يمكن التحدث في هذا الأمر عرضاً. وفضلاً عن ذلك فإن هذا الرجل سيملأ كتابي كله.

كان فرسيلوف إلى ذلك الحين، أي عندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، قد فقد زوجته وكانت زوجته هذه فتاة تنتمي إلى المجتمع الراقي، ولكنها لم تكن على جانب كبير من الثراء، وكان اسمها فاناريوتوفا، وقد أنجب منها صبياً وبنتاً. إن ما أعرفه عن هذه الزوجة التي توفيّت في سن مبكرة ناقص كثيراً، ضائع في ثنايا الأمور التي عرفتها وجمعتها. هذا إلى أن كثيراً من ظروف حياة فرسيلوف تفوتني،

Twitter: @ketab_n

لأنه كان يعاملني دائماً في كِبَرٍ وتعال، وكان يغلق نفسه دوني، وكان يهملني، رغم ما كان يظهره تجاهي من تذلل يدعو إلى الدهشة في بعض الأحيان. يجب أن أذكر على سبيل العلم بالشيء أنه قد بدد أثناء حياته ثلاث ثروات، ثروات ضخمة، يبلغ مجموعها أكثر من أربعمائة الف روبل أو يزيد. وهو لا يملك الآن كوبيكاً واحداً بطبيعة الحال. . .

لقد جاء يومئذ إلى أراضيه «لا يدري لماذا إلا الله»، أو هذا على الأقل ما ذكره لي بعد ذلك شارحاً. ولم يكن طفلاه الصغيران معه، بل كانا عند أقارب له، على عادته دائماً، فكذلك كان يفعل بأعقابه طوال حياته، شرعيين كانوا أو غير شرعيين. وكان في هذه الضيعة عدد كبير من الخدم، أحدهم هو البستاني ماكار ايفانوف دولجوروكي. وأضيف هنا، حتى لا أضطر إلى العودة إلى هذا فيما بعد، أنه قلَّ بين الناس من كرهوا اسمهم ولعنوه كما كرهت اسمي ولعنته طوال حياتي. كان ذلك طبعاً حماقة مني ولكنه قد كان. كنت كلما دخلت مدرسة أو التقيت بناس تضطرني سنّي إلى الإجابة عن أسئلتهم، من معلمين أو مربّين أو مراقبين أو كهنة أو أي أحد من هذا القبيل، أسأل عن اسمي، فإذا عرفوا أن اسمي هو دولجوروكي، شعروا بالحاجة إلى أن يسألوني:

- الأمير دولجوروكي[3]؟

فأضطر في كل مرة أن أشرح لجميع هؤلاء الخليين:

- بل دولجوروكي فحسب.

وانتهت هذه الـ «فحسب» إلى إثارتي إثارة تبلغ حد الجنون. يجب أن أقول، من قبيل الاطلاع على هذه الواقعة النادرة، إنني لا أذكر أن أحداً من الناس أغفل أن يطرح عليَّ هذا السؤال: صحيح أن بعضهم كان يطرحه دون أي اهتمام (ولست أدري في الواقع فيم كان يمكن أن يهمهم هذا الأمر)، ولكنهم كانوا يطرحونه جميعاً، من أولهم إلى آخرهم.

Twitter: @ketab_n

حتى إذا عرف السائل أن اسمي دولجوروكي فحسب رمقني في العادة بنظرة حمقاء لا معنى لها ولا مبالاة فيها تدل على أنه كان لا يعرف هو نفسه لماذا ألقى هذا السؤال ثم ابتعد عني. ولكن الذين كانوا يجرحون شعوري أكثر من سائر الناس إنما هم رفاق المدرسة. كيف يسأل تلميذ من التلاميذ رفيقاً جديداً؟ إن التلميذ الجديد، التائه اللب المضطرب النفس، في اليوم الأول من دخوله المدرسة (أي مدرسة) هو فريسة للتلاميذ جميعهم: إنهم يتحكمون فيه، يغيظونه، يعاملونه كما يعامَل خادم. هذا طفل قوي البنية ممتلىء صحةً وعافية يقف فجأة أمام ضحيته وجهاً لوجه ويتفرس فيه بضع لحظات ناظراً إليه نظرة قاسية وقحة، فيجمد التلميذ الجديد أمامه صامتاً ينظر إليه من جانب، إذا هو لم يكن جباناً، وينتظر ما سيقع من أحداث.

- ما اسمك؟
- دولجوروكي.
- الأمير دولجوروكي؟
- بل دولجوروكي فحسب.
- ها.. فحسب. أبله!

وإنه لعلى حق: فلا شيء أشد بلاهة من أن يكون اسم المرء دولجوروكي دون أن يكون أميراً. وهذه بلاهة أجرّها ورائي دون أن يكون لي في ذلك ذنب. وفيما بعد، حين أصبحت أغضب من هذا الأمر غضباً شديداً، صرت أجيب دائماً عن سؤال من يسألني «هل أنت أمير؟» بقولي:

- بل أنا ابن خادم كان قِنّاً.

وبعد ذلك أيضاً، حين أهاجني السؤال في ذات يوم إهاجة عنيفة، وجدتني أجيب عنه بقوة وحزم قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- بل اسمي دولجوروكي فحسب، وأنا ابن غير شرعي لمولاي السابق السيد فرسيلوف.

كنت في الصف السادس حين اهتديت إلى هذا الجواب، وظننت بأنني كنت في ذلك فصيحاً غاية الفصاحة، ورغم أنني لم ألبث أن أدركت أن في هذا الجواب حماقة لا محل لها، فإنني لم أعدل عنه فوراً. أذكر أن أحد أساتذتي اكتشف - وهو الأستاذ الوحيد الذي اكتشف ذلك - أنني «ممتلئ النفس بفكرة الانتقام والتمرد». ويمكن أن أقول على وجه العموم إن الناس استقبلوا غضبي هذا بنوع من التأمل الجدّي الذي لا يخلو من إهانة لي. وقد اتفق أنّ أحد رفاقي، وهو فتى قصير القامة، سليط اللسان، لم أكن أخاطبه إلا مرة في العام، قال لي وقد لاح في وجهه تفكير عميق وأشاح بصره عني قليلاً:

- هذه المشاعر تشرفك طبعا، ولا شك في أن هناك ما يدعوك إلى الاعتزاز والفخر، ولكنني لو كنت في مكانك لما زهوت كثيراً بكوني ابن زنا.. لكأنك من هذا في عيد حقاً!

وأصبحت منذ ذلك الحين لا أباهي بأنني ولد غير شرعي.

أعود فأقول إن الكتابة باللغة الروسية أمر شاق جداً: لقد سوَّدت حتى الآن ثلاث صفحات من أجل أن أشرح كيف كان استيائي من اسمي طوال حياتي، ولا شك في أن القارىء قد خلص من هذا إلى اعتقاد بأن مرد غيظي إلى أنني لست أميراً، بل دولجوروكي فحسب. ولكنني لن أتدنى إلى حيث أشرح الأمر وأبرىء نفسي مرة أخرى.

- 4 -

بين ذلك العدد الكبير من الخدم كان هناك، عدا ماكار إيفانوف، فتاة كانت في نحو الثامنة عشرة من عمرها حين أظهر ماكار دولجوروكي،

Twitter: @ketab_n

فجأة، وهو في الخمسين من عمره رغبته في تزوجها. وأنتم تعلمون أن الزواج بين الأقنان الخدم (في عهد القنانة)[4] إنما يتم بموافقة الأسياد، وربما تم أحياناً بأوامر منهم. وكان يسكن في الضيعة أيامئذ سيدة يسميها الناس عمة، والحق أنها لم تكن عمة لي أو عمة أحد. لكنني لا أدري لماذا كان جميع الناس يسمونها على الدوام عمة، عمة على وجه العموم، حتى لدى أسرة فرسيلوف التي لعلها كانت تربطها بها صلات قرابة. إن اسمها تاتيانا بافلوفنا بروتكوفا. وكانت تملك هي أيضاً، في ذلك العهد، في تلك المنطقة نفسها، خمسة وثلاثين «نفساً»؛ وكانت بحكم الجوار تدير أملاك فرسيلوف (خمسمائة نفس) أو قل تشرف عليها؛ وكان هذا الإشراف، فيما قيل لي، يساوي إشراف أي وكيل من الوكلاء ذوي الخبرة. على أن معارفها هذه لا تهمني في شيء. وإنما أريد أن أضيف، متجنباً كل رغبة في المديح أو التملق، أن تاتيانا بافلوفنا هذه كانت مخلوقة نبيلة بل وأصيلة.

لم تعارض هذه السيدة رغبة ماكار دولجوروكي القاتم المزاج (قيل إن مزاجه كان قاتماً أيامئذ)، بل شجعته أكبر تشجيع. وكانت صوفيا أندرييفا (تلك الخادم التي كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وهي أمي) قد تيتمت منذ سنين؛ وكان أبوها المتوفى الذي كان يحترم ماكار دولجوروكي احتراماً عظيماً ويضمر له امتناناً كبيراً لا أدري ما مصدره، كان أبوها هذا قناً كذلك، فلما وافاه المرض قبل ست سنين، ورقد على سرير الموت، بل وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بربع ساعة فيما يدَّعي بعض الناس، حتى لقد كان يمكن أن تُعَدّ وصيته نتيجة من نتائج الهذيان لولا أنه قِنّ لا يملك أن يوصي بشيء، دعا إليه ماكار دولجوروكي وقال له أمام الناس وبحضور الكاهن، قال له بصوت عال وهو يومىء بيده إلى ابنته: «نشّئها

Twitter: @ketab_n

واتخذها زوجة لك». لقد سمع الناس جميعاً هذا الكلام. أما ماكار ايفانوف دولجوروكي فإنني لا أدري ما هي العواطف التي حملته على الزواج فيما بعد: أهو تزوج راغباً في هذا الزواج مبتهجاً به ابتهاجاً كبيراً، أم هو تزوج قياماً بواجب ووفاء بعهد؟ والسبب الثاني أكثر احتمالاً. لأنه أقبل على هذا الزواج بمظهر من لا يبالي الأمر ولا يكترث به. لقد كان رجلاً يعرف حتى في ذلك الحين كيف يظهر بالمظهر الذي يريده وهو على عدم درايته العميقة بالكتب المقدّسة وجهله، كان يحفظ الصلوات على ظهر القلب، (ويعرف خاصة تاريخ بدء حياة بعض القديسين، عن طريق السماع)، وكان ذا طبع عنيد وفي بعض الأحيان على جانب من جرأة ومجازفة. كان متغطرس الكلام، قاطع الأحكام، وكان يعيش «حياة كريمة فاضلة» على حد تعبيره الغريب. كذلك كان هذا الرجل في تلك الأيام. وكان طبيعياً أن يتمتع باحترام الناس كافة، ولكن يقال إن الناس كانوا في بعض الأحيان يستثقلون ظله ولا يطيقونه. غير أن كل شيء قد تغير حين ترك المنزل: فلم يتحدث عنه أحد بعد ذلك إلا حديثه عن قديس أو شهيد. ذلك كله أعرفه من مصدر موثوق.

أما أمي فقد احتفظت بها تاتيانا بافلوفنا قريبةً منها حتى السنة الثامنة عشرة من عمرها رغم إرادة الخطيب الذي كان يريد أن يعلِّمها في موسكو، فثقفتها بعض الشيء، علمتها الخياطة والتفصيل وآداب الحياة الاجتماعية بل علّمتها القراءة قليلاً. أما الكتابة فلم تتوصل أمي إلى إجادتها يوماً. وكان هذا الزواج بماكار إيفانوف أمراً مقرراً في نظرها منذ زمن بعيد، وكل ما وقع لها عندئذ قد بدا لها رائعاً وقيدت إلى الكنيسة طائعة مختارة، يبدو على وجهها أكبر هدوء يمكن أن يظهر على وجه فتاة في حالة كهذه، حتى أن تاتيانا بافلوفنا نفسها قد وصفتها حينذاك

Twitter: @ketab_n

بأنها أشبه بسمكة. إن تاتيانا بافلوفنا هذه هي التي أطلعتني على ما يتعلق بطبع أمي في ذلك العهد. وقد وصل فرسيلوف إلى أراضيه بعد هذا الزواج بستة أشهر تماماً.

- 5 -

لا أستطيع أن أحزر على نحو يرضيني كيف بدأت الأمور بينه وبين أمي. واني لأميل إلى تصديق ما أكده لي هو نفسه في العام الماضي محمرَّ الوجه، رغم أنه روى لي القصة كلها مسترسلاً منطلقاً «مرحاً»، فقال إن الأمر لم يكن حكاية طويلة، وإن كل شيء قد جرى من تلقاء نفسه هكذا. . أعتقد أن ذلك صحيح، وأن كلمة «هكذا» هذه كلمة موفقة رائعة. ورغم كل شيء فقد ظللت دائماً شديد الرغبة في أن أعرف كيف بدأ هذا الأمر. لقد كنت دائماً وما أزال أحتقر الأشياء القذرة. وطبيعي أن ما يؤجج في نفسي هذه الرغبة ليس من نوع الفضول السخيف. يجب أن أذكر لكم أنني حتى السنة الماضية لم أكن قد عرفت أمي تقريباً، فقد عُهِدَ بي إلى غرباء منذ نعومة أظفاري، من حرص فرسيلوف على تمتعه بالراحة وخلو البال (سأتكلم عن هذا فيما بعد)، ولذلك لا أستطيع أن أتصور كيف كان وجهها أيامذاك. ترى إذا لم تكن جميلة، فما الذي عساه أغرى بها رجلاً مثل فرسيلوف؟ تلك مسألة تهمني، لأن صورة شيقة ذات دلالة ترتسم من خلالها لهذا الرجل. ومن أجل هذا تراني ألقي ذلك السؤال، فأنا لا ألقيه من قبيل فساد الخلق أو الفضول. لقد قال لي هو نفسه، هذا الرجل القاتم المزاج المغلق النفس، قال لي بتلك السذاجة المحببة التي لا أدري من أين كان يخرجها (كمن يخرج منديلاً من جيبه) إذا رأى ضرورة لذلك، قال لي إنه كان في تلك الأيام «جرواً أبله»، ولم يكن عاطفياً بمعنى الكلمة،

Twitter: @ketab_n

وأنه كان قد قرأ منذ قليل قصة «أنطوان المسكين» وقصة «بولينا ساكس»[5]، وهما كتّابان أدبيان أثّرا في الجيل الجديد تأثيراً حضارياً لا يقدر مداه. وأضاف أنه لعله قد عاد إلى الريف مدفوعاً بتأثير «أنطوان المسكين»، قال ذلك جاداً أكبر الجد. فعلى أي صورة استطاع هذا «الجرو الأبله» أن ينشىء علاقة بينه وبين أمي؟ يخطر ببالي في هذه اللحظة أنه لو كان هناك قارىء يقرأ هذا الكلام الذي أكتبه لانفجر يضحك عليَّ حتماً، ولعدَّني مراهقاً مضحكاً لا يزال يحتفظ ببراءته الغبية ويتجرأ على مناقشة أمور لا يفهم منها شيئاً البتة! وهذا صحيح، فإني ما زلت لا أفهم من هذه الأمور شيئاً، وأنا أعترف بذلك بلا فخر ولا اعتزاز، لأنني أعرف أن فقدان التجربة هذا أمر سخيف لدى شاب في الحادية والعشرين من عمره، ولكنني سأقول لذلك السيد القارىء إنه هو أيضاً لا يفهم في هذه الأمور شيئاً، وسأبرهن له على ذلك. صحيح أنني لا أعرف عن شؤون النساء شيئاً، ولا أريد أن أعرف شيئاً أيضاً، وسأظل استخف بهذا ما حييت، فقد آليت على نفسي أن لا أحفل به، ولكنني أعرف مع ذلك أنه رب امرأة تفتنك بجمالها أو بما لا أدري، في طرفة عين؛ ورب امرأة أخرى لا بد لك من ستة أشهر حتى تعرف مصدر السحر وأن ترى هذا السحر. فهذه المرأة الثانية، إذا أردت أن تراها كاملة وأن تحبها لا يكفي أن تنظر إليها، ولا يكفي أن تكون مستعداً للإقدام على أي شيء، وإنما ينبغي لك أن تكون موهوباً بشيء آخر. إنني من ذلك على يقين رغم أنني لا أعرف شيئاً، وإلا كان يجب أن ننزل جميع النساء إلى منزلة الحيوانات الداجنة وأن لا نحتفظ بها لدينا إلا على هذه الصورة. ولعل هذا ما يتمناه كثير من الناس.

وأنا أعلم من عدة مصادر أن أمي لم تكن على حظ كبير من الجمال، رغم أنني لم أرَ صورتها التي ترجع إلى ذلك العهد يوماً، وهي صورة

Twitter: @ketab_n

موجودة في مكان ما. فمن المستحيل إذاً أن يفتن المرء بها من أول نظرة. كان في وسع فرسيلوف لو أراد «التسلية» وحدها أن يختار امرأة أخرى، وكان هنالك امرأة أخرى فعلاً، بل فتاة عذراء هي آنفيزا كونستانتينوفنا سابوجكوفا، التي كانت تعمل وصيفة في المنزل. أضف إلى ذلك أن رجلاً يصل إلى هناك قارئاً «أنطوان المسكين» كان لا بد أن يرى، أن محاولته، بحكم قوانين الأسياد، في إغراء امرأة هي زوج قن من أقنانه شيء معيب. إنه منذ أقل من بضعة أشهر، أي بعد عشرين عاماً انقضت على ذلك العهد، كان لا يزال يتحدث عن أنطوان المسكين حديثاً يبلغ غاية الجد، مع أن ما سُلب من أنطوان كان حصانه لا زوجته! فلا بد أنه قد حدث إذاً يومئذ شيء خاص جعل الآنسة سابوجكوفا تخسر القضية (وأنا أعتقد أنها ربحتها). لقد أتيح لي مرة أو مرتين، في السنة الماضية (ولم يكن في الإمكان التحدث إليه كل يوم) أن ألقيت عليه هذه الأسئلة جميعها، فلاحظت أنه رغم لباقته كلها، ورغم انقضاء عشرين سنة على ذلك العهد، كان يجيب بعدم ارتياح. ولكنني وصلت إلى غاياتي؛ أو قل، على الأقل، أنه بمظهر الاشمئزاز المتكبر الذي يلازم ممثلي المجتمع الراقي والذي كان يبيحه لنفسه معي في كثير من الأحيان، قد ثرثر يوماً في أمور غريبة. فقال إن أمي كانت من تلك النساء التي لا تعرف كيف تدافع عن نفسها، ولا يمكن للمرء أن يحبها، كلا، على العكس، ولكن ما تلبث على حين فجأة أن يشعر المرء نحوها بشفقة، لا يدري لماذا، لعلّها عذوبتها، مع أن أحداً لا يدري أبداً «لماذا؟». ولكن الشفقة تدوم وتبقى، وبهذه الشفقة يتحقق ارتباط. . «وأوجز لك الكلام يا صغيري فأقول إنه ليتفق للمرء أن يصبح عاجزاً عن الانفصال». ذلك ما قاله لي. فإذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فعلاً، كنت مضطراً أن أرى فيه امرءاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عن

Twitter: @ketab_n

«ذلك الجرو الغبيّ»، الذي يصف به نفسه الآن مشيراً إلى ذلك الوقت. هذا ما كنت أسعى إليه. وقد أكد لي بعد ذلك أن أمي أحبته عن «مذلة» حتى لقد أوشك أن يقول إنها أحبته و«أطاعته طاعة العبيد»! ولقد كذب! كذب من قبيل التأنق، كذب على ضميره، كذب على الشرف وعلى كرم النفس وسماحة الخلق.

رُبَّ قائل يقول إنني أكتب هذا على سبيل إزجاء المديح لأمي، ولكنني سبق أن أعلنت أنني أجهل جهلاً مطلقاً كيف كانت أمي في ذلك الوقت. وأكثر من ذلك أنني أعلم حق العلم ظلام البيئة وسخافة الأفكار التي تعفنت فيها منذ طفولتها وعاشت وسطها طوال حياتها. وقد وقع البلاء على كل حال. يجب أن أبادر، في هذه المناسبة، إلى بعض التصحيح: لقد تهت بين السحب ونسيت أمراً كان ينبغي في الواقع أن أبرزه قبل أي شيء آخر: وهو أن الأمور بينهما قد بدأت بوقوع البلاء رأساً (أرجو أن لا يتظاهر القارىء بأنه لا يفهم على الفور ما أريد أن أقوله). أعني أن البداية جرت على طريقة أصحاب الأملاك ولو أنّ الآنسة سابوجكوفا قد تُركت جانباً. ويجب أن أتدخل هنا فأعلن أن كلامي هذا لا يناقض ما سلف. في أي شيء، يا رب، كان يمكن أن يتحدث رجل مثل فرسيلوف إلى امرأة كأمي حتى ولو كان الأمر أمر حب لا سبيل إلى مقاومته؟ لقد سمعت رجالاً فاسقين يقولون إنه ليتفق في كثير من الأحيان لرجل يواجه امرأة أن يبدأ الفعل دون أن يقول كلمة واحدة، وواضح أن هذا منتهى الشذوذ، وأنه يثير أقصى الاشمئزاز. وعندي مع ذلك أن فرسيلوف ما كان له أن يبدأ غير هذه البداية مع أمي ولو أراد. أكان يستطيع أن يبدأ بأن يشرح لها «بولينا ساكس»؟ ولكن الأدب الروسي لم يكن يهمها في شيء. وعلى حد تعبيره هو (حين كشف عن نفسه أمامي ذات يوم)، كانا يختبئان في الزوايا والأركان،

Twitter: @ketab_n

ويتربص أحدهما بالآخر على السلالم، حتى إذا مر بهما أحد وثبا بعيداً كوثوب كرتين، وقد احمرا خجلاً؛ وكان «الطاغي» يرتجف ويرتعش أمام أية كناسة تكنس الأرض، رغم ما له من حقوق الإقطاعي. وإذا كانت الأمور قد بدأت على طريقة أصحاب الأملاك، فقد استمرت على هذا النحو، ولكنها لم تبق كذلك تماماً؛ والحق أنه ليس لهذا تفسيرات يجب البحث عنها، فأمثال هذه التفسيرات لا يمكن إلا أن تزيد الظلمات كثافة. إن الأبعاد التي بلغها حبهما هي في حد ذاتها لغز، لأن الشرط الأول لدى أناس مثل فرسيلوف هو أن يتركوا المرأة، متى حققوا هدفهم منها. لكن الأمور تمت على غير هذا النحو. فلأن يزني امرؤ بامرأة جميلة ناقصة العقل من الأقنان (ولم تكن أمي ناقصة العقل على كل حال) فذلك أمر هو في نظر «كلب صغير» فاسق (ولقد كانوا جميعاً فاسقين، من أولهم إلى آخرهم، تقدميين ورجعيين على السواء) فذلك أمر ليس ممكناً فحسب، بل هو أمر لا مناص منه أيضاً، لا سيما إذا تذكرتم وضع أبي من حيث أنه ترمَّل شاباً ومن حيث أنه عاطل لا يعمل شيئاً. أما استمرار الحب مدى الحياة فأمر خارق. ولست أضمن أنه أحبها على كل حال، ولكنني أعلم واقعة ثابتة هي أنه جرها وراءه طوال حياته.

لقد ألقيت أسئلة كثيرة، إلا أن بين هذه الأسئلة سؤالاً هو أهمها جميعاً، لم أجرؤ أن أطرحه على أمي طرحاً قاطعاً، رغم أنني تقربت إليها كثيراً في السنة الماضية، ورغم أنني بفظاظتي وعقوقي وشعوري بأنني مجني عليَّ لم أتحرج معها قط. ذلك السؤال هو كيف أمكنها، هي المتزوجة قبل ستة أشهر، هي التي تسحقها معاني قداسة الزواج سحق ذبابة، هي التي كانت تكن إجلالاً لزوجها ماكار إيفانوفتش لا أقل من إجلالها لله، كيف أمكنها، بعد ما لا يزيد على أسبوعين، أن تسقط في خطيئة كهذه الخطيئة؟ ثم إنها لم تكن امرأة منحرفة عن الصراط،

Twitter: @ketab_n

بالعكس، حتى ليمكنني أن أقول، مستبقاً الأمور، إن من الصعب على المرء أن يتصور نفساً ظلت طاهرة مدى الحياة كنفسها. فليس هناك من تفسير إذاً إلا أن نقول إنها فعلت ما فعلته على غير وعي منها ولا شعور، لا بالمعنى الذي يستعمله المحامون في هذه الأيام حين يصفون بذلك موكليهم من القتلة واللصوص، بل بالمعنى الذي يصدق على انفعال من تلك الانفعالات العارمة التي تعصف بضحية ساذجة فتدنيها من الفاجعة. ومن يدري مع ذلك: لعلها أحبت حباً شديداً. . . أحبت تفصيلة ملابسه وفرقة شعره على طريقة أهل باريس، أو نطقه الفرنسي (نعم، الفرنسي) الذي لم تكن تفهم منه شيئاً، أو اللحن العاطفي الذي عزفه على البيانو، لقد أحبت شيئاً لم تر مثله في حياتها (وكان رجلاً بارع الجمال)، ثم أحبته كله إلى حد التهالك والسقوط. لقد سمعت من يقول إن هذا كان يقع أحياناً للفتيات من الخدم في عهد القنانة، بل كان يقع مثله لأكثرهن تمسكاً بأهداب الشرف. وإني لأفهم ذلك وأعتبر من الخطأ ردّ ذلك إلى نظام القنانة و«المذلة» وحدهما! وأغلب الظن أن هذا الرجل كان يملك من القوة ومن الإغراء ما يكفي لاجتذاب مخلوقة كانت حتى ذلك الحين بريئة تلك البراءة كلها، وكانت على وجه الخصوص غريبة تلك الغرابة كلها عن طبيعته، آتية من عالم يختلف عن عالمه كل الاختلاف، ومن أرض تختلف عن أرضه كل الاختلاف، فسارت إلى هوة واضحة لا ريب فيها. أما أن السير كان إلى هوة فأحسب أن أمي أيضاً قد فهمت ذلك ولكنها كانت تمضي نحو الهوّة من دون أن تفكّر. إن هذه المخلوقات التي لا تملك قوة الدفاع عن نفسها متشابهة متماثلة: تعرف أن الهوة تنتظرها هناك، لكنها تجري إليها لا تلوي على شيء.

وما إن ارتكبا الخطيئة حتى استبدت بهما الندامة. وقد روى لي أبي

Twitter: @ketab_n

متندراً كيف أنه أجهش يبكي على كتف ماكار إيفانوفتش حين دعاه إلى مكتبه خصيصاً لهذا الأمر، بينما كانت هي في ذلك الوقت. . . راقدة في مكان ما، مغشياً عليها في حجرتها الصغيرة، حجرة الخادم القن. . .

– 6 –

ولكن حسبي كلاماً على هذه المسائل وعلى هذه التفاصيل الفاضحة. لقد اشترى فرسيلوف أمي من ماكار إيفانوف، وأسرع ماضياً بها، مصطحباً إياها منذ ذلك الحين، كما قلت من قبل، إلى كل مكان تقريباً، إلا إذا غاب غيبة طويلة؛ فكان عندئذ يعهد بها في أكثر الأحيان إلى العمة، أي إلى تاتيانا بافلوفنا بروتكوفا التي لا تُفتقد قط في مناسبات كهذه المناسبات. لقد أقاما مدداً في موسكو، وأقاما مدداً في مقاطعات أخرى أو في مدن أخرى، بل أقاما مدداً في خارج روسيا أيضاً، ثم أقاما أخيراً في بطرسبرج. وسأتحدث عن هذا فيما بعد، أو قد لا أتحدث عنه البتة، ولكنني أقول إنني ولدت بعد زواج ماكار إيفانوفتش بسنة؛ وبعد سنة أخرى ولدت أختي؛ وبعد عشر سنين أو إحدى عشرة سنة ولد أخي الأصغر وهو صبي ممراض مات بعد بضعة أشهر. وكان من شأن هذه الولادات الأليمة أن أفقدت أمي جمالها، أو هذا ما قيل لي على الأقل: لقد بدأ الهرم والضعف يدبان إليها سريعين.

ولكن العلاقات بماكار إيفانوفتش لم تنقطع يوماً. فحيثما يحل آل فرسيلوف، سواء أأقاموا عدة سنين متتالية في مكان واحد أم سافروا متنقلين من مكان إلى مكان، فإن ماكار إيفانوفتش كان لا يفوته أن يكتب إلى «الأسرة» يبلغها أنباءه. وهكذا نشأت علاقات غريبة يختلط فيها شيء من التكلف بشيء من الجد. وإني لأعلم أنه لو كان الأمر بين أسياد لمازج ذلك حتماً عنصر كوميدي. ولكن لم يحدث شيء من ذلك

Twitter: @ketab_n

في الحالة التي نحن بصدد الكلام عليها. كانت الرسائل تصل مرتين في العام، لا أكثر من ذلك ولا أقل؛ ومن الغريب أنها كانت متشابهة تشابهاً عجيباً. لقد أتيح لي أن أرى هذه الرسائل، فوجدت إنها لا تكاد تشتمل على شيء شخصي، ولا تكاد تضم إلا أخباراً عن أحداث عامة جداً وعواطف عامة جداً، إن صح أن توصف العواطف بمثل هذا: كانت تلك الرسائل تتضمن أنباء عن صحة مرسلها وأسئلة عن صحة الأشخاص المرسلة إليهم، وتحتوي على تمنيات وتحيات وتبريكات مهذبة، ثم لا شيء عدا ذلك البتة.. وأعتقد أن هذا الاقتصار على الأمور العامة، وهذا الابتعاد عن الشؤون الشخصية هي في تلك البيئة لهجتها اللبقة وآدابها الاجتماعية: «إلى زوجتنا العزيزة المحترمة صوفيا آندرييفنا، نبعث بأخلص تحياتنا المتواضعة»... «إلى أولادنا الأعزة أعبِّر عن رضاي ومباركتي التي لن يفسدها الدهر». ثم يعقب ذلك ذكرُ أسماء الأولاد على ترتيب أعمارهم وأنا منهم. ويجب أن أشير هنا إلى أن ماكار إيفانوفتش كان يملك من حصافة الرأي ما يكفي لأن لا ينعت «صاحب النبالة السيد المحترم أندريه بتروفتش» بصفة «المحسن إليه»، ولكنه كان لا يغفل في أي رسالة من رسائله أن يبعث إليه بخالص تحياته المتواضعة وأن يسأله الرضى عنه، وأن يطلب له من الله دوام نعمته عليه. وكانت أمي تسارع إلى الرد على رسائله، وتكتبها دائماً بنفس أسلوب ماكار إيفانوفتش، وكان فرسيلوف لا يشارك بالطبع في هذه المراسلة. وكان ماكار إيفانوفتش يبعث برسائله من جميع أركان روسيا، من المدن التي يكون فيها، ومن الأديرة التي يقيم بها زمناً طويلاً في بعض الأحيان. لقد أصبح ماكار إيفانوفتش جوَّاباً يضرب في الأرض ولا يستقر في مكان. وكان لا يطلب في يوم من الأيام شيئاً البتة. لكنه كان يجيء إلى البيت مرة كل ثلاث سنين بلا

Twitter: @ketab_n

تخلف، فيتلبث قليلاً عند أمي التي كان لها منزل خاص بها دائماً، مستقل عن منزل فرسيلوف. سوف أعود إلى الكلام على هذا الأمر فيما بعد. وحسبي أن أذكر الآن أن ماكار إيفانوفتش لم يكن يسترخي على مقاعد الصالون الوثيرة، بل كان يقيم في مكان ما وراء حاجز من الحواجز متواضعاً. وكان لا يمكث مدة طويلة: فما هي إلا خمسة أيام أو أسبوع حتى يرحل.

نسيت أن أقول إنه كان يحب كثيراً ويحترم كثيراً اسمه، «دولجوروكي». ومن الواضح أن هذا منه سخف مضحك. وأسخف ما في الأمر أن هذا الاسم إنما يعجبه ويرضيه لأن هناك أمراء يسمون دولجوروكي. ألا ما أعجبه من تصور هو نقيض ما يوحي به الحس السليم!

قلت إن الأسرة كانت مجتمعة الشمل دائماً، ولكن بدوني طبعاً. كنت كمن رُمِي خارج السفينة، فما كدت أولد حتى عُهِدَ بي إلى غرباء. ولم يكن ذلك مقصوداً متعمداً، فحين ولدتني أمي كانت لا تزال شابة جميلة، وكانت إذن تنفع فرسيلوف نفعاً ما، ولا بد أن يزعجه أن يصحبهما طفل صغير كثير الصراخ، وخاصة أثناء الأسفار. فذلكم هو السبب في أنني بلغت من عمري العام العشرين دون أن أرى أمي تقريباً، فيما عدا مناسبتين أو ثلاث مناسبات عارضة. ولم تكن عواطف أمي هي السبب في ذلك، وإنما كان السبب في ذلك تكبّر أبي على الناس.

— 7 —

والآن سأتناول شيئاً آخر تماماً.

منذ شهر، أي قبل اليوم التاسع عشر من أيلول، قررت وأنا في موسكو أن أعدل عنهم جميعاً وأن أنطوي على «فكرتي» انطواء نهائياً.

Twitter: @ketab_n

وإذا كنت أكتب هذه العبارة «أن أنطوي على فكرتي نهائياً» فلأن هذا التعبير يمكن أن يصوّر كامل رأيي الأساسي تقريباً أي ما هو هدفي في الحياة. أما ما هي «فكرتي» فسوف أتحدث عنها فيما يلي من صفحات هذا الكتاب، بل سوف أسهب في الحديث عنها. لقد تكونت فكرتي هذه أثناء وحدتي الحالمة سنين طويلة من حياتي بموسكو منذ أيام الدراسة حتى حين كنت في الصف السادس، ثم لم تتركني بعد ذلك ربما لحظة واحدة، بل ابتلعت وجودي كله ابتلاعاً. ولقد كنت أعيش في الأحلام أيضاً قبل أن تنبت هذه الفكرة في نفسي، فإنني قد عشت في عالم مسحور نوعاً ما، منذ طفولتي الغضة، غير أن أحلامي، حين بزغت في نفسي هذه الفكرة الأساسية التي التهمتني التهاماً، قد اشتدت وترسخت واكتست على الفور صورة محددة، فإذا هي أحلام عاقلة بعد أن كانت أحلاماً سخيفة. إن المدرسة الثانوية التي تابعت فيها دراستي لم تكن تمنع أحلامي، ولا هي منعت بعد ذلك فكرتي. ولكنني أحب أن أضيف إلى ذلك أن السنة الأخيرة التي قضيتها في المدرسة كانت سنة سيئة، على أنني كنت خلال سائر السنين السبع متفوقاً أحتلّ بين رفاقي أولى المراتب؛ وذلك يرجع إلى فكرتي تلك نفسها، والى النتيجة التي استخرجتها منها والتي لعلها كانت خطأ. وهكذا فإن المدرسة لم تعرقل الفكرة، غير أن الفكرة عرقلت المدرسة. وقد عرقلت الجامعة أيضاً. ذلك أنني منذ أنهيت دراستي الثانوية عزمت أمري لا على قطع صلتي بأهلي قطعا حاسما فحسب، بل كذلك صلتي بالعالم كله إذا اقتضى الأمر، رغم أنني كنت آنذاك دخلت في العشرين من عمري فقط. فكتبت إلى الأشخاص المعنيين في بطرسبورج، طالباً أن يدعوني وشأني نهائياً، وأن لا يرسلوا إليَّ بعد الآن مالا لمعيشتي، وأن ينسوني نسياناً كاملاً إذا أمكن الأمر (هذا إذا خطرتُ ببالهم طبعاً)، وقائلاً إنني لن

Twitter: @ketab_n

أدخل الجامعة «قطعاً بحال من الأحوال». ذلك أنني كنت أمام أمرين لا ثالث لهما، ولا بد أن أختار أحدهما: فإما أن أدخل الجامعة وأتابع دراستي فأرجىء الشروع في تنفيذ فكرتي أربع سنين وإما أن لا أدخل الجامعة. وقد اخترت الثانية بغير تردد، لأنني كنت مقتنعاً بذلك اقتناعاً رياضياً. وجاءني ردُّ فرسيلوف، أبي الذي رأيته طوال حياتي مرة واحدة خلال لحظة قصيرة حين كنت في العاشرة (والذي اتسع وقته في تلك اللحظة لأن يذهلني) أقول جاءني رد فرسيلوف على رسالتي التي لم أوجهها إليه بالمناسبة، يدعوني، ببطاقة كتبها بخط يده، أن أجيء إلى بطرسبرج؛ ويعدني بوظيفة لدى «شخص». إن هذه الدعوة التي تصلني من رجل جاف المزاج متكبر الطبع صلف الخلق، من رجل أهملني هذا الإهمال كله، ولم يكتف، بعد أن جاء بي إلى هذه الحياة وعهد بي إلى غرباء، بأن لا يعرفني بعد ذلك؛ بل لم يشعر أيضاً بشيء من ندامة على ما جنت يداه (ومن يدري فلعله كان خالي البال إلا من فكرة غامضة عن وجودي، لأنه، وقد ثبت هذا بعدئذ، لم يكن هو الذي ينفق على معيشتي بموسكو، بل كان يتولى ذلك آخرون)؛ أقول إن هذه الدعوة التي تصلني من هذا الرجل الذي تذكّرني على حين فجأة وشرفني بتوجيه رسالة إليَّ كتبها بخط يده، قد دغدغت غروري فحددت مصيري. هناك شيء غريب: إن ما أعجبني في هذه البطاقة، من بين ما أعجبني فيها، (وكانت صفحة قصيرة على ورقة صغيرة) هو أنه لم يذكر الجامعة بكلمة واحدة، ولم يسألني أن أغير رأيي، ولا أخذ عليَّ أنني لا أريد أن أتابع دراستي، أي إنه لم يعمد إلى شيء من ذلك الكلام الكثير الذي أَلِف الآباء أن يزجوه لأبنائهم معاداً مكروراً في مثل هذه الحالات. ومع ذلك فإن هذا بعينه هو ما كان سيئاً منه، لأنه شاهد جديد على أنه لا يحفل بي ولا يكترث بأمري. وقررت أن أسافر لسبب آخر أيضاً، هو أن هذا

Twitter: @ketab_n

السفر لن يعوق حلمي الأساسي. قلت لنفسي: «سنرى ما يحدث. ولن أرتبط بهم إلا زمناً على كل حال، زمناً قد يكون قصيراً جداً. فمتى لاحظت أن هذه الخطوة، على محدوديتها وتفاهتها، ستصرفني عن الأمر الأساسي، قطعت صلتي بهم فوراً، وتركت كل شيء عائداً إلى قوقعتي»، نعم إلى قوقعتي! «اختبأت هنالك كسلحفاة». ووقع هذا التشبيه في نفسي موقع الإعجاب الشديد. «ولن أكون وحيداً»، كذلك استمررت أجري حساباتي راكضاً من أقصى موسكو إلى أقصاها في تلك الأيام الأخيرة. «لا لن أكون وحيداً، كما كنت حتى الآن خلال هذه الأعوام الرهيبة كلها: بل ستصحبني فكرتي التي لن أخونها يوماً، ولو أعجبوني جميعاً هنالك، ولو وهبوا لي السعادة، ولو عشت معهم عشر سنين!» وأستبق الأمور فأقول: هذا هو الشعور الذي خالط نفسي وهذا هو ازدواج الخطط الذي نشأ في ذهني وأنا بموسكو ثم لم يبارحني لحظة واحدة ببطرسبرج (لا أدري هل مرَّ بي، وأنا في بطرسبرج، يوم واحد لم أحدد لنفسي فيه أجَل قطيعتي معهم ومغادرتي بطرسبرج). وأعتقد أن هذا الازدواج كان السبب فيما اندفعت إليه من تهور أثناء تلك السنة، وفيما قارفت من أمور بشعة، بل حتى دنيئة، ناهيك طبعاً عما ارتكبت من حماقات.

والحق يقال، لقد ظهر في حياتي على حين غرة أب لم يكن يوجد قبل ذلك. وأسكرتني هذه الفكرة أثناء استعدادي للسفر بموسكو، وأثناء ركوب القطار إلى بطرسبرج. أن يكون لي أب فذلك لم يكن إلى ذلك الحين شيئاً، وما أنا ممن يحبون الحنان والدلال، ولكن هذا الرجل لم يشأ أن يعرفني، حتى لقد أذلني؛ على حين أنني كنت طوال تلك الأعوام كلها لا تنصرف أحلامي إلا إليه، حتى لأبلغ من ذلك حد الشبع (إذا صح أن توصف الأحلام بمثل هذا). كان كل حلم من أحلامي منذ

Twitter: @ketab_n

طفولتي يتجه إليه ويحوم حوله ويرتد آخر الأمر نحوه. لا أدري أكنت أكرهه أم كنت أحبه، ولكنه كان يملأ مستقبلي كله، وكان يملأ جميع تنبؤاتي عن الحياة، وقد جاءني هذا الشيء من تلقاء نفسه، وكان يقوى مع تقدمي في السن يوماً بعد يوم.

وهناك ظرف قوي كان له أيضاً أثر كبير في سَفري من موسكو. إن ثمة إغراء كان قد قام في نفسي قبل سفري بثلاثة أشهر (ومعنى هذا قبل أن ترد مسألة السفر إلى بطرسبرج)، فارتعش له قلبي وخفق! إن ما كان يجذبني إلى ذلك الخضمّ المجهول هو أنني كنت أستطيع أن أدخل إليه سيداً، وأن أحكم فيه مصير غيري. وأي غير! وأبادر فأقول سلفاً، حتى لا يوقع كلامي القارىء في الخطأ، أن عواطف نبيلة لا مشاعر طاغية هي التي كانت تغلي في نفسي. أضف إلى ذلك أن فرسيلوف كان يمكن أن يقدِّر (إذا هو تنازل وفكّر في أمري) أن يستقبلني استقبال فتى صغير خرج أمس من المدرسة الثانوية، استقبال مراهق غُرّ تحملق عيناه حين يرى العالم. ولكنني كنت أعلم كل ما في جوفه، وكنت أملك في عبي وثيقة خطيرة كل الخطورة، وثيقة لا يتردد أن يهب عدة سنين من عمره (وأنا أعلم الآن ذلك علم اليقين) في سبيل أن أطلعه على سرها آنذاك. على أنني ألاحظ أنني أتكلم في ألغاز وأحجيات. إن من المستحيل على المرء أن يصف عواطف دون أن يذكر وقائع. وسوف يجري الحديث عن كل هذا تفصيلاً في حينه، ومن أجل ذلك إنما أمسكت بالقلم. أما إذا كتب المرء بهذه الطريقة، فكأنه يهذي أو كأنه يسبح في الغيوم.

- 8 -

من أجل أن أصل أخيراً إلى اليوم التاسع عشر من شهر أيلول سأذكر، موجِزاً وعابراً، أنني قد وجدتهم جميعاً، أعني فرسيلوف، وأمي،

Twitter: @ketab_n

وأختي (التي أراها أول مرة في حياتي) على حالة أليمة من الفاقة والعوز، فهم يعيشون فيما يشبه البؤس أو هم يوشكون أن يصبحوا على البؤس في غد قريب. كنت قد عرفت ذلك بموسكو، ولكنني لم أتوقع أن أرى ما رأيته. لقد تعودت منذ طفولتي أن أتصور هذا الرجل، (أعني أبي في المستقبل) عظيم المهابة كأنه هالة لألاءة؛ ولم أكن أستطيع أن أتخيله إلا محتلاً أولى المراكز بين الناس. إن فرسيلوف لم يسكن يوماً مع أمي، فكان يستأجر لها منزلاً خاصاً: ولا ريب في أنه كان يفعل هذا ترفّقاً واحتشاماً. أما الآن فهم يقيمون جميعاً في منزل واحد هو جناح خشبي في شارع صغير من حي سيمينوفسكي. وكان أثاث المنزل كله قد رُهن، حتى لقد اضطررت أن أعطي أمي على غير علم فرسيلوف، الروبلات الستين السريّة التي كانت معي: أقول سرية لأنها حصيلة ما كنزته من مصروفي الذي كنت أُعطاه خمسة روبلات في الشهر على مدى سنتين: ولقد بدأت أكنز هذا الكنز منذ بزغت «فكرتي» في رأسي. لذلك كان يجب إلا يعرف فرسيلوف شيئاً عن هذا المبلغ.

ولم تكن هذه المساعدة التي قدمتها لأمي إلا قطرة في خضمّ. لقد كانت أمي وأختي تقومان بأعمال خياطة. أما فرسيلوف فكان يعيش عاطلاً، كثير النزوات، ولا يزال يحتفظ بطائفة كبيرة من عادات تقتضي نفقات باهظة. كان صعب المراس كثير المطالب، ولا سيما على المائدة، وكانت جميع حركاته وسكناته تدل على أنه طاغية. ولكن أمي وأختي وتاتيانا بافلوفنا وجميع أفراد أسرة المرحوم آندرونيكوف (وهو مدير مكتب في إحدى الدوائر توفي منذ ثلاثة أشهر وكان يعالج أمور فرسيلوف) وهم عدد لا نهاية له من النساء، كان هؤلاء جميعاً يركعون أمامه ركوعهم أمام تمثال معبود. كنت لا أستطيع أن أتصور منظراً كهذا المنظر. يجب أن أقول إنه كان منذ تسع سنين أرق حاشية وأشد فتنة.

Twitter: @ketab_n

لقد سبق أن قلت إنه كان يبدو لي في أحلامي هالة لألاءة، لذلك صعب عليَّ أن أعتقد أن يكون الهرم والبلى قد دبَّا إليه في مدى سنين تسع لا أكثر، فسرعان ما شعرت من ذلك بحزن وشفقة وخجل. حتى إن رؤيتي إياه أول وصولي قد أحدثت في نفسي شعوراً كان من أقسى ما أحسست به من عواطف في ذلك اليوم. أنه لم يكن شيخاً، فهو لا يزال في الخامسة والأربعين لم يتجاوزها. وحين أنعمت النظر فيه اكتشفت في جماله شيئاً يخطف البصر أكثر من كل ما احتفظت به ذاكرتي من ملامح جماله. صحيح أنه أصبح أقل تألقاً، وأبسط مظهراً، وأدنى أناقة، ولكن الحياة قد نقشت على وجهه ما فيها من تعقيدات، فأضفت عليه معاني جديدة.

ومع ذلك كان الفقر أيسر هموم فرسيلوف قاطبة. لقد عرفت هذا حق المعرفة. كان هنالك، عدا الفقر، أشياء أعظم شأناً وأكثر أهميّة، ناهيك عن الأمل الذي لا يزال يحتفظ به، وهو أن يكسب الدعوى التي أقيمت منذ عام، والتي سيفصل فيها القضاء بينه وبين الأمراء سوكولسكي بشأن ميراثه، والتي قد تجيئه بعد زمن قصير بأملاك يقدَّر ثمنها بسبعين ألف روبل، وربما قُدِّر بأكثر من ذلك. سبق أن قلت إن فرسيلوف هذا كان قد أتلف في حياته ثلاثة مواريث: فلعله سيُنقذ مرة أخرى بميراث جديد! والمفروض أن يتم الفصل في القضية وصدور الحكم قريباً جداً. وقد وصلت إليهم وهم على هذا الأمل يحيون. غير أن أحداً لا يقرض مالاً بالاستناد إلى أمل، فلم يكن هنالك من يستطيعون الاقتراض منه، فكانوا يعانون من العذاب ما يعانون بانتظار أن يأتي الفرج.

على أن فرسيلوف لم يكن يذهب إلى أحد يلتمس منه العون والوساطة، رغم أنه كان يقضي نهاره كله خارج المنزل في كثير من الأحيان. لقد طُرد من المجتمع الراقي منذ ما يزيد على عام. وقد ظللت

Twitter: @ketab_n

عاجزاً عن تفسير هذا الأمر رغم جميع ما بذلت من جهود، ورغم انقضاء شهر بكامله على إقامتي ببطرسبرج. أكان فرسيلوف مذنباً أم لا؟ ذلك ما كان يهمني أن أعرفه. وذلك ما جئت من أجله! لقد أدار الناس كافةً ظهورَهم له ومنهم جميع الشخصيات التي تملك نفوذاً والتي استطاع أن يكون له بها صِلات سابقة وذلك بسبب إشاعات ذاعت عن سلوك شائن سلكه في ألمانيا قبل ذلك بعام، بل عن سلوك فاضح إلى أقصى حد، وذلك في نظر «المجتمع الراقي» أنكى وأدهى؛ حتى لقد قيل إنه تلقى يومئذ على مشهد من الناس صفعة كالها له أمير من الأمراء سوكولسكي، ثم لم يردَّ هو عليها بأي تحد. فحتى ولداه (الشرعيان)، ابنه وابنته، أدارا له ظهريهما وأشاحا وجهيهما، وعاشا منفصلين عنه. ولقد كان هذا الابن وهذه البنت يختلفان إلى أرقى المجتمعات بواسطة أسرة فاناريوتوف وبواسطة الأمير العجوز سوكولسكي (صديق فرسيلوف سابقاً). ولكنني حين أنعمت النظر في الرجل خلال هذا الشهر، رأيته إنساناً عزيز النفس متكبر الطبع لم يبعده المجتمع بل أبعد هو المجتمع فالى هذا الحد كان يظهر بمظهر الاستقلال! ولكن هل كان يحق له أن يظهر بهذا المظهر؟ ذلك ما كان يشغل بالي ويقلق نفسي! وكان عليَّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملةً في أقصر مدة، لأنني إنما جئت لأقطع برأي في الرجل. كنت ما أزال أخفي عنه قواي، ولكن كان عليَّ أن أتخذ أحد موقفين: فإما أن أرتضيه، وإما أن أرفضه وأنبذه نبذاً كاملاً. وكان الحل الثاني سيؤلمني أشد الألم، لذلك كنت في عذاب وقلق. وسأعترف الآن بشيء: لقد كان هذا الرجل عزيزاً على نفسي!

وأثناء ذلك أقمت معهم حتى الآن في ذلك المنزل نفسه، وكنت أعمل، وكان يصعب عليّ أن أمنع نفسي عن بعض الفظاظات. بل كنت لا أمتنع عنها تماماً.

Twitter: @ketab_n

وبعد انقضاء شهر أصبحت ازداد اقتناعاً، يوماً بعد يوم، بأن التفسير النهائي يجب أن أنشده لديه هو. لقد كان هذا الرجل الصلف ينتصب أمام عينيَّ لغزاً يحير عقلي ويجرح نفسي جرحاً عميقاً. كان هو معي ملاطفاً مدارياً، أما أنا فكنت معه أَمَيل إلى المشاجرات مني إلى الملاطفات والأمازيح. كانت جميع أحاديثي معه تشتمل على شيء من الالتباس، أو تشتمل في أقل تقدير على نوع من سخرية غريبة من جانبه. إنه منذ البداية، أي منذ وصولي من موسكو، لم يأخذني مأخذ الجد. ولم أستطع أن أفهم لماذا كان يعاملني على هذا النحو. لعله كان قد اقتنع بأنه من الضروري أن يظل مستغلقاً على فهمي. ولكنني، من جهتي، كنت أرفض أن أتنازل فأسأله أن يعاملني بمزيد من الجد. أضف إلى ذلك أنه كانت له أساليب عجيبة أخاذة لم أعرف ماذا يجب عليَّ أن أعمل إزاءها. وخلاصة القول إنه كان يعاملني كما يعامل مراهق غر، وذلك ما كان يؤلمني احتماله، رغم علمي بأن الأمور لا بد أن تجري هذا المجرى. وكانت نتيجة ذلك كله أنني انقطعت عن الكلام انقطاعاً يشبه أن يكون تاماً. كنت أنتظر شخصاً سيصل إلى بطرسبرج في وسعه أن يكشف لي عن الحقيقة نهائياً: فعلى ذلك كنت أعقد آخر أمل لي. ومهما يكن من أمر فقد وطّنت العزم على القطيعة النهائية، واتخذت جميع الإجراءات اللازمة لذلك. كانت أمي تثير شفقتي. ولكن: «إما هو، وإما أنا». ذلك ما كنت أريد أن أقترحه عليها وعلى أختي. حتى لقد حددت اليوم. وبانتظار ذلك، كنت أذهب إلى المكتب.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

– 1 –

في ذلك اليوم التاسع عشر من شهر أيلول كان علي أيضاً أن أقبض راتب شهري الأول لدى «الشخص» المذكور. إنهم لم يسألوني رأيي في هذه الوظيفة، بل اكتفوا بأخذي إليها في اليوم الأول من وصولي فيما أظن. كان فعلهم هذا على جانب كبير من الفظاظة، حتى لقد أوشكت أن اضطر إلى الاحتجاج. إن الوظيفة التي عُينت لها هي في منزل الأمير العجوز سوكولسكي. ولكن الاحتجاج سيكون معناه القطيعة معهم فوراً، وذلك أمر لم يكن يخيفني أبداً. غير أنه يخالف ما رسمته لنفسي من أهداف أساسية. لذلك قبلت المنصب صابراً، مكتفياً من الدفاع عن كرامتي بالصمت. ويجب أن أبادر فأذكر أن هذا الأمير سوكولسكي، وهو رجل غني ومستشار خاص، لم يكن يمت بقربى إلى الأمراء سوكولسكي بموسكو (الذين آلوا إلى الفقر والبؤس منذ سنين) الذين كان بينهم وبين فرسيلوف دعوى ينظر فيها القضاء. لم يكن بينه وبينهم إلا التشابه في الاسم. ومع ذلك كان الأمير العجوز يهتم بأمرهم كثيراً، ويحب أحدهم حباً خاصاً، وهو ضابط شاب يُعدُّ رئيسَ الأسرة إن صح التعبير. ولقد كان لفرسيلوف، في الماضي، تأثير كبير على أمور هذا الشيخ، وكان صديقه، بل كان له صديقاً غريباً، لأن هذا الأمير المسكين (وقد

Twitter: @ketab_n

أدركت ذلك فيما بعد) كان يخشاه خشية رهيبة، لا حين دخلت في خدمته فحسب، بل في جميع الأوقات فيما أظن، ما ظلت صداقتهما قائمة. على أنهما كانا قد أصبحا منذ زمن لا يلقى أحدهما الآخر. فالفعل الشائن الذي اتهم به فرسيلوف إنما كان يتعلق بأسرة الأمير بالذات. ولكن الحظ شاء أن تكون تاتيانا بافلوفنا هناك، وبواسطتها إنما تم توظيفي لدى العجوز الذي أراد أن يكون معه «شاب» يقيم إلى جانبه في المكتب. وقد اتفق أيضاً أنه أراد أن يرضي فرسيلوف، وأن يخطو هو نحوه الخطوة الأولى، واتفق أن فرسيلوف أراد ذلك أيضاً. هذا ما قرره الأمير العجوز في غيبة ابنته، التي مات عنها زوجها الجنرال، والتي كان لا يمكن حتما أن تسمح له بخطوة كهذه. سوف أتحدث عن هذا الأمر فيما بعد، ولكنني أريد أن أذكر فوراً أن غرابة هذه العلاقة بين العجوز وبين فرسيلوف قد لفتت نظري كثيراً، وجعلتني أحسن الظن بفرسيلوف. قلت لنفسي: إذا استمر رئيس أسرة أهينت كرامتها هذا الاستمرار على احترام فرسيلوف، فذلك دليل على أن الإشاعات التي ذاعت عن دناءة فرسيلوف إشاعات كاذبة، أو إشاعات تحتمل التأويل في أقل تقدير. وهذا بعض ما منعني من الاحتجاج: فلقد كنت آمل أن يمكّنني دخولي في خدمة الأمير من التحقق من هذه الأمور كلها.

كانت تاتيانا بافلوفنا هذه تلعب دوراً غريباً حين وجدتها في بطرسبرج. كنت قد نسيت وجودها أو كدت، ولم أتوقع قط أن أرى لها من خطورة الشأن وعلوّ المنزلة ما رأيت. كنت قد قابلتها حتى ذلك الحين ثلاث مرات أو أربعاً بموسكو. كانت تنبجس لا أدري من أين ولا بأمر مَنْ من الناس، كلما كان يجب أن تسكنني منزلاً، أو أن تدخلني تلك المدرسة الداخلية الكالحة الحقيرة، مدرسة توشار[6]، أو أن تنقلني

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك بسنتين ونصف سنة إلى المدرسة الثانوية، وتنزلني عند نيقولاي سيميونوفتش الذي لا يمكن أن أنسى ذكراه. وكانت، كلما ظهرت، تبقى سحابة النهار، تستعرض غسيلي وملابسي وتمضي معي إلى كوزنتسكي[7] أو إلى السوق في المدينة فتشتري لي الأمتعة اللازمة. وتجهزني بكل ما أنا في حاجة إليه، من آخر علبة إلى آخر موسى. وكانت وهي تفعل ذلك لا تنقطع عن تقريعي وتوبيخي واغراقي بأنواع اللوم، ولا تكف عن امتحاني، وعن ضرب أمثلة لي بأولاد آخرين رائعين من أصحابها أو أقاربها هم من خلق خيالها قائلةً إنهم جميعاً خير مني في رأيها، حتى لقد كانت لا تتورع، والله، عن قَرْصي وضَرْبي ضرباً موجعاً مرات كثيرة. حتى إذا فرغت من إسكاني وتأمين الاستقرار لي اختفت عدة سنين دون أن تترك لي أثراً من آثارها. إن هذه المرأة هي التي تولت الاهتمام بأمري من جديد فور وصولي إلى بطرسبرج، فوظفتني لدى الأمير العجوز. هي امرأة قصيرة القامة جافة الطبع، ذات أنف دقيق حادّ كأنف عصفور، وعينين صغيرتين ثاقبتين تشبهان أعين العصافير أيضاً. ولقد كانت إزاء فرسيلوف أشبه بعبد: تقف منه موقف العابد كأنها أمام البابا، ولكنها تفعل ذلك عن اقتناع وإيمان. على أنني سرعان ما لاحظت، على غير قليل من الدهشة، أن الناس جميعاً بغير استثناء، وفي كل مكان، يمحضونها احتراماً خالصاً، ولاحظت خاصة أن الناس جميعاً بغير استثناء وفي كل مكان يعرفونها. وكان الأمير العجوز سوكولسكي يجلّها اجلالاً عظيماً. وكذلك كان شأنها بين أفراد أسرتها. وكذلك كان شأنها أيضاً مع ولدي فرسيلوف المتعجرفين، ومع أعضاء أسرة فاناريوتوف. ومع ذلك كانت تجني رزقها من الخياطة والغسيل والتطريز وتعمل بأحد المخازن في بطرسبرج. وقد تشاجرنا منذ أول كلمة تبادلناها، لأنها طمعت أن توبخني كما كانت تفعل ذلك

Twitter: @ketab_n

منذ ست سنين، وظللنا نتشاجر كل يوم. ولكن ذلك لم يكن يمنعنا من التحادث أحياناً، واني لأعترف بأنها أخذت تحظى بإعجابي بعد شهر؛ وإنما يرجع ذلك في رأيي إلى ما كانت تتصف به من استقلال الطبع؛ على أنني لم أعلن لها ذلك ولم أشر إليه.

وسرعان ما فهمت أنهم «وظفوني» لدى هذا العجوز المريض لا لشيء إلا لكي «أسليه»، وأدركت أن مهمتي كلها هي القيام بهذا العمل. وقد شعرت من ذلك بشيء من المذلة طبعاً، وما لبثت أن اتخذت إجراءاتي، ولكن ما كاد ينقضي وقت قصير حتى أحدث هذا الشيخ الغريب في نفسي أثراً لم يكن في الحسبان، أثراً هو نوع من الشفقة عليه، وأصبحت في آخر الشهر أحس نحوه بارتباك عجيب: وأياً كان الأمر فقد تركت ما كنت قد عقدت عليه العزم من الفظاظة في معاملته. ولم تكن سنه تتجاوز الستين على كل حال. وكانت قد وقعت له حادثة تشبه أن تكون قصة كاملة. لقد أصيب قبل حوالي سنة ونصف بنوبة عقلية، فبينما كان مسافراً لا أدري إلى أين فقد صوابه أثناء الطريق، فكان ذلك فضيحة تحدث الناس عنها في بطرسبرج. وكما يجدر في مثل هذه الأحوال، أُرسل الرجل إلى الخارج، فما هي إلا خمسة أشهر حتى عاد إلى روسيا سليماً معافى، ولكن متقاعداً. وقد أكد فرسيلوف جاداً (بحماسة واضحة) أن ما حدث لصاحبه لم يكن جنوناً قط، وإنما كان نوبة عصبية بسيطة. وإني لأكاد أشاركه هذا الرأي. إن كل ما كان يبدو على العجوز هو شيء من خفة لا تليق بسنه كثيراً، خفة يقال إنها لم تظهر فيه يوماً قبل ذلك. قالوا إنه كان في الماضي مستشاراً يبذل النصح في مكان ما، وإنه قد عُهد إليه يوماً بالقيام بمهمة فأحسن القيام بها على خير وجه. غير أنني، وقد عرفته منذ شهر، ما كان علي أن أقدِّر أن له كفاءات خاصة تؤهله لأن يكون مستشاراً. وقد لاحظوا (رغم أنني

Twitter: @ketab_n

لم ألاحظ أنا شيئاً من ذلك) أنه أصبح بعد إصابته بتلك النوبة مأخوذاً برغبة قوية في أن يتزوج سريعاً، وأنه خلال هذه السنة ونصف السنة قد فكر في تحقيق هذه الفكرة غير مرة. يظهر أن ممثلي المجتمع الراقي كانوا يعرفون ذلك، وكان هناك من يهتم به. ولكن لما كان هذا الميل لا يتفق كثيراً ومصالح بعض الذين حوله، فقد كانوا يحيطون العجوز بسياج من كل جهة. لم تكن أسرته كبيرة العدد. لقد ترمل منذ عشرين عاماً، وليس له إلا ابنة وحيدة هي أرملة الجنرال التي يتوقعون وصولها من موسكو بين يوم ويوم، وهي شابة كان واضحاً أن أباها يخشى طبعها. غير أن للشيخ طائفة من الأفراد يمتون إليه بقرابات بعيدة، وخاصة من جهة زوجته المتوفاة، وكان هؤلاء جميعاً يعيشون في فاقة وبؤس. يضاف إلى هؤلاء ذلك الجمع من الأيتام الذكور والأناث الذين كان يحسن إليهم ويتصدق عليهم، ويتوقعون أن يجعل لهم في وصيته نصيباً، ويشاركون ابنته في إحكام الرقابة عليه. يضاف إلى هذا أيضاً أنه كان منذ شبابه يتصف بخصلة لا أدري أهي مضحكة أم لا: تلك هي رغبته في تزويج الفتيات الفقيرات. إنه يزوج فتيات فقيرات منذ خمسة وعشرين عاماً: بعضهن تصله بهن قرابات بعيدة، وبعضهن بنات لزوجات أبناء أعمام زوجته، وبعضهن يربطه بهن أنه كان لهن عرَّابا، حتى أن منهن واحدة كانت بنت بواب منزله. كان يكفلهن صغيرات، فيعهد بتنشئتهن إلى مربيات ومعلمات فرنسيات في أول الأمر، ثم يرسلهن إلى أحسن المؤسسات التعليمية، حتى إذا بلغن مرحلة الزواج دفع لهن مهورهن. فكان هؤلاء الناس جميعاً يحومون حوله بغير انقطاع. وطبيعي إذا تزوجت هذه الربيبات أن يلدن بنات، فكانت هاته البنات جميعاً تطمع في رعايته، وكان هو عرَّابهن جميعاً، وكان هذا الجمع كله يتوافد عليه في أعياده مهنئاً مباركاً، وكان هو يجد في ذلك متعة لا تفوقها متعة.

Twitter: @ketab_n

وحين صرت في بيته، سرعان ما لاحظت وكان يستحيل على المرء أن لا يلاحظ ذلك أنه قد استقر في دماغ العجوز اقتناع أليم بأن الناس أصبحوا ينظرون إليه نظرة غريبة، وأصبحوا لا يعاملونه كما كانوا يعاملونه في الماضي أيامَ كان يملك صحته كاملة، كان هذا الشعور لا يبارحه أبداً، حتى أثناء اجتماعات بالناس يسودها أكثر الأجواء مرحاً وفرحاً. لقد أصبح الشيخ مفرط الحساسية سريع التأذي. كان يلاحظ شيئاً في جميع الأعين. وكان يعذبه تعذيباً واضحاً أن يتصور أن الناس لا يزالون يتخيلون فيه جنوناً. حتى لقد كان يتفرس في وجهي أنا مشتبهاً مرتاباً. وأحسب أنه لو علم يوماً أن أحد الناس أذاع أو أكد هذه الإشاعة لأضمر له عداوة قاتلة رغم أنه إنسان لا يعرف قلبه الحقد أبداً. ذلك ما أريد أن يبقى ماثلاً في ذهن القارىء. وأضيف إليه أن هذا أيضاً هو ما جعلني أعزم أمري منذ أول يوم على أن لا أغلظ له القول. حتى لقد كنت أشعر بالسعادة يوم تتيح لي المصادفات أن أُفرحه أو أن أسلّيه؛ ولا أعتقد أن هذا الاعتراف يمكن أن يلقي على كرامتي ظلاً.

ولقد وضع الجزء الأكبر من ثروته في مشروعات. وساهم بعد مرضه في شركة كبيرة قوية جداً. ورغم أن هذا المشروع كان يديره آخرون فقد كان يهتم به اهتماماً شديداً، فهو يحضر اجتماعات المساهمين، وينتخب عضواً مؤسساً، ويشترك في جلسات المجالس، ويلقي خطباً مسهبة، ويناقش ويعترض، يفعل ذلك كله مغتبطاً به راضياً عنه. وكان يعشق إلقاء الخطب: فإن ذلك يتيح للناس أن يلاحظوا قوة فكره على الأقل. ويمكن أن أقول على وجه العموم إنه كان حتى في حياته الخاصة الصميمية يحب كثيراً أن يُدخل في الحديث بعض الأقوال العميقة أو بعض البون مو (Bons mots). ولست أستغرب منه هذا. ولقد كان في الطابق الأدنى من الدار نوع من مكتب منزلي، يعمل فيه مستخدم يسيِّر

Twitter: @ketab_n

الأعمال ويجري الحسابات، ويمسك الدفاتر، عدا قيامه بإدارة شؤون المنزل. ولقد كان هذا المستخدم، الذي يشغل عدا ذلك وظيفة رسمية، ينهض بالعمل نهوضاً كافياً، ولكنهم أضافوني إليه تنفيذاً لرغبة الأمير، بحجة أنني سأساعده في عمله. ولكنني ما لبثت أن نقلت إلى حجرة الأمير، فلم يكن أمامي هنالك، ولو من قبيل مراعاة الشكل، لا عمل ولا أوراق ولا كتب.

إنني أكتب الآن كما يكتب إنسان فقد نشوة الحماسة منذ زمن طويل، وعدل عن كثير من الأمور. فكيف أستطيع أن أصور ذلك الحزن (الذي ما زلت أذكره حياً قوياً) الذي ملأ يومئذ قلبي، وكيف أصور خاصة ذلك الاضطراب الذي استبد يومئذ بي حتى قادني إلى حالة من القلق والهياج بلغت من القوة أنني أصبحت مسهداً لا أعرف إلى النوم سبيلاً من نفاد صبري على الألغاز التي كنت أطرحها على نفسي بنفسي.

– 2 –

أن يطلب المرء مالاً فذلك طلب مقرف جداً، ولو كان طلباً لأجر، إذا كان المرء يحس في ركن من أركان ضميره أنه لم يستحق هذا الأجر. وبالأمس همست أمي في إذن أختي، على غير علم من فرسيلوف (حتى لا تسبب ألماً لأندريه بتروفتش) تقول لها إن في نيتها أن ترهن لدى مراهن أيقونة كانت تحرص عليها حرصاً شديداً. وكان لي أجر هو خمسون روبلاً في الشهر، ولكنني كنت أجهل كل الجهل كيف أقبض هذا الأجر. فهم لم يذكروا شيئاً واضحاً عن هذا الأمر حين أسندوا إليَّ هذه الوظيفة. وكنت قبل ذلك بثلاثة أيام قد سألت المستخدم الذي يعمل في الطابق الأدنى: أين أقبض أجري؟ فنظر إليَّ بابتسامة إنسان دهش (وكان لا يحبني) ثم قال:

Twitter: @ketab_n

- هل لك راتب تقبضه؟

وتوقعت أن يضيف إلى سؤاله بعد جوابي على الفور:

- وعلام يكون لك راتب؟

ولكنه اقتصر على الإجابة في جفاف قائلاً: «لا أدري»، ثم انكبَّ على دفتره المخطط الذي كان ينقل إليه حسابات سجّلت على وريقات.

وكان، بالمناسبة، لا يجهل أنني أقوم مع ذلك بشيء من العمل. حتى أنني قبل ذلك بأسبوعين قد أنفقت أربعة أيام كاملة في عمل عهد به إليَّ هو نفسه: وهو نسخ مسودة. وقد اضطررت في الواقع إلى صياغة النص كله صياغة جديدة. وكان الأمر أمر مجموعة من «أفكار» للأمير كان يتهيأ لتقديمها إلى لجنة المساهمين. فكان عليَّ أن أنشئ من شتاتها كلاً منسجماً، وأن أصلح الأسلوب. وقد قضينا بعد ذلك مع الأمير، أنا وهو، يوماً بكامله ننظر في هذه الورقة، فناقشني الأمير مناقشة حارة جداً، ولكنه رضي عنها آخر الأمر. على أنني لا أدري أقدِّمت الورقة إلى لجنة المساهمين أم لا. هذا عدا رسالتين أو ثلاثاً من رسائل الأعمال توليت أنا كتابتها بطلب منه.

وإذا أزعجني أن أطلب أجري، فذلك لأنني كنت قد قررت أن أترك العمل، لشعوري بأنني سأكون مضطراً إلى مغادرته أيضاً بسبب ظروف لا سبيل إلى تحاشيها. حين استيقظت من نومي في ذلك الصباح وأخذت أرتدي ملابسي في غرفتي الصغيرة فوق، شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قوياً، ثم حاولت أن أصطنع الهدوء وعدم الاكتراث، غير أنني حين دخلت على الأمير عاودني ذلك الاضطراب نفسه: ففي ذلك الصباح كان سيصل ذلك الشخص، كانت ستصل تلك المرأة التي أنتظر منها تفسير كل ما كان يقلق خاطري ويعذب نفسي! إنها آخماكوفا، بنت الأمير، أرملة الجنرال الشابة التي سبق أن تحدثت عنها، والتي كانت في

Twitter: @ketab_n

حرب صريحة مع فرسيلوف. أخيراً كتبت هذا الاسم! ولم أكن رأيتها قبل ذلك في يوم من الأيام طبعاً، ولم أكن أستطيع أن أتصور كيف تراني أكلمها إذا أنا كلمتها. ولكن كان يبدو لي (ربما لأسباب كافية) أن مجيئها سيبدد ظلمات تلُفّ فرسيلوف في رأيي. لم أستطع أن أظل رابط الجأش: إنها لحسرة رهيبة أن يجد المرء نفسه منذ الخطوة الأولى جباناً كل هذا الجبن، أخرق كل هذه الخراقة. كان ذلك أمراً عجيباً إلى أقصى حد، وكان كريهاً على وجه الخصوص: ثلاثة مشاعر في آن واحد. إنني أذكر ذلك اليوم وأحفظه على ظهر القلب!

لم يكن الأمير يعرف، بعد، شيئاً عن احتمال وصول ابنته. وكان لا ينتظر وصولها قبل أسبوع. أما أنا فقد عرفت هذا قبل ذلك بيوم، وعرفته بمحض مصادفة. إن تاتيانا بافلوفنا التي تلقت رسالة من أرملة الجنرال قد أفلت لسانها أمامي ففشت السر وهي تتحدث إلى أمي. كانتا تتكلمان همساً، وتتحدثان بألفاظ معماة غامضة، فحزرت كل شيء. بديهي أني لم أكن أصغي إليهما خلسة، ولكنني لم أملك إلا أن أصيخ بسمعي حين رأيت على حين فجأة أن أمي اضطربت اضطراباً شديداً لدى سماعها نبأ وصول هذه المرأة. ولم يكن فرسيلوف وقتئذ في البيت.

لم أشأ أن أنبىء الأمير الشيخ، لأنني كنت قد لاحظت طوال هذه المدة مدى إشفاقه من وصول ابنته. حتى أنه، قبل ذلك بثلاثة أيام، مضى إلى حد القول، على شيء من الاستحياء وفي شيء من الغموض، أنه يخشى من وصولها عليَّ، أو قل إنه يتوقع قيام شجار بينه وبينها بسببي. يجب مع ذلك أن أضيف أنه كان يحتفظ إزاء أسرته باستقلاله وسلطته وتفوّقه، وخاصة في شؤون المال. ولقد كان شعوري الأول تجاهه أنه لم يكن إلا امرأة. ولكنني اضطررت بعد ذلك إلى تصحيح هذا الشعور قائلاً لنفسي: إذا كان امرأة فإنه يحتفظ مع ذلك بشيء من عناد إن

Twitter: @ketab_n

لم يكن رجولة حقيقية. لقد مرت لحظات كان فيها، رغم ما يبدو في طبعه من رخاوة ظاهرة، رجلاً صعب المراس عسير القياد. وقد شرح لي فرسيلوف هذا الأمر بمزيد من التفصيل فيما بعد. وإني لألاحظ الآن، على دهشة مني، أننا لم نكد نتحدث يوماً عن أرملة الجنرال، بل كنا نتحاشى أن نتحدث عنها إن صح التعبير: كنت أنا الذي أتحاشى الخوض في هذا الحديث خاصة، وكان الأمير يتحاشى من جهته أن يتكلم عن فرسيلوف، حتى لقد أدركت أنه لن يجيبني إذا أنا ألقيت عليه سؤالاً من تلك الأسئلة الحساسة التي كانت تقلقني وأهتمّ بها ذلك الاهتمام كله.

وإذا أردتم أن تعرفوا فيم تحدثنا طوال ذلك الشهر قلت: لقد تحدثنا في كل شيء إجمالاً، ولكننا تحدثنا دائماً في أمور غريبة. وكان ما يعجبني في الرجل كثيراً هو تلك اللطافة الطيبة تلك التي كان يعاملني بها. حتى لقد كنت في بعض الأحيان أتأمل هذا الرجل مندهشاً أشد الاندهاش، قائلاً لنفسي: لو قد عاشرته في المدرسة لكان خير رفيق لي. وكان وجهه يخطف بصري في بعض الأحيان أيضاً: إنه جاد أقصى الجد (ويكاد يكون جميلاً)، جاف أشد الجفاف، ذو شعر مجعد أبيض كثيف، واسع العينين، وكان نحيفاً حسن القامة، غير أن وجهه يمتاز بصفة أقرب إلى أن تكون مزعجة، حتى لتوشك أن تكون غير لبقة، فهو ينتقل فجأة من أقصى درجات الجد إلى أقصى درجات المرح انتقالاً لا يمكن لامرىء أن يتنبأ به إذا كان يرى هذا الرجل أول مرة. ولقد قلت ذلك لفرسيلوف، فأصغى فرسيلوف إلى قولي متعجباً، فإنه ما كان يظن أن في وسعي أن ألاحظ ملاحظات كهذه. ولكنه قال لي، كمن يقول عابراً، إن هذه الحالة قد ظهرت في الأمير بعد مرضه فقط.

هناك موضوعان مجردان كان يدور عليهما حديثنا خاصة، أولهما هو الله ووجوده (الله موجود أم لا؟)، وثانيهما هو النساء. لقد كان الأمير

Twitter: @ketab_n

متديناً جداً، حساساً جداً. وعلى جدار مكتبه علقت مجموعة كبيرة من الأيقونات بقنديل أمامها. غير أنه كانت تستبد به في بعض الأحيان نزوة، فإذا هو يشك فجأة في وجود الله، ويقول أشياء عجيبة من أجل أن يحرّضني على الإجابة. وكنت من جهتي قليل الاكتراث بهذه الفكرة عموماً، ولكن هذا لا ينفي أننا كنا كلانا نتحمس تحمساً شديداً وصادقاً في جميع الأحوال. والحق أن هذه الأحاديث التي كانت تدور بيننا قد خلقت في نفسي ذكرى ممتعة إلى هذا اليوم. على أن الحديث عن النساء كان أمتع ما يحب أن يلغو فيه؛ وإذ كنت لا أعشق الحديث في هذا الموضوع كثيراً، فإنني لم أكن له في هذا المجال نِعم الجليس، وكان ذلك يسوؤه في بعض الأحيان.

وقد أثار هذا الموضوع منذ وصلت إليه في ذلك الصباح. وجدته مبتهج النفس، وكنت قد تركته بالأمس مفعماً بالحزن الشديد. وكان عليَّ أن أحل مسألة راتبي في ذلك اليوم قطعاً قبل وصول بعض الأشخاص. كنت أقدّر أن خلوتنا ستقطع حتماً (لم يخفق قلبي في ذلك اليوم خفقاناً شديداً لغير سبب)، وقد لا أجرؤ عندئذ أن أتكلم في مسألة الأجر. ولكن الحديث لم يدُر على شؤون المال، فأحنقتني حماقتي طبعاً، فإذا أنا (وما زلت أذكر ذلك جيداً) أنزعج من سؤال طرحه عليَّ، وكان سؤلاً مفرطاً في المرح، وإذا أنا أنطلق أبسط له آرائي في النساء دفعة واحدة بقوّة وحمية، فما كان منه إلا أن ازداد اندفاعاً وحماسة.

– 3 –

– . . . لست أحب النساء لأنهن فظات، لأنهن خرقاوات، لأنهن لا يملكن روح المباداة والمبادرة، ولأنهن يرتدين ملابس غير لائقة! بهذه الخاتمة المشوشة أنهيت كلامي الطويل.

Twitter: @ketab_n

- رفقاً بهن يا عزيزي!

كذلك صاح الأمير فرحاً مرحاً إلى أقصى حدود الفرح والمرح، فما زادني ذلك إلا غيظاً وحنقاً.

إني امرؤ لين العريكة سهل المصالحة في الأمور الصغيرة فحسب، أما في الأمور الكبيرة فلا أخضع ولا أرضخ قط. إنك في الشؤون اليسيرة وفي المناقشات الفارغة التي تدور بين الناس، تستطيع أن تجعلني ما تشاء؛ وأنا ألعن هذه الصفة من صفات طبعي دائماً. لقد اتفق لي في بعض الأحيان، بسبب هذه الطيبة الكريهة في طبعي، أن كنت مستعداً لتأييد دعي سخيف من أبناء المجتمع الراقي لا لشيء إلا لأني فتنت برقة حاشيته وحسن تهذيبه، أو أن أدخل في مناقشة مع رجل غبي أحمق، وهو أمر لا يمكن أن يغتفر بحال من الأحوال. كل ذلك لأنني لم أتعلم ضبط النفس، ولأنني عشت وترعرعت في ركني المعزول. وطالما خرجت من ذلك حانقاً غاضباً، حالفاً أن لا أعود إلى مثله، فإذا جاء الغد تكرر الأمر نفسه. من جراء هذا كنت أعد في بعض الأحيان صبياً في السادسة عشرة. ولكنني بدلاً من أن أتعلم ضبط النفس ما زلت حتى اليوم أوثر أن ازداد انحباساً في ركني، ولو في أقوى صورة من صور كره الناس والبعد عن البشر: «أنا إذا شئتَ أخرق، ولكن وداعاً!» أقول ذلك جاداً والى الأبد. على أنني لا أكتب هذا بصدد الأمير، ولا بصدد الحديث الذي جرى بيننا حينئذ.

صحت أقول فيما يشبه المعاداة:

- لست أتكلم لأسرَّك، وإنما أنا أعبّر عن رأيي.

- ولكن كيف تكون النساء فظات، وكيف تُعَدّ ملابسهن غير لائقة؟ ألا إن هذا لأمر جديد!

- هن فظات. اذهب إلى المسرح، اذهب إلى نزهة. إن كل رجل من الرجال يعرف يمينه، فإذا تقابل رجلان أفسح كلاً منهما الطريق

Twitter: @ketab_n

لصاحبه، هذا يتجه إلى يمينه وذاك يتجه إلى يمينه. أما المرأة، أقصد السيدة، لأنني عن السيدات إنما أتكلم، فإنها تقتحمك حتى دون أن تلاحظك، كأنك مضطر أن تنحرف وتخلي لها مكانك. إنني مستعد أن أتنازل عن موضعي لمخلوق ضعيف، ولكن دون اعتبار ذلك كما لو أنه حق مفروض. لماذا هي واثقة تلك الثقة بأنني مضطر إلى إخلاء مكاني لها اضطرارا؟ ذلك ما يغيظ! إنني لا أملك إلا أن أبصق اشمئزازاً في مثل هذه الالتقاءات. ورغم هذا كله يملأن الدنيا صراخاً بأنهن مضطهدات، ويطالبن بالمساواة. كيف يتحدثن عن المساواة وهنَّ يدسنني ويملأن فمي غباراً؟

- غبار؟

- نعم. لأنهن يرتدين ملابس غير لائقة. لا بد أن يكون المرء فاسقاً حتى لا يلاحظ ذلك. إن المحاكم نفسها تعقد جلسات سرية حين تشتمل القضية على أمور غير لائقة: فلماذا يسمح بمثل هذه الأمور في الشارع، حيث الجمهور أكبر عدداً؟ يعلّقن على مؤخراتهنّ ذيولاً تحف وراءهنّ لكي يبرهنّ على أنهن نساء فاتنات: يفعلن ذلك صريحاً ظاهراً بغير استخفاء ولا استحياء! وليس يمكن أن لا ألاحظ ذلك، والشبان يلاحظونه أيضاً، والطفل والصبي الصغير يلاحظانه كذلك. إلا أن هذا لعيب وعار! فليعجب بهن رجال مسنون فاسقون يجرون وراءهن ويخرجون ألسنتهم متلمظين، إلا أن هنالك شبيبة طاهرة يجب أن نحميها. لم يبق إلا أن يبصق المرء تقززاً واشمئزازاً. إن السيدة من هؤلاء تذرع الشارع جيئة وذهاباً، ووراءها ذيل طوله متر يكنس الأرض ويثير الغبار. وعليك أنت الذي يتفق أن تكون سائراً خلفها أن تغذّ الخطى راكضاً حتى تتجاوزها، أو أن تثب إلى الطرف الآخر، وإلا حشت أنفك وفمك برطلين من الغبار. ثم إنها تجر هذا الحرير وراءها

Twitter: @ketab_n

على الحصى ثلاثة كيلومترات، لا لشيء سوى أن تتبع «الموضة»، ومرتب زوجها من مجلس الشيوخ خمسمائة روبل في العام. ألا إن هذا هو مصدر جميع الرشاوي! إني لأبصق عندئذ بصوت صاخب مسموع.

لقد سجلت للقارىء هذا الحديث على نحو فيه شيء من روح السخرية، وفيه ما كان فيه من حرارة وعنف حين جرى بيني وبين الأمير. ولكن الأفكار التي وردت في ذلك الحديث لا تزال أفكاري إلى الآن.

قال الأمير مهتماً:

- ولم يقع لك شيء؟

- أبصق وأمضي. وطبيعي أن السيدة تفهم ما أعني، ولكنها لا تظهر شيئاً، بل تظل مقتحمة طريقها على فخامة وأبهة وجلال لا تلتفت إليَّ ولا تلوي على شيء. مرة واحدة قام شجار بيني وبين امرأتين تجرّان كلتاهما ذيلين في الشارع. لم أنطق بألفاظ نابية طبعاً، ولكنني قلت بصوت عال إن هذين الذيلين يؤذيان بصري.

- قلتَ ذلك هكذا؟

- طبعاً. إن هذه المرأة تدوس أولاً قواعد المجتمع ثم هي عدا ذلك تثير عجاجاً في شارع حافل بالناس: فأنا أتنزه، وشخص آخر يتنزه، وشخص ثالث يتنزه... أياً كان هذا الشخص... سواء أكان اسمه فيدور أم كان اسمه إيفان. ذلك ما قلته بصوت عال. ثم إنني على وجه العموم لا أحب مشية النساء حين تُرى من خلف. قلت ذلك أيضاً ولكنني قلته تلميحاً لا تصريحاً.

- ولكن كيف تفعل ذلك يا صديقي؟ قد تسبب لنفسك أذى. كان في إمكانهما أن تشكواك إلى القضاء.

- مستحيل. ما عسى أن تكون شكواهما؟ رجل مر بجانبهما، كلّم نفسه. إن من حق كل إنسان أن يفصح عن رأيه في الهواء. لقد قلت

Twitter: @ketab_n

كلاماً مجرداً لم أتجه به اليهما. هما اللتان هاجمتاني. أخذتا تقولان كلمات نابية، أسوأ كثيراً من كلماتي. قالتا إنني قليل الأدب، وإنني يجب أن أُحرم من الطعام، وإنني من أتباع المذهب العدمي، وإن عليهما أن تأخذاني إلى الشرطة، وإنني إنما تشبثت بهما لأنهما وحدهما ولأنهما ضعيفتان، وإنني كنت سألوذ بالفرار لو كان معهما رجل. فما زدت على أن طلبت منهما ببرود أن تدعاني وشأني، فإني منتقل إلى الجهة الأخرى. غير أنني أضفت إلى ذلك: «ولكن من أجل أن أبرهن لكما على أنني لا أخشى رجالكما وأنني مستعد لأن استجيب للتحدي، فهاأنذا أتبعكما لأقف على مسافة عشرين متراً من منزليكما أنتظر أن يخرج إليَّ رجالكما». وتبعتهما.

- أهذا ممكن؟

- طبعا. كان ذلك حماقة مني، ولكن دمي كان فائراً فوراناً شديداً.

هكذا جرتاني وراءهما مسافة تزيد على ثلاث كيلومترات، في جو خانق من الحر الشديد، حتى «معهد الأوانس». ثم دخلتا داراً من خشب بلا طوابق، داراً لائقة والحق يقال، تُرى من خلال نوافذها أزهار كثيرة، وطائران من طيور الكناري، وثلاثة كلاب صغيرة، وطائفة من لوحات ذات أطر. لبثت أمام البيت في وسط الشارع نصف ساعة. فرأيتهما تطلان ثلاث مرات خفية؛ ثم أسدلتا جميع الستائر. وأخيراً خرج من باب السياج موظف طاعن في السن، وإذا صدق ما تدل عليه سحنته قد كان نائماً وأيقظوه عمداً، وكان يرتدي ثوباً مما يلبس في المنزل، أو رداءً بسيطاً على كل حال، فوقف أمام الباب، ينظر إليَّ واضعاً يديه وراء ظهره، ونظرت إليه، فحول بصره عني، ثم نظر مرة أخرى وابتسم لي. فأدرت ظهري، وانصرفت.

- ولكن هذا من شأن شيلر[8] يا صديقي. هناك أمر أثار دهشتي

Twitter: @ketab_n

دائماً: إن خديك لحمراوان، ووجهك ليفيضن عافية. فهل يشمئز من النساء من كان كذلك؟ أيعقل أن لا تثير فيك المرأة شيئاً وأنت في هذه السن من ريعان الصبا يا عزيزي؟، كنت أنا في الحادية عشرة من عمري حين نبهني المربي الذي كان يتولى تنشئتي أنني أسرف في الاقتراب من تماثيل «حديقة الصيف» للنظر إليها.

– أتريد مني يا أمير أن أذهب إلى «امرأة» ما، إلى «جوزفين» ما، ثم أعود أنقل إليك أخباراً عنها. لا حاجة إلى هذا. أنا أيضاً رأيت عري المرأة كاملاً ولما أتجاوز الثالثة عشرة. . . ومنذ ذلك الحين بالذات إنما شعرت منه بالاشمئزاز.

– أتقول هذا جاداً؟ أم هازلاً يا cher enfant[9]، إن امرأة نضرة لهي تفاحة تفوح منها رائحة عبقة، فأين في ذلك ما يثير الاشمئزاز كله؟

– حين كنت في مدرستي الداخلية القديمة، عند توشار، أي قبل دخولي المدرسة الثانوية، كان لي رفيق اسمه لامبرت. كان لامبرت هذا يضربني دائماً، لأنه كان أكبر مني بثلاث سنين، وكنت أنا أخدمه وأخلع له حذاءيه. ففي يوم تثبيته بعد التعميد، جاء القس ريجو يزوره بمناسبة تناوله الأول، فرأيت الاثنين يرتمي كل منهما على عنق صاحبه والدموع تهطل من عينيه، ورأيت القس يضمه إلى صدره ويربت على ظهره. فبكيت أنا أيضاً، وحسدته حسداً كبيراً. فلما توفي أبوه خرج من المدرسة الداخلية، ثم لم أره بعد ذلك سنتين بل أكثر، إلى أن لقيته في الشارع مصادفةً في ذات يوم. فقال لي إنه قد يجيء إليَّ زائراً بعد حين. وكنت قد دخلت المدرسة الثانوية، وكنت أقيم لدى نيقولاي سيمينوفتش. فإذا هو يجيئني في ذات صباح، ويريني خمسمائة روبل، ويسألني أن أتبعه. لقد ظل يضربني في الماضي عامين كاملين، ومع ذلك ما يزال في حاجة إليَّ، لا لأخلع له حذاءيه فحسب. وقص عليَّ

Twitter: @ketab_n

أموره كلها. فقال إنه قد سرق هذا المال من أمه في ذلك اليوم نفسه، بعد أن صنع مفتاحاً مماثلاً لمفتاح صندوقها، لأن هذا المال حق له من إرث أبيه شرعاً، ولا يجوز لأمه أن تمنعه عنه بعد الآن. وقال إن القس ريجو قد جاءه أمس مساءً يريد أن يلقي عليه درساً في الأخلاق: دخل إلى البيت، ووقف أمامه، وأخذ يئن ويتذمر، مظهراً أشد الاستياء، رافعاً ذراعيه نحو السماء. «فما كان مني إلا أن استللت سكيني وقلت إني سأذبحه» (ولثغ لفظ هذه الكلمة). ومضينا معاً إلى شارع كوزنتسكي: فأسرَّ إليَّ أثناء الطريق أن أمه لها علاقة بالقس ريجو، وأنه قد لاحظ هو ذلك، وأنه أصبح لا يعبأ بشيء، ويرى أن كل ما يقال عن التناول سخافات. وتكلم كثيراً أيضاً. وكنت أشعر أنا بخوف. واشترى في كوزنتسكي بندقية، وخرجاً مما يحمله الصيادون، وخراطيش وسوطاً مجدولاً، ورطلاً من حلوى، ومضينا نصطاد في الضواحي. ففيما نحن في الطريق صادفنا رجلاً من صيادي الطيور يحمل أقفاصاً، فاشترى منه لامبرت عصفوراً من عصافير الكناري. ولما وصلنا إلى غابة صغيرة أطلق لامبرت العصفور الذي كان لا يستطيع أن يطير بعيداً عقب خروجه من القفص، فأطلق لامبرت عليه من بندقيته ولكنه أخطأه. كانت تلك أول مرة يطلق فيها، ولكنه كان يود أن يشتري بندقية منذ زمن طويل، منذ كنا معاً لدى توشار: كان ذلك حلماً لنا كلينا من ذلك الزمان. كان كالمختنق من فرط الانفعال. إن شعره أسود سواداً مخيفاً، ووجهه أبيض على احمرار بلون الأرجوان فكأنه قناع، وأنفه طويل أقنى كأنوف الفرنسيين، وأسنانه بيضاء وعينيه سوداوان. شد العصفور بخيط إلى غصن من الأغصان، وسدد إليه من مسافة شبر ثم أطلق عليه طلقتين من الماسورتين كلتيهما، فبعثره ألف ريشة

Twitter: @ketab_n

صغيرة. . . وقفلنا راجعين، فدخلنا أحد الفنادق، واستأجرنا غرفة وأكلنا وشربنا شمبانيا. ووصلت سيدة. . . أذكر أن بذخ ملابسها قد لفت انتباهي: كانت ترتدي فستاناً حريرياً أخضر خطف بصري. وهناك رأيت كل شيء. . . رأيت ما حدثتك عنه. . . ثم عدنا نشرب. . وعاد هو يغيظها ويشتمها. كانت خالعة ملابسها. وأخفى هو ثوبها، فلما ثار غضبها وطالبت بثوبها لترتديه، جلدها بسوطه جلدة قوية على كتفيها العاريتين. فنهضتُ وأمسكت به من شعره إمساكاً قوياً بلغ من الإحكام أنه سقط على الأرض فوراً. فتناول شوكة وأخذ يغرزها في فخذي. فلما أخذت أصيح هرع إلينا الناس، واستطعت أن أهرب. ومنذ ذلك الحين أصبح العري يثير في نفسي التقزز. وصدقني إذا قلت لك إنها كانت رائعة الجمال.

كنت وأنا أقص على الأمير هذه الحكاية أرى وجهه يتقلب بين الانشراح والحزن.

– Mon pauvre enfant! (ولدي المسكين). لقد كنتُ دائماً على اقتناع بأن طفولتك عرفتْ أياماً شقية كثيرة.

– لا يقلقنّك شأني، أرجوك.

– ولكنك كنت وحدك. أنت نفسك قلت لي ذلك. أما ذلك الفتى لامبرت فقد رسمت لي صورته. . طير الكناري، ذاك التقديس الذي رافقته دموع على الصدر، ثم قصة أمه مع القس بعد عام. . آه يا عزيزي، مشكلة الطفولة هذه أمر رهيب في عصرنا هذا: فما ظلت هذه الرؤوس الذهبية ذات الضفائر والبراءة تتطور في طفولتها الأولى أمامنا وتنظر الينا بضحكاتها الصافية ونظراتها المشرقة، فإننا نحسبها ملائكة سماء أو عصافير صغيرة رائعة. . حتى إذا انقضى ذلك كله. . . فقد يحدث أن يكون من الأفضل أن لا يكونوا قد شبوا عن الطوق!

Twitter: @ketab_n

- يا لك من حسّاس أيها الأمير! حتى لكأن لك أولاداً بالفعل. ومع ذلك ليس لك أولاد ولن يكون لك أولاد في يوم من الأيام.

- عجيب، - هتف بذلك وقد تغير وجهه فجأةً وأضاف:

- أول أمس، هه هه! أول أمس تماماً، حين قلت لألكسندرا بتروفنا سينيتسكايا لا شك أنك صادفتها هنا منذ ثلاثة أسابيع حين قلت لها على سبيل المزاح إنني إذا تزوجت الآن فإنني أكون على الأقل مطمئناً إلى أنني لن أنجب.. أجابتني فجأة، بل أجابتني بشيء من حنق قائلةً: «بالعكس، ستنجب؛ إن رجالاً مثلك هم الذين لا بد أن ينجبوا حتماً، وستنجب منذ السنة الأولى، سترى». هه هه! إن جميع الناس يتصورون أنني سأتزوج بغتة. لا أدري لماذا يتصورون ذلك! يجب أن تعترف على كل حال أن كلامها فكه وطريف، رغم أنه قيل في خبث.

- فكه ولكنه مهين.

- أوه cher enfant! هناك أناس لا يجب أن يزعل المرء من كلامهم. وإن روح الفكاهة التي توشك أن تزول هي ما أقدره في الناس أكثر من أي شيء آخر؛ ثم هل يمكن أن يقيم المرء وزناً لكلام تقوله الكسندرا بتروفنا؟

- كيف؟ ماذا قلت؟ هل قلت إن هناك أناساً لا يمكن أن.. أهذا ما قلته؟ صدقت.. ليس كل إنسان يستحق أن يُلتفت إليه. تلك قاعدة رائعة! هذه القاعدة هي بعينها ما أنا في حاجة إليه. لسوف أسجلها. إنك لتنطق أحياناً بحِكَمٍ رائعة أيها الأمير!

وأشرق وجهه كله.

- ألست ترى يا بنيّ العزيز إن روح الفكاهة الحقيقية هي الآن بسبيل الزوال أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. آه.... إنني أنا مَنْ يعرف النساء (بالفرنسية في الأصل) صدقني إن قلت لك إن حياة كل امرأة، مهما

Twitter: @ketab_n

يكن كلامها، ليست إلا بحثا أبديا عن سيد تخضع له. . إن فيها ظمأ إلى الخضوع إن صح التعبير. . احفظ هذا الكلام ولا تستثن منهن واحدة.

- صحيح إطلاقا! رائع! كذلك هتفت متحمساً.

وكان يمكن أن نندفع فوراً في تأملات فلسفية حول هذا الموضوع، مدة ساعة على الأقل، لولا أن شعرت فجأة بأنني كمَنْ لسع، واحمر وجهي احمراراً شديداً. لقد خُيِّل إليّ أنني كنت بامتداح كلامه أتملقه من أجل ماله، وأنه سيظن ذلك على كل حال حين سأطلب إليه أجري. إنني أذكر هذه الواقعة هنا قصداً وعمداً.

- أيها الأمير، سأكون شاكراً لك أجزل الشكر إذا دفعت لي حالاً مبلغ الخمسين روبلاً، وهو راتبي عن هذا الشهر. كذلك سقت الكلام سريعاً بجملة واحدة، مع شيء من الاهتياج يوشك أن يكون فظاظة.

وإني لأذكر (لأنني أتذكر ذلك الصباح كله بأدق تفاصيله) أنه وقع عندئذ بيننا مشهد كريه في حقيقته الصارخة. إنه لم يفهم كلامي في أول الأمر، بل نظر إليّ طويلاً لا يدرك أي مال أعني. كان واضحاً أنه لم يكن يتصور أنني أتقاضى أجراً. وفيم عساي أستحق أجراً؟ صحيح أنه أكد لي بعد ذلك أنه كان قد نسي الأمر، ثم لم يلبث بعد أن فهم، أن تناول خمسين روبلاً مرة واحدة، بسرعة شديدة، واحمرار واضح. فلما رأيت ذلك كله، نهضت من مكاني وأعلنت له جازماً أنني أصبحت لا أستطيع أن أقبل مالاً وأن ما ذُكر لي من أنني سأتقاضى أجراً كان من قبيل الخطأ والخداع من غير شك، وذلك حتى لا أرفض الوظيفة، وأنني أفهم الآن أنه لم يكن من المفروض أن أتقاضى شيئاً، إذ لم يكن لي عمل أقوم به. فارتاع الأمير وحاول أن يقنعني بأنني قدمت له خدمات كبيرة، وبأنني سأقدم له مزيداً من الخدمات، وأن خمسين روبلاً مبلغ زهيد جداً، وأنه سيزيد لي هذا المبلغ، فذلك واجبه، وأنه

Twitter: @ketab_n

كان قد اتفق على هذا مع تاتيانا بافلوفنا، لكنه ارتكب «نسياناً لا يغتفر». فانفجرت وأعلنت جازماً أنني ألطخ شرفي إذا أنا تقاضيت أجراً على قصص فاضحة رويتها له عن ملاحقتي امرأتين حتى «معهد الأوانس»، وقلت إنني لم أدخل في خدمته من أجل أن «أسليه» بل من أجل أن أقوم بعمل جاد مفيد، فإذا لم يكن هنالك عمل أقوم به، فلا بد أن أمضي، الخ الخ. . ما كنت أتخيل أن أحداً يمكن أن يصيبه من الارتياع ما أصاب الأمير بعد سماعه كلماتي القليلة هذه. على أن الأمور انتهت بالطبع كما يلي: كففت عن الاحتجاج، ودس الأمير المبلغ في يدي قسراً. ما يزال جبيني يحمر حين أتذكر أنني قبلت هذا المال! إن كل شيء في هذه الدنيا ينتهي دائماً بصغار وحقارة. والأنكى من ذلك أنه كاد يبرهن لي على أنني كسبت هذا المال كحقّ لا مراء فيه؛ وكنت من الحماقة بحيث صدقته. لقد بدا لي أنه يستحيل عليّ إطلاقاً أن لا آخذه.

يا بنيّ العزيز، يا بنيّ العزيز! Cher enfant, Cher enfant (بالفرنسية في الأصل) هكذا صاح وهو يعانقني ويغرقني بالقبل (ويجب أن أعترف أنني كنت أوشك أن أبكي لا أدري لماذا، ولكنني ملكت زمام نفسي وحبست دموعي؛ وحتى الآن، وأنا أكتب هذه الأسطر، يصعد الدم إلى رأسي ويحمر وجهي) يا صديقي العزيز، أنت لي بمنزلة قريب، وقد أصبحت خلال هذا الشهر جزءاً من قلبي! ليس في «المجتمع الراقي» إلا «ناس»، ولا شيء غير ذلك. إن كاترين نيقولايفنا (ابنته) امرأة لامعة مرموقة، وإني لفخور بهذا، ولكنها كثيراً، بل وكثيراً جداً ما تجرح شعوري يا عزيزي. . أما أولئك البنات وهنّ في غاية الظُّرف واللطف (بالفرنسية في الأصل) وأمهاتهن اللواتي يأتين مباركات مهنئات بعيدي، فهن يحملن إليَّ الهدايا من جميل مطرزاتهن، ولكنهن عاجزات عن قول كلمة واحدة. إنني أملك الآن من هذه المطرّزات، من الكلاب والوعول

Twitter: @ketab_n

المطرّزة، حوالي ستين مخدة. إنني أحبهن كثيراً، أما أنت فإنني أكاد أشعر حين أجالسك بأني مع ابني، ليس مع ابني بل وقُلْ مع أخي، وما أكثر ما أحب أن تجاوبني وترد عليَّ. . إنك على حظ من المعرفة بالآداب. . لقد قرأت. . وأنت قادر على الإعجاب. . .

- أنا لم أقرأ شيئاً، وليس لي من المعرفة بالآداب أي حظ. قرأت ما اتفق أن وقع في يدي. وفي السنتين الأخيرتين لم أقرأ شيئاً البتة، ولن أقرأ بعد اليوم شيئاً البتة أيضاً.

- لماذا؟

- لي أهداف أخرى.

- Cher، لسوف يكون مؤسفاً أن تقول في أواخر حياتك ما أقوله أنا الآن: «أعرف كل شيء، ولكنني لا أعرف أيّ شيء نافع» (بالفرنسية). إنني لا أدري حقاً لماذا عشت! غير أنني. . . مدين لك بأمور كثيرة. . بل لقد كنت أريد. . .

وقطع الأمير حديثه فجأة، واسترخى، وأصبح حالماً. إنه بعد كل هزة (وكانت هذه الهزات يمكن أن توافيه في كل لحظة، لا يعلم سبب ذلك إلا الله)، يفقد في العادة قدرته على التفكير والتصرف بعض الوقت، إلا أنه يعود بسرعة إلى حاله الطبيعية، وكان ذلك كله لا يضيره كثيراً. وظللنا على هذه الحال مدة دقيقة. كانت شفته السفلى، السميكة، متدلية تدلياً تاماً. . والأمر الذي أثار دهشتي أكثر من أي شيء آخر هو أنه ذكر اسم ابنته، وخاصةً بهذه الصراحة كلها. وقد عزوت ذلك إلى ما انتابه من اضطراب الفكر. قال فجأة:

- Cher enfant أنت لا تؤاخذني إذا خاطبتك بصيغة المفرد[10]؟ أليس كذلك؟

- أبداً. على إنني أعترف لك أن ذلك قد ساءني في المرات

Twitter: @ketab_n

الأولى قليلاً، حتى لقد أردت أن أبادلك ذلك فأخاطبك بصيغة المفرد. ولكنني أدركت أن ذلك يكون حماقةً مني، لأنك لا تخاطبني بصيغة المفرد على سبيل الإهانة والإذلال.

ولاحظت أنه كان قد كف عن الإصغاء إليّ ونسي السؤال أساساً، بينما كنت أتكلم.

ورفع إليّ نظرته الشاردة فجأةً وسألني:

- حسناً، كيف أبوك؟

انتفضت. أولا لأنه سمى فرسيلوف أبي، وذلك ما لم يبحه لنفسه يوماً قط. وثانياً لأنه تكلم عن فرسيلوف، وذلك ما لم يحدث من قبل.

قلت في جفاف، وأنا احترق رغبةً في الاطلاع:

- إنه بلا مال، يجتر أفكاراً سوداء مظلمة.

- نعم، إنه بلا مال. وفي هذا اليوم نفسه إنما تُنظر قضيتهم في محكمة النقض والإبرام، وأنا أنتظر الأمير سرجي لأسمع ما سيقوله. لقد وعدني أن يجيء من المحكمة إلى هنا رأساً. إن مصيرهم كله يتقرر اليوم: والأمر أمر ستين ألفاً أو ثمانين. طبعاً أنا أحب الخير لآندره بتروفتش (أي فرسيلوف) أيضاً، وأظن أنه هو الذي سيكسب القضية. ولن ينال الأمراء شيئاً. ذلك هو القانون!

صحت مبهوتاً:

- اليوم يُفصل في القضية؟

لقد امتلأت انبهاتاً حين تصورت أن فرسيلوف لم يتنازل فينبئني بهذا الخبر. وسرعان ما قلت لنفسي «لا شك إذاً أنه لم يُطلع أمي ولعله لم يطلع أحدا قط، هذا هو طبعه!»

وفجأةً وافتني فكرة أخرى فسألت:

Twitter: @ketab_n

- وهل الأمير سوكولسكي الآن ببطرسبرج؟
- منذ أمس. جاء رأساً من برلين، لهذا اليوم.

وهذا نبأ آخر بالغ الخطورة عندي. «سيجيء اليوم إلى هنا، الرجل الذي وجّه الصفعة له!»

- أيْ نعم... (أردف الأمير يقول وقد تغير وجهه فجأة) هل لا يزال يَعِظ... ومن جديد يجري وراء الفتيات، الفتيات الصغيرات اللواتي ليس لهن في الحياة تجارب؟ هه هه! بالمناسبة، يبدو أن حادثاً مسلياً جداً سيقع الآن أيضاً... هه هه!

- من الذي يعظ؟ من الذي يجري وراء الفتيات؟

- أندريه بتروفتش! هل تصدق أنه كان لا ينفك يضايقنا جميعاً: ماذا نأكل؟ في أي شيء نفكر؟ وأسئلة أخرى من هذا القبيل. كان يخيفنا ويقول لنا سعياً إلى تطهيرنا: «إذا كنتم متدينين، فلماذا لا تدخلون الدير؟» هكذا، لا أكثر ولا أقل. Mais quelle idèe! (يا لها من فكرة) لعلها فكرة صحيحة، ولكن أليست قاسية جداً؟ وكان يحب أن يخيفني أنا خاصةً، بالحديث عن قيام الساعة ويوم الحساب.

- لم ألاحظ شيئاً من هذا وقد انقضى شهر على وجودنا معاً.

قلت ذلك نافذ الصبر، وقد ساءني أنه لم يعد إلى رشده وأنه لا يزال يتعثر في كلامه ويسوقه فوضى بغير ترتيب... ذلك أنه أصبح لا يقول الآن هذا الكلام. ولكن صدقني. هذا حق. إنه رجل ذكي لا يُجحد ذكاؤه، وإنه عميق العلم، ما في ذلك شك. ولكن هل هو متزن؟ لقد وقع له هذا كله بعد إقامته في الخارج ثلاث سنين. وإني لأعترف لك بأن ذلك هزني هزاً قوياً. كما هز سائر الناس على كل حال.... إنني أحبّ الله يا بني (بالفرنسية).

إنني مؤمن، مؤمن بقدر ما أستطيع. ولكنه قد أخرجني عن طوري

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة. . ولنسلم بأنني استعملت وسيلة كان فيها شيء من طيش. . لقد فعلت ذلك عامداً، من قبيل النكاية. ثم أن اعتراضي كان في حقيقة الأمر لا يقل جديةً عنه منذ بدء العالم. قلت له: «إذا كان يوجد كائن أسمى، وإذا كان يوجد وجوداً شخصياً، لا على صورة روح مبثوثة في الخليقة، على صورة سائل مثلاً (لأن هذا أعسر على الفهم أيضاً)، فأين يسكن، إذاً هذا الكائن الأسمى؟ أين مكانه؟» لقد كان هذا الكلام هراء يا صديقي من غير شك. ولكن ألا ترتد جميع الاعتراضات إليه؟ وقد غضب غضباً رهيباً. ذلك أنه كان قد اعتنق الكاثوليكية هنالك.

- سمعت من يقول هذا. ولا شك في أنه كذب واختلاق.

- أؤكد لك أن هذا هو الواقع، وأحلف عليه بأقدس ما أقدّس. انظر إليه وأنعم النظر! ثم إنك أنت نفسك تقول إنه تبدل. فهل تصدقه يوم كان يرهقنا ذلك الإرهاق كله؟ كان يصطنع أوضاع قديس. فلا يكاد ينقصه إلا أن يقوم بمعجزات. كان يحاسبنا على سلوكنا حساباً عسيراً، أقسم لك. معجزات. . . وإليك شيئاً آخر (بالفرنسية): وسواء أكان راهباً أم زاهداً، فهو هنا يرتدي مسوحاً على كل حال. . . وبعد هذا يتكلم على المعجزات! ألا إنها لرغبة غريبة لدى إنسان من المجتمع الراقي. لست أدعي طبعا أن. . فتلك أشياء مقدسة، وكل شيء يمكن أن يقع. . أضف إلى ذلك أن هذا كله de l'inconnu (من الأشياء المجهولة) لكن الأمر لا يليق بإنسان من المجتمع الراقي. وإني لأقسم لك صادقاً أن هذا الشيء لو وقع لي أو عرض عليَّ لرفضته. هبني أتناول اليوم طعام الغداء في النادي، ثم إذا بي أصنع المعجزات على حين غرة! لسوف يضحكون عليَّ. وقد أفصحت له عن هذا كله عندئذ. . وهل تعلم أنه كان يحمل سلاسل؟

Twitter: @ketab_n

احمر وجهي غضباً فسألته:

- هل رأيت أنت هذه السلاسل؟

- لم أرها، ولكن. . .

- إذاً فتلك أكاذيب، تلك أراجيف باطلة، تلك نميمة أعداء بل قل إنها نميمة عدو واحد، عدو رئيسي لدود، لأنه ليس له إلا عدو واحد، هو ابنتك!

وانفجر الأمير هو أيضاً قائلاً:

- Mon cher أرجوك وألح في الرجاء أن لا يُذكر اسم ابنتي بعد اليوم بصدد هذه الحكاية البشعة!

وهممت أن أنهض. لقد خرج الأمير عن طوره، وكانت ذقنه ترتجف ارتجافاً.

- هذه القصّة البشعة (بالفرنسية في الأصل) أنا لم أصدقها. . . ولم أشأ يوماً أن أصدقها. . ولكنهم يقولون لي باستمرار: صدق، صدق، وأنا. . .

ودخل علينا خادم في تلك اللحظة يبلغ عن قدوم زائرين. فقعدت من جديد.

- 4 -

دخلت سيدتان، بل قل فتاتان. . إحداهما هي زوجة ابن أحد أبناء عمومة المرحومة زوجة الأمير، أو هي شيء من هذا القبيل. إنها واحدة ممن يرعاهن الأمير، وكان قد وهب لها مهراً، وهي تملك ثروة ضخمة (أذكر هذا الآن للمستقبل). أما الثانية فهي آنا أندريفنا فرسيلوفا، بنت فرسيلوف، التي تكبرني بثلاث سنين وكانت تعيش مع أخيها لدى فاناريوتوفا، والتي لم أكن قد رأيتها قبل ذلك إلا مرة واحدة، مصادفةً

Twitter: @ketab_n

في الشارع، رغم إنني كنت قد تشاجرت مع أخيها، مصادفةً كذلك، في موسكو (قد أجيء على ذكر هذه المشاجرة فيما بعد، إذا وجدت متسعاً لذلك، لأنها لا تستحق في الواقع عناء الحديث عنها). إن آنا أندريفنا هذه كانت منذ طفولتها أثيرة الأمير الكبرى (كانت علاقات الأمير بفرسيلوف قد بدأت منذ زمن بعيد جداً). كنت قد بلغت من الاضطراب بسبب ما حدث قبيل دخولهما حدّ أنني لم أنهض، رغم أن الأمير هبّ واقفاً لاستقبالهما. ثم قدرت بعد ذلك أنه سيكون أمراً مخجلاً أن أنهض بعد فوات الأوان، فلبثت جالساً في مكاني. وكنت على وجه الخصوص متحيراً لا أدري ماذا أفعل، بعد أن صرخ الأمير في وجهي هذا الصراخ قبل دقائق ثلاث؛ ولبثت لا أدري أيجب أن أنصرف أم يحسن أن أبقى. ولكن العجوز الطيب كان قد نسي كل شيء على عادته، وانتعش انتعاشاً لطيفاً حين رأى الفتاتين. حتى لقد استطاع أن يسارع فيغيّر سحنته، ويغمزني غمزةً سرية، ليهمس في إذني على عجل قبيل دخولهما قائلاً:

- انظر إلى اولمبيادا جيداً، أنعم النظر فيها... وسأروي لك فيما بعد...

وقد أنعمت النظر إليها فعلاً، فلم أجد فيها شيئاً خاصاً يلفت النظر: هي فتاة متوسطة القامة، بدينة الجسم، حمراء الخدين احمراراً شديداً. وجه ممتع على كل حال، من تلك الوجوه التي ترضي الشهوانيين. ولقد يعبِّر عن طيبة، لكنه يعبر أيضاً عن خفايا. ليس الذكاء هو الذي يمكن أن يجعل هذه الفتاة لامعة، وأعني بالذكاء معناه العالي في أقلّ تقدير، لأن المكر واضح في عينيها. إنها لا تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها. لا شيء فيها يخطف البصر إذاً. فلو كنا في المدرسة الثانوية لوصفناها قائلين: مخدة طرية. (إذا كنت أصفها هذا الوصف المفصَّل

Twitter: @ketab_n

كله فما ذلك إلا لأنه سيفيدني فيما بعد).

هذا إلى أن كل ما وصفته حتى الآن مفصلا هذا التفصيل الذي قد يبدو نافلا لا حاجة إليه، إنما هو توطئة لازمة لما سيلي من حديث؛ إني لم أستطع أن أتحاشى ذكر هذه التفاصيل، فإن وجدتم كلامي مملاً باعثاً على السأم فلا تقرأوا.

أما بنت فرسيلوف فهي شخص آخر مختلف كل اختلاف: هي فتاة فارعة القوام، أميَل إلى النحافة، ذات وجه بيضاوي واضح الشحوب، ولكن شعرها فاحم غزير؛ عيناها قاتمتان واسعتان. نظرتها عميقة. شفتاها رقيقتان بلون الارجوان. فمها غض نضير. إنها أول امرأة لم توقظ مشيتها في نفسي شيئاً من اشمئزاز. ثم إنها رقيقة الحاشية على شيء من جفاف. وجهها لا يعبر عن طيبة القلب بقدر ما يعبر عن الجد والاتزان. وهي في الثانية والعشرين من عمرها ولا يكاد مظهرها يشبه مظهر فرسيلوف في شيء. ومع ذلك، يشعر المرء، لا أدري كيف، بأن بينها وبينه شبهاً عجيباً خارقاً في تعبير الوجه والسحنة. لا أدري أهي تعد جميلة أم لا، فالأمر هنا أمر ذوق. وكانت الفتاتان كلتاهما ترتديان ملابس بسيطة متواضعة، ليس فيها ما يستحق أن يوصف. وكنت أتوقع أنني لن ألبث أن تجرح شعوري نظرةٌ من فرسيلوفا أو حركة. وتهيأت للأمر. لقد أهانني فعلاً أخوها في موسكو منذ أول لقاء بيني وبينه في هذه الحياة. وما كان يمكن أن تعرفني إذا رأتني، ولكن لا شك أنها كانت قد سمعت عن ترددي على الأمير. فقد كان كل ما ينتويه الأمير أو يشرع فيه أو يقوم به يثير اهتماماً سريعاً ويبدو حدثاً كبيراً لدى كل هذه العصبة من الأقرباء و«المتوسلين»: فكان شغفه بي على حين فجأة أحقَّ باهتمامهم. وكنت أعلم علم اليقين أن الأمير مهتم أشد الاهتمام بمصير آنا آندريفنا، وأنه كان يبحث لها عن خطيب. ولكن العثور على خطيب

Twitter: @ketab_n

لفرسيلوفا كان أعز منالاً من العثور على خطيب لواحدة من أولئك اللواتي كن يطرزن له أغطية الوسائد.

وعلى خلاف كل ما كنت أتوقع رأيت فرسيلوفا، بعد أن صافحتْ الأمير وبادلته بعض الملاطفات الاجتماعية، تلقي عليَّ نظرة استطلاع قوية، حتى إذا لاحظت أنني أرنو إليها ببصري أيضاً، انحنت على حين فجأة مبتسمة. صحيح أنها كانت قد دخلت منذ هنيهة قصيرة، وأنها انحنت كما انحنت في المرة السابقة، ولكن ابتسامتها قد بلغت من اللطف مبلغاً يدل دلالة واضحة على أنها كانت مقصودة. وما زلت أذكر أنني شعرت من ذلك عندئذ بمتعة رائعة تبعث على الدهشة.

تمتم الأمير متلعثماً وقد لاحظ أنها حيتني وأنني لبثت قاعداً:

- وهنا... هنا... صديقي العزيز الشاب أركادي آندريفتش دول... - وانقطع فجأة عن إتمام جملته. لعله خجل أن يقدمني إليها (أي أن يقدم أخاً لأخته). وحيتني المخدة الطرية أيضاً. ولكنني ما لبثت أن غلى الدم في عروقي فجأة، بحماقة شديدة، فوثبت عن مقعدي: هي اندفاعة زهو مصطنع لا معنى لها البتة. هي أنانيّتي نفسها لم تتغيّر!.

قلت أقاطع الأمير مقاطعة عنيفة، ناسياً أنه كان عليَّ أن أرد تحية السيدتين كما تقتضي آداب اللياقة:

- عذرا أيها الأمير، أنا لست آركادي آندريفتش، بل آركادي ماكاروفتش.

- Mais tiens!

كذلك هتف الأمير وهو يلطم جبينه بأصبعه.

ودوَّى فوق رأسي سؤال غبي بطيء، ألقته عليَّ «المخدة الطرية» وهي تقترب مني اقتراباً شديداً:

- أين تعلمت؟

Twitter: @ketab_n

- بموسكو طبعا، في المدرسة الثانوية.

- ها... نعم. قيل لي ذلك. هل التعليم فيها جيد؟

- جيد جداً.

كنت لا أزال واقفا أجيب كما يجيب جندي رئيسه.

لا تدل أسئلة هذه الفتاة على كثير من الخيال طبعاً. لكن هذا لا ينفي أنها وجدت ما يُنسي الآخرين اندفاعتي الحمقاء السخيفة، وما يهدىء اضطراب الأمير، الذي أخذ يصغي، بابتسامة فرحة، إلى الأشياء المرحة التي كانت تهمس له بها فرسيلوفا (كان واضحاً أن الحديث بينهما لم يكن عنّي). ولكن لماذا قدرت هذه الفتاة التي لا أعرفها البتة أن من المفيد أن تقول ما يُنسي حماقتي الهوجاء وغير ذلك؟ إن من المستحيل على المرء أن يصدق أنها فعلت معي ذلك لغير سبب: لا شك أن لها نية. وكانت تنظر إليّ نظرة استطلاع شديد. لكأنها كانت تريد، هي أيضاً، أن أكثر من النظر إليها ما أمكن. أدركت هذا كله فيما بعد، ولم يخطئ ظني.

صاح الأمير يقول فجأة وهو ينهض عن مقعده:

- كيف؟ اليوم؟

فقالت فرسيلوفا مدهوشة:

- إذاً أنت لا تعرف ذلك. (Oh Olympe!) (يا آلهة الأولمب ـ بالفرنسية) كان الأمير لا يعلم أن كاترين نيقولايفنا تصل اليوم. وأضافت فرسيلوفا: لقد ذهبنا إليها وكنا نظن أنها ركبت قطار الصباح، وأنها في الدار منذ زمن طويل. ولكننا التقينا بها أمام سلم الباب، واصلةً من المحطة رأساً، فطلبت منا أن ندخل إليك، وستجيء إلى هنا بعد قليل... بل ها هي ذي قد وصلت!

انفتح الباب الجانبي وظهرت تلك المرأة!

Twitter: @ketab_n

كنت أتخيل وجهها من قبل، وذلك من صورة لها رائعة كانت معلقة في مكتب الأمير. كنت قد درست هذه الصورة طوال ذلك الشهر. وفي حضورها، قضيت في ذلك المكتب ثلاث دقائق، لا أُحول بصري عن وجهها لحظة واحدة. فلو كنت لا أعرف الصورة، ثم سألوني بعد تلك الدقائق الثلاث: «كيف وجدتها؟»، لما أجبتهم، لأنني كنت لا أرى رؤية واضحة.

لقد بقيت لي من تلك الدقائق الثلاث ذكرى امرأة رائعة، كان الأمير يقبّلها ويباركها بيده، ثم إذا هي، على حين غرة، بعد دخولها فوراً على وجه التقريب، أصبحت ترنو إليَّ. وسمعت بوضوح كيف دمدم لها الأمير بضع كلمات، وهو يومىء إليَّ من غير شك، وكيف أطلق ضحكة صغيرة في حق سكرتيره الجديد وهو يسمِّيني.

ورأيتها تبوِّز وترمقني بنظرة سيئة وتبتسم ابتسامة بلغت من الوقاحة أنني تقدمت خطوة إلى أمام، فاقتربت من الأمير، وتمتمت مرتعشاً ارتعاشاً جنونياً، دون أن أستطيع انهاء كلمة واحدة، مصطك الأسنان فيما أظن:

- إذاً . . أنا . . أنا الآن . . مشغول . . أنا ذاهب.

وأدرت ظهري وخرجت. لم يقل لي أحد شيئاً، ولا الأمير. اقتصروا جميعاً على ملاحقتي بأبصارهم. وقد أسرَّ لي الأمير فيما بعد أنني بلغت من اصفرار الوجه أنه «شعر بخوف».

ولكن، لم يكن هناك داع للخوف!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

– 1 –

لم يكن هناك داع للخوف حقاً: كان هنالك اعتبار واحد يستغرق جميع التفاصيل، كانت هنالك عاطفة قوية تعوض عندي كل ما عدا ذلك.

خرجت وأنا أشعر بنوع من الحماسة. وحين وضعت قدمي في الشارع كنت على استعداد لأن أصدح مغنياً. وبصدفة كأنها ميعاد، كان ذلك الصباح رائعاً: شمس، ومارة، وضوضاء، وحركة، وفرح، وازدحام. كيف لم أشعر بأن هذه المرأة أهانتني؟ وممن كان يمكنني أن أحتمل نظرة كهذه النظرة وابتسامة وقحة كهذه الابتسامة، دون أن أردّ رداً مباشراً مهما يكن أحمق؟ لاحظوا أنها إنما جاءت خصيصاً بنيّة إهانتي بأسرع ما يمكن، من قبل أن تراني. كنت في نظرها «سمسار فرسيلوف»، وكانت مقتنعة آنذاك وقد ظلت على هذه القناعة زمناً طويلاً بعد ذلك. إن فرسيلوف كان يقبض بيديه على مصيرها كله، وكان قادراً على تدميرها في أي ساعة، إذا هو أراد ذلك، بواسطة وثيقة من الوثائق. . أو هذا ما كانت تشتبه فيه على كل حال. كانت المبارزة مبارزة موت. ومع ذلك لم أشعر بأنني أُهنت! كان ثمة إهانة، لكنني لم أحسها! بل أكثر من ذلك! لقد شعرت بفرح. لقد جئت من أجل أن أكره، فإذا أنا أحس إنني بدأت أحبها. «إني لأتساءل هل يستطيع العنكبوت أن يكره الذبابة التي يتربص بها وليقبض عليها؟ أيتها الذبابة المسكينة! يخيل إليَّ أن المرء يحب

Twitter: @ketab_n

فريسته، أو أنه يستطيع أن يحبها على الأقل. هكذا أحببت أنا عدوي. إني لسعيد سعادة عظيمة بأنها جميلة هذا الجمال. إنني يا سيدتي لسعيد سعادة هائلة بأن تكوني متعجرفة هذه العجرفة كلها متكبرة هذا التكبر كله: لو كنت أكثر تواضعاً لكنتُ أنا أقل تلذذاً. لقد بصقت عليَّ، وأنا المنتصر في الواقع. لو أنك بصقت في وجهي فعلاً، لما زعلت، لأنك ضحيتي، ولأنك لي أنا، لا له هو! ما أشد فتنة هذه الفكرة! لا، لا شك في أن شعور المرء شعوراً خفياً بالقدرة أمتع كثيراً من السيطرة الظاهرة. لو كنت غنياً أملك الملايين، لطاب لي، فيما أظن، أن أرتدي ثياباً مرقعة، وأن أوهم غيري بأنني أبأس الناس طراً، وبأنني شبه متسول، وأن أجعلهم يزدرونني ويحتقرونني: حسبي عند ذلك شعوري بثرائي».

بهذا كنت أستطيع أن أفسر أفكاري وفرحي وكثيراً مما شعرت به يومذاك. لكنني أضيف الآن أن ما كتبته في هذه اللحظات أكثر سطحية في واقع الأمر: فالحق أنني كنت أعمق إحساساً وأشد حياءً. وربما ما زلت إلى الآن أشد حياءً في حقيقتي مما أقول ومما أفعل، والحمد لله!

ولعلني أخطأت، إذ أخذت أكتب: إنّ ما يبقى في أعماق النفس من أمور أكثر كثيراً مما يظهر في الكلمات. ما ظل تفكيرك في داخلك، فإنه مهما يكن ضعيفاً يظل أعمق مما حين تفصح عنه. أن تفكيرك، متى عبرت عنه، يصبح أقرب إلى الإضحاك وأبعد عن الصدق. لقد قال لي فرسيلوف إن نقيض هذا لا يصدق إلا على الأشرار من الناس. إن هؤلاء لا يزيدون على أن يكذبوا، فالكذب سهل عليهم. أما أنا فإنني أحاول أن أكتب الحقيقة كلها: وفي هذا صعوبة هائلة!

– 2 –

وفي ذلك اليوم 19، قمت «بخطوة» أخرى أيضاً.

Twitter: @ketab_n

لأول مرة منذ وصولي، كان في جيبي مال، لأن الستين روبلاً التي كنزتها خلال سنتين، كنت قد أعطيتها لأمي، كما سبق أن ذكرت ذلك. ولقد قررت منذ بضعة أيام أن أقوم، متى قبضت راتبي، «بتجربة» حلمت بها زمناً طويلاً. وكنت في اليوم السابق قد قصصت من إحدى الجرائد إعلاناً صادراً عن «المأمور الوزاري لدى مجلس محاكم الصلح في بطرسبرج»، إلخ إلخ... يقول إنه في «19 سبتمبر، عند الظهر، في حي تازان، مديرية رقم كذا، الخ الخ... في العمارة رقم كذا، ستباع بالمزاد العلني أثاثات السيدة لبرخت»، وأن «الجرد وتقدير الأسعار والأشياء المعروضة للبيع، يمكن الاطلاع عليها يوم البيع نفسه»، إلخ إلخ.

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية، فمضيت إلى المكان المعين سيراً على الأقدام. إنني منذ ثلاث سنين لا أتنقل بعربات وقد عاهدت نفسي على ذلك (ولولا ذلك ما استطعت أن أدخر ستين روبلاً). ولم أكن أذهب إلى المزادات يوماً، لم أكن قد أبحت لنفسي هذا بعد، وإذا كانت الخطوة التي أقوم بها الآن هي من قبيل التجريب، فإنني كنت قد قررت أن لا أقوم بها إلا بعد التخرج من المدرسة، وبعد أن أقطع صلتي بالعالم كله، فأعود إلى قوقعتي وأملك حريتي كاملة. صحيح، إنني كنت بعيدا عن أن أكون في «قوقعتي» وأملك حريتي، غير أنني كنت قد قررت أن لا أقوم بمثل هذه الخطوة إلا على سبيل التجربة، من أجل أن أرى، أو من أجل أن أحلم قليلاً، ثم قد لا أعود إلى مثل ذلك زمناً طويلاً بعدئذ، إلى أن يأتي اليوم الذي قد أعود فيه إلى هذا العمل جاداً. كان ذلك المزاد، عند غيري، مزاداً صغيراً لا قيمة له. أما عندي أنا فكان أول خشبة في المركب الذي سافر عليه كريستوفر كولومبس يستكشف أميركا. تلكم هي العواطف التي كانت تملأ نفسي حينذاك.

فلما بلغت المكان نفذت في مدخل من فناء العمارة التي حددها

Twitter: @ketab_n

الإعلان، ودخلت شقة السيدة لبرخت. إن الشقة تتألف من فسحة وأربع غرف صغيرة واطئة السقف. فأما في الغرفة الأولى بعد الباب فكان يزدحم جمهور يبلغ نحواً من ثلاثين شخصاً، نصفهم من الذين يشتركون في المزاد، والآخرون لا يخفى على الناظر إليهم من أول وهلة أن بعضهم فضوليون أو هواة أو أناس يشاركون في المزاد لمصلحة أسرة لبرخت؛ وكان هنالك تجار، وكان هناك يهود يترقبون أن يقعوا على أشياء مذهبّة، وكان هنالك أشخاص «مهندمون»، انطبعت وجوه بعضهم في ذاكرتي انطباعاً عميقاً. وعند الباب المفتوح من الغرفة الواقعة في الجهة اليمنى، وُضعت بين المصراعين منضدة تحول بين المرء وبين أن يستطيع الدخول إلى تلك الغرفة: فهناك كانت توجد الأشياء التي تضمها القائمة والتي تعرض للبيع. وعلى اليسار غرفة أخرى، لكن بابها مغلق ينشق من حين إلى حين فيُرى وراءه شخص ينظر: لا شك أن هذا الشخص هو أحد أفراد أسرة لبرخت الكثيرين، ولا شك أن السيدة لبرخت نفسها كانت تشعر في هذا الوقت بغير قليل من الخجل طبعاً. ووراء المنضدة، في مواجهة الجمهور تماماً، كان يجلس «مأمور الوزارة» متزيناً بشارته، يتولى البيع. وحين وصلت كان قد انتهى من المزاد نصفه تقريباً. فأسرعت أشق لنفسي طريقاً حتى بلغت المنضدة. كانت تُعرض عندئذ شمعدانات من البرونز. ونظرت.

نظرت ثم ما لبثت أن قلت لنفسي: ما عساي أشتري هنا؟ وأين أدس هذه الشمعدانات من البرونز؟ هل يتحقق هدفي؟ أهكذا تتم الأمور؟ هل يصدق حسابي؟ ترى ألم يكن حساب صبية صغار؟ كنت أدير هذه المعاني في نفسي وأنتظر. وذلك هو على وجه التقريب الشعور الذي يحسه إمرؤ أمام مائدة مقامرة قبيل «الحط» حينما يقترب بورقته. إنه يتساءل: «إن في وسعي أن «أحط»، وفي وسعي أن أمضي، وكل شيء

Twitter: @ketab_n

رهن بي». إن قلبه لا يكون قد أخذ يدق دقاً شديداً بعد، ولكنه يكون قد أخذ يتهالك ويخفق خفقاناً خفيفاً وذلك إحساس لا يخلو من لذة. ولكن التردد ما يلبث أن يثقل عليك، فأنت كالأعمى: تمد يدك، تتناول ورقة، ولكن على غير إرادة منك، وربما على رغم إرادتك، كأن شخصاً آخر هو الذي يحرك يدك. وها أنت ذا تقرر أخيراً، «فتحط». إن إحساسك يختلف عندئذ اختلافاً كبيراً، إنه إحساس آخر تماماً، إحساس كبير واسع. لست أتكلم الآن عن المزاد، وإنما أتكلم عن نفسي: من ذا غيري الذي لعله يشعر بخفقان القلب أثناء بيع بالمزاد؟

كان هنالك من يتحمسون، وكان هنالك من يصمتون ويترقبون. وكان هنالك من يشترون ثم يندمون. وما شعرت بشفقة قط على ذلك السيد الذي أخطأ السمع حين المناداة على إبريق من معدن الملخور، فحسبه من فضة فاشتراه بخمسة روبلات بدلاً من روبلين اثنين، حتى لقد أفرحني ذلك كثيراً. وكان مأمور المحكمة ينوِّع الأشياء التي يعرضها للبيع: فبعد الشمعدانات، عرض قرطين مما تزين به النساء آذانهن، ثم مخدة من جلد مطرز، ثم صندوقاً صغيراً. ولعله كان ينوع هذا التنويع إما للتنويع ذاته، وإما استجابةً لمطالب الجمهور. لم أستطع أن أنتظر أكثر من دقيقتين، فاقتربت من المخدة أولا، ثم من الصندوق الصغير، لكنني كنت في كل مرة أتوقف في اللحظة الحاسمة: مستحيل أن أشتري أشياء كهذه. وأخيراً ظهر بين يدي المأمور «ألبوم».

«ألبوم، مجلد بجلد أحمر، مستعمل، عليه رسوم بالتلوين المائي والحبر الصيني، في علبة من عاج محفور، مع مغاليق من فضة: روبلان!».

تقدمت: كان الألبوم يبدو أنيقاً، إلا أن في شغل عاجه عيباً. كنت الشخص الوحيد الذي مضى ينظر في «الألبوم». صمت الجميع. ما من

Twitter: @ketab_n

منافس. كان في إمكاني أن أسِلّ الألبوم من علبته لأدقق النظر فيه، لكنني لم أستعمل هذا الحق، وأشرت إلى المنادي بيد ترتعش:

- روبلان وخمسة كوبيكات.

كذلك قلت وأسناني تصطك فيما أظن.

وقع المزاد عليَّ. فسحبت الثمن فوراً من جيبي، دفعته وأخذت الألبوم، ومضيت إلى ركن من الغرفة، فأخرجته من علبته، وأخذت أتأمله محموماً مسرعاً: إذا صرفنا النظر عن العلبة فإن «الألبوم» أبأس «ألبوم» في الدنيا بأسرها.. هو ألبوم صغير ليس أكبر من ورقة صغيرة من أوراق الرسائل، نحيل شديد النحول، قد حال تذهيب غلافه وأطراف أوراقه أو كاد، يشبه تماماً تلك «الألبومات» التي كنا نراها لدى الفتيات بعد انتهائهن من المعاهد الداخلية. وقد رسمت عليه بالتلوين المائي والحبر الصيني رسوم معابد فوق جبال، ملائكة الحب، وغدير تسبح في مائه بجعات؛ وكتبت كذلك أبيات شعر:

أنا ذاهب مسافر بعيدا

أنا تارك موسكو ولن أعود

تحية الوداع يا أحبتي

إلى بلاد الكرم صارت وجهتي

(لقد بقيت هذه الأبيات في ذاكرتي!) وخلصت من ذلك إلى أنني «أخفقت إخفاقاً ذريعاً». إذا كان هناك شيء لا حاجة بأحد إليه في العالم كله، فهو هذا الشيء عينه.

قلت لنفسي: «لا ضير.. إن أول رهان خاسر دائماً. حتى لقد يكون خسراني هذا بشير خير».

لقد كنت فرحاً حقاً.

وفجأة دوى صوت في إذني قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- آ. . . وصلتُ متأخراً. هو معك؟ هل اشتريته؟

- كان صوت سيد يرتدي معطفاً أزرق، حسن القامة، جميل الهندام. لقد جاء متأخراً. وأضاف يقول:

- نعم، وصلت متأخراً. يا لها من خسارة! بكم اشتريته؟

- بروبلين وخمسة كوبيكات.

- خسارة! ألا تتنازل لي عنه؟

فهمست في أذنه قائلاً وقد أخذ قلبي يخفق:

- لنخرج!

وخرجنا إلى الفسحة أمام باب المنزل.

- أتنازل لك عنه بعشرة روبلات.

قلت له ذلك بينما كانت تسري في ظهري قشعريرة برد.

- عشرة روبلات! اسمح لي ما هذا الذي تقول؟

- أنت حر.

نظر إليَّ الرجل ملياً. كنت حسن الملبس، فما أشبه أن أكون يهودياً أو متاجراً. قال:

- ولكن، حنانيك! هذا ألبوم عتيق لا قيمة له! فيم عساه ينفعك؟ إن العلبة في الواقع لا تساوي شيئاً. ولن تجد من يشتريه منك.

- ومع ذلك فأنت تريد أن تشتريه.

- لسبب خاص، عرفته أمس فقط. أنا إنسان فريد. . لن تجد أحداً مثلي! تلطّف قليلاً!

- كان يجب أن أطلب خمسة وعشرين روبلاً، ولكن لما كان يمكن أن تعدل عندئذ عن شرائه فقد اكتفيت بطلب عشرة روبلات، زيادةً في الضمان. ولن أخفض الثمن كوبيكاً واحداً.

قلت ذلك ثم أدرت ظهري وانصرفت.

Twitter: @ketab_n

فأدركني في فناء الدار، وقال:

- خذ أربعة روبلات، بل إليك خمسة!

فظللت أسير دون أن أجيب.

- طيب. خذ! قال ذلك وهو يمدّ إليَّ عشرة روبلات، فأعطيته «الألبوم».

قال:

- أعترفْ أن هذا ليس من الشرف في شيء. شيء تشتريه بروبلين ثم تبيعه بعشرة!

- ولماذا لا يكون من الشرف في شيء؟ هذا سوق!

- أي سوق؟ (وأخذ يغضب).

- حيث يكون طلب يكون سوق. لولا أنك طلبته لما قدِّر لي أن أبيعه بأربعين كوبيكاً.

جهدت أن لا أنفجر ضاحكاً، وأن أحتفظ بمظهر الجد، فضحكت في داخل نفسي ضحكت لا عن حماسة، ولكن دون أن أعرف لماذا! وكنت كمن تختنق أنفاسه قليلاً.

جمجمت أقول له، رغم إرادتي تماماً، ولكن بلهجة الصديق، وعلى شعور بالمودة له:

- اسمع ما سأقوله لك. إن المرحوم جيمس روتشيلد الباريسي، الذي خلف تركة تقدر بمليار وسبعمائة مليون فرنك (هز الرجل رأسه موافقاً)، حين علم في شبابه، مصادفةً، قبل غيره ببضع ساعات، بمقتل الدوق بيرى[11]، أسرع يبلغ من يجب إبلاغه، فكسب بذلك عدة ملايين في طرفة عين. هكذا يُعمل!

- أأنت إذاً روتشيلد؟

كذلك صاح مستاءً كأنه يوجه كلامه إلى غبي أبله.

Twitter: @ketab_n

خرجت من البيت نشطاً. مسعى واحد بربح سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكا! لقد كانت مجازفتي حمقاء، كانت لعبة طفل. إنني أسلم بذلك. ولكنها كانت تتفق مع فكرتي ولا يمكن إلا أن تملأ نفسي انفعالاً عميقاً. . . ولكن لا داعي إلى وصف عاطفتي. إن الورقة النقدية في جيب صدرتي، وأنا أدس إصبعي في الجيب أتلمسها وأجسها، وأسير هكذا لا أستل يدي من جيبي. حتى إذا صرت على مسافة مائة متر من الدار، تناولت الورقة النقدية أنظر فيها، وأتفحصها، حتى لقد اشتهيت أن أقبلها. وفجأة توقفت أمام أحد المنازل عربة. ففتح البواب الباب وصعدت إلى العربة سيدة باذخة المظهر، في ريعان الصبا، بارعة الجمال، واسعة الثراء، ترفل في حرير ومخمل، ويبلغ ذيل ثوبها متراً ونصف متر. وفجأة أفلتت من يديها محفظة جميلة صغيرة فسقطت على الأرض. واستقرت السيدة في موضعها من العربة، فمال الخادم على الأرض يريد أن يتناول المحفظة، ولكنني أسرعت فالتقطتها بوثبة سريعة، ومددتها إلى السيدة رافعاً قبعتي (وهي قبعة عالية. لقد كنت أرتدي ملابس شاب يعنى بهندامه). فقالت لي السيدة في وقار وتحفظ، لكن مع ابتسامة لطيفة غاية اللطف: «Merci يا سيدي». ومضت العربة. وقبّلت ورقة العشرة روبلات.

– 3 –

في ذلك اليوم نفسه كان عليَّ أن ألقى إيفيم زفيريف، وهو واحد من رفاقي في المدرسة تركها ليدخل مدرسةً خاصةً ببطرسبرج. إنه لا يستحق أن أصفه الآن، ولم تكن تربطني به أي صداقة، ولكنني وجدته في بطرسبرج. إن في وسعه (وذلك بسبب ظروف لا تستحق أن تذكر أيضاً) أن يدلني على عنوان رجل اسمه كرافت، كنت في حاجة ماسة

Twitter: @ketab_n

إليه، فور رجوعه من فلنو. وكان زفيريف ينتظر وصوله في ذلك اليوم نفسه، أو في الغد، وأعلمني بذلك أول أمس. كان يجب عليَّ أن أذهب إلى بطرسبرجسكايا ستورونا[12]. لكنني لم أكن أشعر بتعب.

وجدت زفيريف (وهو في التاسعة عشرة من عمره أيضاً)، في فناء منزل عمته التي كان يقيم عندها مؤقتاً. كان قد تناول غداءه، فهو يتنزه الآن في الفناء فوق عكازين طويلين. فأسرع ينبئني أن كرافت وصل أمس، وأنه نزل شقته القديمة هنا، في بطرسبرجسكايا ستورونا، وأنه يريد هو أيضاً أن يراني في أقرب وقت ممكن، لأنه يحمل نبأ مستعجلاً يريد أن ينقله إليَّ وختم إيفيم كلامه بقوله:

- وسيسافر إلى مكان ما من جديد.

ولما كان لقائي كرافت على جانب عظيم من خطورة الشأن عندي، في الظروف الراهنة، فقد رجوت إيفيم أن يقودني إليه فوراً، ما دام يقيم في شارع صغير مجاور، على بعد خطوتين من هناك. ولكن زفيريف قال إنه صادفه منذ ساعة ذاهباً إلى درجاتشيف. وأردف يقول:

- فلنذهب إلى درجاتشيف! ما لك تتنصل دائماً؟ أأنت خائف؟

وبالفعل فقد يتأخر كرافت عند درجاتشيف، فأين عساي أجده بعدئذ؟ ولم أكن أخاف درجاتشيف، لكنني لا أحب أن أذهب إليه، رغم أن إيفيم حاول أن يأخذني إليه غير مرة. هذه هي المرة الثالثة على الأقل. وكان يطرح عليَّ دائماً هذا السؤال: «أأنت خائف؟» مبتسماً ابتسامة خبيثة. ولم يكن الأمر أمر خوف مع ذلك، أقول هذا سلفاً، وإذا كنت أشعر بشيء من خشية، فذلك شأن آخر. وقررت هذه المرة أن أذهب إلى درجاتشيف وكان المكان على مسافة خطوتين أيضاً. سألت إيفيم أثناء الطريق إذا كان لا يزال عازماً على الهروب إلى أميركا[13]. فأجاب يقول ضاحكا ضحكة يسيرة:

Twitter: @ketab_n

- قد أتريَّث.

لم أكن أحبه كثيراً، بل لم أكن أحبه البتة. إن شعره يشبه من شدة شقرته أن يكون أبيض وإن وجهه مدوّر مسرف في بياضه إلى حد غير لائق، يكاد يكون وجه صبي صغير. ورغم أنه أطول مني، فلقد كان من المستحيل أن يحسبه المرء فوق السابعة عشرة من العمر. أما أن يقوم بينك وبينه حديث فذلك مستحيل.

سألته لأضفي الجدية:

- وماذا يجري هنالك؟ أما تزال تجتمع عنده جمهرة غفيرة؟

فقال مرة أخرى ضاحكاً:

- ولكن لماذا لا تزال خائفا؟

أجبت غاضباً:

- كفاك سخفاً!

- لا جمهرة ولا شيء من ذلك. ليس يجيء إلا أصحاب. ما من غريب واحد، اطمئن بالا[14].

- وفيم يعنيني أن يكونوا أصحاباً أو غرباء؟ ثم، ألست أنا غريباً هناك؟ كيف تريد أن يثقوا بي؟

- يكفي أنني أقودك أنا إليهم. لقد سمعوا عنك. ومن الجائز أيضاً أن يقول كرافت رأيه فيك.

- اسمع، هل سيكون فاسين هناك؟

- لا أدري.

- إذا كان هناك فالكزني بكوعك ودلني عليه. متى دخلنا فوراً. سمعت؟

كنت قد سمعت كثيراً عن فاسين، وكنت أهتم به منذ زمن طويل.

كان درجاتشيف يسكن مع زوجته وأختها وإحدى قريباتهما في جناح

Twitter: @ketab_n

صغير بفناء المنزل الخشبي الذي تملكه امرأة أحد التجار، ولكنه كان يحتل الجناح كله. وكان الجناح يضم ثلاث غرف جميلة. إن ستائر النوافذ الأربع جميعها مسدلة. والرجل فني، شبه مهندس، له وظيفة في بطرسبرج. وقد علمت مصادفةً أنهم يعرضون عليه منصباً هاماً في المحافظة، وأنه كان يستعد للالتحاق بمنصبه هناك.

فما كدنا ندخل حجرة المدخل حتى سمعت أصواتاً تلعلع. لكأنهم في مناقشة حادة. وكان أحد ما يصيح باللاتينية: «ما لا تشفيه الأدوية يشفيه الحديد. وما لا يشفيه الحديد تشفيه النار».

شعرت بقلق حقاً. لم أكن قد تعودت صحبة المجتمع، أياً كان هذا المجتمع. صحيح إنني كنت أخاطب زملائي في المدرسة بصيغة المفرد، ولكن يمكنني أن أقول إنه لم يكن لي أي رفيق، فلقد جعلت لنفسي ركناً أنزوي فيه. على أن هذا ليس هو ما أقلقني يومئذ. وكنت قد وعدت نفسي، تحوّطاً، بأن لا أشارك في أي مناقشة، وأن لا أقول من الكلام إلا ما لا بد من قوله، حتى لا يستطيع أحد أن يخرج برأي عني. كنت قد قررت خاصة أن لا أناقش... خاصة أن لا أناقش.

كان في الغرفة سبعة أشخاص، فإذا عددت النساء صاروا عشرة. إن درجاتشيف في الخامسة والعشرين من عمره، وهو متزوج، ولزوجته أخت وقريبة أخرى كانتا تقيمان عنده أيضاً، أثاث الغرفة مهمل ولكنه كافٍ بل ونظيف. وعلى الجدار تُرى صورة مطبوعة بطريقة الليتوغرافيا، ولكنها لا قيمة لها؛ وفي الزاوية أيقونة لا يزينها معدن، لكن أمامها قنديلاً مشتعلاً. تقدم درجاتشيف يستقبلني، فصافحني، وقدم إليَّ مقعداً.

- اجلس. أنت هنا بين أصحابك.

وفي الحال أضافت سيدة شابة، لطيفة الوجه متواضعة الملبس، تقول:

Twitter: @ketab_n

- تفضل، أرجوك.

ثم خرجتْ فوراً بعد أن حيتني تحية خفيفة. إنها إمرأته. ويظهر أنها كانت تشارك في المناقشة. وقد مضت الآن تطعم طفلها. ولكن بقيت في الغرفة سيدتان، إحداهما قصيرة القامة جداً، في نحو العشرين من عمرها، ترتدي ثوباً أسود، لا بأس به؛ والثانية في نحو الثلاثين، جافة المظهر ثاقبة العينين. وكانت السيدتان جالستين، تصغيان إصغاء شديداً، لكنهما لا تشاركان في الحديث.

أما الرجال فقد كانوا جميعاً واقفين، إلا أنا وكرافت وفاسين اللذين سمّاهما لي إيفيم فوراً، لأنني أرى كرافت أول مرة أيضاً، فنهضت مقترباً منه للتعارف. لن أنسى أبداً وجه كرافت: ما من جمال خاص يلفت النظر، غير أن في وجهه رهافة خالية من أي خبث أو مكر، إلى وقار شخص يتجلى واضحاً في كل شيء. هو في السادسة والعشرين من العمر، نحيل بعض النحول، أطول من متوسط طول الرجال، أشقر، توحي إليك سحنته بالجد على رقة وعذوبة. إن نوعاً من هدوء يشع في شخصه كله. ومع ذلك أقول لك، إذا شئت أن تعرف هذا، إنني لا أرضى أبداً أن استبدل بوجهي الذي قد يكون حتى مبتذلاً للغاية، وجهه ذاك الذي بدا لي على هذا الجانب العظيم من الفتنة والإغراء. لقد كان في وجهه شيء لا أتمنى أن يكون في وجهي، شيء لا أدري ما هو؛ شيء من هدوء مفرط من الناحية الأخلاقية، شيء من كبر خفي يجهل نفسه. وعلى كل حال فأظن أنني لم أكن قادراً على أن أحكم في الأمر على هذا النحو تماماً. إنما الآن، أي بعد وقوع الحادث، يبدو لي أن حكمي قد قام على هذا الأساس حينذاك. قال كرافت:

- أنا سعيد بمجيئك. وعندي رسالة تهمك. سنلبث هنا لحظة، ثم نمضي إلى بيتي.

Twitter: @ketab_n

كان درجاتشيف متوسط القامة، قوي الجسم، أسمر اللون، عريض المنكبين، ذا لحية كبيرة. إنك ترى في نظرته الذكاء العملي، والرزانة في كل شيء، وشيئاً من تروٍ لا يخطئه قط. ومع أنه صامت أكثر الوقت، فقد كان واضحاً أنه هو الذي يدير دفة الحديث. أما فاسين فلم يلفت وجهه نظري كثيراً، رغم كل ما كنت قد سمعته عن ذكائه النادر: شاب أشقر اللون، واسع العينين، لونهما رمادي أشهب، شديد انبساط الوجه، ولكن على شيء من صلابة مفرطة. يشعر المرء أنه ليس بالرجل الاجتماعي كثيراً، لكن نظرته ذكية حقاً، أذكى من نظرة درجاتشيف، وأعمق منها، أي أذكى من نظرات سائر الحضور، ولكن من الممكن أنني أبالغ الآن في ذلك. وأما الآخرون جميعاً من هؤلاء الشباب فإنني لا أتذكر من بينهم إلا اثنين: واحداً طويل القامة، برونزي اللون، له شامات سوداء، كثير الكلام، في نحو السابعة والعشرين من العمر، هو معلم أو ما يشبه ذلك؛ وفتى في مثل سني، يرتدي عباءةً قصيرة واسعة مما يلبسه الفلاحون الروس، مخدد الجبين، شديد الصمت لا يتكلم، ولكنه يصغي إصغاءً قوياً. وقد اتضح فعلاً أن أصله من الفلاحين.

- لا.. ما هكذا يجب أن تطرح المسألة! فيما يتعلق بالبراهين الرياضية، ليس لي ما أعترض عليه. ولكنني، فيما يتصل بهذه الفكرة، مستعد لقبولها بغير براهين رياضية...

كذلك بدأ يتكلم المعلم ذو الشامات السوداء، يستأنف الحديث الذي كانوا آخذين فيه منذ قليل متحمساً أكثر من سائر الحضور.

فقاطعه درجاتشيف صاخباً يقول:

- مهلا يا تيخوميروف، إن الحضور الجدد لا يعرفون الموضوع

وهنا التفت فجأة نحوي وحدي (وإني لأعترف أنه إذا كان ينوي أن يمتحن الشخص «الجديد»، أو كان يريد أن يجبرني على الكلام، فقد

Twitter: @ketab_n

أحسن اختيار الوسيلة البارعة؛ لقد شعرت بذلك رأساً وتأهبت) الموضوع هو أن السيد كرافت، وهو معروف لدينا جميعاً بصلابة طبعه وقوة اقتناعاته، قد انتهى من النظر في أمر عادي جداً إلى استخلاص نتيجة خارقة أذهلتنا جميعاً. لقد انتهى إلى أن الشعب الروسي شعب من الدرجة الثانية. . .

صاح أحدهم:

- بل من الدرجة الثالثة!

- . . من الدرجة الثانية، شعب قُدِّر له أن يكون مجرد مادة لعرق أسمى وأنبل، فليس له أي دور مستقل في مصائر الإنسانية. وعلى أساس هذه النتيجة - التي ربما كانت صادقة - وصل السيد كرافت إلى أن نشاط أي روسي، أياً كان، لا بد أن تشله هذه الفكرة، فلا بد أن تُسبل أذرع الجميع إن صح التعبير و. . .

قال تيخوميروف نافد الصبر:

- اسمح لي يا درجاتشيف. ما هكذا يجب أن تطرح المسألة. (فأذعن درجاتشيف وترك له أن يتم كلامه) فقال تيخوميروف - لما كان كرافت قد قام بدراسات جدية، واستخرج مستنداً على علم الفيزيولوجيا استنتاجات يعدّها رياضية، ولعله ضيّع سنتين من وقته على فكرته (التي لا أرفض أن أقبلها هادئا a priori)[15] فلذلك، أي بسبب مخاوف كرافت وجديته، فإن الأمر يبدو لي ظاهرة خارقة. إن كل شيء يعونا إلى التساؤل عما عجز كرفت عن فهمه، وبهذا إنما يجب أن نُعنى به الآن، أقصد أن علينا أن نعرف سبب عجز كرافت عن فهم هذه المسألة. هذه ظاهرة يجب أن ننظر فيها، فنرى أهي حالة مفردة من اختصاص الطب، أم هي خاصةٌ يمكن أن تتكرر تكرراً طبيعياً في حالات أخرى. تلكم مسألة تهم القضية المشتركة. أما فيما يتعلق بروسيا فأنا أصدِّق كرافت،

Twitter: @ketab_n

بل أقول إن ذلك يسرني؛ فإذا سلَّم جميع الناس بهذه الفكرة فكَّت هذه الفكرة الوثاق الذي يقيد أيدينا، وحررت كثيراً من الناس من وهم الوطنية...

قال كرافت بشيء من جهد:

- لا شأن لهذا بالوطنية!

وكان يبدو عليه أن هذه المناقشات كلها تضايقه وتزعجه.

قال فاسين الذي ظل صامتاً مدة طويلة:

- وطنية، لا وطنية، دعوا هذا جانباً.

صاح الأستاذ (كان وحده يصيح، أما الآخرون فكانوا يتكلمون بصوت خافت):

- ولكن قولوا لي: هل يمكن للنتيجة التي وصل إليها كرافت أن تضعف التطلع إلى العمل المشترك الذي يجب أن تحققه الإنسانية؟ لنسلم جدلاً بأن روسيا قد قُدِّر لها أن تكون في المرتبة الثانية، أفلا يمكن العمل من أجل غيرها. ثم كيف يمكن أن يظل كرافت وطنياً إذا فقد الإيمان بروسيا؟

قال صوت من الأصوات:

- وفوق ذلك فهو ألماني، وليس روسياً.

- أنا روسي. قال كرافت.

- تلك مسألة لا تتعلق بصميم الموضوع.

كذلك قال درجاتشيف الذي قاطع الأستاذ.

قال تيخوميروف متابعاً كلامه كأنه لا يريد أن يسمع شيئاً:

- اخرجوا من الحيز الضيق لفكرتكم. إذا لم تكن روسيا إلا مادة لعروق أسمى وأنبل، فلماذا لا تقبل روسيا هذا الدور؟ إنه دور مشرف على كل حال. لماذا لا نرضى بهذه الفكرة إذا ما اتسعت حدود

Twitter: @ketab_n

المسألة؟ إن الإنسانية على أبواب تغيرها، وقد بدأ هذا التغير فعلاً. لا بد أن يكون المرء أعمى حتى لا يرى المهمات التي سيكون علينا أن ننهض بها. دعوا روسيا وشأنها إذا كنتم قد أصبحتم لا تؤمنون بها، واعملوا من أجل المستقبل، مستقبل شعب لمَّا يزل مجهولاً، ولكنه سيتألف من الإنسانية كلها، دون تفريق بين عروق. ستموت روسيا في يوم من الأيام على كل حال. إن الشعوب، مهما تكن موهوبة، تعيش ألفاِ وخمسمائة سنة، أو ألفي سنة في أقصى تقدير. وما من فرق تقريباً بين ألفي سنة ومائتي سنة. إن الرومانيين لم يبقوا ألفاً وخمسمائة سنة على حالة الحياة، وإنما تحولوا هم أيضاً إلى مادة. لا وجود لهم منذ زمان طويل، لكنهم أورثوا الإنسانية فكرة، وكانت هذه الفكرة عنصر تقدم للإنسانية. كيف يمكن إذاً أن نقول لإنسان إنه لم يبق هنالك شيء يُعمل؟ لا أستطيع أن أتصور حالة من الحالات لم يبق فيها شيء يُعمل! اعملوا من أجل الإنسانية، وانسوا كل ما عدا ذلك! ثمة أعمال لا يكفيها العمر إذا أنتم أنعمتم النظر!

- يجب على المرء أن يعيش وفق قانون الطبيعة والحقيقة.

كذلك قالت السيدة درجاتشيفا من وراء الباب. كان الباب مشقوقاً، فهي تُرى واقفةً أمام شق الباب، حاضنةً طفلها، مغطاة الصدر نصف تغطية، مصيخةً بسمعها في حماسة.

أصغى إليها كرافت وهو يبتسم ابتسامة خفيفة. وأخيراً، قال وقد بدا على وجهه الإعياء، ولكن في صدق قوي:

- أنا لا أفهم كيف يستطيع المرء، إذا هو كان خاضعاً لتأثير فكرة مسيطرة يرتبط بها عقله وقلبه ارتباطاً تاماً، أن يعيش أية حياة خارج هذه الفكرة؟

- ولكن إذا قيل لك بالحجج المنطقية والرياضية إن النتيجة التي

Twitter: @ketab_n

انتهيت إليها خطأ، وإن فكرتك كلها خطأ، وإنه لا يحق لك البتة أن تبعد نفسك عن العمل المشترك المفيد لمجرد أن روسيا محكومة حكماً لا راد له على أن تأتي قيمتها في المرتبة الثانية، وإذا أشير لك إلى أفق لا نهاية له ولا حدود، بدلاً من الأفق الضيق الذي يحجب نظرك، وإذا أمكن بدلاً من الفكرة الضيقة هذه عن الوطنية. . .

قال كرافت وهو يحرك يده متململاً:

- سبق أن قلت لكم إن الامر ليس أمر وطنية.

فتدخل فاسين فجأة يقول:

- ها هنا سوء تفاهم. الخطأ هو أننا لا نجد لدى كرافت مجرد استنتاج منطقي، وإنما نجد لديه استنتاجاً انحدر فصار إلى عاطفة إن صح التعبير. طبائع البشر ليست واحدة: كثير من البشر يتحول الاستدلال المنطقي عندهم أحياناً إلى عاطفة قوية تستولي على وجودهم كله، فيصعب جداً طردها أو تعديلها. فلكي نشفي إنساناً أصيب بهذا الداء علينا أن نغير هذه العاطفة بالذات، وهذا لا يكون ممكناً إلا بأن نحل محل هذه العاطفة عاطفة أخرى تساويها. وذلك صعب دائماً، حتى لقد يكون في بعض الأحيان مستحيلاً.

صاح المجادل:

- خطأ! إن النتيجة المنطقية تبدد بذاتها الأحكام السابقة والأوهام المستقرة. والاقتناع المعقول يولد عاطفة تناسبه. إن الفكر ينبع من العاطفة، حتى إذا استقر في الإنسان قام يولِّد بدوره عاطفة جديدة!

- الناس متفاوتون، فبعضهم يغيّر عاطفته بسهولة، وبعضهم بصعوبة.

كذلك قال فاسين وقد بدا عليه أنه لا يريد أن يطيل المناقشة. أما أنا فقد راقتني فكرته وأعجبتني أيما إعجاب.

Twitter: @ketab_n

فقلت له على حين بغتة أحطم الجليد وأبدأ الكلام:

- صحيح تماماً ما قلت! فالحق أنك لا تستطيع أن تزيل عاطفة إلا بإحلال عاطفة أخرى يمكن أن تقوم مقامها. أذكر أنه منذ أربع سنوات.. وكان ذلك في موسكو.. وقع لجنرال من الجنرالات... أنا لم أكن أعرفه... ولكن يمكن أن لا يكون ممن يوحون بالاحترام... أضيفوا إلى ذلك أن الواقعة نفسها يمكن أن تبدو غير معقولة... المهم أن هذا الجنرال قد فقد ابنةً له.. بل فقد ابنتين، واحدةً بعد أخرى.. بالحمّى... إن هذا الرجل قد بلغ فجأة من الإرهاق حدّاً جعله لا ينسى مصيبته لحظة واحدة... كان في حداد دائم لا يملك المرء حين يراه إلا أن يتألم... ثم لم يمض نصف سنة حتى مات. أما أنه مات حزناً وألماً فتلك واقعة لا ريب فيها!

والسؤال: بما كان يمكن شفاؤه؟ والجواب: بعاطفة تساوي قوة عاطفته! كان ينبغي عندئذ إخراج ابنتيه من القبر وردهما إليه! أقصد.. شيئاً من هذا القبيل! لقد مات الرجل! ولكن كان يمكن أن تقدم له براهين رائعة: أن يقال له إن الحياة قصيرة، وإن كل إنسان إلى فناء؛ كان يمكن أن تؤخذ له أرقام من سجلات الوفيات عن عدد الأطفال الذين ماتوا بالحمى القرمزية... لقد كان الجنرال محالاً على التقاعد...

هنا توقفت عن الكلام مختنقاً، ونظرت حولي.

قال أحدهم:

- الأمر مختلف!

قال فاسين ملتفتاً نحوي:

- إن الواقعة التي ذكرتها، على كونها من طبيعة أخرى غير ما نحن بصدده، تشبهه بعض الشبه وتلقي عليه ضوءاً.

Twitter: @ketab_n

- 4 -

يجب أن أعترف هنا لماذا افتتنت بالحجّة التي أدلى بها فاسين عن «الفكرة- العاطفة»؛ ويجب علي أن أعترف في الوقت نفسه أنني شعرت بعار جهنمي. نعم لقد كنت أخاف أن أذهب إلى منزل درجاتشيف، ولكن لسبب آخر غير السبب الذي كان يظنه إيفيم. كنت أخاف، لأنني كنت أخشى هؤلاء الناس منذ كنت بموسكو. كنت أعرف أنهم (هم أو أضرابهم، الأمر سيان) أناس مجادلون من أنصار الديالكتيك، وأن من الجائز جداً أن يمزقوا «فكرتي» إرباً إرباً. كنت على ثقة تامة بأنني لن أبوح لهم بها. ولكن كان يمكن (هم أو أضرابهم، أقولها مرة أخرى) أن يقولوا أشياء قد تفقدني ثقتي بفكرتي حتى دون أن أشير لهم إليها. لقد كان في «فكرتي» مشكلات لم أحلها، ولكنني لا أريد لهذه المشكلات أن يحلها أحد عني. حتى لقد انقطعت في هاتين السنتين الأخيرتين عن القراءة، مخافة أن أقع على فقرة من الفقرات لا تؤيد «فكرتي» حتى وقد تزعزعني. وهذا فاسين يحل المسألة من أول وهلة، ويهدىء روعي إلى أقصى حد. ما الذي كان يخيفني فعلاً، وماذا كان في وسعهم أن يفعلوه لي بكل ما يملكون من جدل؟ لعلني الشخص الوحيد الذي فهم ما أراد أن يقوله فاسين حين تحدث عن «الفكرة-العاطفة»! ليس يكفي أن تدحض فكرةً جميلة، وإنما ينبغي لك أن تحل محلها فكرة تضارعها جمالاً. وبدون ذلك فإنني إذ أرفض التخلي عن عاطفتي بحال من الأحوال، أستطيع أن أدحض دحضهم في قرارة قلبي، ولو إكراهاً وإجباراً مهما تكن أدلّتهم. وما الذي كان في وسعهم، أن يعطوني بديلاً عن فكرتي؟ أما كان ينبغي إذن أن أكون أكثر شجاعة. كان عليَّ أن أملك مزيداً من البسالة. ولذا فإنني حين تحمست لرأي فاسين شعرت بعار، وأحسست إنني طفل لا يستحق الاحترام!

Twitter: @ketab_n

وثمة أمر آخر أشعرني بالعار. إن تلك العاطفة المحتقرة التي تدفع المرء إلى تغليب رأيه ليست هي التي حملتني على تحطيم الجليد والأخذ بالكلام؛ وإنما حملتني على ذلك رغبة في الوثوب إلى «معانقة» الناس، من أجل أن يجدوا أنني رجل طيب، من أجل أن يأخذوا بتقبيلي، أو شيء من هذا القبيل (شيء دميم قبيح على كل حال). وأعتقد أن هذه الرغبة هي أبشع الرغبات التي تثير الشعور بالخزي في نفسي. لقد لاحظت وجود هذه الرغبة في نفسي منذ زمن طويل؛ لاحظتها وأنا قابع في ذلك الركن الذي قبعت فيه ذلك العدد كله من السنين، دون أن أشعر بندامة. كنت أعرف أن عليَّ أن أكون بين الناس أشد جهامة. على أن الشيء الوحيد الذي كان يعزيني، بعد كل مرة من مرات شعوري بالعار هذا، هو أن «فكرتي» لا تزال رغم كل شيء ملكي، كامنة في مخبئها، وأنني ما أفضيت بها إلى أحد. كان ينقبض صدري حين أتصور أحياناً أنني في اليوم الذي سأبوح بفكرتي لأحد فلن يبقى لي بعدئذ شيء، وسأكون بعدئذ شبيهاً بسائر الناس، وأنني قد أترك فكرتي نفسها حينذاك. لذلك كنت أحافظ عليها، وأصونها، وأخشى الثرثرات. وهاأنذا فقدت تحفظي عند درجاتشيف منذ أول لقاء تقريباً: صحيح أنني لم أبح بشيء، لكنني لغوت لغواً كثيراً لا يغتفر. شعرت بالعار. ذكرى أليمة! لا، لن أستطيع أن أعيش مع البشر. ما زلت مقتنعاً بهذا إلى اليوم. إني لأتحدث عن أربعين سنة سلفاً. إن فكرتي هي ملاذي ومأواي.

– 5 –

ما إن أيد فاسين كلامي حتى تملكتني رغبة في الكلام لا سبيل إلى مقاومتها.

Twitter: @ketab_n

- في رأيي أن من حق كل إنسان أن يكون له مشاعر وعواطف. . شريطة أن يكون ذلك عن اقتناع. . . وليس لأحد أن يأخذ عليه ذلك.

قلت هذا متجهاً بالكلام إلى فاسين. وقد نطقت بالعبارة حارة سريعة، ولكن خيِّل إليَّ أن إنساناً آخر هو الذي فعل، حتى لكأن لساناً، غير لساني كان يتحرك في فمي.

- يا. . . سلا. . . م. .

بذلك نطق هازئاً الصوت نفسه الذي قاطع درجاتشيف منذ هنيهة، والذي صاح يصف كرافت بأنه ألماني. وإذ عددته إنساناً تافهاً لا قيمة له البتة، التفتّ نحو الأستاذ، كأنه هو الذي صاح. وقلت:

- يقيني أنه ليس لي حق في أن أحكم على أحد.

وكنت قد أخذت أرتجف لعلمي سلفاً بأنني لن أتوقف عن الكلام.

- لماذا هذا التكتم؟ - تردد صوت الشخص التافه ثانية.

وقلت وأنا أحدق في الأستاذ الذي لزم الصمت وراح ينظر إليَّ مبتسماً:

- لكل إنسان فكرته.

صاح التافه يسأل:

- وأنت ما فكرتك؟

- يطول شرحها كثيراً. . .

ولكن إذا أردت أن أذكر لك شيئاً منها فإن فكرتي هي ليدعني الناس وشأني. ما بقي معي روبلان، فإنني أريد أن أعيش وحيداً، أن لا أكون رهناً بأحد (هدىء روعك، إنني أعرف الاعتراضات)، وأن لا أعمل حتى ولا من أجل الإنسانية الكبيرة المقبلة التي أرادوا أن يقحموا السيد كرافت في خدمتها. إن الحرية الفردية، أعني حريتي أنا، هي قبل كل شيء. ولا أريد أن أعرف شيئاً عداها.

Twitter: @ketab_n

وكان خطئي أنني غضبت.

- يعني أنك تدعو إلى هدوء البقرة الشبعانة، أليس كذلك؟

- فليكن. ليس في البقرة ما يؤذي. لست مديناً لأحد بشيء: إنني أدفع للمجتمع ما عليّ في صورة ضرائب، حتى لا أُسرق، حتى لا أُضرب، حتى لا أُقتل، وليس لأحد أن يطالبني بأكثر من ذلك. قد تكون لي، شخصياً، أفكار أخرى، وربما كنت أريد أن أخدم الإنسانية، ولسوف أخدمها، ولعلني سأخدمها أكثر من جميع الواعظين عشر مرات. ولكنني أريد ألا يطالبني أحد بهذه الخدمة، لا أريد أن يكرهني عليها أحد إكراها، كما تريدون إكراه السيد كرافت. أريد لحريتي أن تبقى كاملة، حتى ولو لم أحرك إصبعي. أما أن أركض وأمضي أتشبث بأعناق الناس حباً بالإنسانية، وأن أذرف الدموع رقة وحناناً، فما ذلك إلا «موضة». ثم لماذا يجب عليَّ أن أحب جاري، أو أن أحب الإنسانية المقبلة التي تتحدثون عنها، الإنسانية التي لن أراها يوماً، والتي لن تعرفني يوماً، والتي ستزول هي أيضاً من غير أن تخلف لا أثراً ولا ذكرى حين تستحيل الأرض بدورها إلى كتلة جليدية وتطير في الفضاء بلا هواء مع طائفة لا حصر لها من كتل جليدية أخرى مثلها. ألا إن هذا أسخف ما يمكن أن يتخيله خيال! هذه عقيدتكم، فانظروا ما هي! قل لي: لماذا يجب عليَّ حتماً أن أكون كريماً، خاصة إذا كان كل شيء لا يدوم إلا لحظة!

صاح صوت:

- هو و ا ه!

كنت قد أطلقت هذه العبارات كلها في غضب وخبث، محرقاً جميع سفني. كنت أعلم أنني أطير إلى الهاوية، ولكنني كنت أسرع خشية الاعتراض. كنت أحس أنني أسوق كلامي فوضى على غير هدى، بلا

Twitter: @ketab_n

تسلسل ولا نظام، ولكنني كنت أتعجل إقناعهم وسحقهم. كان هذا على جانب عظيم من خطورة الشأن في نظري! لقد تأهبت ثلاث سنين! والأمر العجيب الذي يلفت النظر أنهم صمتوا دفعة واحدة، كأنهم لم يقولوا شيئاً، واكتفوا جميعاً بالإصغاء. وأردفت أقول موجهاً كلامي إلى الأستاذ:

- تماماً. إن هناك رجلاً عظيم الذكاء قال يوماً فيما قال إنه لا شيء أصعب من الإجابة عن هذا السؤال: «لماذا يجب على المرء أن يتمسك بالفضيلة؟» إن في هذه الحياة الدنيا ثلاثة أنواع من الأوغاد: أوغاد سذج مقتنعين بأن رذالتهم هي الفضيلة المثلى، وأرذال خجلين هم أولئك الذين يحمرّون حياءً من رذالتهم ومن إصرارهم على أن يمضوا فيها إلى النهاية، وأرذال أرذال، أرذال محض. واسمحوا لي أن أضرب لكم هذا المثال: لي رفيق اسمه لامبرت، كان يقول لي، ولـمَّا نتجاوز السادسة عشرة من العمر، إنه حين سيصير غنياً ستكون أعظم لذة يتمتع بها هي أن يغذي كلاباً بخبزٍ ولحم بينما يموت أولاد الفقراء جوعاً، وأنه إذا رأى هؤلاء الفقراء يرتعدون من شدة البرد ولا يملكون ما يستدفئون به، فسيشتري أكواماً كبيرة من الحطب فيمضي بها إلى العراء يحرقها هنالك ليدفىء بها الهواء دون أن يعطيهم منها عوداً واحداً. انظروا إلى عواطف هذا الفتى ثم قولوا بماذا عساي أجيب هذا الوغد المحض إذا هو سألني: «لماذا يجب عليَّ قطعاً أن أتمسك بالفضيلة؟»، ولا سيما في هذا العصر الذي جعلتموه على هذه الصورة. إن الأمور لم تكن في يوم من الأيام أسوأ منها الآن. إن الوضع في مجتمعنا أيها السادة، خالٍ من أي وضوح. إنكم تجحدون وجود الله، وتجحدون القداسة، فما عسى أن تكون القاعدة الصماء العمياء البهيمة التي يمكن أن تجبرني على أن أسلك سلوكاً ما إذا كان من الأنفع لي أن أسلك سلوكاً آخر؟ تقولون:

Twitter: @ketab_n

«إن تصرفي الحكيم تجاه الإنسانية هو من مصلحتي أنا أيضاً». ولكن إذا كنت أعتبر كل هذه الأشياء الحكيمة، كل هذه الثكنات، كل هذه الكتائب[16]، غير حكيمة، فماذا أصنع بهذا كله، وماذا أصنع بمستقبلكم وليس لي إلا حياة واحدة أعيشها! دعوني أعرف مصلحتي بنفسي: فسأستخرج من ذلك لذة أكبر. ما شأني أنا بما سيجري في إنسانيتكم هذه بعد ألف عام، إذا كان قانونكم لا يهب لي جزاء ذلك لا حباً ولا حياة آخرة ولا شهادة بفضيلتي؟ لا يا سادتي، إذا كان الأمر كذلك، فسأحيا لنفسي كأوقح ما تكون حياة امرىء لنفسه. وإلى الجحيم فليذهب الآخرون!

- يا لها من رغبة كريمة وتمنيات لطيفة تتمناها للناس!

- وأنا مستعد مع ذلك لأن أتبعهم.

- أحسنت! (ذلك الصوت نفسه قال هذا).

وظل الآخرون صامتين جميعاً، ينظرون إليَّ ويلاحظونني. ولكن سرعان ما أخذت تظهر شيئاً فشيئاً في أركان شتى من الغرفة، ضحكاتٌ بدأت متخفيةً ثم سفرت فراحوا يهزأون مني جميعاً وجهاً لوجه، إلا فاسين وكرافت. وكان ذو الشامات السوداء يبتسم أيضاً: يحدق إليَّ ويصغي. قلت وأنا أرتعش من قمة رأسي إلى أخمص قدمي:

- أيها السادة، لن أقول لكم فكرتي مهما كلف الأمر. ولكنني، بالعكس، أسألكم، من وجهة نظركم أنتم، لا من وجهة نظري أنا، لأنني ربما كنت أحب الإنسانية ألف مرة أكثر منكم مجتمعين! أسألكم أن تقولوا لي، وأنتم مضطرون أن تجيبوني الآن، لا بدّ أن تجيبوني لأنكم تضحكون: ما الذي تستطيعون إغرائي به لكي أتبعكم؟ كيف تبرهنون لي على أن الأمور ستكون أفضل في ظلّ نظامكم؟ ماذا أنتم فاعلون باحتجاجي في ثكنتكم؟ منذ زمان، أيها السادة، كنت أرغب أن

Twitter: @ketab_n

ألتقي بكم! سيكون لديكم الثكنة والمساكن المشتركة والاكتفاء بالضروري فقط، والإلحاد والزوجات المشاع بغير أولاد. ذلك هو خاتمة مطافكم، أنا أعرفه. وفي سبيل هذا الجزء اليسير الزهيد من المصلحة المتوسطة التي سيكفلها تنظيمكم العقلي، في سبيل قطعة خبز وقليل من دفء، وشيء من مَلْبَس تريدون أن تأخذوا كل شخصيتي في مقابل ذلك! انتظروا قليلاً! لنفرض أن أحداً انتزع مني امرأتي. فهل تقيدونني تقييداً كافياً يمنعني من قتل غريمي؟ رب قائل منكم يقول لي: ولكنك ستصبح أنت نفسك أعقل من ذلك يومئذ. ولكن امرأتي، ما عساها تقول عن بعل متعقل كل هذا التعقل، إذا كانت تحترم نفسها أقل احترام؟ اعترفوا أن هذا مخالف للطبيعة. ألا تخجلون؟

هتف صوت الرجل التافه قائلاً في سخرية:

- أأنت اختصاصي.. في شؤون النساء؟

فمرت بي لحظة تمنيت فيها أن أنهض له مسرعاً فاوسعه ضرباً مبرحاً. إنه رجل قصير أحمر أنمش.. على كل حال، ليس مظهره بالأمر الذي يهمني!

- طمّن بالك. إنني ما عرفت النساء بعد.

أطلقت هذه الجملة ملتفتاً إليه أول مرة.

- اعتراف غريب كان يمكن أن يقال بلغة أقرب إلى التهذيب والأدب في حضور سيدات.

ولكن جميع المجتمعين أخذوا يتحركون؛ فهم يتناولون قبعاتهم ويلوح عليهم أنهم منصرفون لا بسببي، بل لأنه آن الأوان. غير أن هذه الطريقة في معاملتي بالصمت ملأتني شعوراً بالعار. ونهضت أنا أيضاً.

- اسمح أن أعرف اسمك رغم كل شيء. إنك لم تكفّ عن النظر إليّ.

Twitter: @ketab_n

كذلك سألني الأستاذ وهو يتقدم نحوي خطوة، مبتسماً ابتسامة خبيثة.

- دولجوروكي.

- الأمير دولجوروكي؟

- بل دولجوروكي فحسب، ابن قن قديم اسمه ماكار دولجوروكي، وابن زنا لمولاي السابق السيد فرسيلوف. طمّنوا بالكم يا سادتي، فلست أقول هذا من أجل أن ترتموا جميعاً على عنقي وأن نذرف جميعاً الدموع تأثراً كالعجول!

فانفجرت عاصفة من الضحك تدوي بلا تحرج حتى استيقظ من شدة أصواتها الطفل الذي كان نائماً في الجهة الأخرى وأخذ يبكي. كنت أرتعش غيظاً. وصافح الجميع درجاتشيف وانصرفوا دون أن يولوني أي التفات.

قال كرافت وهو يلكزني بكوعه: - هيا بنا.

فتقدمت نحو درجاتشيف فصافحته بكل قواي وهززت يده مرات، بكل قواي أيضاً.

قال لي كرافت:

- معذرة من أن كودريوموف قد آذاك. (إن كودريوموف هو الرجل القصير الأحمر).

وتبعت كرافت، لا أشعر بخجل من شيء.

- 6 -

بديهي أن بيني اليوم وبيني يومئذٍ مسافة هائلة.

ظللت أمضي «غيرَ خجل من شيء» حتى أدركت فاسين على السلم، تاركاً كرافت، لأني اعتبرته شخصاً من الدرجة الثانية، فسألته بلهجة

Twitter: @ketab_n

طبيعية وهيئة عادية كأن شيئاً لم يحدث:

- أعتقد أنك تعرف أبي، أقصد فرسيلوف؟

فأجاب على الفور (دون اصطناع ذرة من تلك اللباقة الرقيقة، ولكن الجارحة، التي يعمد إليها أولئك الأشخاص اللطاف مع أناس كانوا منذ لحظة قد ارتكبوا فضيحة)، أجاب قائلاً:

- لا أعرفه معرفة خاصة، ولكنني أعرفه قليلاً، فقد التقيت به وسمعته.

- إذا كنت قد سمعته فقد عرفته، لأنك أنت ما أنت! فما رأيك إذاً فيه؟ اغفر لي هذا السؤال المباغت، ولكنني في حاجة إلى جوابك؛ في حاجة إلى أن أعرف رأيك أنت فيه، رأيك بالذات.

- سؤال صعب. يخيل إليَّ أن هذا الإنسان قادر على أن يفرض على نفسه أشياء كبيرة، وربما كان قادراً على أن ينفذها، ولكنه يأبى أن يحاسبه أحد.

- هذا صحيح. هذا صحيح كل الصحة. إنه شديد الكبرياء! ولكن أهو نقي تماماً؟ اسمع. ما رأيك في كاثوليكيته؟ ولكنني نسيت أنك ربما كنت لا تعلم...

لولا أنني كنت مضطرباً هذا الاضطراب كله فلا شك أنني ما كنت لألقي مثل هذه الأسئلة مباغتةً على إنسان لم أكلمه قبل ذلك في حياتي قط، ولا كنت أعرفه إلا من السمعة. وأدهشني أن فاسين لم يبد عليه أنه يلاحظ جنوني هذا.

- لقد سمعت كلاماً من هذا القبيل أيضاً، ولكنني لا أدري إلى أي حد يمكن أن يكون ذلك صدقاً.

كذلك أجاب بلهجة لا تزال معتدلة هادئة. قلت:

- ليس في ذلك أي صدق! ليس ذلك إلا كذباً! هل تتصور أن من

Twitter: @ketab_n

الممكن أن يؤمن بالله؟

- إنه إنسان شديد الكبرياء والإعجاب بنفسه، كما قلت أنت ذلك منذ هنيهة، وكثير من المتكبرين جداً يحبون أن يؤمنوا بالله، وخاصةً أولئك الذين يحتقرون الناس بعض الاحتقار. كثير من الناس الأقوياء يشعرون بنوع من حاجة طبيعية إلى أحد أو إلى شيء يعبدونه. إن الإنسان القوي يشق عليه كثيراً في بعض الأحيان أن يحتمل قوته.

صحت أقول:

- اسمع إذاً! ذلك ما لا بد أنه الحقيقة الصادقة صدقاً رهيباً! ولكنني أريد أن أفهم..

- السبب في هذا واضح: إنهم يختارون الله، حتى لا يعبدوا البشر، طبعاً دون أن يدركوا هم أنفسهم ما يجري في قرارة أنفسهم: أولئك هم أشد المؤمنين حماسة للإيمان، أو قل أولئك هم أشد المؤمنين رغبة في الإيمان، غير أنهم يحسبون رغبتهم هذه إيماناً. وهؤلاء أنفسهم هم أيضاً أولئك الذين يفقدون آخر الأمر أوهامهم في أكثر الأحيان. أما السيد فرسيلوف، فأحسب أن في طبعه صفات صادقة كل الصدق. وهو على كل حال إنسان يلفت نظري.

هتفت أقول:

- فاسين، إن كلامك يسرني! ليس ذكاؤك هو ما يدهشني، وإنما يدهشني أن إنساناً له هذا الصفاء كله، ويتفوق عليَّ هذا التفوق الذي لا حدود له، يرضى أن يسير إلى جانبي وأن يكلمني بمثل هذه البساطة وبمثل هذا التأدب حتى لكأن شيئاً لم يحدث.

ابتسم فاسين:

- أنت تمتدحني فوق ما أستحق. إن ما حدث هنالك لا يدل إلا

Twitter: @ketab_n

على أنك مسرف في حب المناقشات المجردة. أظنّ أنك كنت قد صَمَتَّ حتى ذلك الحين زمناً طويلاً.

- صمتُّ ثلاث سنين؛ ثلاثَ سنين كنت أتأهب للكلام... ولئن لم أظهر لك غبياً فلأنك أنت ذكي إلى أقصى حدود الذكاء، أما سلوكي أنا فكان يستحيل أن يكون أشد حماقة وأكثر غباء مما كان. ولكنني بدوت لك وغداً!

- وغداً؟

- نعم، بدون شك! قل لي بصراحة: ألا تحتقرني في داخل نفسك لأنني ذكرت أنني ابن زنا لفرسيلوف... ولأنني تفاخرت بأنني ابن قن؟

- أنت تسرف في تعذيب نفسك. إذا كنت ترى أنه ما كان لك أن تقول ذلك، فليس عليك إلا أن تمتنع عن قوله مرة أخرى. إن أمامك خمسين سنة.

- أنا أعلم أن عليَّ أن أكون صامتاً مع الناس. أسوأ مساوىء المرء أن يرتمي على أعناق الآخرين. لقد قلت لهم ذلك منذ قليل. وهاأنذا مع ذلك أرتمي على عنقك! إلا أن هناك فرقاً بين الأمرين، أليس هذا صحيحاً؟ فإذا كنت قد أدركت هذا الفرق، إذا كنت قد استطعت أن تدركه، فإنني أبارك هذه الدقيقة!

ابتسم فاسين مرة أخرى وقال:

- زرني إن شئت. عندي عمل وأنا مشغول الآن، لكن ستسرني زيارتك.

- أستنتج من النظر في وجهك أنك امرؤ مغلق جداً، وأنك قليل الرغبة في الإفصاح عن ذات نفسك.

- ربما كان هذا صحيحاً. لقد عرفت أختك اليزافيتا ماكاروفنا، العام الماضي، في لوغا... ها قد وقف كرافت، وهو ينتظرك فيما أظن. سيكون عليه أن ينعطف.

Twitter: @ketab_n

صافحت فاسين مصافحة قوية، ولحقت بكرافت الذي كان قد تقدم في الطريق أثناء حديثي مع فاسين. ومضينا صامتين إلى أن بلغنا منزله. كنت لا أريد ولا أستطيع، بعد، أن أكلمه. إن من أبرز صفات طبع كرافت أنه رقيق الحاشية.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

- 1 -

كان لكرافت في الماضي وظيفة رسمية، وكان عدا ذلك يساعد المرحوم آندرونيكوف (بأجر يتقاضاه منه) في معالجة بعض الشؤون الخاصة التي كان آندرونيكوف يقوم بها إضافة إلى أعمال وظيفته. والأمر الذي كان يهمني أنا أنه لما كان بينه وبين آندرونيكوف من صلة صميمية، كان يمكن أن يعرف بعض الأمور التي تعنيني. لكنني كنت أعلم من ماريا إيفانوفنا، زوجة نيقولاي سيمينوفتش، التي عشت لديها سنين طويلة أيام كنت في المدرسة - والتي كانت بنت أخت آندرونيكوف وكانت ربيبته الأثيرة - أن كرافت كان قد «كلف تكليفاً» بأن يسلمني شيئاً ما. فكنت أنتظره منذ شهر كامل.

كان كرافت يسكن شقة صغيرة من غرفتين، منعزلاً كل الانعزال، وإذ كان عائداً منذ برهة وجيزة، فإنه لم يكن لديه حتى خادم. كانت حقيبته مفتوحة، غير أن أشياءه التي لم يرتبها بعد لا تزال مبعثرة على الكراسي. وعلى منضدة أمام الكنبة كان كيس سفر، وصندوق صغير، ومسدس، إلخ. كان كرافت غارقاً في أفكاره حين دخلنا، كأنه نسيني نسياناً تاماً بل لعله لم يلاحظ أنني لم أخاطبه بكلمة واحدة أثناء الطريق. لم يلبث أن أخذ يبحث عن شيء ما، ولكنه لمح مرآةً على حين فجأة فتوقف وراح

Twitter: @ketab_n

ينظر إلى وجهه فيها محدقاً خلال دقيقة بكاملها. لاحظت هذا (وما أكثر ما تذكرته بعد ذلك) ولكنني كنت حزيناً ومضطرباً جداً. لم أكن أملك قدرةً على تركيز فكري. حتى لقد راودتني، في لحظة من اللحظات، رغبةٌ مفاجئة في الانصراف، في أن أدع كل شيء حيث هو، إلى الأبد. ما الذي كان يعنيني في حقيقة الأمر؟ ألست أصدع رأسي بهموم مصطنعة؟ ألم أكن أبدد، في ترهات سخيفة حقيرة، بداعي الحساسية وحدها، طاقةً كنت محتاجاً إليها لتحقيق هدف معين رسمته لنفسي. ولكن أنّى لي، من جهة أخرى، أن أصل إلى تحقيق هذا الهدف أنا الذي أصبح عجزي عن القيام بأي عمل جدي واضحَ البداهة بعد الذي حدث عند درجاتشيف.

سألت كرافت فجأة:

- كرافت، هل ستذهب إليهم بعد الآن؟

فالتفت نحوي ببطء، كأنه لم يفهم سؤالي. وجلست على مقعد.

قال كرافت فجأة:

- سامحهم!

خيِّل إلي بطبيعة الحال أنه يسخر مني. ولكنني حدقت إليه فرأيت في وجهه بساطة تبلغ من الغرابة بل تبلغ من الإدهاش أنني ذهلت أنا نفسي من الجد الظاهر في رجائه أن «أسامحهم». وتناول كرسياً وجلس قربي.

وبدأت أقول:

- أعرف أنني قد لا أكون إلا خليطاً من جميع أنواع حب الذات، ولكنني لا أسأل أحداً أن يسامحني.

- وممن عساك تطلب أن يسامحك.

قال ذلك هادئاً جداً. وكان يتكلم في رفق لطيف وبطء شديد. فقلت:

Twitter: @ketab_n

- هبني مذنباً في حق نفسي. . . إنني أحب أن أكون مذنباً في حق نفسي. . . سامحني، يا كرافت، إذا أنت سمعتني أقول هراء سخيفاً في هذه اللحظة. قل لي: أأنت عضو في هذه الحلقة، أنت أيضاً؟ ذلك ما أردت أن أسألك عنه.

- ليسوا أشد حماقة ولا أرجح عقلاً من الآخرين. إنهم مجانين كسائر الناس.

- هل سائر الناس مجانين؟

سألته هذا السؤال وأنا التفت إليه مستطلعاً على غير إرادة مني.

- جميع الطيبين في هذه الأيام مجانين. الأغبياء والعجزة وحدهم يمرحون. . . ولكن لا قيمة لهذا كله.

كان وهو يقول هذا الكلام ينظر في الهواء، يبدأ جملة ثم يقطعها. وقد لفت نظري شيء من ضجر في صوته بوجه خاص.

صحت أقول:

- وفاسين، أهو منهم أيضاً؟ إن فاسين يملك الذكاء ويملك فكرةً أخلاقية!

- ليس هناك أفكار أخلاقية في هذه الأيام. لقد اختفت الأفكار الأخلاقية بغتةً، اختفت جميعها بغير استثناء. حتى كأنه لم يكن ثمة وجود لها.

- لم تكن هناك أفكار أخلاقية في الماضي؟

قال متعباً بملل واضح:

- دعنا من هذا الموضوع.

تأثرت من هذا الجد المر الأليم. وخجلت من نفسي فجاريته.

استأنف يقول من تلقاء نفسه بعد دقيقتين من صمت وهو لا يزال ينظر في الهواء:

Twitter: @ketab_n

- إن العصر الراهن هو عصر فقدان التسامي، وفقدان الحساسية، وهو عصر الجهل، والكسل، والعجز عن العمل، والحاجة إلى كل ما هو جاهز مهيأ. ما من أحد يفكر اليوم قط. قليلون أولئك الذين يقدرون أن يصنعوا لأنفسهم فكرة.

وانقطع عن الكلام مرة أخرى وصمت لحظة. ولبثت أصغي.

- إنهم الآن يقطعون أشجار الغابات في روسيا، ويستنفدون خصوبة أرضها، ويحيلونها براري. إذا قام رجل يملأ نفسه الأمل ويعمرها الرجاء فغرس شجرة، انفجر الناس من حوله ضاحكين: «أأنت واثق أنك ستراها تكبر وتثمر؟» ومن جهة أخرى فإن الذين يريدون الخير يتناقشون فيما سيحدث بعد ألف سنة. إن الفكرة التي تولد الثبات والاستقرار قد زالت. نحن جميعاً كمن يقيم في فندق، متهيئاً للرحيل عن روسيا في الغد. كل فرد يعيش مهتماً بأن تكفي وسائل الحياة له وحده...

- عفوك يا كرافت! لقد قلت إن الناس يهتمون الآن بما سيحدث بعد ألف سنة. ولكن أليس يأسك... من مستقبل روسيا... نوع من الهمّ نفسه؟

قال حانقاً وهو ينهض بسرعة:

- ذلك... ذلك أهم سؤال يمكن أن يخطر بالبال!

ثم قال فجأة بصوت آخر وهو ينظر إليَّ مرتبكاً:

- ها! كدت أنسى! لقد جئت بك لأمر من الأمور... فلا تؤاخذني، أرجوك.

لكأنه يخرج من حلم. لقد كان كالخجلان. قال ذلك ثم تناول رسالة من حقيبة موضوعة على المنضدة ومدَّها إليَّ.

- إليك ما كنت أريد أن أسلمك إياه. هي وثيقة على جانب من خطورة الشأن.

Twitter: @ketab_n

قال ذلك مهتماً وقد بدا في وجهه الاحتفال بالأمر. لشد ما تعجبت، بعد ذلك بزمن طويل، حين فكرت في الموضوع، من هذه القدرة التي كان يملكها (في ساعات كهذه الساعات الخطيرة عنده!) على معالجة أمور الآخرين بمثل هذا القدر من روح المودة، وعلى الكلام فيها بمثل هذا القدر من الهدوء والحزم.

- هي رسالة من ذلك الرجل ستولبييف نفسه الذي أثارت وصيته، بعد موته، الدعوى بين فرسيلوف والأمراء سوكولسكي. إن هذه الدعوى يُنظر فيها الآن، وأغلب الظن أن الغلبة فيها ستكون لفرسيلوف: فالقانون في صفه. ولكن في هذه الرسالة الخاصة، التي كُتبت منذ سنتين، يعلن الموصي نفسه إرادته الصادقة أو قل: رغبته، وهي تدعم الأمراء سوكولسكي أكثر مما تدعم فرسيلوف. ويمكن القول في أقل تقدير إن النقاط التي يستند إليها الأمراء سوكولسكي لإنكار الوصية تجد في هذه الرسالة ما يأتي مصدقاً لها ومؤيداً. لا شك في أن خصوم فرسيلوف مستعدون لأن يعطوا كل شيء في سبيل الحصول على هذه الوثيقة، رغم أن قيمتها القانونية ليست قيمة مطلقة. إن ألكسي نيكانوروفتش (آندرونيكوف) الذي اهتم بقضية فرسيلوف كان يحتفظ بهذه الرسالة لديه؛ ثم أعطانيها قبل موته وأوصاني أن «أحافظ عليها أشد المحافظة». لعله كان يخشى على أوراقه وهو يرى دنو أجله. لا أريد أن أقطع برأي في نيات ألكسي فيكانوروفتش بصدد هذا الأمر. وأنا أعترف أنني أصبحت بعد وفاته متردداً تردداً شاقاً: ماذا أصنع بهذه الوثيقة؟ خاصةً والحكم في القضية يوشك أن يصدر؟ غير أن ماريا إيفانوفنا التي يظهر أن ألكسي فيكانوروفتش كان يوليها في حياته ثقة كبرى قد أخرجتني من الارتباك: فكتبت إليّ منذ ثلاثة أسابيع تطلب مني جازمةً قاطعة أن أسلمك هذه الرسالة، لأنه يبدو لها (ذلك هو تعبيرها) أن ذلك يتفق ونية آندرونيكوف.

Twitter: @ketab_n

فإليك الرسالة إذاً، وإنه ليسعدني أن أستطيع أخيراً أن أنقلها إليك.

قلت وقد أربكني هذا النبأ:

- وما عساي أصنع بهذه الرسالة؟ ما هو السلوك الذي يجب أن أسلكه؟

- هذا متوقف عليك وحدك.

- مستحيل. لست حراً قط. . لا بد أنك تقرني على ذلك! إن فرسيلوف ينتظر هذا الميراث على أحر من الجمر. . . وإنك لتعلم أنه بدونه ضائع لا محالة. ثم إذا بوثيقة كهذه الوثيقة توجد على حين فجأة فتغيّر الموقف!

- إنها لا توجد إلا هنا، في هذه الغرفة.

- أهو كذلك حقاً؟

ألقيت عليه هذا السؤال وأنا أنظر إليه بانتباه شديد.

- إذا لم تهتد بنفسك إلى السلوك الذي ينبغي لك أن تسلكه، فبماذا عساي أنصحك؟

- إنني لا أستطيع أن أسلم الوثيقة إلى الأمير سوكولسكي: وإلا قضيت على جميع آمال فرسيلوف؛ ثم ما عسى أن يكون موقفي منه عندئذ؟ سيكون موقف الخائن. . . ذلك من جهة، ومن جهة أخرى فإنني إذا سلمت الوثيقة إلى فرسيلوف كنت أغرق في البؤس أناساً أبرياء؛ كما أنني سأوقع فرسيلوف عندئذ في مأزق لا مخرج منه: فإما أن يتنازل عن الميراث، وإما أن يصبح لصاً.

- إنك تضخم خطورة الأمر.

- قل لي أيضاً: هل هذه الوثيقة حاسمة قاطعة؟

- لا. لست من رجال القانون. إن محامي الخصم قد يجد بطبيعة الحال وسيلةً لاستغلال الوثيقة وللاستفادة منها. ولكن ألكسي

Twitter: @ketab_n

نيكانوروفتش يقدر حقاً أن هذه الرسالة لن يكون لها قيمة قانونية كبيرة، وأن فرسيلوف يمكن أن يربح الدعوى رغم كل شيء. المسألة أقرب إلى أن تكون مسألة ضمير إن صح التعبير. . .

فقاطعته أقول:

- هذا هو الأمر الهام خاصة. لهذا قلت إن فرسيلوف سيكون في مأزق لا مخرج منه.

- قد يتلف فرسيلوف الوثيقة، فيكون عندئذ في منجى من أي خطر.

- أتملك من الأدلة الخاصة ما يجعلك ترى فيه هذا الرأي، يا كرافت؟ ذلك ما كنت أريد أن أعرفه، ومن أجل هذا إنما تراني عندك الآن!

- أعتقد أن كل إنسان في محله قد يفعل ذلك.

- وأنت أيضاً يمكن أن تفعله؟

- أنا لست انتظر ميراثاً أرثه، لهذا لا أدري ما الذي قد أفعله.

قلت وأنا أدسّ الرسالة في جيبي:

- طيب. والآن ننتهي من هذه القضية مؤقتاً. اسمع يا كرافت، إن ماريا إيفانوفنا التي أؤكد لك أنها كشفت لي عن أشياء كثيرة، قالت لي إنك تستطيع، أنت وحدك، أن تنبئني بحقيقة ما حدث في مدينة «إمس»[17] منذ سنة ونصف بين فرسيلوف وأسرة آخماكوف. لقد كنت أنتظرك كمن ينتظر الشمس تضيء له ما حوله. إنك لا تعرف وضعي يا كرافت. أتوسل إليك أن تذكر لي الحقيقة كاملةً. أريد أن أعرف حقيقة هذا الإنسان؛ أما الآن فأنا بحاجة إلى ذلك أكثر من أي وقت آخر!

- يدهشني أن ماريا إيفانوفنا لم تقصص عليك كل شيء بنفسها. فلا بد أن المرحوم آندرونيكوف قد أظهرها على الأمر كله، ولا شك في أنها قد سمعت منه أكثر مني، وأنها تعرف أكثر مني أيضاً.

Twitter: @ketab_n

- إن آندرونيكوف نفسه قد اختلط عليه الأمر: ذلك ما تقوله ماريا إيفانوفنا. تلك قضية ما أظن أن أحداً قادر على أن يفهمها. الشيطان نفسه لن يستطيع ذلك! وأنا أعلم أنك كنت يومئذ في «إمس»...

- لم أشهد كل شيء، وسأقص عليك ما أعرف. ولكن تُرى هل يكفيك ذلك ويرضيك؟

- 2 -

لن أعيد قصته نصاً، بل سوف أوجز جوهرها.

منذ سنة ونصف، استطاع فرسيلوف، الذي أصبح بواسطة الأمير العجوز سوكولسكي صديق أسرة أخماكوف (وكانوا أيامئذ جميعاً في الخارج، في مدينة إمس) أن يؤثر تأثيراً قوياً، أول الأمر، في أخماكوف الجنرال، الذي لم يكن قط طعن في السن كثيراً بعد، لكنه كان قد بدد في القمار المهرَ الكبير الذي مهرته إياه زوجته، كاترين نيقولايفنا، بدده خلال ثلاث سنين من الزواج، أصيب بعدها بالسكتة نتيجة لإسرافه وإفراطه. وقد أفاق من هذه السكتة فكان يستشفي في الخارج ويقيم في مدينة إمس من أجل ابنة له من زواج أول. كانت ابنته هذه فتاةً ممراضاً في نحو السابعة عشرة من عمرها، مصابة بالسل، فاتنة الجمال فيما يقال، وكذلك جامحة الخيال. ولم تكن تملك مهراً. وكانوا يعوّلون في هذا الأمر على الأمير العجوز، كالعادة. ويقال إن كاترين نيقولايفنا كانت لابنة زوجها نعمَ الأم حناناً. ولكن الفتاة شغفت بفرسيلوف شغفاً خاصاً. وكان أيامئذٍ ينادي «بما لا أدري من الحماسة» (على حد تعبير كرافت)، ويدعو إلى «ما لا أدري من حياة جديدة»؛ وكان «مأخوذاً بحمية دينية سامية وقويّة»، على حدّ ذلك التعبير الغريب، وربما الساخر، الذي نُقل إليَّ أن آندرونيكوف وصفه به. ويجب أن نذكر أن

Twitter: @ketab_n

فرسيلوف سرعان ما أصبح يكرهه جميع الناس. حتى أن الجنرال نفسه أخذ يحاذره ويخشاه. ولم يكذِّب كرافت الإشاعة التي راجت تقول إن فرسيلوف قد استطاع أن يدخل في روع زوج كاترين نيقولايفنا المريض أنها لا تخلو من عاطفة نحو الأمير سوكولسكي الفتى (الذي كان قد ترك مدينة إمس إلى باريس). فعل ذلك لا بكلام مباشر بل، «كعادته»، بتلميحات وإيحاءات وبأنواع من اللف والدوران، «وهو في هذه الأساليب أستاذ بارع»، كما قال كرافت. يجب أن أقول إن كرافت لم يكن يعدُّه ولا كان يريد أن يعده رجلاً تملكته حقاً فكرة عليا أو استولت عليه فكرة شاذة بل إنساناً نصاباً أو مراوغاً مخاتلاً بفطرته. وكنت أعرف، على كل حال، من مصدر آخر غير كرافت، أن فرسيلوف الذي أثَّر، أول الأمر، تأثيراً كبيراً في كاترين نيقولايفنا، انتهى شيئاً فشيئاً إلى قطع صلته بها، أما حقيقة هذه اللعبة كلها، فذلك ما لم أستطع أن أحصل من كرافت أيضاً على تفسير له، غير أن جميع من كانوا على بعض العلم بالأمر أكدوا أن الكره المتبادل وقع بعد الصداقة بينهما.
وحدث بعد ذلك حادث غريب. الفتاة الممراض، ابنة زوج كاترين نيقولايفنا، افتتنت بفرسيلوف، أو أعجبت بصفة من صفاته، أو ألهبت حماستها أحاديثه، لا أدري... ولكن المعروف أن فرسيلوف أصبح، خلال فترة من الزمن، يقضي كلَّ أيامه تقريباً قرب هذه الفتاة. ثم إذا بالفتاة تصرح لأبيها ذات يوم على حين فجأة أنها تريد فرسيلوف زوجاً لها. وقع هذا فعلاً، فقد أكده الجميع: أكده كرافت، وآندرونيكوف، وماريا إيفانوفنا، حتى أن تاتيانا بافلوفنا ألمحت إليه ذات يوم بحضوري. وقيل أيضاً إن فرسيلوف لم يتمنَّ هذا الزواج فحسب، بل أصرَّ عليه أيضاً، وإن الاتفاق بين هذين الإنسانين اللذين يختلف كل منهما عن الآخر، فأحدهما كهل متقدم في السن والآخر فتاة في ريعان الصبا، كان

Twitter: @ketab_n

اتفاقاً متبادلاً. لكن هذه الفكرة قد ذعر لها الأب، فعلى قدر ما كان ينفر من كاترين نيقولايفنا يوماً بعد يوم (وكان يحبها قبل ذلك حباً كبيراً) أصبح يزداد ولهاً بابنته وعبادةً لها، وخاصة بعد السكتة التي أصيب بها. غير أن الخصم الأكبر الذي كان يعارض مثل هذا الزواج معارضةً عنيفة إنما هو كاترين نيقولايفنا. فقامت في البيت صراعات هائلة خفية لكنها مزعجة إلى أبعد الحدود، ونشبت فيه مشاجرات ومشاحنات وآلام وأحزان، وشاعت فيه على وجه العموم أنواع لا نهاية لها من القذارات. وأخذ الأب ينصاع آخر الأمر، لما رأى من عناد وإصرار لدى ابنته المفتونة بفرسيلوف، «المتحمسة» له على حد تعبير كرافت. ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت ثائرة متمردة يملأ نفسها كره لا يرحم. وهنا إنما بدأ ذلك الإشكال الذي لا يفهم منه أحد شيئاً. وإليكم مع ذلك، الافتراض الذي بناه كرافت على بعض الوقائع، وما هو إلا افتراض على كل حال:

الافتراض هو أن يكون فرسيلوف قد استطاع أن يدخل في روع الفتاة، بأسلوبه الرقيق المرهف الذي لا سبيل إلى مقاومته أن كاترين نيقولايفنا إنما ترفض الموافقة على هذا الزواج، لأنها تحبه هو، فالغيرة تعذبها منذ زمن طويل: إنها تلاحقه، وتدبر له المكائد، حتى لقد صرحت له بحبها، وإنها الآن مستعدة لأن تحرقه حياً لأنه يحب امرأة غيرها. الخلاصة: شيء من هذا القبيل. والأنكى من ذلك أنه لعله قد «أسمع» الأب، زوج المرأة «الخائنة» أن الأمير لم يكن أكثر من تسلية. ومن البديهي أن حياة الأسرة تحولت إلى جحيم. وفي روايات أخرى أن كاترين نيقولايفنا كانت تحب ابنة زوجها حب العبادة، وأنها أصبحت الآن، بعد أكاذيب قيلت لها عنها، في حالة يرثى لها من الألم والعذاب، ناهيك عن علاقاتها بزوجها المريض. وهناك رواية أخرى

Twitter: @ketab_n

أيضاً آلمني كثيراً أن كرافت كان يصدقها تصديقاً كاملاً، وكنت أصدقها أنا نفسي أيضاً (لأنني سمعت بها أيضاً)، وهي أن فرسيلوف (ويقال إن آندرونيكوف قد علم هذا من كاترين نيقولايفنا نفسها) كان، على خلاف ما تقوله الروايات السابقة، قد عرض حبه على كاترين نيقولايفنا قبل ذلك، أي قبل أن تنشأ هذه العواطف في قلب الفتاة؛ وأن كاترين نيقولايفنا كانت صديقته حتى لقد تحمست له زمناً ما، ولكنها لم تكن تصدِّقه أبداً، والتي كانت تعارضه دائماً، قد استقبلت منه هذا التصريح ببغض شديد، وأثقلته سخرية مريرة وهزءاً لاذعاً؛ ثم طردته من بيتها طرداً حاسماً، لأنه اقترح عليها صراحة أن يتزوجها متنبئاً بأن زوجها سيموت وشيكاً بسكتة جديدة. لذلك شعرت كاترين نيقولايفنا نحو فرسيلوف بكره خاص حين رأته بعد ذلك يسعى بمثل هذه الصورة السافرة إلى خطبة ابنة زوجها. حين قصَّت عليَّ ماريا إيفانوفنا هذا كله في موسكو، كانت تصدق الروايتين كلتيهما أي كانت تصدق كل شيء معاً، قائلة إن ذلك كله يمكن ألا يتعارض، وإن الأمر كان «حباً في كره» كان نوعاً من كبرياء غرامية جريحة لدى الطرفين، الخ الخ، أي كان ضرباً من إشكال عاطفي لا يليق برجل جاد رصين، عدا أنه ممتزج بنميمة معيبة. ولكن ماريا إيفانوفنا كانت ممتلئة النفس بالروايات منذ طفولتها، فهي تقرأ القصص ليلاً ونهاراً، رغم ما تملكه من قوّة الطبع وروعة الخلق. ومهما يكن من أمر فإنه يخرج من هذا كله أن فرسيلوف رجل واضح الدناءة والكذب والكيد، إنه إنسان أسود النفس يبعث على الاشمئزاز، لا سيما وأن الخاتمة كانت مأساة أليمة: فالفتاة المسكينة التي ألهبها الحب قد سممت نفسها، فيما يقال، بفوسفور أعواد الثقاب. على أنني لا أدري حتى الآن أكانت هذه الإشاعة صادقة أم لا، ولكن كل الجهود كانت تبذل على كل حال لكتمان هذه الإشاعة. ولم يدم

Twitter: @ketab_n

مرض الفتاة إلا أسبوعين ثم لفظت أنفاسها. هكذا ظلت قصة أعواد الثقاب أمراً مشكوكاً فيه، ولكن كرافت يعتقد بصحة الإشاعة اعتقاداً راسخاً. وما لبث أن مات والد الفتاة بعد ذلك، من فرط حزنه عليها فيما قيل، إذ وافته سكتة جديدة، بعد ثلاثة أشهر. غير أن الأمير الفتى سوكولسكي الذي عاد من باريس إلى إمس بعد دفن الفتاة صفع فرسيلوف على مرأى من الناس في حديقة عامة، فلم يردَّ فرسيلوف على الصفعة بأي تحدٍ، بل أكثر من ذلك، كان يتنزه في اليوم التالي في نفس الحديقة كأن شيئاً لم يحدث. وعندئذ إنما أدار جميع الناس له ظهورهم وأشاحوا عنه أبصارهم، وفي بطرسبرج أيضاً. ولئن احتفظ فرسيلوف بعد ذلك ببعض المعارف، فلقد كان معارفه هؤلاء ينتمون إلى بيئة أخرى غير تلك البيئة. أما أصدقاؤه من أبناء المجتمع الراقي فقد أصبحوا جميعاً يتهمونه، مع أن قلةً منهم قد اطلعت على جميع التفاصيل، في حين أن الآخرين لا يعرفون إلا قصة عاطفية حول موت الفتاة وحكاية الصفعة. شخصان أو ثلاثة أشخاص فقط كانوا يملكون معلومات وافية على قدر الإمكان. وكان المرحوم آندرونيكوف أوسعهم علماً بالأمور، إذ كان بينه وبين أسرة أخماكوف علاقات أعمال منذ زمن طويل، ولأنه كان على صلة بكاترين نيقولايفنا خاصةً بسبب مناسبة من المناسبات. لكنه كتم السر حتى عن أسرته، ولم يفتح نفسه قليلاً إلا لكرافت وماريا إيفانوفنا، وذلك لاضطرار أيضاً.

قال كرافت يختم كلامه:

– المهم أن ههنا الآن وثيقة تخشاها السيدة أخماكوفا خشيةً هائلة.

وإليكم ما أبلغنيه في هذا الصدد:

إن كاترين نيقولايفنا قد ارتكبت بعض الطيش، حينما كان أبوها الأمير العجوز يستشفي من نوبته في الخارج، فكتبت إلى آندرونيكوف،

Twitter: @ketab_n

سراً، (وكانت تمحضه ثقة كاملة) رسالةً تسيء إليها كثيراً. وفي ذلك الوقت كان الأمير الذي يتماثل للشفاء قد أظهر، فيما قيل، ميلاً إلى تبديد ماله، حتى لكأنه يرميه في البحر رمياً: لقد أخذ يشتري في الخارج أشياء لا فائدة منها البتة، ولكنها غالية الثمن، من لوحات وآنيات وما أشبه ذلك، وأخذ يقدم الهدايا والهبات مبالغ طائلة حتى لمؤسسات شتى من تلك البلاد. وأوشك أن يشتري من نبيل روسي ذهبَ ماله عقاراً مهجوراً تقوم حوله دعاوى كثيرة، وذلك بثمن باهظ، دون أن يرى العقار. وكان فوق هذا كله يفكر في الزواج فعلاً. فلهذه الأسباب كلها، عمدت كاترين نيقولايفنا التي لم تترك أباها خطوةً واحدة أثناء مرضه، إلى كتابة رسالة إلى آندرونيكوف، من حيث هو رجل من رجال القانون، ومن حيث هو «صديق قديم»، تسأله هذا السؤال: «هل يجوز، بحكم القانون، أن يتم الحجر على أبيها، أو أن يُعترف به عديم الأهلية؟ فإذا كان هذا في الإمكان، فما هي الوسيلة المثلى لتحقيقه دون فضيحة، حتى لا يجد أحد ما يتقوله، وحتى تراعي عواطف أبيها في الوقت نفسه، الخ الخ.». يقال أن آندرونيكوف قد ردَّها إلى الصواب فنصحها بالعدول عن الشروع في مثل هذا الأمر. حتى إذا شفي الأمير شفاء كاملاً، لم يثر هذا الموضوع بعد ذلك قط، ولكن الرسالة ظلت محفوظة لدى آندرونيكوف. وقد مات الآن آندرونيكوف. فما لبثت كاترين نيقولايفنا أن فكرت في الرسالة: فلو اتفق أن عُثر على الرسالة بين أوراق المتوفى ووقعت بين يدي الأمير العجوز، فلا شك في أنه سيطردها إلى الأبد، وسيحرمها من الميراث، وأنه لن يعطيها كوبيكاً واحداً ما ظل حياً. إنه إذا عرف أن ابنته كانت لا تثق بسلامة عقله، حتى إنها أردات في ذات يوم أن تعلن أنه مجنون، فقد ينقلب هذا الحمل الوديع إلى وحش كاسر. وهي بعد ترملها أصبحت بسبب زوجها المقامر لا تملك

Twitter: @ketab_n

أي ثروة، ولا تعوِّل إلا على أبيها، وكان أملها كبيراً في أن تحصل منه على مهر جديد لا يقل عن مهرها الأول!

كان كرافت لا يعرف عن مصير هذه الرسالة شيئاً كثيراً. لكنه كان قد لاحظ أن آندرونيكوف كان «لا يمزق أبداً الأوراق التي قد تكون ذات فائدة في يوم من الأيام»، وأنه كان بالإضافة إلى ذلك واسع الفكر، لكنه «واسع الذمة» أيضاً. (لقد استغربت عندئذ هذا الاستقلال الخارق لآراء كرافت الذي كان يحب آندرونيكوف ويحترمه.) ولكن كرافت كان مقتنعاً مع ذلك بأن الوثيقة التي قد تؤذي كاتبتها لا بد أنها وقعت بين يدي فرسيلوف، وذلك لما بينه وبين أرملة آندرونيكوف وبناته من صلة حميمة: حتى لقد عرف منذ ذلك الحين أنهن وضعن تحت تصرفه، في كثير من المودة، جميع أوراق المرحوم. وكان كرافت يعلم أيضاً أن كاترين نيقولايفنا لا تجهل أن الرسالة موجودة عند فرسيلوف، وذلك ما كانت تخشاه، لتقديرها أن فرسيلوف سيمضي فوراً إلى الأمير العجوز ليظهره على الرسالة، وأنها حين عادت من الخارج قد بحثت عن الرسالة في بطرسبرج، فذهبت إلى عائلة آندرونيكوف، وأنها لا تزال تبحث عنها لأنها لا تزال تأمل رغم كل شيء ألا تكون الرسالة قد وصلت إلى فرسيلوف؛ وأنها لم تسافر إلى موسكو إلا لهذا الغرض، وأنها تضرعت هنالك إلى ماريا إيفانوفنا أن تنبش الأوراق التي لا تزال عندها. أما وجود ماريا إيفانوفنا، وما كان بينها وبين المرحوم آندرونيكوف من صلات، فقد علمته في الآونة الأخيرة حين عادت إلى بطرسبرج.

سألته وفي ذهني فكرتي:

– وهل تعتقد أنها لم تجد شيئاً عند ماريا إيفانوفنا؟

– إذا كانت ماريا إيفانوفنا لم تكشف حتى لك عن شيء، فمعنى ذلك أنها لم تجد شيئاً.

Twitter: @ketab_n

- أنت تقدّر إذاً أن الرسالة عند فرسيلوف؟
- هذا هو الأرجح. ولكن، لا أدري، كل شيء ممكن.
قال ذلك بضجر ظاهر.
فكففت عن سؤاله. وفيم السؤال؟ إن الأمر الأساسي واضح، رغم ذلك الإشكال الكريه. إن كل ما كنت أخشاه قد ثبت. قلت بحزن عميق وأنا أتناول قبعتي:
- لكأن ذلك كله حلم أو هذيان.
فسألني كرافت بعطف كبير واضح قرأته في وجهه لحظتها:
- هل هذا الرجل عزيز جداً في نفسك؟
قلت:
- هذا ما كنت أوجسه: كنت أحس أنني لن أعرف لديك كل شيء. بقي أمل واحد هو أخماكوفا. لقد كنت أعول عليها كثيراً. قد أذهب إليها، وقد لا أذهب.
فنظر إليَّ كرافت حائراً مضطرباً.
- وداعاً يا كرافت! فيمَ يتعلق المرء بأناس لا يريدونه؟ أليس الأفضل أن يقطع بهم صلته؟
فسألني وقد أظلم وجهه وأطرق إلى الأرض:
- وبعد ذلك؟
- يعود المرء إلى ذاته! يقطع كل صلة، ويرجع إلى ذاته!
- إلى أميركا؟
قلت مهتاجاً:
- إلى أميركا! بل إلى ذاته، إلى ذاته وحده. تلك هي «فكرتي» كلها، يا كرافت!
فنظر إليَّ كرافت نظرة استطلاع غريبة.

Twitter: @ketab_n

- وهل لك ملاذ كهذا الملاذ، هل لك «هذه الذات»؟

- نعم. إلى اللقاء يا كرافت. أشكرك. ويؤسفني أنني أزعجتك! لو كنت أتصور روسيا على نحو ما تتصورها أنت، لما حفلت بشيء ولما همني من الأمر شيء ولكان لسان حالي يقول: إلى الشيطان فليذهب جميع الناس: امضوا في سبيلكم، كيدوا بعضكم لبعض، كلوا بعضكم بعضاً، فيما عسى أن يعنيني أنا هذا كله؟!

قال كرافت فجأة بعد أن شيعني حتى الباب:

- ابق قليلاً أيضاً.

فدهشت بعض الدهشة، وعدت أدراجي فجلست وجلس كرافت قبالتي. تبادلنا بضع ابتسامات: ما زلت أرى هذا كله كأنني ما زلت فيه. وأذكر أنني كنت على شيء من دهشة.

قلت فجأة:

- ما يعجبني فيك يا كرافت هو أنك إنسان مهذب جداً.

- حقا؟

- أقول ذلك لأنني يندر أن أستطيع أن أكون مهذباً، رغم ما أبذل في ذلك من جهد... ولكن ربما كان من الأفضل للمرء أن يُجرح من قبل الناس، فإنه على الأقل يتخلص عندئذ من عذاب محبتهم.

- أي ساعة من ساعات اليوم تفضل؟

واضح أنه سألني هذا السؤال دون أن يصغي إلى ما أقول.

- أي ساعة من ساعات اليوم أفضل؟ لا أدري. ولكنني لا أحب ساعة غروب الشمس.

- حقاً؟

قال ذلك بتطلع خاص، ثم ما لبث أن عاد إلى شرود فكره.

- أأنت مسافر إلى مكان ما؟

Twitter: @ketab_n

- نعم . . . مسافر .

- قريباً؟

- قريباً .

- هل لا بد للمرء من مسدس ليذهب إلى «فيلنو»[18]؟

سألته هذا السؤال دون أن يكون في ذهني أي فكرة مبيتة، بل دون أن يكون في ذهني أي فكرة البتة! وإنما راودني هذا السؤال لأنني لمحت مسدساً، وكنت لا أعرف ماذا أقول. فالتفت يحدِّق إلى المسدس، وقال:

- لا . . الأمر . . هكذا . . عادة . .

- لو كان عندي مسدس لدسسته في مكان ما، وأقفلت عليه بمفتاح. إن منظر المسدس يغري! أنا لا أؤمن بوباء الانتحارات[19]. ولكن المرء قد يمر بلحظات يستبد به فيها الإغراء إذا هو رأى هذا الشيء أمام عينيه دائماً.

- لا تقل هذا الكلام.

قال ذلك وهو ينهض فجأة.

أضفت أقول وأنا أنهض أيضاً.

- ما حديثي عن نفسي. فلو وُهبتْ لي ثلاثة أعمار ما اكتفيت بها.

- عش طويلاً.

وكأن هاتين الكلمتين قد أفلتتا من لسانه إفلاتا. وابتسم ابتسامة شاردة، واتجه رأساً نحو مخرج الغرفة اتجاهاً يدعو إلى الاستغراب كأنما هو يرغمني على الانصراف، دون أن يلاحظ طبعاً ماذا كان يفعل. قلت وأنا أضع قدمي على الفسحة أمام الباب:

- أتمنى لك كل التوفيق يا كرافت.

فقال حازماً:

- هذا جائز . .

Twitter: @ketab_n

- إلى اللقاء!

- وهذا أيضاً، جائز.

إنني أتذكر النظرة الأخيرة التي رمقني بها.

- 3 -

ذلكم هو إذاً الرجل الذي خفق قلبي له ذلك العدد كله من السنين! وماذا كنت أنتظر من كرافت؟ أي اكتشافات جديدة؟

حين خرجت من منزل كرافت كان بي جوع رهيب. إن المساء يهبط، ولم أكن قد تناولت غدائي بعد. دخلت مطعماً صغيراً واقعاً في شارع بولشوي بروسبيكت بحي بطرسبرجسكايا نفسه، على نية إنفاق عشرين كوبيكاً أو خمسة وعشرين على أكثر تقدير، فما كان لي أن أبيح لنفسي إنفاق أكثر من ذلك المبلغ في تلك اللحظة. طلبت حساءً، وما زلت أذكر أنني بعد أن احتسيت الحساء نظرت من النافذة. كان المطعم في الداخل حافلاً بجمهور من الطاعمين. رائحة زيت يحترق، ومنشفات وسخة، ودخان تبغ. جو فاسد. وفوق رأسي، هزار لا يغني، قاتم واجم، يضرب بمنقاره قاع قفصه. وفي صالة البلياردو ضجة وصخب. ولكنني بقيت جالساً في مكاني أفكر. إن غروب الشمس (لماذا أدهش كرافت أن يعرف أنني لا أحب ساعات غروب الشمس؟) يولِّد في نفسي إحساسات جديدة لا أتوقعها ولا أرى لها مسوِّغاً. لقد كنت أتمثل النظرة الحنون التي تلقيها عليَّ أمي، وأتمثل عينيها الجميلتين، وأتمثل كيف أصبحت منذ شهر كامل ترنو إليَّ خجلى. في الآونة الأخيرة كنت شديد الفظاظة في المنزل، وخاصةً معها. كان حقدي منصباً على فرسيلوف، ولكنني لجبني عن مخاطبته بفظاظة، على عادتي اللئيمة، كنت أعذبها هي. حتى لقد كانت تخافني: وما أكثر ما

Twitter: @ketab_n

كانت ترنو إليَّ بنظرة متوسلة ضارعة حين كان يدخل أندريه بتروفتش، مخافة أن تصدر عني حماقة ما. . . شيء غريب: إنني الآن، في هذا المطعم، إنما يخطر ببالي لأول مرة أن فرسيلوف كان يخاطبني بصيغة المفرد، وأنها كانت تخاطبني هي بصيغة الجمع. لقد سبق أن أدهشني هذا من قبل، دون أن تشتمل هذه الدهشة على شيء من الإكبار لها، ولكنني أتنبه هنا للأمر تنبهاً خاصاً، وها هي ذي خواطر غريبة تتلاحق في ذهني تلاحقاً سريعاً. لبثت ساكناً زمناً طويلاً، إلى أن انقضت فترة الغسق. وفكرت أيضاً في أختي. . .

كانت تلك اللحظة لحظة حاسمة بالنسبة لي. يجب علي أن اتخذ قراراً مهما كلف الأمر! أأنا إذن عاجز عن اتخاذ قرار؟ أية صعوبة في القطيعة، ولا سيما إذا كان الآخرون لا يريدونني؟ أمي وأختي؟ ولكنني لن أتركهما بأي حال من الأحوال مهما يحدث.

نعم. . . إن ظهور هذا الرجل في وجودي ومضةً من الزمن، في طفولتي الأولى، قد كان تلك الدفعة القدرية التي ابتدأ بها وعيي. فلولا أنني التقيت به عندئذ، لكان عقلي غير ما هو الآن، ولكانت طريقتي في التفكير غير ما هي الآن، ولكان مصيري غير ما هو الآن، رغم طبعي الذي آتانيه القدر ولم يكن في وسعي أن أتجنبه.

وها أناذا أدرك أن هذا الرجل لم يكن إلا حلماً، حلماً من أحلام أولى سني حياتي. أنا الذي تخيلته على هذه الصورة، ولكنه في الواقع مختلف عن هذه الصورة كل الاختلاف، إنه أحطّ كثيراً مما تصوره خيالي. لقد جئت في سبيل أن أجد إنساناً شريفاً، لا هذا الإنسان. ولكن لماذا فتنت به إلى الأبد أثناء تلك اللحظة القصيرة التي رأيته فيها طفلاً؟ يجب أن تزول هذه الـ«إلى الأبد». في يوم من الأيام، إذا أتيحت مناسبة ما، سأقص عليك قصة ذلك اللقاء الأول: إنه حكاية سخيفة لا

Twitter: @ketab_n

تستخرج منها أي نتيجة. ولكنني استخرجت منها يومئذ هرماً ضخماً. بدأت بناء ذلك الهرم تحت غطائي الذي كنت أتدثر به طفلاً، لحظةَ كنت أستطيع، قبل أن يغمض النوم عيني، أن أبكي وأن أحلم. بماذا كنت أحلم؟ أنا نفسي أجهل ذلك. أكنت أفكر في تركهم إياي؟ أكنت أفكر في ألوان العذاب التي كنت عرضةً لها؟ ولكنني لم أعذب كثيراً خلال قرابة سنتين قضيتهما في المدرسة الداخلية، مدرسة توشار التي حشرني فيها قبل أن يذهب إلى غير رجعة. وبعد ذلك لن يعذبني أحد قط. بالعكس، كنت أنا الذي أنظر إلى رفاقي نظرة استعلاء. ثم إنني لا أطيق أولئك اليتامى الذين يشكون حالهم على الدوام. ليس في الدنيا منظر أبشع من منظر هؤلاء اليتامى أو أبناء الزنا وسائر أولئك الذين نبذهم المجتمع، وجميع أولئك الحثالة الذين لا أشعر نحوهم بأي شفقة حين يهبون فجأة أمام الناس ويطفقون يصيحون ملء أفواههم استدراراً للشفقة قائلين: «انظروا كيف نعامل!» لو استطعت لجلدتهم جلداً، هؤلاء اليتامى! ما من أحد من هذه الجمهرة المنحطة يدرك أن الصمت أنبل عشر مرات من العويل، إذا كنت تحرم نفسك يا من جئت إلى هذه الحياة ثمرة حب، فقد نلت ما تستحق. ذلك رأيي أنا!

غير أن الأمر المضحك ليس تلك الأحلام التي كنت أسترسل فيها أيام طفولتي «تحت غطائي»، بل مجيئي إلى هنا من أجله، من أجل ذلك الإنسان الخيالي، ناسياً أهدافي الأساسية تقريباً. لقد جئت أساعده في التغلب على الأراجيف، وأساعده في سحق أعدائه. إن الوثيقة التي كان يتكلم عنها كرافت، أعني الرسالة التي كتبتها تلك المرأة إلى آندرونيكوف، وتخشاها تلك الخشية كلها، لأنها قد تحطم سعادتها وتغرقها في البؤس، والتي تظن تلك المرأة أنها بين يدي فرسيلوف، أقول إن تلك الرسالة ليست لدى فرسيلوف، بل هي معي أنا! فقد

Twitter: @ketab_n

خطتها في جيبي بنفسي، وليس في الدنيا أحد يعرف ذلك. ولئن رأت ماريا إيفانوفنا ذات الطبع الخيالي، وهي التي كانت «تحفظ» الوثيقة، أن تعهد بها إليَّ أنا، لا إلى أحد آخر، فذلك ثمرة أفكارها وإرادتها، وليس عليَّ أن أجد له تعليلاً. قد يتاح لي يوماً أن أقص هذا الأمر. لكنني وقد تسلحت على هذا النحو ارتجالاً، لم يكن في وسعي إلا أن أشعر بحاجة المجيء إلى بطرسبرج. وكنت أعول بطبيعة الحال أن أساعد هذا الرجل سراً، دون أن أتفاخر ودون أن أتحمس، ودون أن أنتظر منه لا أماديح ولا قبلات. وما كان ليخطر على بالي يوماً أن أوجه إليه أي لوم! أكان هو المذنب حين افتتنت به، وحين صنع منه خيالي مثلاً أعلى؟ ولعلني لم أكن أحبه إطلاقاً! إن فكره الشاذ، وطبعه الغريب ومكائده ومغامراته، ووجود أمي بقربه، كل ذلك أصبح فيما يبدو غير قادر على الوقوف في طريقي. يكفي أن دميتي الخيالية قد تحطمت، ولعلني أصبحت عاجزاً عن حبه بعد الآن. فما الذي لا يزال يوقفني، ما الذي لا يزال يمسكني؟ ذلكم هو السؤال. ومهما يكن من أمر، فالأحمق أنا، ولا أحد غيري.

ولكن لما كنت أحب في غيري الصراحة، فسأكون صريحاً أنا أيضاً. يجب أن أعترف أن الوثيقة المخيطة في جيبي لا توقظ في نفسي رغبةً جامحة في أن أخفَّ إلى نجدة فرسيلوف فحسب؛ لقد أصبح هذا واضحاً أشد الوضوح في ذهني الآن، رغم أنني كنت أحمرّ خجلاً حين أتصوره. إن خيال امرأة يتخاطر الآن في رأسي، امرأة متكبرة من المجتمع الراقي، سأقابلها وجهاً لوجه. إن هذه المرأة ستحتقرني، وستضحك مني ضحكها من فأر، دون أن يدور في خلدها أنني سيد مصيرها. كانت هذه الفكرة تسكرني حين كنت في موسكو، وخاصة حين كنت بالقطار في طريقي إلى هنا. لقد سبق أن اعترفت بهذا من قبل. نعم، لقد كنت أكره هذه المرأة، ولكنني قد كنت أحبها كما يحب

Twitter: @ketab_n

امرؤ ضحيته. هذا كله صحيح، هذا كله واقع. ولكن فيه صبيانية ما كنت لأتوقعها أبداً حتى من مخلوق مثلي. إنني أصف عواطفي في ذلك الوقت، أعني العواطف التي دارت في رأسي حين كنت جالساً في المطعم الصغير تحت الهزار، فقررت أن أقطع صلتي بهم، في ذلك المساء نفسه، قراراً لا رجعة عنه. إن صورة لقائي الأخير بتلك المرأة قد جعل دم الشعور بالعار يصعد إلى وجهي فجأة. يا له من لقاء مخجل! يا له من سلوك مخزٍ وغبي، برهن خاصةً أسطع برهان على أنني امرؤ عاجز عن الفعل! قلت لنفسي إن سلوكي يبرهن على أنني عاجز عن الصمود حتى أمام أسخف المغريات، مع أنني كنت قد صرحت لكرافت منذ قليل أن «لي مكانا تحت الشمس»، وأن لي مهمة خاصة بي، وأنني لو وهبت ثلاثة أعمار لكانت قليلة عليَّ. قلت ذلك باعتزاز وفخار. ولأن أكون قد هجرت فكرتي لأتدخل في شؤون فرسيلوف، فذلك ما قد يغتفر. أما أن أقفز يمنةً ويسرة كأرنب مبهور وأن أقحم نفسي في جميع أنواع التفاهات فذلك مني حماقة محضة ما في ذلك شك. هل كانت بي حاجة إلى الذهاب إلى درجاتشيف فأروح أطنب في الكلام وأطنب، بينما كنت مقتنعاً منذ زمن طويل بأنني عاجز عن أن أتحدث في أي أمر من الأمور حديثاً متسقاً معقولاً، وأن الخير كل الخير لي أن أصمت فما أقول شيئاً؟ وهذا إنسان مثل فاسين يلقنني درساً فيقول لي إنه لا يزال أمامي «خمسون عاماً من الحياة، فما عليَّ إذن أن أقلق». اعتراض رائع، أقر بذلك، اعتراض يشرِّف صاحبه هذا الذي يملك ذكاءً لا يمارى فيه... رائع لأنه بين الاعتراضات أبسطها، ولأن الأشياء البسيطة لا تُفهم أبداً إلا في النهاية، بعد أن يكون المرء قد جرب جميع التعقيدات وجميع الحماقات. ولكنني كنت أعرف هذا الاعتراض من قبل أن يقوله لي فاسين؛ كنت قد عانيت هذه الفكرة منذ ما يزيد على ثلاث سنين. أكثر من ذلك إنها بعض

Twitter: @ketab_n

«فكرتي» أنا. ذلكم ما كنت أفكر فيه وأنا في المطعم الصغير.

كنت أشعر بإعياءٍ شديد حين وصلت في المساء، بعد الساعة السابعة، إلى حي سيمينوفسكي، مكدوداً من السير والتفكير. كان الظلام كاملاً. ولقد تغير الجو، فهو الآن جاف، غير أن ريحاً شديدة كانت قد هبت. هي ريح بطرسبرج القاسية الثاقبة. كنت أشعر بها في ظهري، وكانت تثير من حولي رملاً وغباراً. كم من وجوه متعبة بين وجوه هؤلاء الناس المساكين الذين كانوا يسارعون عائدين إلى بيوتهم من العمل أو من أماكن كسب الرزق الأخرى! كان كل منهم يحمل همه القاسي في وجهه... وما من فكرة مشتركة واحدة تجمع هذا الجمهور بعضه إلى بعض! إن كرافت على حق: كل إنسان يسير في جهة. والتقيت بصبي صغير، هو من الصغر بحيث يستغرب المرء أن يراه في مثل هذه الساعة وحيداً في الشارع. لا بد أنه ضل طريقه. وهذه امرأة تقف لحظة لتسأله، ولكنها لم تفهم. فأومأت بيدها بما يدل على أنها لا تستطيع له نفعاً، ثم تابعت طريقها تاركة إياه في الظلام. واقتربت من الصبي، ولكنه خاف مني وهرب. حتى إذا وصلت إلى الدار، قررت ألاّ أذهب بعد اليوم إلى فاسين قط. وشعرت، وأنا أصعد السلم، برغبة محمومة في أن أجد أهلي وحدهم في البيت، من دون فرسيلوف، حتى يكون لي من الوقت ما يتسع لأن أقول لأمي قبل وصوله بضع كلمات طيبة، أو أن أقول بضع كلمات طيبة لأختي العزيزة التي لم أوجّه إليها كلمة خاصة واحدة طوال هذا الشهر. وذلك ما كان: لم يكن فرسيلوف في المنزل...

– 4 –

بالمناسبة: إن عليَّ وأنا أدخل في «مذكراتي» هذه «الشخصية الجديدة» (أعني فرسيلوف) أن أورد موجزاً لسجل خدماته في الدولة،

Twitter: @ketab_n

وهي خدمات تافهة على كل حال. لكنني أتكلم عنه ليفهمني القارئ فهماً أكمل، ولأنني أنا نفسي لا أعرف أين يمكنني أن أتحدث عنه في تتمة هذه القصة.

لقد كان فرسيلوف في الجامعة، لكنه دخل بعد ذلك سلاح «الحرس» في فرقة من فرق الفرسان. وتزوج امرأة اسمها فاناريوتوفا، وأحيل على التقاعد. وقام بعدة أسفار إلى الخارج. كان في الفترات التي تتخلل هذه الأسفار يعيش بموسكو متمتعاً بمباهج الحياة في المجتمع الراقي. وحتى إذا ماتت زوجته مضى ينعزل في الريف. وهناك إنما حدثت له قصته مع أمي. ثم أقام مدةً طويلةً في مكان ما بالجنوب. فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد إلى الخدمة في الجيش، ولكنه لم يرسل إلى القرم[20] ولم يشارك في أي عمل. فلما انتهت الحرب أحيل على التقاعد، وسافر إلى الخارج، حتى لقد سافر مصطحباً أمي ثم تركها في كونيغسبرج[21]. وقد حكت لي المسكينة مراراً بنوع من الرعب، وهي تهز رأسها، كيف أنها مكثت وحيدة وحدة تامة مدة ستة أشهر، مع ابنتها الصغيرة، دون أن تعرف لغة البلاد، حتى لكأنها تعيش في غابة، عدا أنها كانت في المدة الأخيرة من إقامتها هناك بغير مال. وقد جاءتها تاتيانا بافلوفنا عندئذ، فأخذتها إلى روسيا إلى مكان في إقليم نيجنى-نوفجورود. ثم كان فرسيلوف في عداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»[22]، فقام بالمهام الموكولة إليه خير قيام فيما قيل. ولكنه لم يلبث أن ترك هذه المهام، وراح يتعاطى في بطرسبرج أعمالا مدنية شتى خاصة. وقد قدر آندرونيكوف كفاءاته قدراً عظيماً على الدوام. فكان يحترمه كثيراً، ولكنه كان يضيف إلى ذلك قوله إنه لا يفهم طبعه. ثم هجر فرسيلوف هذا النوع من الأعمال أيضاً، ورجع إلى الخارج، فأقام هذه المرة مدةً طويلة استمرت عدة سنين. وبعد ذلك بدأت علاقاته

Twitter: @ketab_n

الوثيقة جداً بالأمير العجوز سوكولسكي. وقد تقلبت أحواله المادية في أثناء ذلك الوقت مرتين أو ثلاثاً: فتارةً يهبط إلى الدرك الأسفل من الفقر والبؤس، وتارةً يصعد إلى ذروة الغنى والثراء.

آن الأوان، وقد وصلت إلى هذا الموضع من مذكراتي، أن أتكلم عن «فكرتي» لأول مرة منذ أن نبتت هذه الفكرة في نفسي. هاأناذا أجرؤ على أن أكشف عنها للقارىء وأفعل هذا أيضاً كذلك بغية وضوح قصتي اللاحقة. إن القارىء وأنا نفسي، مؤلف هذه القصة، كلينا نكون عرضةً للارتباك والتشوش إذا أنا حاولت أن أشرح سلوكي دون أن أبدأ بتوضيح الأسباب التي قادتني إليه وحضّتني عليه. ولكنني بهذا «الأسلوب من الإغفال» وقعت من خراقتي في عيوب «الحيل» التي يعمد إليها الروائي، والتي سخرت منها من قبل. إنني إذ بادرت إلى سرد قصتي ببطرسبرج مع كل ما فيها من أحداث مخزية لي، أجد أن هذه المقدمة كانت ضرورة لا غنى عنها. فليست «الحيل» هي التي جعلتني ألتزم الصمت حتى الآن، وإنما ألزمتني به طبيعة الأشياء، أي صعوبة القصة. إنني حتى في هذا اليوم، بعد كل ما جرى، لا أزال أشعر بصعوبة لا سبيل إلى تذليلها وأنا أريد أن أحكي تلك «الفكرة». ثم إن عليَّ طبعاً أن أعرضها في صورتها التي كانت عليها حينذاك، أي كما نشأت في نفسي وتصورها عقلي، لا في الصورة التي آلت إليها الآن، وهذه صعوبة جديدة. هناك أمور يكاد يستحيل على المرء أن يرويها. وإن أبسط الأفكار وأوضح الأفكار هي بعينها أعسرها على الفهم. لو أن كريستوفر كولومبوس أراد قبل اكتشاف أميركا أن يروي فكرته للآخرين لظلوا مدةً طويلة لا يفهمونه فيما أعتقد. وهم كانوا لا يفهمونه فعلاً. إنني إذ أقول هذا الكلام لا أدّعي مقارنة نفسي بكريستوفر كولومبوس. وما على الذي يستخلص هذه النتيجة إلا أن يشعر بخزي وعار، لا أكثر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

– 5 –

إن فكرتي هي أن أكون مثل روتشيلد. إنني أدعو القارىء إلى الهدوء والجد.

أكرر: إن فكرتي هي أن أكون مثل روتشيلد، هي أن أكون في مثل غنى روتشيلد. لا أن أكون غنياً فحسب؛ وإنما أن أكون مثل روتشيلد. أما غرضي من ذلك ودافعي إليه والأهداف التي أسعى إليها، فذلك كله ما سأعالجه فيما بعد. وحسبي أن أبرهن أول الأمر على أن تحقيق هدفي هذا مضمون بدقة رياضية.

المسألة بسيطة غاية البساطة، يكمن سرها كله في كلمتين: العناد، والمثابرة.

قد يقال لي: نحن نعرف هذا، فما هو علينا بجديد. ففي ألمانيا يردده كل فاتر (أب)[23] على مسامع أبنائه. ومع ذلك بقي صاحبك روتشيلد (المرحوم جيمس روتشيلد، الباريسي، الذي أتكلم عنه) فرداً واحداً، مع أن هناك من الفاترات والآباء ملايين.

فأجيب:

– تزعمون أنكم سمعتم هذا. والحق أنكم لم تسمعوا شيئاً البتة. ثمة نقطة أنتم فيها على صواب مع ذلك:

لئن قلت إن الأمر «بسيط غاية البساطة»، فقد نسيت أن أضيف إلى

Twitter: @ketab_n

ذلك أنه أيضاً أصعب أمر. إن جميع الأديان وجميع المذاهب الأخلاقية في العالم ترتد إلى ما يلي: «على المرء أن يحب الفضيلة وأن يتجنب الرذيلة». هل هناك ما هو أبسط من هذا؟ ألا فحاولوا إذاً أن تحققوا فضيلة من الفضائل، وأن تجتنبوا رذيلة واحدة من رذائلكم! هيا حاولوا قليلاً! إن الأمر كله يكمن هنا!

لذلك كان أولئك «الفاترات» الذين لا حصر لهم، والذين تعاقبوا دهوراً لا نهاية لها، يمكنهم أن يرددوا على مسامع أولادهم هاتين الكلمتين المدهشتين اللتين يكمن فيهما السر كله، ثم يبقى روتشيلد فرداً واحداً لا ثاني له. إذاً: ليس الأمر كذلك تماماً، و«الفاترات» يرددون فكرة تختلف عن ذلك كل الاختلاف.

أما العناد والمثابرة فلا شك أبداً في أنهم سمعوا عنها أيضاً. ولكن ما أنا في حاجة إليه ليس هو العناد الذي يتكلم عنه الآباء ولا هو المثابرة التي يتكلم عنها الآباء.

إن كلمة «فاتر» هذه وحدها - ولست أتكلم عن الألمان وحدهم - تعني أن يكون للفرد أسرة، وأن يعيش كما يعيش الآخرون، وأن تكون عليه التزامات كالتزاماتهم، فذلك كله يحول بينك وبين أن تصبح روتشيلد، ويضطرك أن تبقى إنساناً معتدلاً. أما أنا فأفهم أنني متى أصبحت روتشيلد أو متى رغبت في أن أصبح روتشيلد، لا بطريقة الفاترات، بل على نحو جاد، فإنني بذلك أخرج من المجتمع فوراً.

منذ بضع سنين قرأت في الجرائد أنه مات على ظهر مركب بخاري في نهر الفولجا شحاذ يرتدي أسمالاً بالية وخرقاً ممزقة كان يطلب الصدقات من الناس وكانت المنطقة كلها تعرفه. فبعد موته وجدت ثلاثة آلاف روبل مخيطةً في أطماره القذرة. وفي هذه الأيام الأخيرة قرأت قصة جديدة عن شحاذ هو رجل من طبقة النبلاء كان يمضي من نزل إلى

Twitter: @ketab_n

نزل يمد يده مستعطياً. وقد اعتقل الرجل فوجد حاملاً قرابة خمسة آلاف روبل. من هنا نخرج بنتيجتين: الأولى هي أن العناد في الكنز، ولو كان كنز كوبيكات، يؤدي في النهاية إلى ثمرات ضخمة (ولا شأن للزمن في هذا). والثانية هي أن أبسط شكل من أشكال تحصيل الغنى مضمون النجاح بالبرهان الرياضي متى توفّرت شرط المثابرة.

لكن هناك رجال محترمون أذكياء متواضعون، قد يكون عددهم غير قليل، لا يملكون ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف روبل (مهما بذلوا من جهد وتحملوا من عناء)، رغم حرصهم الشديد على أن يملكوا مبلغاً كهذا المبلغ. فلماذا؟ الجواب واضح: هو أنه لا أحد من هؤلاء يرغب في ذلك إلى درجة يقبل معها أن يصبح شحاذاً إذا كان ذلك هو السبيل الوحيد إلى الإثراء، مهما تكن رغبته في الإثراء قوية. ولا أحد منهم يبلغ من العناد أنه إذا أصبح شحاذاً لا ينفق الكوبيكات الأولى التي يستعطيها للحصول على لقمة زائدة له أو لأسرته. في حين أن على المرء إذا هو استعمل هذا الأسلوب في جمع المال، أعني الاستجداء، أن يتغذى بخبز وملح لا أكثر لكنز مثل هذه الأموال. أو هذا ما أتصوره أنا على الأقل. ولا شك في أن هذا ما يفعله ذانك الشحاذان اللذان ذكرتهما منذ قليل. فقد كانا يأكلان خبزاً يابساً وينامان في العراء ومن المؤكد جداً أنهما كانا لا ينويان أن يصبحا مثل روتشيلد: إنهما لم يكونا إلا بخيلين من نوع هارباجون أو بليوشكين[24] لا أكثر. وحتى الادخار الواعي أو الكنز المقصود الذي يتخذ صورة أخرى ويقصد صاحبه أن يصبح مثل روتشيلد، إن هذا الادخار لا يقتضي رغبة أقل أو إرادة أضعف مما يملكه ذانك الشحاذان من رغبة عنيفة وإرادة قوية. بل ما من «أب» يبدي مثل تلك القوة. إن القوى متنوعة تنوعاً كبيراً في هذا العالم، ولا سيما قوى الإرادة والرغبة. شتان بين درجة الحرارة اللازمة

Twitter: @ketab_n

لغليان الماء، وبين درجة الحرارة اللازمة لاحمرار الحديد.

هنا التقشف كما في الدير. هنا مآثر زُهَّاد فعلاً. هذه عاطفة لا فكرة. لماذا؟ في سبيل ماذا؟ أهو عمل أخلاقي أم هو شذوذ عجيب أن يرتدي المرء خرقاً خشنة وأطماراً بالية، وأن يظل حياته كلها يأكل خبزاً أسود، بينما هو يحمل ثروة طائلة؟ هذه مسائل سترد فيما بعد، أما الآن فأكتفي بالحديث حول احتمال الوصول إلى الهدف.

حين تخيلت «فكرتي» (وقوامها حرارة احمرار الحديد) أردت أن امتحن نفسي: أأنا خلقت للدير وللزهد؟ ومن أجل هذا الامتحان لبثت شهراً بكامله لا أطعم إلا خبزاً مع ماء. كنت لا أحتاج إلى أكثر من رطلين ونصف رطل من الخبز الأسود كل يوم. ولكي أستطيع تحقيق هذا التقشف اضطررت أن أخدع نيقولاي سيميونوفتش الذكي وماريا إيفانوفنا التي كانت تريد لي الخير. ما كان أبلغ حزن ماريا إيفانوفنا وما أشد حيرة نيقولاي سيميونوفتش المرهف حين أصررت على أن يحمل طعامي إلى غرفتي فأتلفه هناك بكل بساطة: كنت أصب الحساء من النافذة على نباتات القراص أو أرميه في المراحيض؛ وكنت ألقي باللحم إلى الكلب من النافذة أو أصرّه بورقة فأضعها في جيبي وأمضي بها إلى خارج المنزل وأتخلص من المأكولات الأخرى بنفس الطريقة. وإذ كانوا يعطونني أقل من رطلين ونصف رطل من الخبز، فقد كنت أشتري خبزاً في السر. وصمدت على ذلك الشهر كله، وإن أكن قد أفسدت معدتي قليلاً، فقد أخذت في الشهر التالي أضيف إلى الخبز حساء، وأشرب في الصباح والمساء كأسا من الشاي. وأؤكد لكم أنني قضيت على هذا سنة بأسرها في صحة تامة واكتفاء كامل، وكنت من الناحية النفسية في أثناء ذلك مفتتناً أشد الافتتان، وكنت في حماسة مكنونة مستمرة. لم آسف على المأكولات التي لم آكلها فحسب بل كنت مبتهجاً بذلك. فلما

Twitter: @ketab_n

انقضت السنة وصرت على يقين من أنني أستطيع احتمال أي صيام، عدت آكل كما يأكل سائر الناس، وأمضي أتعشى معهم. ثم لم تكفني تلك التجربة فكررتها مرةً أخرى: كان يحق لي أن أتقاضى مصروفاً قدره خمسة روبلات في الشهر، عدا نفقات الإقامة التي كانت تُدفع لنيقولاي سيميونوفتش. فقررت ألا أنفق من هذا المبلغ إلا نصفه. إن هذا امتحان صعب جداً. ولكنني بعد سنتين أو أكثر قليلاً كان في جيبي حين وصلت إلى بطرسبرج سبعون روبلاً عدا غيرها من المال، ادخرتها من تلك التقتيرات. إن النتيجة التي خرجت بها من هذين الامتحانين تجربة فخمة هائلة: لقد علمت علم اليقين أنني أملك الإرادة اللازمة للوصول إلى هدفي. تلكم هي «فكرتي» كلها. أما كل ما عدا ذلك فأمور تافهة.

- 2 -

مع ذلك فلننظر أيضاً في هذه الأمور التافهة.

لقد وصفت التجربتين اللتين قمت بهما. وأنتم تعلمون أنني في بطرسبرج قد قمت بتجربة ثالثة: مضيت إلى بيع بالمزاد العلني، فربحت سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكاً دفعة واحدة. ولم تكن هذه تجربة بمعنى التجربة طبعاً، وإنما كانت نوعاً من اللعب وضرباً من التسلية: لقد خطر ببالي أن أختلس من المستقبل دقيقة قصيرة لأرى كيف عساني أتصرف. والحق أنني منذ البداية، بموسكو، كنت قد أرجأت الشروع في تنفيذ فكرتي إلى اللحظة التي أصبح فيها حراً حرية تامة. كنت أدرك إدراكا واضحاً أن عليَّ قبل كل شيء، مثلاً، أن أفرغ من المدرسة (أما الجامعة فكنت قد ضحيت بها كما تعلمون.) ومما لا شك فيه أنني سافرت إلى بطرسبرج شاعراً بغضب خفي شديد: وما إن خرجت من المدرسة وغدوت حراً أول مرة حتى رأيت فجأة أن أمور

Twitter: @ketab_n

فرسيلوف ستلهيني عن مشروعي إلى أجل غير معلوم! ولكنني رغم الغضب سافرت مطمئناً إلى هدفي أكبر الاطمئنان.

صحيح أنني كنت أجهل الحياة العملية، لكنني كنت قد فكرت في المسألة ثلاث سنين متتالية، فلم يساورني أي ريب. قلبت الأمور على ألف وجه وأنا أتصور كيف أتصرف: تصورتني في إحدى عاصمتينا على حين غرة كأنني هابط من السحب (لقد اخترت العواصم بدايةً لمشروعي، ولا سيما بطرسبرج التي آثرتها بعد حساب)، ورأيتني - رغم هبوطي من السحب - حراً حريةً كاملة، فما أنا رهن بأحد، ورأيتني موفور الصحة، مع مائة روبل دسستها في جيبي بصفة رأس مال أولي، إذ يستحيل على المرء أن يبدأ بأقل من مائة روبل، وإلا كان يرجىء مرحلة النجاح الأولى مدةً طويلة جداً. وأنا كما تعلمون أملك، عدا المائة روبل، الشجاعة والعناد والمثابرة، والعزلة التامة، والسر المكتوم. ولا سيما العزلة: لشدّ ما كرهت العلاقات بالناس والاشتراك معهم كرهاً فظيعاً إلى آخر لحظة. لقد عزمت أمري على أن أنفذ «فكرتي» وحيداً، Sine qua[25]. إن الناس عبء ثقيل عليَّ، فلو أشركتهم في فكرتي لاضطرب ذهني ولأضر ذلك بهدفي. ثم إنني حتى هذا اليوم، خلال حياتي كلها، في جميع أحلامي عن علاقاتي بالناس كنت أدبر أموري تدبيراً ذكياً. ولكنني لا أكاد أترك أفق الحلم وأشرع في العمل حتى أتصرف تصرفاً أحمق. إنني أعترف بهذا مستاءً صادقاً. لطالما فضحت نفسي بأقوالي، ولطالما أسرفت في التسرع. وبسبب ذلك قررت أن ألغي البشر من مشروعي. الفائدة التي أجنيها من ذلك: الاستقلال، هدوء البال، وضوح الهدف.

رغم أن الأسعار ببطرسبرج فاحشة فقد اتخذت قراراً حاسماً بألا أنفق أكثر من خمسة عشر كوبيكاً لطعامي، وكنت أعلم أنني سأنفذ قراري لا

Twitter: @ketab_n

أحيد عنه. لقد درست مسألة الطعام هذه دراسة طويلة مفصّلة. قررت مثلاً أن آكل خبزاً وملحاً في يومين متتاليين ثم أنفق في اليوم الثالث ما أكون قد حققته من وفر. كان يبدو لي أن هذا أنفع لصحتي من صيام متساو متصل لا أنفق خلاله إلا خمسة عشر كوبيكاً في اليوم. أما عن المسكن فقد كنت في حاجة إلى ركن، إلى ركن لا أكثر، ركن أبيت فيه ليلاً، أو آوي إليه أيام يكون الجو رديئاً. وقد قررت أن أعيش في الشارع، وكنت مستعداً إذا اقتضى الأمر ذلك أن أبيت في ملاجىء الليل التي يعطى النائم فيها، عدا الغطاء، قطعة خبز وكأس شاي. آ. . . لسوف أعرف كيف أخبىء مالي في ركني أو في الملجأ فلا يسرقه أحد. حتى أنهم لن يحزروا شيئاً، أنا أضمن لكم ذلك! «أأُسرق أنا، أنا الذي أمسك عن سرقة الآخرين؟»: لقد سمعت هذه الكلمة الظريفة مرة في الشارع من فم مكّار مرح. وأنا لا أحتفظ منها طبعاً إلا بروح الحذر والمكر، فليس في نيتي أن أسرق أبداً. بل أكثر من ذلك أنني منذ كنت بموسكو، وربما منذ اليوم الذي شهد ولادة «فكرتي» قد قررت أنني لن أكون دائناً برهون، ولا مرابياً: فذلك له اليهود وله الروس الذين لا يملكون ذكاء ولا أوتوا خلقاً. إن الإقراض والربا لهو عمل منحط.

وأما الملابس فقد قررت أن يكون لي رداءان، واحد لكل الأوقات، وواحد لائق. وكنت واثقاً أنني متى ملكت هذا الرداء فسيدوم زمناً طويلاً. لقد قضيت سنتين ونصف سنة أتعلم كيف ألبس ثيابي، حتى لقد كشفت عن هذا السر: من أجل أن يبقى رداؤك جديداً على الدوام، وألا يبلى، فعليك أن تنظفه بالفرشاة كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً، خمس مرات أو ستاً في اليوم. فلا خوف على الصوف من الفرشاة، أقول لكم هذا عن علم مؤكّد، أما الخوف عليه فمن الغبار والأوساخ. إذا نظرت إلى ذرات الغبار بالمجهر وجدتها حصى صغيرة، أما الفرشاة فمهما تكن

Twitter: @ketab_n

قاسية ليست تختلف كثيراً عن الصوف. وقد تعلمت كذلك انتعال الحذاءين. إليكم السر: يجب عليك أن تضع قدمك في حذر، وأن تضع النعل كله دفعةً واحدة، وألا تضغط على إحدى الجهتين إلا أقل ضغط ممكن. ذلك علم يمكن تحصيله في أسبوعين، ثم يجري كل شيء من تلقاء نفسه. بهذه الوسيلة تستطيع أن تطيل عمر الحذاءين ما يساوي ثلثه في المتوسط. تلك تجربتي خلال سنتين.

بعد ذلك يأتي العمل نفسه.

انطلقت من الاعتبار التالي: إنني أملك مائة روبل. وفي بطرسبرج مزادات كثيرة، وتصفيات، وحوانيت، ومعوزون فيستحيل ألا يستطيع المرء أن يشتري شيئاً من الأشياء بثمن ما ثم يبيعه بسعر أعلى. لقد ربحت من بيع «ألبوم» سبعة روبلات وخمسة وتسعين كوبيكاً، وكان رأس المال الذي صرفته روبلين وخمسة كوبيكات. وقد حققت هذا الربح الضخم بدون مجازفة: قرأت في عيني المشتري أنه لن يتراجع. بالطبع أنا أدرك تماماً أن هذه كانت مصادفة. لكنني إنما أبحث عن مصادفات مثل هذه، ومن أجل ذلك إنما قررت أن أعيش في الشارع. قد تكون هذه المصادفات نادرة جداً، إنني أسلم بذلك. لكن هذا لا يغير قاعدتي الأساسية وهي إلا أجازف. وأما قاعدتي الثانية فهي أن أربح كل يوم أكثر من الحد الأدنى الذي أنفقه على تأمين معيشتي، حتى لا ينقطع الادخار يوماً واحداً.

رب قائلٍ يقول: لكن هذه أحلام. فأنت لا تعرف الشارع، وستُخدع منذ الخطوة الأولى. لقد فات القائل أنني أملك الإرادة وقوة العزيمة، وأن علم الشارع علم كسائر العلوم، وأن تحصيل هذا العلم يكون بالإصرار، والانتباه، واليقظة والمقدرة والكفاءة. لقد كنت في المدرسة بين الأوائل دائماً حتى الصف السابع، وكنت قديراً في الرياضيات.

Twitter: @ketab_n

هل يجوز أن تبجّلوا التجربة وعلم الشارع تبجيلكم للأصنام حتى تتنبأوا لي بالإخفاق حتماً؟! إن الذين يقولون هذا الكلام هم دائماً أولئك الذين لم يقوموا يوماً بأي تجربة ولا عَمَل ولا شرعوا في حياة، وإنما عاشوا في عفونة الكسل. لسان حالهم يقول: «إن فلاناً قد كسر أنفه، فلا بد أن يكسر فلان الآخر أنفه حتماً». لا لن أكسر أنفي. إن لي عزيمة قوية، ولأتعلمنَّ بقليل من الانتباه أي شيء. هل يمكنكم أن تتخيلوا أن المرء يعجز بالإصرار المستمر واليقظة المستمرة والتفكير الدائب والحساب الدقيق والنشاط غير المتناهي والحركة الدائمة عن أن يحصِّل العلم اللازم لكسب عشرين كوبيكاً زيادةً في كل يوم؟ لا سيما وأنني قررت إلا أسعى أبداً إلى الحد الأقصى من الربح، وأن أحتفظ دائماً بهدوء أعصابي وبرودة دمي. وفي المستقبل، حين أملك ألف روبل أو ألفين سأترك السمسرة والبيع بطبيعة الحال. ولئن كنت لا أزال قليل العلم بأمور البورصة والأسهم والبنوك والخ.، فإنني في مقابل ذلك كنت أعلم، علمي بأصابع يدي، أنني سأعرف جميع هذه البورصات وهذه البنوك وسأدرسها في حينها كما لن يدرسها أي إنسان آخر، وأن هذا العلم سيسعى إليَّ سعياً متى آن الأوان. هل يحتاج المرء من أجل هذا إلى كثير من الذكاء؟ هل هذه حكمة من حكم سليمان الحكيم؟ يكفي المرء أن يكون قوي العزيمة. أما المهارة والحذق والمعرفة فذلك كله يأتي من تلقاء نفسه. وإنما المهم ألا يكف المرء عن «أن يرغب».

ويجب خاصةً إلا يجازف، وذلك لا يتيسر إلا بقوة العزيمة. منذ مدة قصيرة، بعد وصولي بقليل، كان في بطرسبرج اكتتاب بأسهم سكة حديد. فالذين أمكنهم أن يكتتبوا جنوا ربحاً كبيراً. وخلال بعض الوقت كانت أسعار الأسهم ترتفع ارتفاعاً كبيراً. وهذا شخص تأخر عن

Twitter: @ketab_n

الاكتتاب أو بخيل يرى أسهماً بين يديَّ على حين فجأة، فيعرض عليَّ أن أبيعه إياها بربح يساوي نسبةً مئوية معينة من ثمنها. لسوف أبيعه الأسهم، بل سوف أبيعه إياها حالاً. ولسوف يتهكم الناس عليَّ طبعاً، إذ لو تريثت لنلت ربحاً يقدر بعشرة أضعاف هذا الربح. صحيح، ولكن ربحى الآن أضمن، لأنني أملكه في جيبي، أما ربحكم أنتم فإنه لا يزال في علم الغيب. فإن قلتم إن هذا ليس هو السبيل إلى جني ربح كبير قلت: عفوكم، ذلكم هو خطؤكم، ذلكم هو خطأ جميع أصحابنا هؤلاء أمثال كوكوريف وبولياكوف وجوبونين[26]. تعلموا هذه الحقيقة: أن الاستمرار والعناد في الربح، ولا سيما في الجمع والكنز، أقوى من فوائد مباغتة ولو بلغت مائة بالمائة!

قبل الثورة الفرنسية بقليل كان بباريس رجل اسمه «لاو»[27] تخيَّلَ مشروعاً يستحق أن يعد عبقرياً من ناحية المبدأ حقا (لكنه انتهى في التطبيق إلى فشل ذريع). لقد هاجت باريس كلها حينذاك، فكان الناس يتنافسون على شراء الأسهم متشاجرين بل متدافعين. كان البيت الذي يجري فيه بيع الأسهم يبتلع أموال باريس كلها. ثم ضاق البيت عن استيعاب الوافدين للاكتتاب، فكان الناس يحتشدون في الشارع من جميع المهن وجميع الطبقات وجميع الأعمار، من البورجوازيين والنبلاء وأولادهم، ومن كونتيسات ومركيزات ومومسات. فكان هؤلاء جميعاً كتلة واحدة حانقة تشبه أن تكون مجنونة كأنما عضها كلب مسعور. إن جميع المشاعر التي يحملها كثير من الناس عن نبالة دمائهم وعُلوّ مراكزهم وسُمُوّ ألقابهم وحتى رفعة الشرف وحُسن السمعة، إن ذلك كله قد ديس بالأقدام. كان الناس يضحّون بكل شيء (وحتى النساء) في سبيل الحصول على عدد من الأسهم. وانتقل الاكتتاب أخيراً إلى الشارع، ولكن لم يكن ثمة مائدة يُكتب عليها. وعندئذ إنما عرضوا

Twitter: @ketab_n

على رجل أحدب أن تتخذ حدبته طاولةً للكتابة برهة. فقبل الأحدب العرض، وفي وسعكم أن تتخيلوا الأجر الذي طلبه! وبعد قليل (بل بعد قليل جداً) أفلس المشروع: تهدّم كل شيء، أرسلت الفكرة كلها إلى الجحيم، وفقدت الأسهم كل قيمة. فمن ذا الذي جنى ربحاً في هذه القضية كلها؟ الأحدب، الأحدب وحده، لأنه لم يؤجر حدبته بأسهم بل بنقود ذهبية! أنا ذلك الأحدب! فقد ملكت القدرة على ألا آكل، وأن أجمع من توفير الكوبيكات اثنين وسبعين روبلاً. وسوف أقدر حتى أيضاً على أن أصمد حين تعصف حمّى بسائر الناس، وأن أوثر مبلغاً مضموناً على مبلغ آخر أضخم منه لكنه غير مضمون. أنا لست ضعيفاً إلا في الأشياء الصغيرة، أما الأمور الكبيرة فلا! كثيراً ما فاتتني قوة العزيمة في الشؤون الصغيرة، حتى بعد ولادة «فكرتي»، بسبب نفاد الصبر. أما إذا كان الأمر خطيراً فلا تعوزني قوة العزيمة أبداً. حين كانت أمي تقدم لي قبل الذهاب إلى العمل قهوة فترت سخونتها، فقد كنت أغضب، وأقول لها كلاماً فظاً، ومع ذلك فإنني ذلك الشخص نفسه الذي عاش شهراً كاملاً لا يأكل إلا خبزاً ولا يشرب إلا ماء.

الخلاصة أنه ليس طبيعياً ألا يعرف المرء كيف يربح، وألا يفلح في تعلم الربح. لا وليس طبيعياً ألا يصبح المرء مليونيراً إذا هو واظب على الادخار بغير انقطاع، وإذا ملك انتباهاً مستمراً بارداً، وإذا بذل جهداً دائماً للتوفير، وطاقةً ما تنفك تزداد وتتسع. كيف ربح الشحاذ ثروته إن لم يكن قد ربحها بقوة العزيمة وشدة الحماسة، واستمرار المثابرة؟ أأنا أسوأ منه؟ «على كل حال، قد لا أجني شيئاً، وقد لا يكون حسابي صحيحاً، وقد أفلس وأنهار. . . فلا ضير. . سأظل أسير إلى أمام. أسير لأنني أريد أن أسير». كذلك كنت أقول لنفسي في موسكو.

فإن قلتم إن هذا ليس فيه شيء من «فكرة»، وليس فيه شيء جديد،

Twitter: @ketab_n

قلت لكم آخر مرة: بل إن فيه أفكاراً لا نهاية لها، وإن فيه جدة لا نهاية لها.

آ. . . لقد أوجست جميع هذه الاعتراضات المبتذلة، ولشد ما أكون أنا نفسي مبتذلاً إذا أنا عرضت «فكرتي»! ما الذي قلته أنا في حقيقة الأمر؟ إنني لم أشرح عشر معشار فكرتي. إنني أشعر أن كل ما قلته يبدو تافهاً، فظاً، سطحياً، وربما حتى أصغر من سني.

- 3 -

بقي أن أجيب عن الأسئلة التالية: «لماذا؟ ما الهدف؟ أهذا أمر أخلاقي أم لا؟»، الخ الخ. وهي أسئلة وعدت بالإجابة عنها.

أشعر بالحزن لأنني سأخيِّب آمال القارىء دفعة واحدة، بل أشعر بالحزن والفرح معاً. إن أهداف «فكرتي» لا تضم أية رغبة في الانتقام، ولا أية رغبة بايرونية: لا لحقد اليتيم ولا لدموع ابن الزنا أي شأن في هذا. إن السيدة الرومانطيقية التي قد يخطر ببالها أن تتصفح مذكراتي هذه سوف تخفض أنفها خائبة الأمل. إن كل الهدف من «فكرتي» هو: العزلة.

- إن بلوغ العزلة يمكن أن يتم بدون أن يبذل المرء جهده لكي يصبح من أمثال روتشيلد. ما شأن روتشيلد في هذه القصة؟.

- إن له مكانه فيها. لأنني، عدا العزلة، في حاجة إلى القدرة.

اسمحوا لي بتمهيد: قد يفزع القارىء من صراحتي في الاعتراف، فيتساءل بغير قليل من السذاجة كيف لم يحمرَّ كاتب هذا الكلام خجلاً؟ فأجيب بأنني لا أكتب للنشر، وأنني قد لا أُقرأ إلا بعد عشر سنين، وذلك حين تكون الأمور قد تمت على الوجه الأكمل، فلا يكون عليَّ أن أحمر خجلاً من شيء. فإذا كنت في هذه المذكرات أخاطب قارئاً

Twitter: @ketab_n

أحياناً، فواضح أن ذلك ليس إلا أسلوباً في الكتابة لا أكثر. إن قارئي شخص خياليّ.

لا، لا ولادتي غير الشرعية التي كانوا يغيظونني بها كثيراً في مدرسة توشار، ولا الحزن الذي عشته في سني طفولتي، ولا أية رغبة في الانتقام أو الاحتجاج، لا شيء من ذلك كله كان له شأن في ولادة «فكرتي»: لقد ولدت فكرتي من طبعي ولادة عادية. لم أكن قد بلغت الثانية عشرة من عمري، أي منذ بداية الإدراك السليم، كما أظن، أصبحت لا أحب الناس، أو على الأصح أصبح وجودهم يثقل على صدري وتضيق به نفسي. وقد شق عليَّ أحياناً في لحظات صفائي، أن لا أستطيع البوح للقريبين مني بما يزخر به قلبي، بل قل إنني كنت أستطيع ذلك ولكن لا أريده. كان شيء ما يصدني. كنت شكاكاً، نافراً من صحبة الناس، متجهم النفس. عدا ذلك، لحظت أنني، منذ طفولتي تقريباً، شديد الميل إلى اتهام الآخرين، ولكنني سرعان ما أرتد إلى نفسي فأسائلها سؤالاً يثقل عليَّ ثقلاً شديداً: «ألست أنا المذنب؟» وكثيراً ما كنت أدين نفسي ظلماً! فمن أجل أن أتقي أزمات الضمير هذه، كنت أجهد أن أعتزل الناس. ثم أنني لم أجد شيئاً في مجتمع الناس مهما بذلت من الجهد. كان رفاقي جميعاً أقل ذكاءً مني، لا أستثني منهم أحداً.

نعم، كنت قاتم المزاج، فلا أكف عن الانغلاق على نفسي، ولا أكف عن الرغبة في الانسحاب من المجتمع. ولعلني كنت أستطيع أن أصنع خيراً للناس، ولكنني كنت في كثير من الأحيان لا أرى ما يدعوني إلى أن أصنع لهم خيراً. ليس الناس أخياراً فأهتم بهم. لماذا لا يأتون هم إليَّ؟ لماذا يكون عليّ أنا أن أقوم بالخطوة الأولى؟ ذلك ما كنت أقوله لنفسي. إنني قادر على الاعتراف بالجميل، وقد برهنت على ذلك بألف حماقة ارتكبتها. إنني أرد على البادرة الحسنة ببادرة أحسن.

Twitter: @ketab_n

الصراحة أقابلها بالمودة. هذا ما كنت أفعله، ولكنهم جميعاً كانوا يخدعونني في الحال وينغلقون على أنفسهم ساخرين مني. الشخص الوحيد الذي كان يفتح لي قلبه هو لامبرت الذي طالما ضربني ضرباً مبرحاً في سني طفولتي الأولى. وحتى هو فلم يكن سوى سافل ووغد صريح، وصراحته كانت ترجع إلى غبائه وحده. تلك كانت أفكاري حين وصلت إلى بطرسبرج.

حين خرجت من عند درجاتشيف (أي شيطان دفعني إلى بيته؟)، اقتربت من فاسين، وباندفاعة مودة، أزجيت له المديح. ولكن تلك المودة قد نقصت منذ ذلك المساء نفسه. لماذا؟ لا شيء إلا لأني مدحته. فبدا لي أنني بذلك قد خفضت قدري. مع ذلك ألا يرتفع قدر المرء حين يطري ولو على حساب نفسه أحداً يستحق هذا الإطراء؟ ذلك كان رأيي ومع ذلك نقص حبي لفاسين، بل نقص كثيراً. هذا مثال تعمّدت أن أسوقه والقارىء يعرفه. وأصبحت لا أفكر في كرافت أيضاً إلا وأشعر بمرارة. أما ذنبه فهو أنه شيّعني متلطفاً حتى الباب. وهذا الشعور بالمرارة لم يتبدد حتى في الغد حين اتضح كل شيء ولم يبق هناك ما يمكن أن أؤاخذه عليه. إنني منذ أيام دراستي في الصفوف الأولى للمدرسة كنت غضوباً إذا تفوق عليَّ أحد رفاقي في امتحان، أو بزَّني في تمارين الرياضة البدنية، أقاطعه فلا أكلمه. لا لأنني أكرهه أو أغار من نجاحه، بل لأن هذا طبعي.

نعم، لقد استولى عليَّ حلم القوة والعزلة طوال حياتي، حتى في سن لو أتيح لأحد أثناءها أن يرى ما كان يدور في رأسي من خواطر لضحك ضحكاً شديداً. لذلك أحب السرَّ كثيراً. وكنت أسترسل في الأحلام استرسالاً لا يُبقي لي وقتاً للحديث مع الناس. وقد استنتج الناس من ذلك أنني متوحش، وكان ذهولي يبعثهم على تأويلات أشد إيغالاً في الخطأ

Twitter: @ketab_n

بصدد صحتي. ولكن خديَّ المتوردين كانتا تبرهنان على نقيض ذلك.

وما كان أشد فرحي حين كنت أطمر نفسي تحت أغطيتي في المساء، فتهدأ من حولي ضجة الحياة المشتركة، وتأخذ أحلامي في بناء العالم على ما يشاء لي هواي في وحدة الليل! إن حالة الاسترسال في الحلم هذه قد لازمتني إلى أن اكتشفت «فكرتي»: فإذا بأحلامي تصبح معقولة بعد أن كانت غبية، وتتحول إلى صورة واقعية منطقية بعد أن كانت في صورة خيالية روائية.

انصهر كل شيء في هدف واحد. الواقع أن تلك الأحلام لم تكن غبية حتى قبل ذلك، وإن كانت كثيرة لا حصر لها. وكان بينها أحلام أفضِّلها على ما عداها... ولكن لا داعي إلى الكلام عنها هنا.

القدرة! قد يضحك بعض الناس حين يرون شخصاً «حقيراً» مثلي يتطلع إلى القدرة. ولسوف يدهشون أكثر من ذلك أيضاً إذا أنا قلت لهم إنني منذ طفولتي - أو نحو ذلك - لم أستطع في يوم من الأيام أن أتخيل نفسي إلا في المنزلة الأولى في كل تقلبات الأحوال وعلى الدوام. إليكم اعترافا غريباً آخر: قد لا أزال أتصف بهذه الصفة، ولا أستغفر عنها أحداً.

هذه «فكرتي» - وهذه قوّتها -: إن المال وحده يستطيع أن يقود امرىء إلى المنزلة الأولى، ولو كان تافهاً «لا قيمة له». قد لا أكون تافهاً. لكنني أعلم مثلاً، من النظر في المرآة، أن مظهري الخارجي يضرّ بي، لأن وجهي عادي لا يتميز بشيء. أما لو كنت غنياً مثل روتشيلد، فمن ذا الذي كان يمكن أن يهتم بوجهي؟ لو كنت غنياً مثل روتشيلد لكان يكفي أن أصفر صفرة واحدة حتى تهرع إليَّ ألوف النساء تعرض علي محاسنها. بل إني لمقتنع بأنها ستظنني في النهاية جميلاً، صادقات كل الصدق. وقد أكون ذكياً. ولكن يكفي أن يكون جبيني سبع بوصات

Twitter: @ketab_n

حتى يغلبني جاري إذا كان له من البوصات ثمانياً. أما إذا كنت غنياً مثل روتشيلد، فإن ذلك الحكيم الذي يبلغ جبينه ثماني بوصات سيكون شخصاً لا قيمة له، حتى أنهم لا يتيحون له أن يفتح فمه في حضوري! وقد أكون فكهاً خفيف الظل. ولكن هذا تاليران، وهذا بيرون[28].. فإذا أنا أُمحى أمامهما فلا يبقى لي وجود. أما إذا كنت غنياً مثل روتشيلد، فأين يكون بيرون؟ بل أين يكون تاليران؟ لا شك في أن المال قوة طاغية، ولكنها بمعنى من المعاني تحقق نوعاً من المساواة. ذلك ما خلصت إليه وقررته وأنا بموسكو.

قد لا يبدو لكم هذا كله إلا وقاحة واستهتاراً، وقد تظنون أنه يهدف إلى تغليب التفاهة على الموهبة. صحيح، ولكن هذه الفكرة جَسورة (وهي بهذا نفسه لذيذة). هل تعتقدون أنني كنت أرغب في القوة بهدف الانتقام أو الاضطهاد؟ حقاً، لا بد لشخص تافه أن يسلك هذا السلوك. أكثر من ذلك فإنني لمقتنع بأن أبرز الأفراد الموهوبين والأذكياء لا بد أن يتصرفوا هذا التصرف الذي تنسبه إليّ ظلماً إذا هم أوتوا ما أوتي روتشيلد من ثراء. أما أنا ففكرتي مختلفة عن هذا كل الاختلاف. إنني لا أخشى المال: إن المال لن يضطهدني ولن يحملني على اضطهاد أحد.

ما أنا في حاجة إلى مال، أو قل ليس المال هو ما أنا في حاجة إليه - حتى ولا القدرة. وإنما أنا في حاجة إلى ما تتيح القوة للمرء أن يحصل عليه، ولا يمكنه أن يحصل عليه إلا بها: أعني الشعور المعتزل الهادئ بالقوة! هوذا أكمل تعريف للحرية والذي يعكف العالم على صياغته! الحرية! أخيراً كتبت هذه الكلمة الكبيرة... نعم، إن الشعور المعتزل بالقوة جميل جاذب في ذاته ومسكِر. إنني أملك القوة، وإنني هادئ البال. إن الرعود بين يدي جوبيتر، ولكن جوبيتر هادئ. هل تسمع

Twitter: @ketab_n

جوبيتر يرعد أحياناً كثيرة؟ رب أحمق يظن أن جوبيتر نائم. أحلّ محل جوبيتر رجلاً من هؤلاء الأدباء أو امرأة حمقاء من تلك القرويات لتسمعنّ الرعد عندئذ لا ينقطع قصفه!

إنني كنت أفكر فأقول لنفسي: متى ملكت القوة فلن أحتاج إليها. وإنني لعلى ثقة بأنني، من تلقاء نفسي، وبكامل رضاي، سأحتل المنزلة الأخيرة عندئذ في كل مكان. لو كنت روتشيلد، لتجولت مرتدياً معطفاً مرقعاً، حاملاً بيدي مظلة. ولن يؤذيني عندئذ أن يصدمني أحد في الشارع أو أن أركض في الوحل حتى لا تدوسني العربات. حسبي شعوري بأنني أنا روتشيلد حتى أكون فرحاً في تلك اللحظة. أن أعرف أن في إمكاني أن أصيب وجبة من طعام لا يصيب أحد مثلها، وجبة يهيئها لي أحسن طباخ في العالم: يكفيني أن أعرف هذا. وسوف آكل قطعة من خبز وشريحة من الجمبون، فأكون راضياً كل الرضى. وما زال هذا هو تفكيري إلى الآن.

لست أنا من يسعى عندئذ إلى معاشرة الأرستقراطية، بل الأرستقراطيون هم الذين سيسعون عندئذ إليَّ ينشدون صحبتي. لست أنا من سيجري وراء النساء، بل النساء هن اللواتي سيتهافتن عليَّ تهافت الذباب، ويقدمن إليَّ كل ما تستطيع امرأة أن تقدمه. فأما «المبتذلات» منهن فسيجذبهن المال، وأما من كان لهنّ فكر فسيجذبهن إليَّ حب التعرف إلى إنسان غريب الأطوار متكبر مغلق على نفسه غير مكترث بشيء. وسوف ألاطف هؤلاء وأولئك على السواء. ولقد أعطيهن مالاً، لكني لن أقبل منهن شيئاً. وحب الاطلاع يولّد الهوى: فلقد أوقظ في نفوسهن الهوى أيضاً. وأؤكد لكم أنهن لن يظفرن مني بشيء اللهم إلا بعض الهدايا. ولن يورثني هذا إلا مزيداً من الدهشة والاستغراب:

«حسبي هذا الإدراك..»[29]

Twitter: @ketab_n

إن الشيء الغريب هو أن هذه الصورة (وهي صحيحة على كل حال) قد أغرتني وفتنتني منذ كنت في السابعة عشرة من عمري.

لا أريد ولا أنتوي أن أضطهد أحداً ولا أن أعذب أحداً. ولكنني أعلم أنني إذا أردت أن أضيّع أحداً من الناس، عدواً من أعدائي، فلن يمنعني أحد من ذلك، وأن الجميع سوف يعاونونني في هذا جاهدين. وهنا أيضاً حسبي ذلك. بل إنني لن أنتقم من أحد. لطالما أدهشني أن جيمس روتشيلد قد قبل أن يحمل لقب «بارون»! علام؟ لماذا؟ ما حاجته إلى اللقب وهو بدونه تفوَّقَ على جميع الناس في هذه الحياة الدنيا؟ «أوه! في وسع ذلك الجنرال الوقح أن يهينني في محطة تبديل الأحصنة التي كنا فيها معاً ننتظر الخيول. فلو عرف من أنا لركض يتولى بنفسه قرن خيول عربتي، ولساعدني على الصعود إلى مركبتي المتواضعة! لقد كتب أحدهم يقول إن رجلاً أجنبياً يحمل لقب كونت أو بارون كان في قطار فيينا مع رجل من أصحاب البنوك في تلك المدينة فألبس قدميه بابوجيهما، وكان صاحب البنك من الابتذال بحيث قبل ذلك! أوه! وفي وسع تلك الحسناء الرهيبة (أقول الرهيبة لأن بين الحسناوات من هنَّ رهيبات!) في وسع تلك الفتاة التي هي بنت تلك الارستقراطية الفخمة الجليلة، إذا هي لقيتني عرضاً في سفينة أو غير ذلك، أن تنظر إليَّ شزراً وأن تشمخ بأنفها وأن تدهش باحتقار من هذا الرجل الصغير الوضيع الهزيل الذي يحمل بيده كتاباً ويتجرأ أن يجلس بجانبها في الدرجة الأولى! ولكنها لو علمت من ذاك الذي يجلس إلى جانبها! ولسوف تعلم ذلك، سوف تعلمه فتأتي تجلس إلى جانبي من تلقاء نفسها، خاضعة خجلى ملاطفة، ساعية إلى نظرة ألقيها إليها، فرحة بابتسامة أنعم بها عليها. . .» إنني أتعمّد إدخال هذه المشاهد التي كنت أتصورها قبلاً، لأعبر عن فكرتي تعبيراً أوضح. ولكنها مشاهد

Twitter: @ketab_n

شاحبة، ولعلها مبتذلة. إن الواقع يؤكد أو ينفي، وحده يبرر كل شيء.

رُبّ قائل يقول إن حياة المرء على هذا النحو سخيفة: فلماذا لا يكون له فندق، لماذا لا يكون له منزل مفتوح للناس، لماذا لا يستقبل ممثلي المجتمع الراقي ويكون له تأثير ونفوذ، ولماذا لا يتزوج؟ ولكن ما الذي سيصير إليه روتشيلد عندئذ؟ سوف يكون كسائر الناس. سوف يزول كل ما في «الفكرة» من فتنة وقوة أخلاقية. لقد حفظت على ظهر القلب في طفولتي، الحوار الداخلي الذي دار بين «الفارس البخيل» الذي صوره بوشكين وبين نفسه. إن بوشكين لم ينتج ما هو أعلى من هذا الكلام بمقياس الفكرة! وأنا ما زلت أحرص على هذه الأفكار إلى اليوم. وقد يقال لي باحتقار:

- ولكن مَثَلَك الأعلى منحط جداً. المال! الثراء! فأين مصلحة المجتمع، وأين المآثر الإنسانية؟

ولكن هل يعرف أحد في أي وجه من الوجوه سأستعمل ثرائي؟ أين النأي عن الأخلاق وأين الحطة في أن تنزل هذه الملايين من براثن يهودية قذرة ضارة إلى يدي زاهد ثابت عاقل يلقي على العالم نظرة ثاقبة؟ على أن أحلام المستقبل هذه ليست الآن بوجه الإجمال إلا نوعاً من حكاية، ولعلني أخطأت إذ دونتها، ولعله كان يجدر أن تبقى في رأسي لا تخرج منه. وأنا أعلم أيضاً أن أحداً قد لا يقرأ هذه الأسطر. ولكن إذا قرأها أحد، فهل يقدِّر أنني قد لا أحتمل ملايين روتشيلد؟ نعم، قد لا أستطيع أن أحتملها، لا لأنها يمكن أن تسحقني، بل بمعنى آخر هو نقيض هذا المعنى تماماً. لطالما عانقت مراراً، في أحلامي، اللحظة المستقبلة التي سيكون فيها شعوري قد ارتوى ارتواء تاماً، وأصبحت أرى أن القوة لا تكفيني. لسوف أرد جميع تلك الملايين إلى الناس حينذاك، لا عن ضجر ولا عن سَأَم بغير هدف بل لأن مطالبي

Twitter: @ketab_n

تفوق هذا كثيراً: إلا فلتقتسم الإنسانية ثروتي عندئذ كما تشاء، أما أنا فأنضم إلى التافهين من جديد! لقد أستحيل يومذاك إلى ذلك الشحاذ الذي مات في السفينة، مع فارق واحد هو أنهم لن يجدوا شيئاً من مال خيط في أسمالي البالية. إدراكي وحده بأنني كان بين يدي ملايين فرميتها في الوحل مثل الغراب[30]، سيكفيني غذاء في صحرائي. إنني ما زلت مستعداً لأن أفكر هذا التفكير نفسه حتى اليوم. نعم، إن «فكرتي» هي القلعة التي يمكنني في كل وقت وفي كل ظرف أن أختبىء فيها من جميع الناس، ولو كنت شحاذاً مات في المركب. تلكم هي قصيدتي! واعلموا أنني في حاجة إلى إرادتي السيئة كاملةً، لا لشيء إلا أن أبرهن لنفسي أنني أملك القدرة على العدول عنها.

ولا بد من معترض يقول إن هذا الكلام شعر، وإنني لن أتخلى عن ملاييني أبداً متى ملكتها، وإنني لن أستحيل يوماً إلى شحاذ ساراتوف. والحق أنني قد لا أتخلى عن ملاييني فعلاً. وأنا لم أزد هنا على أن رسمت لكم الخطوط العريضة من المثل الأعلى الذي يتصوره فكري. ولكنني أضيف الآن إلى كلامي جاداً أنني إذا بلغت من كنز المال إلى الرقم الذي بلغته ثروة روتشيلد، فلقد أستطيع فعلاً أن أرمي هذه الثروة في وجه المجتمع. (أما قبل الوصول إلى هذا الرقم فقد يكون من الصعب أن أفعل). وليس نصف الثروة هو ما سأهبه، وإلا كان عملي مبتذلاً، وكنت أُفقر نفسي إلى النصف لا أكثر. وإنما سأهب ثروتي كلها، إلى آخر كوبيك منها، لأنني إذ أصبح شحاذاً، أصبح رأساً أغنى من روتشيلد ضعفين! إذا لم تفهموني فليس الذنب ذنبي. ولن أدخل في شروح.

سوف يقول الناس جازمين: «هذا من الدروشة، هذا شعر التفاهة والعجز، هذا انتصار اللاموهبة والسبيل الوسط!» نعم، أعترف لكم بأن

Twitter: @ketab_n

هذا انتصار اللاموهبة والسبيل الوسط، ولكنه ليس انتصار العجز. لقد شعرت بفرح جنوني حين تصورت نفسي غير موهوب وتافهاً، أقف أمام الناس فأقول لهم مبتسماً: أنتم أمثال غاليليو وكوبرنيك، وشارلمان ونابوليون، وبوشكين وشكسبير[31]، ومارشالات القتال والبلاط، أما أنا فرجل بلا موهبة وابن زنا ولكنني مع هذا فوقكم، لأنكم خاضعون لهذه الحقيقة من تلقاء أنفسكم. إنني أعترف بأنني مضيت في هذا التخيل إلى أقصاه، حتى تصورتني بغير تعليم. فبدا لي أن الأمر يكون أجمل إذا كان هذا الرجل جاهلاً جهلاً بشعاً. وقد كان لهذا الحلم الذي يشتمل على مبالغة وغلو أثر في نجاحاتي المدرسية في الصف السابع. فانقطعت عن الدرس تعصباً فكان يبدو لي أن المثل الأعلى يزداد جماله بانتقادي الثقافة بدون التعليم. وقد تغير رأيي الآن في هذه النقطة. فصرت أعتقد أن التعليم لن يكون فيه ضرر.

يا سادتي، هل يعقل أن يكون استقلال الفكر، مهما يكن استقلالاً محدوداً، شاقاً على أنفسكم إلى هذا الحد؟ سعيد مَنْ كان له مثل أعلى للجمال ولو كان خاطئاً! ولكنني مؤمن بصحة مثلي الأعلى. كل ما هنالك أنني عرضته عرضاً أخرق، ولم أحسن الإفصاح عنه. ولا شك في أنني سأستطيع بعد عشر سنين أن أعرضه عرضاً أفضل. وبانتظار ذلك سأحتفظ بهذا كله للذكرى.

– 4 –

ها قد انتهيت من «فكرتي». وإذا كنت قد وضعتها وضعاً مبتذلاً سطحياً فهذا ذنبي أنا لا ذنبها هي. لقد سبق أن نبَّهت إلى أن أبسط الأفكار هي أعسرها فهماً. وأضيف الآن إلى ذلك إنها أعسرها عرضاً. لا سيما وأنني حكيت «فكرتي» في صورتها السابقة. وعكس هذا

Twitter: @ketab_n

صحيح أيضاً: إن الأفكار المسطحة السريعة يفهمها الناس بسرعة خارقة، ولا سيما الجمهور، الشارع. وأكثر من ذلك إنها تعد أعظم الأفكار وأكثرها عبقرية، ولكنها لا تعد كذلك إلا في يوم ظهورها. فما هو رخيص الثمن لا يدوم طويلاً. إن الفهم السريع دليل على ابتذال الشيء الذي يجب فهمه. إن فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية على الفور، وبسمارك نفسه أصبح رجلاً عبقرياً[32]، ولكنْ هذه سرعة تدعو إلى الاشتباه: إنني أنتظر بسمارك عشر سنين، فأرى عندئذ ماذا يبقى من فكرته، بل ربما ماذا يبقى من السيد المستشار نفسه أيضاً. هذه ملاحظة عرضية تماماً، ولا شأن لها بالموضوع، ومن الواضح أنني لم أدخلها على سبيل المقارنة، وإنما للذكرى أيضاً. (هذا شرح أخص به القارىء الكثيف ذهنه).

والآن سأقصّ حادثتين لأنتهي من «فكرتي» تماماً وعلى نحو لا تربكنا معه في الحديث القادم إطلاقاً.

في الصيف، في شهر تموز، قبل سفري إلى بطرسبرج بشهرين، وكنت خالياً خلواً تاماً، طلبت مني ماريا إيفانوفنا أن أذهب إلى بلدة ترويتسكي بوساد لأقوم بمهمة لها لدى عانس كانت تقيم هناك، والمهمة أتفه من أن أعرض لها هنا بالتفصيل. فأثناء عودتي في ذلك اليوم نفسه لاحظت في عربة القطار شاباً نحيفاً، في وجهه بثور، يلبس ثياباً حسنة، لكنه غير نظيف، هو واحد من أولئك السمر الذين يضرب لونهم إلى البرونز المتسخ. وكان الشاب يلفت النظر بأنه في كل محطة أو موقف كان ينزل من القطار حتما ليشرب شيئاً من الفودكا. وفي خاتمة المسير كانت قد تحلقت حوله عصبة فرحة وإن تكن خبيثة جداً. وكان أكثر أفراد هذه العصبة حماسة رجل من التجار كان هو أيضاً ثملاً بعض الشيء، وقد أعجب بما يملكه الشاب من قدرة على أن يشرب بغير

Twitter: @ketab_n

انقطاع دون أن يسكر. وكان لا يقل عنه رضاً وارتياحاً فتى غبي غباء رهيباً، كثير الكلام، يرتدي ثياباً على الزي الأوروبي، وتفوح منه رائحة كريهة جداً: إنه خادم كما عرفت ذلك فيما بعد. وقد انعقدت بينه وبين عاشق الفودكا الشاب صداقة، فكان هو الذي يدعوه إلى النزول عند كل موقف قائلاً: «آن الأوان لنشرب الفودكا»، ثم ينزلان متعانقين. وقد أصبح الشاب بعد الشرّاب صامتا لا يكاد يقول كلمة واحدة، ولكن عدد المتحادثين الذين يتحلقون حوله ما ينفك يزداد. فكان يكتفي بالإصغاء إليهم، ولكنه لا يني يقهقه ويريل، ويرسل من حين إلى حين أصواتاً من هذا النوع: «تور لور لو!»، يرسلها فجأة بغير توقع، ويجري حركة كاريكاتورية فيحمل إصبعه إلى أنفه. وكان ذلك هو ما يبهج التاجر والخادم وسائر الناس بهجة كبيرة، فكانوا يضحكون ضحكاً مجلجلاً جلجلة خارقة بغير تحرج. إنه ليستحيل عليك أحياناً أن تدرك لماذا يضحك الناس. واقتربت أنا أيضاً. فلا أدري لماذا أثار هذا الشاب شعوراً بالإعجاب في نفسي أيضاً. لعل ما أعجبني فيه هو هذا الخروج الواضح على الرسميّات المألوفة المتحجرة. والمهم على كل حال أنني لم ألاحظ حماقته. لذلك سرعان ما أخذنا نتخاطب بصيغة المفرد من غير كلفة. فلما غادرت القطار علمت منه أنه سيأتي في المساء بعد الساعة الثامنة إلى شارع تفرسكوي. واتضح أن الشاب طالب ترك الجامعة. وذهبت إلى الموعد المضروب، فإليكم اللعبة التي علمني إياها. نتجول معاً في المنتزهات والشوارع، وبعد قليل، متى رأينا امرأة حسنة ليس حولها أحد، أسرعنا نعاكسها؛ وبدون أن نقول لها كلمة واحدة، نحدق بها أنا من طرف وهو من طرف آخر، ونأخذ بيننا حديثاً بذيئاً إلى أبعد حدود البذاءة، محتفظين بمظهر هادىء كل الهدوء، كأننا لا نراها البتة. نسمي الأشياء بأسمائها، جادين جداً لا يعكره معكر،

Twitter: @ketab_n

كأن الأمر طبيعي إلى أقصى درجة؛ ومن أجل أن نأتي على أبشع الحقارات والدناءات ندخل في تفاصيل لا يستطيع أقدر خيال فاسق أن يتخيلها. (وكنت قد تعلمت هذه التفاصيل كلها في المدارس طبعاً، حتى قبل المدرسة الثانوية، ولكنني تعلمتها قولاً لا فعلاً). فكانت المرأة تفزع طبعاً، وتغذّ الخطى، ولكننا نغذ الخطى مثلها ونستمر في الحديث موغلين فيه مزيداً من الإيغال. ولم يكن في وسع ضحيتنا أن تفعل شيئاً بطبيعة الحال، ولا يمكنها حتى أن تصرخ، ولا شهود علينا، ثم إنها لو شكتنا لكان ذلك منها أمراً مستهجناً غريباً. سلخنا في هذه التسلية ثمانية أيام. ولست أفهم كيف أمكنني أن أستطيبها. وما كنت أستطيبها في الواقع.. وإنما حدث هذا.. هكذا... بدا لي الأمر في البداية طريفاً خارجاً على المألوف وعلى المواضعات المقررة المقبولة. وكنت عدا ذلك لا أطيق النساء. وقد أسررت في ذات مرة إلى الطالب أن جان جاك روسو، في كتابه «الاعترافات»[33]، قد روى أنه في شبابه كان يحب أن يكشف عوراته عارية كل العري ويلبث على هذا الوضع في إحدى الزوايا إلى أن تمر نساء فتراها. فلم يجبني الطالب إلا بأصواته «تور - لور - لو». فلاحظت أنه جاهل جهلاً مطبقاً رهيباً، وأنه لا يهتم بشيء ذي بال. ولم أكتشف عنده فكرة واحدة من تلك الأفكار الأصيلة التي كنت أتوقع أن أجدها عنده. لم أقع لديه على أصالة بل على تكرار رتيب مرهق. فأصبح كرهي نحوه يزداد. ثم انتهى كل شيء على نحو لم يكن في الحسبان: ففي ليلة تكاثفت فيها الظلمات لاصقنا فتاة في ريعان الصبا كانت تسير في الشارع مسرعة وجلة. لعل عمرها ستة عشر عاماً أو يَقِل. ثيابها نظيفة جداً على بساطة. أغلب الظن أنها تعيش من عملها، وربما كانت في تلك الساعة عائدة إلى البيت حيث تنتظرها أم عجوز هي أرملة فقيرة مثقلة بأعباء أسرة. ولكن لا داعي إلى الانقياد

Twitter: @ketab_n

للعواطف. ظلت الفتاة تسمع حديثنا بعض الوقت، ثم غذت الخطى، ثم مالت برأسها وغطت وجهها بحجابها خائفة مرتعشة. ثم إذا بها تتوقف على حين فجأة، فتكشف عن وجهها الذي كان حلواً إذا صدقت ذاكرتي، لكنه كان نحيلاً هزيلاً، وصرخت تقول لنا وقد قدحت عيناها شرراً:

- يا لكما من وغدين!

ولعلها كانت تهم أن تبكي، ولكن حدث شيء آخر. فها هي ذي ترفع يدها الصغيرة الهزيلة مهتاجة، وتهوي على وجه الطالب بصفعة سُمع صوتها، ولعلها لا تضارعها في إحكامها صفعة! فقذفها الطالب بشتيمة وهمّ أن يهجم عليها، ولكنني أمسكته فاستطاعت الفتاة أن تهرب. فلما صرنا وحيدين تشاجرنا، ونددت به مخرجاً كل ما كان قد تراكم في نفسي أثناء ذلك الوقت، وقلت له إنه ليس إلا امرءًا عاجزاً تافهاً، وإنه لم تساور ذهنه في يوم من الأيام فكرة. فأجابني بشتائم... (وكنت قد ذكرت له مرة أنني ابن زنا)، ثم افترقنا وقد بصق كل منا احتقاراً، ولم أره بعد ذلك قط. وقد شعرت في تلك الليلة بغضب شديد. وكان غضبي في الغد أقلّ. أما في غداة غد فكنت قد نسيت كل شيء. وبعد ذلك كنت أتذكر تلك الفتاة من حين إلى حين، ولكنني أتذكرها مصادفة، وأتذكرها عرضاً. حتى إذا وصلت إلى بطرسبرج بعد أسبوعين تذكرت المشهد على حين بغتة. تذكرته فسرعان ما استولى عليَّ شعور بالعار بلغ من الشدة أن الدموع سالت على خديَّ فعلاً. وظللت أعاني عذاباً شديداً طوال المساء، وطوال الليل، وما زلت أعاني شيئاً من هذا العذاب إلى الآن. ولقد عجزت في أول الأمر أن أفهم كيف أمكنني أن أسقط إلى ذلك الدرك الأسفل، وأن أنسى الحادث خاصة، وأن لا أحمّر منه خجلاً، وأن لا تلتهمني الندامة التهاماً. والآن

Twitter: @ketab_n

فقط إنما أدرك حقيقة الأمر. لقد كان الذنب ذنب «الفكرة». إن النتيجة التي أخلص إليها هي أنه متى استقر في ذهنك شيء ثابت، دائم، قوي، يملأ عليك نفسك، فإنك تنفصل من جراء ذلك عن العالم معتصماً بالعزلة، وكل ما يحدث يمرّ عابراً دون أن يمس شيئاً رئيسياً. حتى الانطباعات تصبح غير صحيحة. وعدا ذلك، وخاصة، لا تعدم أن تجد لنفسك عذراً في كل وقت. لشد ما عذّبت أمي في ذلك الأوان! ما أكثر ما كنت أهجر أختي هجراً مخجلاً! «ولكن لا! إن لي «فكرتي»، وكل ما عداها لا قيمة له!» ذلك ما كنت أقوله لنفسي. وكان يحدث أن أُهان، بل أن أُهان بقسوة، فكنت أمضي لا ألوي على شيء، قائلاً لنفسي بعد ذلك: «هه! لنسلم بأنني حقير ولكن لي «فكرتي» وهم لا يعرفون عنها شيئاً». كانت «الفكرة» تعزيني عن العار وعن التفاهة. ولكن جميع دناءاتي كانت كأنها تحتمي تحت «الفكرة» أيضاً. كانت «الفكرة» تسهل عليَّ كل شيء، ولكنها كانت تحجب عني كل شيء كذلك. على أن فهم الظروف والأشياء فهماً يبلغ هذا المبلغ من الغموض لا يمكن إلا أن يضر بالفكرة نفسها، ناهيك عما عدا ذلك.

والآن، إليكم الحادثة الثانية:

في أول نيسان من السنة الماضية كانت ماريا إيفانوفنا تحتفل بعيد شفيعها. وجاء في المساء عدد من المدعوين، عدد ليس بالكبير. وهذه آجرافينا تدخل على حين فجأة لاهثة لهاثاً شديداً، فتعلن أن في الدهليز أمام المطبخ وليداً متروكاً يصيح... وأنها لا تدري ماذا تفعل. فأهاج هذا النبأ جميع الحضور، وهرعنا جميعاً إلى هناك فرأينا قِفّةً من قش، ورأينا في القِفّة بنتاً عمرها ثلاثة أسابيع أو أربعة كانت تبكي معولة. فتناولت القِفّة وحملتها إلى المطبخ، وعثرت في الحال على ورقة مطوية نصفين قد كتب عليها ما يلي: «أيها المحسنون الأعزاء، أنعموا بعطفكم

Twitter: @ketab_n

الجميل على هذه البنت التي عمدت باسم آرينا. إننا، نحن وهي، سوف نظل نرفع دموعنا إلى السماء أبد الآبدين، داعين لكم بالخير. ونتمنى لكم عيداً سعيداً: أناس لا تعرفونهم». وعندئذ إنما أحزنني نيقولاي سيمينوفتش أشد الحزن، وكنت أحترمه كثيراً. فلقد تجهّم وجهه، وقرر إرسال الطفلة إلى ملجأ الأيتام فورا. فتألمت أشد الألم. لقد كانت الأسرة تعيش عيشة ضيقة. ولكن لم يكن لها أولاد، وكان نيقولاي سيمينوفتش يغبط نفسه على هذا دائماً. أخرجت الصغيرة آرينا من القِفّة بحذر، وأنهضتها من كتفيها. ففاحت من القفة رائحة حامضة قوية كالتي تفوح من رضيع أهملوه ولم يغسلوه مدة طويلة. وبعد أن ناقشت نيقولاي سيمينوفتش برهة، أعلنت له على حين فجأة أنني سوف أتكفّل بالطفلة. فأخذ يعترض اعتراضات فيها شيء من الصرامة، رغم رقّة طبعه، ثم ختم كلامه بمزاحة، ولكنه أصر على رأيه بضرورة إرسال الطفلة إلى ملجأ الأيتام. ومع ذلك جرى كل شيء كما أردت. كان يسكن في العمارة نفسها، ولكن في جناح آخر، نجار فقير جداً، مسنّ وسكّير. وكانت زوجته، وهي امرأة شابة قوية، قد فقدت منذ مدة قصيرة وليداً لها رضيعاً، وكان الوليد وحيدها الذي أنجبته بعد ثماني سنين من زواج عقيم، وكان الوليد بنتاً كذلك، بل كان من المصادفات الغريبة ومن حسن الحظ أن اسم البنت المتوفاة كان آرينا أيضاً. أقول من حسن الحظ، لأن هذه المرأة وقد عرفت بالنبأ بينما كنا نتناقش في المطبخ، أسرعت تجيء إلينا لترى، فما إن عرفت أن الصغيرة اسمها آرينا حتى رقّ لها قلبها. وكان ثدياها لا يزالان يدران، فكشفت عن صدرها وأخذت ترضع الطفلة. فجثوت عند قدميها وابتهلت إليها أن تأخذ البنت متعهداً بأن أدفع نفقات معيشتها كل شهر. فكانت تخشى أن زوجها لن يسمح لها بذلك. ولكنها أخذتها لتؤويها هذه الليلة على كل

Twitter: @ketab_n

حال. حتى إذا كان الصبح سمح زوجها بحضانة الطفلة على أن يتقاضى ثمانية روبلات في الشهر. فنقدته على الفور نفقات شهر سلفاً. فمضى يشرب بها خمراً. وقد رضي نيقولاي سيمينوفتش الذي كان لا يزال يبتسم ابتسامة غريبة، أن يكفلني لدى النجّار متعهداً بأن لا أتخلف عن دفع المبلغ - وهو ثمانية روبلات - كل شهر. حتى إني حاولت أن أقدم الستين روبلا لنيقولاي سيمينوفتش لكي يكون مطمئن البال إلى كفالته، ولكنه لم يأخذها. وكان يعرف على كل حال أن معي مالاً وكان يثق بي. فكان من شأن هذه البادرة اللطيفة منه أن محت ما حدث بيننا من فتور لحظة. ولم تقل ماريا إيفانوفنا شيئاً، ولكنها استغربت مني أن أرضى تحمل هذا الهمّ. وإني لأشكر لهما كثيراً ما أظهر كلاهما من رقة الذوق إذ لم يسمح أحد منهما لنفسه بأية مزحة في حقي، حتى لقد نظرا إلى الأمر نظرة فيها كل ما يليق من جد. وأصبحت أثب إلى عند داريا روديفونوفنا كل يوم ثلاث مرات؛ وبعد أسبوع نفحتها ثلاثة روبلات زيادة، على أن يكون هذا المبلغ لها هي، بغير علم زوجها. وبثلاثة روبلات أخرى اشتريت للطفلة غطاء وأقمطة. ولكن لم تمض عشرة أيام حتى مرضت الصغيرة آرينا. فاستدعيت لها الطبيب فوراً، فوصف لها لا أدري أي دواء، وقضينا الليلة كلها نعذّب الطفلة المسكينة بهذا الدواء اللعين. وجاء الطبيب في الغد فقال إن الأوان قد فات، فلما أخذت أتضرع إليه، وربما أخذت ألومه أيضاً قال مترفّعاً: «أنا لست الرب». كان لسان الطفلة وشفتاها الصغيرتان وفمها كله قد غطاه طفح أبيض دقيق. وما إن جاء المساء حتى ماتت وهي تحدق إليَّ بعينيها الواسعتين السوداوين كأنما كانت تدرك وهي في تلك السن. لا أدري لماذا لم يخطر ببالي أن التقط للميتة الصغيرة صورة فوتوغرافية. على كل حال.. هل تصدقون أنني ما بكيت في ذلك المساء بكاء، وإنما طفقت

Twitter: @ketab_n

أعول عويلاً، وذلك أمر لم أسمح به لنفسي من قبل في يوم من الأيام قط. حتى لقد اضطرت ماريا إيفانوفنا أن تعزيني. ومرة أخرى لم يشتمل موقفها ولا موقف زوجها على أي شيء من سخرية. وقد تولى النجار بنفسه صنع التابوت الصغير. وزيّنته ماريا إيفانوفنا ببعض الدانتيل، ووضعت فيه وسادة صغيرة لطيفة. واشتريت أنا أزهاراً فنثرتها على الطفلة. وهكذا أخذت زهرتي الصغيرة المسكينة، زهرة الحقول، التي لا أستطيع إلى اليوم أن أنساها، أصدقتم هذا أم لا تصدقوه. ولكن هذا الحادث الذي يكاد يكون مفاجئاً قد حملني بعد مدة قصيرة على التفكير، بل حملني على التفكير جاداً كل الجد. صحيح أن آرينا لم تكلفني مالاً كثيراً: فنفقات التابوت، والدفن، والطبيب، والأزهار، وأجر داريا روديفونوفنا، لم تزد على ثلاثين روبلاً. وحين سافرت إلى بطرسبرج استعدت هذا المبلغ توفيراً من الأربعين روبلا التي أرسلها إليَّ فرسيلوف للرحلة، وربحاً من بيع عدد من الأشياء الصغيرة، فبقي «رأسمالي» سليماً كأنه لم يمس. ولكنني قلت لنفسي: «إذا انحرفت انحرافات أخرى من هذا النوع، فلن أمضي إلى بعيد». إن حكاية الطالب قد برهنت على أن «الفكرة» يمكن أن تؤدي بالمرء إلى غموض انطباعاته وأن تصرفه عن الواقع. أما حكاية آرينا فإنها تبرهن على نقيض ذلك: تبرهن على أنه ما من «فكرة»، تستطيع أن تبلغ من فتن المرء (من فتني أنا على الأقل) حدّ منعه من التوقف فجأة أمام حادث قاهر، والتضحية بكل ما قام به خلال سنين من عمل في سبيل «الفكرة». ومع ذلك كانت النتيجتان كلتاهما صحيحة.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

- 1 -

لم تتحقق آمالي تحققاً كاملاً. كان فرسيلوف غائباً. ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت عند أمي، وهي رغم كل شيء غريبة. فسرعان ما تبدد نصف ما كان يملأ نفسي من عاطفة حسنة كريمة. غريب أمري: ما أسرعني إلى التغير والتبدل في مثل هذه الظروف: تكفي ذرة غبار أو شعرة حتى يزول صفاء مزاجي ويحل محله الكدر. ومن سوء الحظ أن مشاعري الكدرة أقل سرعة إلى التبدد، رغم أنني لست بالحقود. حين دخلت لاحظت أن أمي كانت قد أسرعت تقطع الحديث الذي يجري بينها وبين تاتيانا بافلوفنا والذي كان واضحاً أنه حديث حامٍ. وكانت أختي قد رجعت من عملها قبل وصولي بدقيقة واحدة، ولمّا تعد إلى الخروج من غرفتها بعد.

إن الشقة تضم ثلاث حجرات: الحجرة التي يلتئم فيها شمل الجميع كما جرت العادة؛ والحجرة الوسطى أو الصالون وهي حجرة واسعة كافية وتكاد تكون لائقة، ففيها مقاعد حمراء طرية - لكنها مهترئة اهتراء شديداً (كان فرسيلوف لا يطيق الأغطية الواقية)، وفيها بضع سجادات وعدة طاولات ومناضد لا فائدة منها؛ ثم غرفة فرسيلوف التي تقع على اليمين، وهي غرفة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة، فيها مكتب حقير ألقيت عليه عدة كتب مهجورة وأوراق منسية، وأمام المكتب مقعد رخو

Twitter: @ketab_n

لا يقل عنه حقارة قد برز نابضه المكسور فانتصب في الهواء، وذلك ما كان يحمل فرسيلوف كثيراً على الأنين والتشكي والتجديف. وفي تلك الغرفة نفسها إنما جُعل له سرير رخو مهترئ أيضاً. ولقد كان فرسيلوف يكره هذا المكتب، وأظن أنه كان لا يستعمله أبدا، وإنما يؤثر أن يبقى في الصالون ساعات كاملةً بغير عمل. وعلى يسار الصالون توجد غرفة صغيرة مماثلة تماماً كانت تنام فيها أمي وأختي. وسبيل الوصول إلى الصالون دهليز يؤدي إلى المطبخ الذي تسكن فيه الطباخة لوكيريا. فإذا كانت لوكيريا تطبخ انتشرت رائحة فضلات الطعام في الشقة كلها. فكان يتفق لفرسيلوف في بعض اللحظات أن يلعن حظه وحياته كلها بصوت عال بسبب روائح المطبخ هذه، وكنت أنا من هذه الناحية وحدها أوافقه كل الموافقة. إنني أكره هذه الروائح أنا أيضاً، رغم إنها كانت لا تصل إليَّ حينذاك، فلقد كنت أسكن في أعلى، في حجرة تحت السقف أصعد إليها على سلم شديد الصرير، وعر وعورة فظيعة. وكان من طرائف هذه الحجرة التي أسكنها أن لها كوة صغيرة نصف دائرية، وسقفاِ واطئاً إلى حد رهيب، وأن فيها كنبة مغطاة بقماش مشمع كانت لوكيريا تغطيه في المساء بشرشف وتضع عليه مخدة. أما باقي الأثاث فهو شيئان: طاولة من ألواح خشبية بسيطة، وكرسي خاسف من خيزران.

الحق أن الشقة كانت لا تزال تضم رغم ذلك بقايا شيء من رخاء سابق: ففي الصالون مثلاً يوجد مصباح جميل من الخزف، وقد علقت بالحائط صورة محفورة كبيرة رائعة لـ«مادونا» درسدن[34]، وقبالتها، على الحائط الآخر، صورة فوتوغرافية ثمينة وكبيرة جداً، تمثل الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسا[35]. وفي هذه الغرفة نفسها علقت في ركن من الأركان خزانة أيقونات قديمة تملكها الأسرة: فإحدى هذه الأيقونات (وهي أيقونة جميع القديسين) كانت في إطار مكسو بفضة

Twitter: @ketab_n

مذهبة - وهذه هي الأيقونة التي كان يراد رهنها - والأيقونة الثانية (أيقونة العذراء) كانت في إطار مكسو بمخمل مطرز بلآلئ. وأمام هذه الأيقونات كان يعلق مصباح يشعل في عشيات الأعياد. ولقد كان واضحاً أن فرسيلوف لا يحفل بهذه الأيقونات من حيث دلالتها: فهو يكتفي بتقطيب حاجبيه محاولا ضبط نفسه حين يرى نور المصباح تعكسه الزخرفات المذهبة، متشكياً في رفق من أن ذلك يضر بنظره، لكنه كان لا يمنع أمي من إشعال المصباح.

ولقد كنت أدخل في العادة متجهم الوجه، موجهاً بصري إلى ركن من الأركان، وأحياناً حتى دون أن أحيِّي. وكنت أعود إلى البيت دائماً قبل هذه الساعة التي عدت فيها هذه المرة فإنني حين دخلت قلت لأمي فجأة: «يومك سعيد يا ماما»، وذلك ما لم يكن يحدث أبداً من قبل. ولكنني بنوع من الخجل الزائف لم أستطع حتى في هذه المرة أن أنظر إليها، وجلست في الزاوية المقابلة من الغرفة. كنت متعباً جداً، ولكنني كنت لا أفكر في ذلك.

قالت تاتيانا بافلوفنا هامسةً:

- هذا القليل الأدب لا يزال يدخل عليك دخولاً وقحاً كما كان يفعل من قبل.

وكانت تاتيانا بافلوفنا تبيح لنفسها أن تقول كلمات جارحة من هذا القبيل، حتى لقد أصبح ذلك نوعاً من العادة بيني وبينها.

أجابت أمي تقول وكأنها قد ارتبكت حالاً من تحيتي لها:

- يومك سعيد. . .

وأضافت بما يشبه اضطراب الخجل:

- العشاء مهيأ منذ مدة طويلة. آمل أن لا يكون الحساء قد برد. أما الكستليتات فسآمر بها فوراً. . .

Twitter: @ketab_n

وهمت أن تنهض مسرعة لتذهب إلى المطبخ. فشعرتُ - ربما لأول مرة منذ شهر - بخجل مفاجىء من رؤيتها تسارع إلى خدمتي هذه المسارعة كلها، على حين أنني كنت إلى ذلك اليوم أطالبها بذلك بنفسي.

قلت لها:

- أشكرك يا ماما، لقد تعشيت. إذا لم يكن هذا يزعجك فأستريح هنا.

- آ... لا مانع... إبقَ...

- ولا تقلقي يا ماما، فلن أقول لآندره بتروفتش بعد الآن كلمات فظة.

كذلك أعلنت لها فجأة...

فهتفت تاتيانا بافلوفنا تقول:

- الله الله... يا للنبل والشهامة! عزيزتي صوفيا، هل يعقل أن تظلي تخاطبينه بصيغة الجمع؟ من هو حتى يستحق هذا التكريم... من أمه؟ ثم ما هذا؟ ما لي أراكِ مضطربة أمامه؟ هذا مخجل!

قلت:

- سيسرني أنا نفسي أن تخاطبيني بصيغة المفرد يا ماما.

فأسرعت أمي تقول:

- آ... طيب.. اتفقنا.. لم أكن أخاطبك على هذا النحو في جميع المرات... ابتداء من اليوم، اتفقنا.

واحمرت احمراراً شديداً. إن وجهها في بعض الأحيان فتان... وجه طيب.. وليس ساذجاً البتة.. وجه شاحب قليلاً. هو وجه إنسان مصاب بفقر الدم. خداها نحيلتان جداً، بل خاسفتان، وقد أخذت تتراكم على وجهها غضون كثيرة، ولكن الغضون لم تظهر حول عينيها

Twitter: @ketab_n

بعد. وهاتان العينان، الواسعتان المنفتحتان، تلتمعان دائماً ببريق ناعم هادئ جذبني منذ أول يوم. والشيء الذي كنت أحبه أيضاً هو أن وجهها ليس فيه شيء من حزن أو مذلة. بالعكس: كان تعبير وجهها يمكن أن يعد جذلاً لو لم تكن تقلق غالباً بدون أي سبب على الإطلاق في بعض الأحيان. إنها ترتاع حتى لقد ترتجف أحياناً لأمر تافه كل التفاهة أو إذا أصغت إلى حديث جديد كانت تصغي مذعورة، إلى أن تقتنع اقتناعا تاما بأن الأمور لا تزال تجري مجرى حسناً كالعادة. وكانت جملة «كل شيء يجري مجرى حسناً» ترادف في ذهنها أن «كل شيء لا يزال يجري كالعادة». كل ما يهمها هو أن لا يحدث تغير، كل ما يهمها هو أن لا يقع جديد، وإن يكن هذا الجديد سعيداً! . . في وسع المرء أن يتصور أنها قد خُوفت في طفولتها تخويفاً رهيباً. وعدا العينين كنت أحب فيها بيضوية وجهها أيضاً، حتى لأظن أنها لو كانت وجنتاها أقل عرضاً بقليل، لكان يمكن أن تعد جميلة، لا في شبابها فقط، بل اليوم أيضاً. إن عمرها الآن لا يزيد على تسعة وثلاثين عاماً، ولكن شعرها الكستنائي قد خالطه بياض كثير منذ الآن.

نظرتْ إليها تاتيانا بافلوفنا باستياء قاطع وقالت لأمي:

- أترتعدين هذا الارتعاد أمام غر كهذا؟ إنك مضحكة يا صوفيا! لسوف تثيرين غضبي وحنقي!

- آه. . . تاتيانا بافلوفنا، لماذا تقسين عليه هذه القسوة الآن بالذات؟ ولكنك تمزحين أليس كذلك؟

أضافت أمي هذا السؤال الأخير إذ لاحظت في وجه تاتيانا بافلوفنا نوعاً من التبسم. صحيح أن تقريعات تاتيانا بافلوفنا لا يمكن أن يعبأ بها كثيراً، ولكنها كانت تبتسم هذه المرة لأمي وحدها (إن كانت قد تبسمت)، لأنها كانت تحب طيبة أمي حباً شديداً، ولأنها لاحظت حتماً

Twitter: @ketab_n

ما بعثه خضوعي في نفس أمي من سعادة كبيرة في تلك اللحظة.

فاضطررت أخيراً أن أخاطب تاتيانا بافلوفنا:

- إنك تهجمين على الناس هجوماً فيه شيء من الخشونة، وكان هجومك عليَّ أنا اليوم في غير محله يا تاتيانا بافلوفنا، هجمت، إذ قلتُ حين دخولي: «يومك سعيد يا ماما». وهو ما لم أقله يوماً.

فانفجرت في الحال تقول:

- اسمعوا هذا الكلام! أنه يعد ذلك مأثرة منه! هل يجب علينا إذاً أن نركع أمامك لأنك كنت مهذباً مرة في حياتك؟ بل هل كنت مهذباً بالفعل؟ لماذا تنظر إلى ركن الغرفة حين تدخل؟ أتظن أنني لا أعرف كيف تعاملها؟ وكان في وسعك أن تحييني أنا أيضاً. لقد كنت أتولى تقميطك، وأنا عرابتك!

ولم أتنازل فأرد عليها طبعاً، ودخلت أختي في تلك اللحظة، فقلت لها فوراً:

- رأيت اليوم فاسين يا ليزا. وقد سألني عنك. هل تعرفينه؟

فأجابتني ببساطة كبيرة وهي تجلس إلى جانبي وتلقي عليَّ نظرة لطيفة:

- نعم، تعرفنا في لوغا، في السنة الماضية.

لا أدري لماذا كان يبدو لي إنها لا بد أن تحمّر حين أكلّمها عن فاسين. إن أختي شقراء، شُقرةٌ زاهية. شعرها ليس كشعر أبي ولا كشعر أمي. ولكن عينيها تكادان تكونان عيني أمي، وكذلك وجهها البيضوي. أنفها مستقيم صغير متسق. وهناك خاصة أخرى: إن في وجهها نمش، وذلك ما لا تجده في وجه أمي. من فرسيلوف ليس فيها شيء، ربما باستثناء القامة الممشوقة الحلوة، وشيء من فتنة في المشية لا أدري ما هي. أما أنا فليس بيني وبينها أي شبه: بل نحن نقيضان.

Twitter: @ketab_n

أضافت ليزا تقول:

- عرفتهم ثلاثة أشهر.

- هل عن فاسين تقولين هم؟ يجب أن تقولي عرفته لا عرفتهم؟ اغفري لي يا أختي إنني أصحح لك خطأك، ولكن يؤلمني أن يكون أمر تعليمك قد أهمل كل هذا الإهمال.

فانفجرت تاتيانا بافلوفنا قائلة:

- عيب عليك أن تبدي هذه الملاحظة بحضور أمك. ثم إنك تكذب. إن ليزا لم يهمَل أمر تعليمها أبداً.

فقلت بلهجة جازمة:

- أنا ما عنيت بهذا أمي. اعلمي يا ماما أن رأيي في ليزا كرأيي فيك. لقد جعلت منها رائعة من روائع الطيبة والنبل، فهي تذكِّر حتماً بما كنت عليه أنت في الماضي، وبما لا تزالين عليه، وبما ستظلين عليه إلى الأبد... وإنما أنا عنيت بكلامي ذلك الطلاء الخارجي الاجتماعي الذي أعرف أنه تافه ولكنه ضروري. إنني ليسوءني أن يسمعك فرسيلوف قائلة عن فاسين هم بدلاً من هو، ثم لا يصحح لك خطأك من شدة تعاليه علينا وقلة اكتراثه بنا. ذلك هو ما يحنقني!

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول وهي ترشقني بنظرة صاعقة:

- انظروا إلى هذا الدب الصغير يتصدى لتعليم غيره الآداب! حذار يا سيد أن تقول بعد اليوم «فرسيلوف» وبحضور أمك وبحضوري أنا أيضاً. فلن أطيق ذلك!

- ماما، قبضت اليوم أجري خمسين روبلاً، فخذيها، أرجوك. هي ذي!

قلت هذا لأمي وتقدمت منها ماداً إليها المال، فظهر عليها في الحال الارتياع، ثم قالت وكأنها تخشى حتى أن تمسه بيدها:

Twitter: @ketab_n

- ولكن. . . ولكنني لا أدري كيف آخذ هذا المال!

فلم أفهم. وقلت:

- ولكن يا ماما إذا كنتما تعداني ابناً وأخاً، فعندئذ. . .

- آه. . . إنني مذنبة في حقك يا آركادي . هناك أشياء يجب أن أعترف لك بها، ولكنني شديدة الخوف منك. . .

قالت ذلك وهي تبتسم في وجل ابتسامة ضارعة. فلم أفهم أيضاً وقاطعتها قائلاً:

- بالمناسبة، هل تعلمين يا ماما أن القضاء قد فصل اليوم في قضية أندره بتروفتش وآل سوكولسكي؟

فهتفت تقول وهي تعقد كفيها من الذعر أمامها (وتلك حركة مألوفة فيها):

- نعم أعلم!

وارتعشت تاتيانا بافلوفنا ارتعاشاً شديداً، وقالت تسأل:

- اليوم؟ مستحيل. لو أن الحكم قد صدر لأعلمني بذلك.

ثم أضافت وهي تلتفت إلى أمي:

- هل أبلغك أنت؟

- لا، لم يقل إن فصل القضاء يتم اليوم بالذات. ولكنني خائفة خوفاً شديداً منذ أسبوع كامل. . . ألا فلنخسر القضية وأصلي للرب شاكرة على شرط أن نتخلص من هذا الأمر ويجري كل شيء كالعادة.

فهتفت أسأل أمي:

- إذاً لم يبلغك أنت أيضاً! يا له من رجل عجيب! هذا مثال على شدة تعاليه وقلة اكتراثه. ألم أقل لكم ذلك منذ قليل؟

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تسأل:

- ولكن ماذا كان الحكم؟ ماذا كان الحكم؟ من قال لك؟ هلا قلت أخيراً!

Twitter: @ketab_n

- ولكن ها هو بنفسه قد وصل! فلعله يطلعنا على ما حدث.
كذلك أعلنتُ إذ سمعت وقع خطاه في الدهليز، وأسرعت أجلس بقرب ليزا، فقالت لي ليزا هامسة:
- أخي، ناشدتك الله.. ارحم ماما، اصبر على أندريه بتروفتش...
- سأصبر. على هذه النية إنما وعدت.
وشددت على يدها. فرشقتني ليزا بنظرة مليئة بالارتياب. وكانت على حق.

- 2 -

دخل فرسيلوف راضياً عن نفسه مسروراً بها، حتى أنه لم يجد أن من الضروري أن يخفي ذلك. وقد اعتاد في الآونة الأخيرة على وجه العموم أن يكشف عن نفسه أمامنا بدون أي كلفة أو تحرج لا في لحظات اعتكار مزاجه فحسب، بل في نوبات مرحه أيضاً، وذلك أمر يتهيبه كل إنسان أكثر ما يتهيب. وكان يعلم مع ذلك حق العلم أننا سنفهم كل شيء حتى أدق التفاصيل. لقد أصبح يهمل هندامه إهمالاً شديداً في هذه السنة الأخيرة، كما لاحظت ذلك تاتيانا بافلوفنا: صحيح أنه يرتدي دائماً ملابس لائقة، ولكنها ملابس عتيقة بغير أناقة. أصبح مستعداً لأن يلبس قميصاً واحداً مدة عشرة أيام، وكان هذا حتى يحزن أمي حزناً شديداً، ولكنه يُعدُّ في المنزل تضحية منه وبطولة، وكانت تلك الجمهرة كلها من النساء المخلصات يرين فيه مأثرة. إن قبعاته رخوة سوداء عريضة الحافات دائماً. وكان إذا خلع قبعته نزلت على جبينه خصلة من شعره الذي كان شديد الكثافة والغزارة وإنما يخالطه بياض كثير. وكنت أنا أحب أن أنظر إلى شعره حين يخلع قبعته.
- يومكم سعيد. أرى الشمل ملتئماً فليس أحد غائباً. وحتى هذا أراه

Twitter: @ketab_n

معكم. لقد سمعت صوته وأنا في المدخل. لا شك أنه كان يقول فيَّ سوءاً، أليس كذلك؟

إذا بادر يمزح في حقي كان ذلك دليلاً على أنه رائق المزاج. ولم أجب طبعاً. ودخلت لوكيريا وهي تحمل كيساً ممتلئا بمشتروات ووضعته على الطاولة.

- انتصرت يا تاتيانا بافلوفنا! ربحت الدعوى ولن يجرؤ الأمراء سوكولسكي أن يلجأوا إلى محكمة النقض والإبرام. أصبحت القضية في الجيب! ولقد وجدت من يقرضني ألف روبل حالاً. صوفيا، اتركي شغلك هذا، لا تتعبي عينيك. ليزا، أأنت عائدة من العمل؟

فأجابت ليزا وقد لاح في وجهها الحنان:

- نعم يا بابا.

لقد كانت ليزا تسميه بابا. أما أنا فلم أرغب أن أذعن لهذا في حال من الأحوال.

- أأنت تعبانة؟

- نعم.

- اتركي هذا العمل، لا تذهبي إليه غداً، إهجريه هجراً تاماً.

- ولكن ترك العمل سيضايقني مضايقة أكبر.

- أرجوك. . . إنني أكره عمل النساء يا تاتيانا بافلوفنا.

- وكيف تعيش بغير عمل؟ امرأة لا تعمل! . .

- أعرف، أعرف. . . هذا الكلام كله حسن، وأنا موافق عليه سلفاً ولكنني أقصد خاصة أشغال الخياطة والتطريز. وهذا يرجع إلى إحساس من أحاسيس الطفولة هو من آلمها في نفسي، بل قولوا هو من أكثرها إيغالاً في الخطأ. ففي ذكرياتي الغامضة عن العهد الذي كانت سني فيه خمسة أعوام أو ستة ما أزال أرى في أكثر الأحيان، بشيء من الاشمئزاز

Twitter: @ketab_n

طبعاً، مجمعاً من النساء أشبه بمجمع كرادلة قد جلسن إلى مائدة مستديرة عابسات الوجه متجهمات الهيئة، وأرى مقصات وأقمشة و«بترونات» وصور موضة، وأرى هذه النساء كلها تناقش وتجادل، هازةً رؤوسها بوقار وبطء وهي تقيس وتحسب وتتهيأ للقص. إن جميع تلك الوجوه الأنيسة التي تحبني كثيراً قد أصبحت لا أستطيع الاقتراب منها على حين فجأة. وإذا ارتكبت أي عمل من أعمال العفرتة التي يقوم بها الأطفال، طردت على الفور حتى دادتي المسكينة تمسكني من يدي وتكف عن الاستجابة لصراخي وتبرمي لكنها كلها أعين وآذان أمام الشغل الذي هن منصرفات إليه، فكأنها تتأمل طائراً من الجنة. فتلك القسوة في الوجوه الذكية، وتلك الرصانة في الهيئة قبل القص، لا تزال تؤلمني إلى الآن حين أتصورها. تاتيانا بافلوفنا، إنك تحبين القص حباً شديداً! أما أنا فإنني أوثر للمرأة أن لا تعمل شيئاً البتة، مهما يكن هذا أرستقراطياً. لا يذهبن بك الظن إلى أنني أعنيك أنت يا صوفيا... هل تستطيعين فهم ذلك؟ إن المرأة بدون هذا كله قوة كبرى. ثم إنك يا صوفيا تعرفين هذا أيضاً. ما رأيك يا آركادي ماكاروفيتش؟ لا شك في أنك ستعترض، أليس كذلك؟

أجبت قائلاً:

- لا، أبدا. هذا تعبير رائع: المرأة قوة كبرى. ولكنني لا أرى لماذا تربط بين هذا الأمر وبين الأشغال التي تقوم بها السيدات! ثم إنك تعرف بنفسك أنه يستحيل على المرء ألا يعمل إذا كان لا يملك مالاً.

- حسنا، كفى الآن، - قال هذا والتفت إلى أمي التي كانت مشرقة الوجه أيما إشراق (على حين أنها ارتعدت حين اتجه إليَّ بالكلام)-.

واصل كلامه فقال: في الآونة الأولى على الأقل، لا أريد أن أرى شغلاً هنا. لنفسي إنما أطلب منكم هذا. أما أنت يا آركادي، فلا بد أن تكون اشتراكياً بعض الشيء، حيث أنك شاب من هذا العصر. ولكن

Twitter: @ketab_n

هل تصدق يا صديقي أن الذين يحبون الفراغ أكثر من سائر الناس إنما هم أبناء الشعب الذي لا يكف عن العمل!

- لعلهم يحبون الراحة، لا الفراغ.

- بل الفراغ، الكسل المطلق، ذلك هو مثلهم الأعلى! لقد عرفت واحداً من هؤلاء الذين لا يكفون عن العمل، ولم يكن من أبناء الشعب على كل حال، وكان رجلاً مثقفاً يقدر على فهم الظواهر العامة. لقد كان يحلم بالفراغ الكامل والبطالة التامة كل يوم تقريباً، ويجد في هذا الحلم لذة عظيمة ومتعة كبيرة. حتى أنه كان يمضي بهذا المثل الأعلى إلى تخوم المطلق إن صح التعبير، إلى الاستقلال الذي لا حدود له، إلى الحرية المستمرة في الانقياد للحكم والتأمل خالياً من كل عمل. وقد لازمه هذا إلى اليوم الذي تحطم فيه تحطماً من العمل، حتى صار يستحيل «إصلاحه»، ومات في المستشفى. فاستخلصت من ذلك جاداً كل الجد أن فكرة مباهج العمل إنما اخترعها أناس عاطلون عن العمل، أناس فضلاء طبعاً. هذه فكرة من «أفكار جنيف»[36] في نهاية القرن الماضي. آ. . تاتيانا بافلوفنا، لقد قصصت من الجريدة أمس الأول إعلانا. إليك الإعلان. . - وأخرج من جيب صديرته قطعة من ورق وتابع كلامه هذا - . هذا واحد من أولئك «الطلبة» الأبديين الذين يعرفون اللغات القديمة والرياضيات ويعلنون عن استعدادهم للسفر إلى الأرياف، لسكنى غرف الأسطح، للرحيل إلى أي مكان. إسمعوا هذا الكلام: «معلمة تحضر التلاميذ لدخول جميع مؤسسات التعليم (هل تسمعون؟ جميعها)، وتعطي دروساً في الحساب». هو سطر واحد، لكنه كلاسيكي! إنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم: يبدو للمرء أن الحساب داخل في هذا. ولكن لا. إنها تذكر الحساب على حدة. ذلك هو الجوع حقاً، تلك هي آخر درجة من درجات البؤس. إن هذه الخرافة هي التي تؤثر في نفسي:

Twitter: @ketab_n

طبعاً، هي لم تكن معلمة في يوم من الأيام، ومن المستبعد أن تكون قادرة على تعليم أي شيء. ولكن لا سبيل: يجب أن تحمل إلى الجريدة آخر روبل تملكه، وأن تعلن أنها تحضر لجميع مؤسسات التعليم، وأنها عدا ذلك تعطي دروساً في الحساب. . Per tutto mundo e in altri siti (في العالم كله وفي أماكن أخرى)[37].

هتفت تاتيانا بافلوفنا تقول:

- آه يا أندريه بتروفتش، حبذا لو ساعدناها! أين تقيم؟

- آه ما أكثرهم!

ودسّ العنوان في جيبه. ثم استأنف كلامه فقال:

- في هذه الصرة هدايا لك يا ليزا، ولك أنت يا تاتيانا بافلوفنا. أنا وصوفيا لا نحب الحلويات. ولك أنت أيضاً يا فتى! اخترت كل شيء بنفسي من عند ايليسييف وباليه[38]. لقد طالما «متنا جوعاً»، كما تقول لوكيريا (ملاحظة: لم يمت أحد من الجوع عندنا في يوم من الأيام). ههنا عنب وسكاكر وكمثرى وفطيرة بالفراولة. بل لقد اشتريت خمرة رائعة. واشتريت بندقاً كذلك. غريب بقاء ولعي بالبندق من الطفولة حتى الآن يا تاتيانا بافلوفنا. وليزا مثلي. هي أيضاً تحب قضم البندق حباً شديداً كسنجاب صغير. ذكريات لذيذة يا تاتيانا بافلوفنا: إنني أرى نفسي في بعض الأحيان طفلاً أتجول في الغابة وأقطف بندقاً. . . الفصل يوشك أن يكون خريفاً، ولكن الأيام مضئية، والجو بارد أحياناً، وأوغل في أعماق الغابة، وأطوف في أبعد أرجائها، واتنسم رائحة أوراق الشجر العطرة. . . إنني أرى في نظرتك شيئاً لطيفاً يا آركادي ماكاروفتش!

- أنا أيضاً قضيت في الريف أولى سني طفولتي.

- كيف؟ يخيّل إليّ عكس ذلك، يخيّل إليَّ أنك عشت بموسكو، اللهم إلا أن أكون مخطئاً.

Twitter: @ketab_n

فقالت تاتيانا بافلوفنا مؤيدة:

- عند آل آندرونيكوف، كان يعيش بموسكو، حين وصلت أنت إليها. لكنه قبل ذلك كان عند المرحومة عمتك فارفارا ستيبانوفنا في الريف.

- خذي يا صوفيا، إليك هذا المال، احفظيه: لقد وُعدت بخمسة آلاف في غضون بضعة أيام.

- ألم يبق للأمراء أي أمل؟

- إطلاقاً يا تاتيانا بافلوفنا.

- لقد أحببتك دائماً يا أندره بتروفتش، وأحببت جميع ذويك؛ كنت صديقة الأسرة دائماً. ولكنني مهما أكن غريبة عن الأمراء ومهما يكونوا غرباء عني، أظل أشفق عليهم. أحلف لك. لا تزعل يا أندريه بتروفتش!

- لا أنوي أن أقاسمهم يا تاتيانا بافلوفنا.

- أنت تعرف رأيي يا أندريه بتروفتش. لقد كان يمكن أن يتنازلوا عن الدعوى لو أنك عرضت عليهم الاقتسام منذ البداية. أما الآن فقد فات الأوان طبعاً. وما أقوله أنا إنما أبنيه على اعتقادي بأن المتوفى ما كان يمكن أن ينساهم في وصيته.

- ما كان يمكن أن ينساهم طبعاً، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول ما كان يمكن إلا أن يورثهم كل شيء. ما كان يمكن أن ينسى أحداً إلا أنا لو أنه طبق القواعد وحرر الوصية كما يجب. ولكن القانون معي الآن وانتهى الأمر. فلا أستطيع أن أقاسم، ولا أريد أن أقاسم يا تاتيانا بافلوفنا. لقد بُتَّ في القضية.

قال هذه الكلمات في غضب وضيق، وذلك شيء كان يندر أن يبيحه لنفسه. فسكتت تاتيانا بافلوفنا. وخفضت أمي عينيها على شيء من

Twitter: @ketab_n

الحزن: كان فرسيلوف يعلم أنها تؤيد كلام تاتيانا بافلوفنا.

حدثت نفسي قائلاً لها: «هذه صفعة مدينة إمس!» وفكرت أيضاً في الوثيقة التي سلمني إياها كرافت والتي كانت معي في جيبي، وفكرت في المصير القاسي الذي ستؤول إليه لو وقعت في يديه. وأحسست فجأة بأنني ما زلت أحمل هذه القضية كلها على ظهري. فكان من شأن هذا الإحساس، بالإضافة إلى سائر ما عداه، أن أشعل طبعاً نيران غضبي.

- آركادي ، أريد أن تكون ملابسك أحسن مما هي الآن يا صديقي. ما هي الآن رديئة طبعاً. ولكن لعلك ستسمح لي، نظراً للتطورات القادمة، أن أوصي بك خياطاً فرنسياً حاذقاً صاحب ذوق رفيع.

فانبريت أقول بخشونة:

- أطلب منك أن لا تعرض عليَّ عرضاً كهذا في يوم من الأيام.

- لماذا؟

- لست أرى في هذا شيئاً من المذلة طبعاً، ولكننا لسنا على وفاق تام، بل لعلنا على خلاف شديد، لأنني في الأيام القريبة. . . بل غداً. . . سأنقطع عن الذهاب إلى الأمير ما دمت لا أرى أن لي عنده عملاً أقوم به. . .

- ولكن، أليس عملاً أن ترافقه أو أن تمكث إلى جانبه!

- هذه أفكار فيها إذلال.

- لست أفهم. ثم، إذا كنت حساساً إلى هذا الحد، فما عليك إلا أن لا تأخذ منه مالاً، مع استمرارك في البقاء معه. لسوف تحزنه حزناً شديداً إذا انقطعت عنه. إنه متعلق بك تعلقاً قوياً. . . صدقني. . . على كل حال، لك ما تشاء. . .

كان واضحاً أنه مستاء.

- تقول إن في إمكاني أن لا آخذ منه مالاً. ولكنني في هذا اليوم

Twitter: @ketab_n

ارتكبت بسببك عملاً دنيئاً: لم تكن قد نبهتني فطالبته اليوم بمرتب الشهر.

- معنى هذا أنك قد فعلت ذلك. أعترف لك بأنني لم أكن أظن أنك ستطالبه. آ. . . ما أحذقكم جميعاً في هذا الزمان رغم كل شيء! لم يبق شباب يا تاتيانا بافلوفنا.

كان شديد المرارة، وكنت أنا كذلك. قلت:

- كان عليَّ أن أصفِّي حسابي معك. . . انت الذي اضطررتني. والآن لا أدري ماذا أعمل.

- بالمناسبة يا صوفيا: ردي الستين روبلاً إلى آركادي على الفور. وأنت يا صديقي لا تغضب من هذا السداد السريع. إنني أحزر من النظر في وجهك أن في رأسك مشروعاً ما، وأنك في حاجة. . . إلى رأس مال. . . أو شيء من هذا القبيل.

- لا أدري عمَّ يعبر وجهي، ولكنني لم أكن أتوقع أن تحدثك أمي عن ذلك المبلغ بعد أن رجوتها أن لا تفعل.

ونظرت إلى أمي، وكانت عيناي تقدحان شرراً. لا أستطيع أن أصف مدى ما كان يضطرم في نفسي من غضب.

- آركاشا، بنيَّ، سامحني، ناشدتك الله. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أحكي له. . .

وقال فرسيلوف متجها إليَّ:

- لا تؤاخذها يا صديقي على أنها كشفت لي عن أسرارك. ثم أن نيتها كانت حسنة: لقد أرادت الأم أن تتباهى بعواطف ابنها. ولكن صدقني إذا قلت لك إنني كنت أستطيع أن أحزر أنك رأسمالي بدون أن تحكي لي أمك شيئاً. إن جميع أسرارك مكتوبة على وجهك النزيه. إن له «فكرته» يا تاتيانا بافلوفنا، كما سبق أن قلت لك ذلك.

Twitter: @ketab_n

أتممت كلامي ساخطاً أقول:

- دع وجهي النزيه. إنني أعرف أنك تقرأ أفكار الناس في كثير من الأحيان، رغم أنك في حالات أخرى لا ترى ما هو أبعد من طرف أنفك. لقد أدهشني نفاذ بصيرتك دائماً. طيب، لتكن لي «فكرتي». واضح أنك إنما استعملت هذا التعبير مصادفة، ولكنني لا أخشى من الاعتراف بأن لي «فكرتي». لست أشعر من ذلك لا بخوف ولا بخجل.

- لا تشعر بخجل خاصة!

- ومع ذلك لن أكشف لك عن «فكرتي» هذه في يوم من الأيام.

- معنى هذا أنك لن تتفضل بأن تكشف لي عنها. ولكن لا جدوى يا صديقي! إنني أعرف جوهر فكرتك بدون أن تكشف عنها. هي على كل حال:

انسحب إلى الصحراء...[39]

يا تاتيانا بافلوفنا، إن رأيي أنا هو أنه يريد. . . أن يصبح روتشيلد، أو شيئاً من هذا القبيل، وأن يمضي معتصماً بعظمته. ولسوف يمن علينا أنا وأنت بمرتب يكفل لنا معيشتنا. قد لا يهب لي أنا شيئاً، ولكن من المحقق أنه سيمر بنا كما يمر شهاب. أنه بيننا كالقمر الطالع: ما أن يظهر حتى يختفي.

ارتعشت في قرارة نفسي. لا شك أن هذا مصادفة. أنه لا يعرف شيئاً، وهو يتكلم عن شيء آخر تماماً، رغم أنه ذكر اسم روتشيلد. ولكن كيف استطاع أن يحدد عواطفي هذا التحديد الدقيق كله: أنفصل عنهم، وأنزوي؟ لقد حزر كل شيء. وهو يريد أن يلطخ بصفاقته ما في الأمر من عنصر المأساة. لقد كان غاضباً غضباً شديداً. ليس في ذلك شك.

قلت وأنا أحاول أن أضحك وأن أقلب كل شيء إلى مزاح:

Twitter: @ketab_n

- اغفري لي ما أظهرت من اندفاع وغضب منذ قليل يا ماما! واضح أنه من المستحيل أن يخفي المرء نفسه عن أندريه بتروفتش.

- أحسن شيء يا عزيزي أنك ضحكت. لا تستطيع أن تتصور مدى ما تسبغه ضحكة جميلة على المرء من سحر وفتنة، حتى من ناحية مظهره. أقول هذا جاداً كل الجد. يا تاتيانا بافلوفنا، إن هيئته تنم دائماً عن أن في رأسه أمراً يبلغ من الخطورة أنه يشعر هو نفسه بخجل منه.

- أرجوك جاداً يا أندريه بتروفتش أن تكون أكثر تحفظاً.

- إنك على حق يا صديقي. ولكن كان لا بد لي أن أقول هذا مرة حتى أنتهي منه ولا أعود إليه. إنك لم ترجع من موسكو إلا لتثور. ذلك ما نعلمه حتى الآن عن الغرض من مجيئك. وأما إنك جئت منتوياً أن تدهشنا بشيء يبهر الأبصار، فذلك أمتنع طبيعياً عن الإشارة إليه. ثم إنك منذ وصلت قبل شهر لا تكف عن الاستهزاء بنا والسخرية منا. وأنت مع ذلك رجل ذكي، ففي وسعك أن تدع هذا الضحك وهذا التهكم لأولئك الذين لا يملكون إلا هذه الوسيلة انتقاماً لتفاهتهم. إنك مغلق دائماً، مع أن مظهرك شريف وخدَّيك المتوردتين تشهدان بأن في وسعك أن تنظر إلى جميع الناس وجهاً لوجه ببراءة تامة. إنه سوداوي يا تاتيانا بافلوفنا. لا أستطيع أن أفهم لماذا هم جميعاً سوداويون في هذا الزمان؟

- إذا كنت تجهل حتى أين نشأت وربيت، فأنّى لك أن تعرف لماذا أنا سوداوي؟

- ذلك هو السر كله: أنت غاضب لأنني نسيت أين نشأت وربيت!

- لا، أبدا. لا تنسب إليَّ حماقة كهذه الحماقة. يا ماما، إن أندريه بتروفتش قد هنأني منذ لحظة بأنني ضحكت. فلنضحك إذاً. علام نبقى متجهمين هذا التجهم؟ هل تحبون أن أقص عليكم حوادث مضحكة

Twitter: @ketab_n

عني؟ لا سيما وأن أندريه بتروفتش لا يعرف شيئاً عن مغامرات حياتي!

كان كل ما احتبس في نفسي يغلي ويفور. كنت أعلم أننا لن نلتقي بعد الآن جميعاً كما نلتقي اليوم، وأنني متى خرجت من هذا المنزل فلن أعود إليه أبداً. لذلك لم أستطع في عشية ذلك كله أن أضبط نفسي. وقد حرص هو نفسه على الوصول إلى هذه النتيجة. قال وهو يلقي عليَّ نظرة ثاقبة:

- هذا لطيف ممتع، بشرط أن يكون مضحكاً حقاً! لقد توحشت قليلاً يا صديقي في ذلك المكان الذي نشأت وربيت فيه. على أنك ما تزال لائقاً رغم كل شيء. إنه اليوم فاتن يا تاتيانا بافلوفنا، ولقد أحسنت جداً إذ فضضت هذه الصرّة.

ولكن تاتيانا بافلوفنا قطبت حاجبيها، حتى أنها لم تلتفت واستمرت تفض الصرة وترتب الهدايا في أطباق. وبقيت أمي حائرة مضطربة، وكانت تدرك وتتوجّس طبعاً أن الأمور تجري مجرى سيئاً. ومرةً أخرى لكزتني أختي بكوعها.

- 3 -

بدأت أتكلم بهيئة طلقة فقلت:

- أريد فقط أن أحكي لكم كيف لقي أب ابنه العزيز أول مرة. وقد حدث هذا في ذلك المكان نفسه «الذي نشأت وربيت فيه». . .

- ولكن ألا ترى يا صاحبي أن هذا سيكون باعثاً على الضجر؟ أنت تعلم أن «جميع فنون القصص. . .».

فقاطعته قائلاً:

- لا تقطب حاجبيك يا أندريه بتروفتش. ليس ما سأحكيه هو ما تظن. . أبدا! أن غايتي هي أن أضحككم جميعاً.

Twitter: @ketab_n

فقال بصوت اصطنع له طلاقة كاذبة:

- سمع الله منك يا عزيزي. أنا أعرف أنك تحبنا جميعاً، وأنك.. لا تريد أن تعكر علينا صفو سهرتنا.

- لا شك أنك من وجهي إنما حزرت أنني أحبكم؟

- نعم، من وجهك قليلاً..

- وأنا حزرت من وجه تاتيانا بافلوفنا، منذ مدة طويلة، أنها مغرمة بي. لا ترشقيني بنظرات قاسية هذه القسوة كلها يا تاتيانا بافلوفنا! الضحك أفضل! الضحك أفضل!

فالتفتت تاتيانا بافلوفنا إليَّ بحركة مباغتة، وتأملتني ببصر نافذ مدة نصف دقيقة، ثم قالت وهي تهددني بأصبعها:

- حذار!

وكانت تبلغ من الجد في تهديدها أن ذلك لا يمكن أن يكون مرده إلى مزحتي الحمقاء، وإنما هو نوع من الإنذار فكأنها تقول: «أتراك تريد أن تبدأ؟»

- أندريه بتروفتش، أأنت لا تتذكر كيف التقينا في الحياة أول مرة؟

- أحلف لك أنني نسيت، وأستغفرك عن هذا صادقاً. كل ما أتذكره أن ذلك حدث في زمان بعيد جداً.. في مكان ما...

- وأنت يا ماما، هل تتذكرين متى كنتِ في الريف، في القرية التي ربيت فيها حتى السنة السادسة أو السابعة من عمري؟ أأقمتِ في وقت ما في تلك القرية فعلاً، أم أنني في الحلم إنما بدا لي أنني رأيتك هناك أول مرة؟ إنني منذ مدة طويلة أحب أن ألقي عليك هذا السؤال، ولكنني كنت أتراجع دائماً. وقد حان الوقت الآن.

- كيف لا أتذكر يا صغيري آركادي! طبعا أتذكر! لقد جئت أزور فارفارا ستيبانوفنا ثلاث مرات؛ مرةً حين كانت سنك لا تكاد تبلغ عاماً

Twitter: @ketab_n

واحداً؛ ومرة حين كنت في نحو السنة الرابعة من العمر، ثم حين كنت قد تجاوزت السادسة.

- ها.. نعم! لقد ظللت أريد أن ألقي عليك هذا السؤال طول هذه المدة!

احمرت أمي احمراراً شديداً من سيل الذكريات المباغت هذا، وسألتني بعاطفة حنون:

- هل يمكن حقاً يا صغيري آركادي أن تحفظ زيارات أمك بعد انقضاء هذه المدة كلها؟

- لا أتذكر شيئاً ولا أعرف شيئاً، غير أنني قد بقي لي من وجهك شيء في قرارة قلبي على مدى حياتي، وبقي لي عدا ذلك أنني عرفت أنك أمي. تلك القرية كلها إنما أراها اليوم كحلم من الأحلام حتى دادتي قد نسيتها، أما فارفارا ستيبانوفنا، أتذكرها قليلاً لأن خديها كانتا دائماً معصوبتين بسبب آلام أسنانها. وحول المنزل ما زلت أرى أشجاراً كبيرة أظن أنها كانت أشجار زيزفون، وأرى في بعض الأيام شمساً قوية تدخل من النوافذ المفتوحة، وأرى مساكب أزهار وممر أشجار، وأراكِ أنت يا ماما، لكنني لا أراكِ رؤية واضحة إلا في لحظة واحدة هي لحظة تناولي في كنيسة القرية التي حملتني فيها بين ذراعيك لأتناول القربان وأقبِّل الكأس. كان ذلك في الصيف، واجتازت القبةَ حمامة من نافذة إلى أخرى..

قالت أمي:

- رباه! ما أصدق هذه الذكريات! صفقت أمي بيديها. وتابعت تقول:

- إنني أتذكرها، تلك الحمامة. وقد تحركت أنت في لحظة التناول نفسها وصحت تقول: «الحمامة، الحمامة!»

Twitter: @ketab_n

- إن وجهك، أو شيئاً منه، فيه تعبير، قد بلغ من عمق الرسوخ في ذاكرتي أنني بعد خمس سنين عرفتك بموسكو فوراً وعرفت أنك أمي، رغم أن أحداً لم يذكر لي ذلك. ثم سُحبت من منزل آل آندرونيكوف بعد لقائي الأول بأندريه بتروفتش. كنت قد مكثت عندهم زمناً طويلاً في هدوء ومرح، خمس سنين. إنني أتذكر أدق التفاصيل في شقتهم الواقعة في أحد مباني الدولة، وأتذكر جميع تلك السيدات والآنسات اللواتي هرمن اليوم هرماً شديداً، أتذكر البيت زاخراً، وأتذكر آندرونيكوف نفسه الذي كان يتولى بنفسه شراء المؤونة من المدينة، وجلب الدواجن والأسماك والخنازير الرضيعة، وكان ينوب على المائدة مناب زوجته التي تصطنع الكبرياء فيسكب لنا الحساء بنفسه. وكنا نتندر على هذا دائماً، وكان هو بيننا أول المتندرين. هناك إنما علمتني الفتيات اللغة الفرنسية، ولكنني كنت أحب حكايات كريلوف خاصة(40)، فحفظت منها عدداً كبيراً عن ظهر قلب، وكنت أنشد آندرونيكوف واحدةً في كل يوم: كنت أدخل مكتبه الصغير رأساً، سواء أكان منهمكاً في عمل أم لا. وبسبب حكاية من تلك الحكايات إنما تعارفنا يا أندريه بتروفتش... أرى أنك بدأت تتذكر.

- حقاً.. أتذكر بعض التذكر يا عزيزي.. ماذا أنشدتني حينذاك؟ أحكاية من حكايات كريلوف أم جزءاً من مسرحية «ذو العقل يشقى»؟ ما أقوى ذاكرتك على كل حال!..

- ذاكرتي؟ وكيف لا؟ لم أكن أحفظ فيها طول حياتي إلا هذه الأشياء.

- عظيم، عظيم، يا صديقي! حديثك يشوقني.

حتى لقد ابتسم. وبعده ابتسمت أمي وأختي. لقد عادت الطمأنينة، إلا إلى تاتيانا بافلوفنا التي كانت جالسة في ركن بعد أن رتبت الهدايا

Twitter: @ketab_n

على الطاولة، فقد ظلت ترشقني بنظرة شزراء. وتابعت كلامي فقلت:

- فإليكم القصة: في ذات صباح، جاءت صديقة طفولتي، تاتيانا بافلوفنا، التي كانت تنبجس في حياتي على حين غرة دائماً، جاءت تأخذني من عند آل آندرونيكوف. أركبوني عربة، وأودعوني في شقة فخمة في منزل من منازل الأسياد. كنت قد نزلت عند فاناريوتوفا يا أندريه بتروفتش، في منزلها الذي كان خالياً حينذاك. وكانت قد اشترته منك في الماضي. كانت هي مسافرة في الخارج. وكنت ما أزال ألبس بلوزات. فألبسوني هناك رداء لطيفاً أزرق وملابس داخلية ناعمة، دفعة واحدة. وقضت تاتيانا بافلوفنا النهار كله محتفية بي، واشترت لي أشياء كثيرة جداً. وأخذت أطوف في الغرف الخالية، وأنظر إلى نفسي في جميع المرايا. حتى إذا كان صباح الغد، في نحو الساعة العاشرة، بينما كنت أتجول في أرجاء البيت، رأيتني - لا أدري كيف - أدخل مكتبك مصادفة. وكنت قد رأيتك بالأمس، لحظة وصولي إلى هذا المنزل، ولكنني لم أرك إلا عابراً، وذلك على السلم. كنت أنت نازلاً لتركب العربة ذاهباً لا أدري إلى أين. كنت في ذلك الوقت وحيداً بموسكو، بعد غياب طويل جداً، وكنت لا تريد أن تمكث إلا وقتاً قصيراً، فكنت تُطلب في كل مكان، فلا تكاد تبقى في البيت أبداً. فلما صادفتنا أنا وتاتيانا بافلوفنا، لم تزد على أن قلت: «ها!»، حتى دون أن تتوقف.

قال فرسيلوف مخاطباً تاتيانا بافلوفنا:

- إنه يصف الواقعة بحب.

فأشاحت تاتيانا بافلوفنا وجهها دون أن تجيب.

- إني لأتصورك الآن كما كنت في ذلك الحين جميلاً مزدهراً. ما أسرع ما دب إليك الهرم وما نالك من دمامة أثناء هذه السنين التسع، اغفر لي صراحتي. ولقد كنت آنذاك في السابعة والثلاثين على كل

Twitter: @ketab_n

حال، ولكنني كنت لا أتعب من النظر إليك. ما كان أجمل شعرك! كان غزيراً، أسود، لامعاً، لا تخالطه شعرة واحدة بيضاء. أما شارباك وسالفاك فكأنها من حسن الاتقان قد صنعها صائغ جواهر. لا أجد تعبيراً أفضل من هذا التعبير. وكان وجهك شاحباً كابياً، لا شحوب المرض كشحوبه الآن، بل.. بل كشحوب وجه ابنتك آنا أندرييفنا التي شُرّفتُ برؤيتها منذ قليل. وكان في عينيك حرارة وحلكة. وكانت أسنانك لامعة، خاصة حين تضحك. ذلك أنك انفجرت تضحك حين نظرت إليَّ عند دخولي مكتبك. لم أكن أحسن تمييز الأشياء في ذلك الأوان. فأبهجت ابتسامتك قلبي. كنت ترتدي في ذلك الصباح سترة من مخمل كحلي وتتدثر بوشاح أخضر، وتلبس قميصاً مزداناً بتخاريم فرنسية من آلانسون. وكنت واقفاً أمام المرآة، ممسكاً بكتاب في يدك، منهمكاً في استظهار وإنشاد أقوال تشاتسكي[41]، ولاسيما صيحته الأخيرة:

عربتي، عربتي!

هتف فرسيلوف يقول:

- آه.. ما أصدق ما يذكر! كنت قد رضيت، رغم قصر إقامتي بموسكو، أن أمثل دور تشاتسكي عند ألكسندرا بتروفنا فيتوفتوفا، على مسرحها المنزلي، بسبب مرض جيلايكو.

هتفت تاتيانا بافلوفنا تسأله:

- نسيت إذاً؟

- لقد ذكّرني! الواقع أن تلك الأيام القصيرة بموسكو لعلها كانت أجمل فترات حياتي! كنا جميعاً في عز الشباب آنذاك.. كنا ننتظر كل شيء بحرارة شديدة... وقد التقيت في موسكو عندئذ بعدد كبير من... ولكن أكمل، يا عزيزي، أكمل، لقد أحسنت أيما إحسان هذه المرة إذ دخلت في التفاصيل..

Twitter: @ketab_n

- وكنت واقفاً أنظر إليك. فإذا أنا أصيح فجأة: «آ. . . رائع! هذا هو تشاتسكي الحقيقي!» فالتفتّ حالا وسألتني: «أأنت تعرف تشاتسكي؟» ثم جلست على الديوان، وأقبلت على قهوتك رائع المزاج جذلاً أشد الجذل. فذكرت لك حينذاك أن الجميع في منزل آل آندرونيكوف يقرأون كثيراً، وأن الآنسات يحفظن شعراً كثيراً، وأنهن يمثلن فيما بينهن مشاهد من مسرحيات جريبويدوف، وأننا طوال الأسبوع الماضي كنا نقرأ معاً في المساء بصوت عال «مذكرات صياد»[42]، وأنني أحب خاصة حكايات كريلوف وأحفظها تماماً، فدعوتني أن أنشدك شيئاً، فأنشدتك حكايته «الخطيبة المتعنتة»:

خطيبة تحلم بالخطيب

فهتف فرسيلوف من جديد:

- نعم، نعم، الآن تذكرت كل شيء! ولكنني أتذكرك أنت أيضاً يا صاحبي. كنت في ذلك الحين فتى لطيفاً ظريفاً، كنت فتى صغيراً لذيذاً. يميناً لقد فقدت أنت أيضاً كثيراً أثناء هذه السنين التسع.

عندئذ ضحك الجميع وضحكت تاتيانا بافلوفنا نفسها. لقد كان واضحاً أن أندريه بتروفتش كان يمزح ويثأر لنفسه مما قلته له أنا. وابتهج الجميع. لقد أحسن الرد على الغمز بمثله. وتابعت:

- وفيما كنت أنا أنشد كنت أنت تبتسم. ولكن قبل أن أبلغ نصف الحكاية استوقفتني وقرعت الجرس وأمرت الخادم الذي دخل في تلك اللحظة بأن يدعو تاتيانا بافلوفنا. فجاءت تاتيانا بافلوفنا فوراً وقد بلغت هيئتها من التعبير عن شدة الفرح أنني بعد أن كنت رأيتها بالأمس لم أكد أعرفها اليوم. وبحضور تاتيانا بافلوفنا أعدت إنشاد «الخطيبة المتعنتة»، ونجحت في إنشادها نجاحاً باهراً. فابتسمت لي تاتيانا بافلوفنا، حتى أنك أنت يا أندريه بتروفتش قد هتفت تقول لي: «مرحى!» وأضفت

Twitter: @ketab_n

تقول بحرارة: «إن إنشاد حكاية «الزيز والنملة» إنشاداً حسناً أمر يستطيعه كل فتى ذكي في سني. فلا يستغرب المرء حسن إنشاده، أما إنشاد حكاية «الخطيبة المتعنّتة» فشأنه شأن آخر:

خطيبة شابة تحلم بالخطيب

لا إثم في هذا ولا تثريب.

اسمعي كيف ينشد هذا الشطر: «لا أثم في هذا ولا تثريب!» الخلاصة أنك تحمست كثيراً. وقد أخذت تكلم تاتيانا بافلوفنا عندئذ باللغة الفرنسية. فقطبت حاجبيها في الحال وأخذت تواجهك باعتراضات، حتى لقد كانت تبدي اعتراضاتها بحرارة شديدة. ولكن لما كان يستحيل على أحد أن يعارض أندريه بتروفتش إذا هو أراد شيئاً، فقد أسرعت تانيانا بافلوفنا تقتادني إلى غرفتها. وهناك غُسل وجهي ويداي مرة أخرى، وغُيرت ملابسي الداخلية، ودُهنت بالعطر، حتى لقد جُعِّد لي شعري. حتى إذا جاء المساء ارتدت تاتيانا بافلوفنا هي نفسها ثياباً فخمة، ثياباً أفخم مما كنت أتوقع، وركبنا عربة، وأُخذت لأول مرة في حياتي إلى المسرح، فشهدت عرضاً قام به هواة عند فيتوفتوفا: شموع، ثريات، سيدات، عسكريون، جنرالات، آنسات، الستارة، صفوف الكراسي، إلخ... تلك كلها أشياء لم يسبق أن رأيت مثلها في حياتي. وقد اختارت تاتيانا بافلوفنا مكاناً متواضعاً في صف من الصفوف الخلفية وأجلستني بقربها. وكان هناك أطفال غيري طبعاً، ولكنني كنت لا أنظر إلى شيء، وإنما أنتظر بدء التمثيل خافق القلب. حتى إذا ظهرت أنت على المسرح يا أندريه بتروفتش، بلغت أنا من الحماسة حداً سالت معه دموعي. لا أدري لماذا يا أندريه بتروفتش؟ لماذا دموع الحماسة تلك؟ ذلك أمر ظل يبدو لي غريباً كلما تذكرته خلال هذه السنين التسع! وأخذت أتابع المسرحية منهار القلب. كل ما فهمته طبعاً هو أنها خانته،

Twitter: @ketab_n

وأن أناساً أغبياء لا يستحقون حتى أن يلمسوا أصبعاً في قدمه كانوا يسخرون منه. وحين كان يخطب في حفلة الرقص كنت أدرك أنه رجل أُذل وأُهين، وأنه يقرِّع جميع أولئك الحقراء، ولكنه رجل كبير، كبير جداً! لا شك أن ما كنت قد تعلمته عند آل آندرونيكوف ساعدني على الفهم، ولكن تمثيلك ساعدني أيضاً يا أندريه بتروفتش! كنت أرى مسرحاً لأول مرة! وفي لحظة الانصراف، حين صرخ تشاتسكي منادياً: «عربتي، عربتي!» (ولقد صرخت صرخة دهشة!) وثبت عن كرسيي وطفقت أصفق مع كل من كانوا في الصالة، وصحت أقول بكل ما أملك من قوة: مرحى! أتذكر أيضاً أنني أحسست في تلك اللحظة نفسها بما يشبه أن يكون وخزة دبوس «تحت الظهر قليلاً». إن تاتيانا بافلوفنا هي التي قرصتني غاضبة غضباً شديداً، ولكنني لم أول ذلك انتباهاً! حتى إذا انتهى التمثيل قادتني تاتيانا بافلوفنا إلى البيت، قائلة لي: «لا يمكن أن تحضر حفلة الرقص، رغم أنني سأُحرم بسببك من حضورها»، وقد ظللتِ تؤنبينني طول الطريق يا تاتيانا بافلوفنا ونحن في العربة. وهذيت أنا إلى آخر الليل. وفي الساعة العاشرة من اليوم التالي كنت أقف أمام مكتبك. ولكن الباب كان مغلقاً: كنت تستقبل بعض الناس، وتعالج بعض الأعمال. ثم غبت فجأة طول النهار ولم تعد إلا في الليل، فلم أرك بعد ذلك أبداً! أما ما الذي كنت أريد أن أقوله لك، فقد نسيته طبعاً، بل كنت لا أعرفه حتى في ذلك الوقت، ولكنني كنت أحترق شوقاً إلى رؤيتك في أسرع وقت. لقد سافرت في صباح اليوم التالي منذ الساعة الثامنة إلى سربوخوف: كنت قد بعت أرضك في ضواحي تولا منذ مدة قصيرة لترد إلى دائنيك ديونهم، ولكن كانت قد بقيت لك من أرضك قطعة لا بأس بها، وسمح ذلك لك أن تجيء عندئذ إلى موسكو التي كنت لا تستطيع أن تظهر فيها حتى ذلك الحين خوفاً من الدائنين

Twitter: @ketab_n

وكان ذلك الرجل الفظ الغليظ من سربوخوف هو الوحيد بين سائر الدائنين الذي لم يرض أن يقبض نصف الدين بديلاً عن تمامه. ولم ترض تاتيانا بافلوفنا حتى أن تجيب عن أسئلتي، وكانت لا تزيد على أن تقول لي: «اطمئن! سأذهب بك بعد غد إلى مدرسة داخلية. حضّر نفسك. خذ دفاترك. رتّب كتبك. وتعلم كيف ترتب حقيبتك بنفسك. إنك لم تخلق لتعيش عيشة أمير يا سيد»، الخ الخ. ما أكثر ما صدّعت أنني بهذا الكلام في تلك الأيام الثلاثة يا تاتيانا بافلوفنا! واقتادوني فعلاً إلى مدرسة توشار الداخلية، أنا الغر البريء، أنا المغرم بك يا أندريه بتروفتش. صحيح أن ذلك اللقاء لم يكن إلا مصادفة شاذة، ولكن صدقني إذا قلت لك إنني بعد ستة أشهر كنت ما أزال أريد أن أهرب من عند توشار وأن أذهب إليك!

قال فرسيلوف موقعاً كلامه:

- لقد قصصت فأبدعت، فأيقظت جميع ذكرياتي. غير أن ما يخطف انتباهي خاصة فيما قصصته إنما هو غناه ببعض التفاصيل الغريبة، فيما يتعلق بديوني مثلاً. فإني لا أفهم كيف استطعت أن تطلع على هذه التفاصيل، ناهيك عن أنها غير لائقة؟

- هذه التفاصيل؟ كيف اطلعت عليها؟ إنني أعود فأكرر لك أنني خلال هذه السنين التسع لم يشغلني شيء كما شغلني الاهتمام بجمع تفاصيل عنك.

- اعتراف غريب، وشاغل غريب!

وأدار لي ظهره، مضطجعاً على مقعده نصف اضطجاع، وفتح فمه بتثاؤب خفيف لا أدري أهو تعمده تعمداً أم لا.

- هل تريد أن أحكي لكم كيف أردت أن أهرب من عند توشار؟

فانبرت تاتيانا بافلوفنا تقول:

Twitter: @ketab_n

- إمنعه يا أندريه بتروفتش! اردعه واطرده من هنا!

فأجابها فرسيلوف بجد:

- لا يا تاتيانا بافلوفنا! لا شك أن في ذهن آركادي مشروعاً. فيجب أن نتيح له إكمال كلامه قطعاً. فليستمر! ليقصص ما يريد أن يقصه فيتخلص! وذلك هو شيء رئيسي بالنسبة له... أن يتخلص إلى الأبد. هيا يا عزيزي، ابدأ قصتك الجديدة. وأنا إنما أصفها بأنها جديدة من باب التجوز، لأنني أعرف نهايتها سلفاً، ثق بهذا.

- 4 -

- أردت أن أفر من المدرسة هارباً إليكم، بصورة بسيطة. تاتيانا بافلوفنا، تذكرين أن توشار، بعد دخولي المدرسة بأسبوعين تقريباً، بعث إليك برسالة. لا؟ لقد أطلعتني ماريا إيفانوفنا على هذه الرسالة فيما بعد، وكانت بين أوراق آندرونيكوف المرحوم أيضاً. لقد ارتأى توشار فجأة أن المبلغ الذي كان قد طلبه ضئيل جداً، فكتب يقول لك «بوقار» إنه يربّي في مدرسته الداخلية أمراء وأولاد أعضاء في مجلس الشيوخ، ويرى أنه لا يليق بمؤسسته أن تحتفظ بتلميذ أصله كأصلي، اللهم إلا أن يُدفع له أجر إضافي.

- يا عزيزي، في وسعك أن...

فقاطعتها قائلاً:

- ليس هذا بشيء ذي بال: لكنني أريد أن أقول كلمة عن توشار. لقد أجبته من الريف يا تاتيانا بافلوفنا، بعد أسبوعين، بأنك ترفضين طلبه رفضاً قاطعاً. إنني ما زلت أراه في خيالي داخلاً على الصف وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً. إنه فرنسي قصير القامة مدوَّر الجسم، في نحو الخامسة والأربعين من العمر، باريسي الأصل حقاً، من أسرة إسكافيين

Twitter: @ketab_n

طبعاً، ولكنه استقر بموسكو منذ زمن بعيد مدرّسا للغة الفرنسية ويحمل كذلك رتباً كان يعتز بها أعظم الاعتزاز. هو رجل جاهل فظ حقاً. ولقد كنا في مدرسته الداخلية ستة لا أكثر. وكان بين هؤلاء التلاميذ واحد هو ابن أخت عضو في مجلس الشيوخ من موسكو. وكنا نعيش في مدرسته عيشة أسرة، تحت إشراف زوجته في أكثر الأحيان، وهي امرأة متكلفة متصنعة كانت ابنة موظف روسي لا يُعرف من هو. وكنت في خلال هذين الأسبوعين أتكبر على رفاقي تكبراً شديداً، وأتباهى بسترتي الزرقاء وأعتز بأبي أندريه بتروفتش، فإذا سألوني لماذا أسمى دولجوروكي وليس فرسيلوف، لم أضطرب من السؤال البتة، لأنني كنت أجهل أنا نفسي سبب ذلك.

صرخت تاتيانا بافلوفنا تقول بلهجة فيها ما يشبه التهديد:

- أندريه بتروفتش!

وأمي أيضاً، كانت تصغي إلى كلامي لا تغيب عنها منه كلمة واحدة، وترغب رغبة واضحة في إتمامه.

قال فرسيلوف من بين أسنانه:

- توشار... إنني أتذكر الآن فعلاً أنه رجل صغير كثير الحركة. ولكنه قد زُكيَّ لي كثيراً...

واصلت حديثي قائلاً:

- دخل السيد توشار حاملاً الرسالة بيده، وتقدم من الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب السنديان، التي كنا نحن الستة جالسين إليها منهمكين في تعلم درس نسيت الآن ما هو، فأمسك كتفي إمساكاً قوياً، وأنهضني، وأمرني بأن آخذ دفاتري، قائلاً لي:

- مكانك ليس هنا، - ودلّني على غريفة صغيرة تقع على يسار حجرة المدخل، وتوجد فيها طاولة حقيرة مع كرسي من خيزران وسرير

Twitter: @ketab_n

مغطى بقماش مشمع، تماماً كالغريفة التي أعيش فيها الآن تحت السقف. فذهبت إلى هناك مدهوشاً ومرتاعاً جداً. إنني لم أُعامل قبل اليوم بمثل هذه الغلظة والفظاظة. وبعد نصف ساعة، حين غادر توشار الصف، مضيت أبادل رفاقي النظرات والضحك. وكانوا هم يضحكون عليَّ ساخرين، ولكني أنا لم يخطر ببالي شيء من ذلك، وظننت أننا نضحك معاً لما يملأ نفوسنا من فرح وجذل. وفي تلك اللحظة انبجس توشار. فأمسك خصلة من شعري، وشدّها قائلاً لي:

– إياك أن تخالط هؤلاء الأولاد الذين ينتمون إلى أسر كريمة. أنت حقير المنبت. ما أنت إلا نوع من خادم!

ولطم خدي المدورة الحمراء لطمة آلمتني إيلاماً شديداً.

وأعجبته اللطمة فكررها ثانية فثالثة. كنت أغص بالبكاء. كنت مصعوقاً. فلبثت ساعة كاملة أبكي دافناً رأسي في يدي. لا بد أن شيئاً لا أتوصل إلى إدراكه قد حدث. لم أفهم كيف يستطيع إنسان غير شرير مثل توشار، وهو رجل أجنبي، حتى أنه كان يبتهج أعظم الابتهاج لتحريز الفلاحين الروس، كيف يستطيع أن يضرب طفلاً ساذجاً مثلي. الحق أنني في قرارة نفسي كنت مندهشاً لا أكثر. لم أشعر بأنني أُهنت. كنت لا أعرف بعد شعور الإهانة، خُيِّل إليَّ أنني قد ارتكبت غلطة من الغلطات، وأنني بعد أن أنصلح سيُغفر لي كل شيء، فنغدو جميعاً مرحين من جديد، ونمضي نلعب في فناء المدرسة، ونستأنف حياة حلوة.

قال فرسيلوف وهو يبتسم ابتسامة فيها إهمال إنسان اعتراه السأم:

– ليتني عرفت هذه الأمور يا صاحبي... إن توشار هذا رجل وغد حقاً! على كل حال، أنا لم أفقد أملي في أن تسترد شجاعتك، فتغفر لنا أخيراً جميع هذه الأشياء ونستأنف حياة حلوة.

Twitter: @ketab_n

وأتبع ذلك بتثاؤب قوي. فهتفت أقول محتاراً:

- ولكنني لا أتهم توشار، لا أتهمه قط، بل لا أشتكي منه! ثم أنه لم يضربني إلا مدة شهرين. أذكر أنني كنت أريد دائماً أن أسترضيه، فكنت أرتمي على يديه لأقبّلهما، وكنت أقبّلهما ذارفاً كل ما في عيني من دموع. وكان رفاقي يسخرون مني ويحتقرونني لأن توشار كان يستعملني في بعض الأحيان خادماً، فيأمرني أن أجيئه بملابسه حين كان يرتدي ثيابه. وهنا شُحذت صفات الخادم في نفسي بالغريزة، فكنت أبذل كل ما أملك من طاقة لإرضائه، دون أن أشعر بأي شيء من المهانة، لأنني كنت لا أزال عاجزاً عن فهم الأمر، بل إنني ليدهشني حتى هذا اليوم كيف لم أدرك أنني دون كافة رفاقي كثيراً. صحيح، أن رفاقي قد شرحوا لي حينذاك كثيراً من الأمور، فنحن في مدرسة راقية. على أن توشار قد أصبح في النهاية لا يلطم خدي بل يركلني بركبته على قفاي. حتى أنه بعد نصف سنة أخذ يلاطفني من حين إلى حين ولكنني كنت واثقاً بأنه لا بد أن يضربني مرةً في الشهر، ليذكّرني بأن عليَّ أن أبقى في مكاني لا أتجاوزه. ولم ألبث أن أُرجعت إلى سائر الأولاد، وسُمح لي بأن ألعب معهم، ولكن توشار لم يستطع مرةً واحدة خلال هذه المدة كلها وهي سنتان ونصف سنة أن ينسى ما بيني وبينهم من فرق في المنزلة الاجتماعية. ويغلب على ظني أنه إن كان لم يفته أن يستعملني خادماً له على الدوام، ولو بغير مبالغة، فإنما كان يفعل ذلك ليذكرني بذلك. ثم هربت. أقصد فكرت في الهروب بعد انقضاء خمسة أشهر على ذينك الشهرين الأولين. على وجه العموم كنت بطيئاً في عزم أمري على اتخاذ قرار دائماً. وكنت حين أرقد في فراشي وأخفي نفسي تحت غطائي، لا ألبث أن أحلم بك فوراً يا أندريه بتروفتش، بك وحدك. لا أدري إطلاقاً لماذا كان يحدث ذلك. حتى لقد كنت أراك في المنام. وكنت أحلم

Twitter: @ketab_n

خاصة بأنك ستجيء فجأة ذات يوم، فإذا أنا أرتمي بين ذراعيك، فتنتشلني من هذا المكان، وتأخذني إلى عندك، إلى ذلك المكتب، وأحلم بأننا نذهب إلى المسرح، الخ، وأننا - وهذا هو الشيء الأساسي - لن نفترق بعدئذ أبداً. وفي الغداة، حين أضطر إلى أن أستيقظ من النوم، يستأنف الصبية سخرياتهم ويعودون إلى احتقارهم. وقد بدأ أحدهم في ضربي وإجباري على إلباسه حذاءيه، ووصفني بكل النعوت، وحرص حرصاً خاصاً على إفهامي أصلي، فأفرح ذلك السامعين فرحاً عظيماً. حتى إذا وصل توشار أحسست في داخل نفسي بشيء لا يُطاق. أدركت أنني هنا لن يُغفر لي أبداً في يوم من الأيام. آه. . . بدأت شيئاً فشيئاً أفهم الأمر الذي لن يُغفر لي، وأعرف ما هي جريمتي! وهكذا قررت أن أهرب. حلمت بالهرب مدة شهرين، واتخذت قراري أخيراً. كان ذلك في شهر أيلول. إن يوم السبت يناسبني: فرفاقي ينصرفون لقضاء عطلة الأحد. حزمت من أمتعتي ما لا غنى لي عنه في صرة. وكان كل ما معي من مال روبلين. كنت أريد أن أنتظر حلول الغسق. قلت لنفسي: «عندها سأهبط على السلم، وأخرج ثم أنصرف قدماً». إلى أين، كنت أعرف أن آندرونيكوف قد سافر إلى بطرسبرج، فقررت أن أجد منزل فاناريوتوفا في شارع آربات. وحدثت نفسي قائلاً: «سوف أقضي الليل في مكان ما، متجولاً أو جالساً على دكة، حتى إذا طلع الصبح سألت أحداً في فناء الدار: أين هو أندريه بتروفتش الآن، وإذا لم يكن بموسكو ففي أي مدينة هو أو في أي بلد من البلاد؟ وسيرضون أن يذكروا لي المكان فأمشي. ومن حين إلى حين أسأل أحداً عن الاتجاه الذي يجب أن أسير فيه للوصول إلى مدينة كذا وكذا. فأمشي، وأمشي، وأظل أمشي. وأقضي الليل في أي مكان تحت الأدغال، ولا آكل إلا خبزاً، فيكفيني الروبلان مدة طويلة». ولكن

Twitter: @ketab_n

استحال عليَّ في يوم السبت أن أهرب. فكان يجب أن أنتظر إلى يوم الأحد. وشاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يغيب توشار وامرأته. ولم يبق في البيت إلا آجاتي وأنا. فانتظرت حلول الليل مضطرباً اضطراباً رهيباً. كنت جالساً - ما زلت أتذكر ذلك - أمام نافذة صالتنا، أنظر إلى الشارع الأغبر، وبيوته الخشبية الصغيرة، والمارة القلائل. كان توشار في آخر العالم. ومن نوافذنا كان يُرى باب المدينة. قلت لنفسي: «ليته هو الباب الذي يجب أن أخرج منه» وكانت الشمس تغرب محمرة احمراراً رائعا، وكان الهواء باردا، وكانت تهب ريح قارصة تثير الغبار؛ كهذا اليوم تماماً. وعم الظلام أخيرا؛ فوقفت أمام الأيقونة، وصليت، لكنني صليت مسرعا، مسرعا كل الإسراع، لأنني كنت أستعجل الهرب حالا. تناولت صرتي، ونزلت السلم سائراً على رؤوس الأصابع، فكانت درجاته تصر، وكنت أشعر بخوف رهيب من أن تسمعني آجاتي في المطبخ. وكان المفتاح على الباب، ففتحت، وإذا بالظلام الدامس يحدق بي كشيء مجهول خطر لا حدود له، وأطارت الريح طاقيتي. أصبحت في خارج الدار. ودوى على الرصيف الآخر صراخ أجش أبح هو صراخ سكير كان يطلق الشتائم تلو الشتائم. فتوقفت، ونظرت، ثم إذا بي أعود أدراجي على مهل، ثم أصعد السلم في رفق؛ وفي رفق أخذت أخلع ملابسي بعد أن وضعت صرتي على الأرض، ثم رقدت على بطني بدون دموع أذرفها وبغير فكرة واحدة تخطر ببالي. منذ تلك اللحظة إنما أخذت أفكر يا أندريه بتروفتش! نعم، منذ اللحظة التي أدركت فيها أنني لست خادماً فحسب، بل جباناً رعديداً أيضاً! عندئذ إنما بدأ تطوري الحقيقي المطرد!

هنا صاحت تاتيانا يافلوفنا تقول وهي تثب عن مكانها فجأة وثوباً لم يكن في حسباني قط:

Twitter: @ketab_n

- وعندئذ إنما بدأت أنا أعرف ما أنت في واقع الأمر! إنك لم تكن خادماً في ذلك الأوان فحسب، بل ما زلت خادماً إلى الآن: أن نفسك نفس خادم! ما الذي كان يمنع أندريه بتروفتش من أن يعهد بك إلى إسكافي يعلمك حرفة الأحذية؟ كان سيحسن إليك لو علمك حرفة! من ذا الذي يمكن أن يطالبه بأكثر من هذا؟ إنّ أباك، ماكار إيفانوفتش كان يرجو أن لا يخرج أولاده من الفئة الاجتماعية الدنيا حتى لقد كان يطالب بهذا مطالبة ويكاد يصر عليه إصراراً. لا، لا، إنك لا تحسن تقدير صنيع أندريه بتروفتش إذ أوصلك إلى الجامعة. إنك بفضله إنما تتمتع الآن بحقوق خريجي المدارس. انظروا: كان الصبيان يسخرون منه ويناكدونه، فحلف لينتقمنَّ من الإنسانية بأسرها... ما أنت إلا نذل!

يجب أن أعترف أن غضبة تاتيانا بافلوفنا قد صعقتني. فنهضت عن مكاني ونظرت لحظة وأنا لا أجد ما أجيبها به.

وقلت أخيراً وأنا التفت إلى فرسيلوف عامداً بعد تفكير:

- إن ما قالته تاتيانا بافلوفنا الآن شيء جديد حقاً. إن فرسيلوف قد تفضل فلم يجعلني إسكافياً. فيا لي من خادم حقاً، لأن هذا لم يرضني حتى «الحقوق» لم ترقق قلبي وإنما طالبت بفرسيلوف نفسه، طالبت به كله كاملاً! طالبت بأبي... فهل يمكن أن يكون امرؤ خادماً أكثر من هذا؟ يا أمي، ما تزال ماثلةً في ضميري، منذ ثمانية أعوام حتى الآن، تلك اللحظة التي جئتني فيها وحيدةً إلى عند توشار، وتلك الطريقة التي استقبلتك بها. ولكن ليس هذا أوان الحديث عن هذا الأمر. إن تاتيانا بافلوفنا لا تسمح به. فإلى الغد يا أمي، فلعلنا سنلتقي مرة أخرى. ويا تاتيانا بافلوفنا، وما عساك قائلة إذا ما كنت لا أزال خادماً فلا أستطيع أن أقبل أن يكون لرجل امرأة، فإذا هو يتزوج امرأة أخرى؟ تلك مغامرة كادت تقع لأندريه بتروفتش في «إمس»! يا أمي، إذا كنت لا تريدين البقاء مع

Twitter: @ketab_n

زوج قد يتزوج امرأة أخرى في الغد، فاذكري أن لك ابناً يعد بأن يكون ابناً يحترم أمه إلى الأبد، اذكري هذا ثم ننصرف، ولكن يجب الاختيار «فإما أنا وإما هو»، فهل توافقين؟ إنني لا أطلب جواباً على الفور. فأنا أعرف أن هذه الأسئلة لا يستطيع المرء أن يجيب عنها حالاً. . .

لم أستطع أن أكمل كلامي، لأنني اندفعت اندفاعاً شديداً وطاش صوابي. شحبت أمي شحوباً قوياً، وخانها صوتها فلم تستطع أن تقول كلمة واحدة. وانبرت تاتيانا بافلوفنا تتكلم صاخبة، حتى أنني لم أستطع أن أميز ما كانت تقوله، بل لقد لطمتني على كتفي بقبضة يدها مرتين. لكنني أتذكر إنها أعولت تقول إن أقوالي مدروسة محسوبة، قد هيأتها نفس وضيعة معقدة. وكان فرسيلوف جالساً لا يتحرك، وكان جاداً لا يبتسم. وصعدت إلى حجرتي تحت السقف. وكانت النظرة الوحيدة التي شيعتني هي نظرة الاستنكار من أختي التي كانت تهز رأسها وقد لاحت في وجهها القسوة.

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

– 1 –

إنني أصف جميع هذه المشاهد دون مراعاة أو مداراة لنفسي، وذلك حتى يكون كل شيء واضحاً، ذكريات كان أو انطباعات. حين صعدت إلى حجرتي كنت أجهل جهلاً مطلقاً هل يجب عليَّ أن أحمر خجلاً أو أن أشمخ انتصاراً لأنني قمت بواجبي. ولو كنت ذا تجربة أوسع لأدركت أن أي شيء حول مثل هذا الأمر يشير إلى نتيجة سيئة. على أن هناك ظرفاً آخر حيَّرني: إنني لا أعرف ما الذي كان يمكن أن يبهجني، ولكن واقع الحال هو أنني كنت أحس بفرح جنوني، رغم شكوكي ورغم شعوري بأنني قد أخفقت منذ قليل إخفاقاً ذريعاً حين كنت تحت. حتى الشتائم المقذعة التي رمتني بها تاتيانا بافلوفنا كانت تبدو لي باعثة على الضحك، وكانت لا تحنقني البتة. أغلب الظن أن مرد ذلك إلى أنني قد حطمت أغلالي على كل حال، وشعرت بحريتي أول مرة.

وكنت أحس أيضاً أنني أفسدت مصالحي: ما عساي أفعل الآن بالوثيقة التي تتعلق بالميراث؟ وكان في هذا السؤال مزيد من الاضطراب. لسوف يظنون حتما أنني أردت الانتقام من فرسيلوف. ولكنني منذ أن كنت تحت، كنت قررت – أثناء المناقشات – أن أرجع في هذه المسألة إلى حكم وسيط يفصل فيها، وأن أختار فاسين حكماً،

Twitter: @ketab_n

أو أن أختار أحداً غيره إذا لم يمكن أن أختاره هو، وكنت منذ ذلك الوقت أعرف من ذا الذي سأختاره. لقد حدثت نفسي قائلاً: سأذهب يوماً إلى فاسين، أذهب إليه مرة وحيدة، ثم، ثم أغيب عن أبصار الناس قاطبة، زمناً طويلاً، أشهراً عدة، أغيب حتى عن فاسين، بل أغيب خاصة عن فاسين، وقد أرى أمي وأختي وحدهما من حين إلى حين. ذلك كله كان مضطرباً مشوشاً. وكنت أحس أن شيئاً ما قد عملته، ولكنه لم يُعمل كما ينبغي... وكنت مغتبطاً. أكرر: كنت رغم كل شيء سعيداً.

وقررت عندئذ أن أنام قبل أوان نومي في العادة، متوقعاً أن يكون عليَّ أن أسير في الغد مسافات طويلة. لقد اتخذت قرارات عقدت النية على تنفيذها بطريقة أو بأخرى، عدا استئجار مسكن والانتقال إليه. ولكن السهرة لم تختتم دون أن يحدث شيء لم يكن في الحسبان، فهذا هو فرسيلوف يفلح في أن يدهشني إلى أبعد حدود الدهشة. كان لا يجيء إلى حجرتي أبداً، أبداً. ولكن ما أن انقضت ساعة واحدة حتى سمعت وقع خطاه على السلم، وسمعته يناديني طالباً أن أنير له الطريق. فتناولت شمعة، ومددت إليه إحدى يدي فأمسكها، وساعدته على التسلق إليَّ.

- Merci. يا صديقي. إنني لم أصعد إلى هنا مرة واحدة، حتى يوم استأجرت البيت. كنت أقدّر ما عسى يكون هذا المكان. ومع ذلك لم أتوقع أبداً أن يكون حجرة كلب كهذه التي أرى.

وقف في وسط حجرتي ينظر فيما حوله مستطلعاً، وقال:

- هذا تابوت، تابوت حقيقي!

والحق أن حجرتي كان بينها وبين جوف التابوت شبه، حتى لقد أعجبت بدقة تشبيهه إياها بالتابوت. إنها غريفة ضيقة طويلة. وفي

Twitter: @ketab_n

مستوى كتفي، لا أعلى منه، تبدأ الزاوية التي تتشكل من التقاء جدارها بسقفها الذي كنت أستطيع أن ألمسه بكفي. وقد وقف فرسيلوف في اللحظة الأولى محنياً خشية أن يصطدم رأسه بالسقف. ولكن رأسه لم يصطدم بالسقف؛ فجلس بهدوء على ديواني الذي كان قد أمسى سريراً. أما أنا فلم أجلس، وإنما كنت أنظر إليه مندهشاً أعمق الاندهاش. قال:

- إن أمك لا تدري هل يجب عليها أن تأخذ المال الذي عرضته عليها منذ قليل نفقات لإقامتك عندنا هذا الشهر. والحق أن هذا التابوت الذي تقيم فيه لا يستحق أن تدفع عنه أجراً، بل لعلنا أن نكون نحن المدينين لك! أنني لم أجيء إلى هنا مرة واحدة... وإنه ليصعب عليَّ أن أتخيل أن يعيش إنسان في هذا المكان.

- لقد تعودت هذه السكنى. ولكن الشيء الذي لا يمكنني أن أتعوده هو أن أراك عندي بعد الذي حدث تحت.

- حقاً لقد كنتَ شديد الفظاظة تحت... ولكن لي، أنا أيضاً، غايات خاصة سأشرحها لك، وإن يكن وجودي هنا، في حقيقة الأمر، ليس بالشيء الخارق. وحتى ما حدث تحت ليس شاذا في الواقع، وإنما هو طبيعي. ولكن هناك نقطة تفصيلية أرجوك أن توضحها لي: هل ما رويته تحت، وما ألقيته على مسامعنا بتلك الاحتفالية والاهتمام هو كل ما كان في نيتك أن تكشف لنا عنه أو أن تفضي إلينا به؟ أليس عندك شيء آخر؟

- ذلك كل شيء. أو فلنفرض أنه كل شيء.

- هو إذاً قليل يا صديقي. إن دخولك في الموضوع، وأسلوبك في دعوتنا إلى الضحك، ورغبتك الشديدة في الكلام، كل ذلك جعلني أتوقع أن يتمخض عن أكثر مما تمخض عنه.

Twitter: @ketab_n

- ولكن فيم يهمك هذا؟

- يهمني لأنه يفتقد الإحساس بالاعتدال. علام كل هذا اللغط والصخب؟ أتقضي شهراً كاملاً في صمت وتحضير من أجل أن تتمخض فجأة عن.. لا شيء؟!

- كان في نيتي أن أحكي أكثر مما حكيت، ولكنني خجلت حتى مما قلته. ما كل شيء يمكن أن يحكى بالكلام. هناك أمور يحسن بالمرء أن لا يجيء على ذكرها أبداً. لقد قلت ما فيه الكفاية ثم إنك قد فهمت.

- إذاً أنت أيضاً يعذبك في بعض الأحيان أن فكرك لا تسعه قوالب الألفاظ! يا صديقي، هذا العذاب لم يوهب إلا لصفوة مختارة من الناس. أما الغبي الأحمق فهو راض دائماً عما يقول؛ وهو عدا ذلك يقول دائماً أكثر مما يجب أن يقول. أولئك أشخاص يحبون الزيادة.

- مثلما كنت أنا تحت. أنا أيضاً قلت أكثر مما كان يجب أن أقول. طالبت «بفرسيلوف كله». هذا أكثر من اللازم. لست في حاجة إلى فرسيلوف.

- أرى يا صديقي أنك تريد أن تعوض ما خسرته تحت. إنك نادم. ولما كان الندم يعني عندنا أن يتهجم المرء فوراً على أحد، فقد عزمت أمرك على أن لا تخطئني مرة أخرى. لقد جئت إليك قبل الأوان، فما تزال نارك مستعرة لم تنطفىء. ثم إنك لا تتحمل النقد. ولكن إجلس، أرجوك. أريد أن أبلغك شيئاً. شكراً، أحسنت! إن ما قلته لأمك لحظة انصرافك يدل دلالة واضحة على أن من الأفضل أن نفترق على كل حال. وقد جئت لأنصحك بأن تفارقنا في هدوء كامل وبغير فضيحة، حتى لا تحزن أمك مزيداً من الحزن وحتى لا تروّعها مزيداً من الترويع. إن مجرد صعودي إليك الآن قد خفف عنها وأحسن إليها: إنها مقتنعة بأننا نستطيع أن نتصالح، وبأن كل شيء سيظل يجري كما كان يجري. وأعتقد

Twitter: @ketab_n

أننا إذا استطعنا، أنا وأنت، أن نضحك ضحكاً صاخباً، مرة أو مرتين، سوف نزرع الفرح في قلبيهما الوجلين، كلتيهما. إن قلبيهما بسيطان، ولكنهما زاخران بالحب والصدق والبراءة. فلماذا لا نفرحهما قليلاً إذا استطعنا إلى ذلك سبيلاً؟ هذه هي النقطة الأولى. وإليك النقطة الثانية: هل من المحتم أن نفترق ونحن نكزّ أسناننا، ونحترق ظمأ إلى الانتقام، ونصب اللعنات، وما إلى ذلك! صحيح أننا لن نتعانق، ولكن من الممكن أن نفترق ونحن نتبادل الاحترام إن صح التعبير، أليس كذلك؟

- هذا كله سخافات! أعدك بأن أنصرف دونما فضيحة، ويكفي ذلك! أيقلقك أمر أمي؟ يخيل إليَّ مع ذلك أن طمأنينة أمي لا تهمك كثيراً. هذا منك كلام لا أكثر.

- ألا تصدقني؟

- إنك تكلمني كما يكلّم الطفل حقاً!

- يا صديقي، أنا مستعد لأن أستغفرك عن هذا ألف مرة، وأن أستغفرك أيضاً عن كل ما تنسبه إليَّ، عن سني طفولتك، وهلم جراً. ولكن ما عسى ينتج عن ذلك يا ولدي العزيز؟ أظن أنك أذكى من أن تضع نفسك في مثل هذا الوضع السخيف؟ دعك من أنني لا أفهم في الواقع طبيعة المآخذ التي تأخذها عليَّ فهماً واضحاً، ولكنني أسألك: ما الذي تتهمني به؟ بأنك لم تُسمَّ عند ولادتك باسم فرسيلوف؟ ليس هذا ما تتهمني به؟ إنك تضحك وقد لاح في وجهك احتقار، ولوحت بيدك تحمي بها نفسك. إذاً ليس ذلك هو ما تتهمني به؟

- لا، صدقني. صدِّق أنني لا أرى أي شرف في أن يكون اسمي فرسيلوف.

- دعنا من الشرف. ثم، لا بدّ من أن يكون جوابك ديموقراطياً. ما الذي تتهمني به إذاً؟

Twitter: @ketab_n

- لقد نطقت تاتيانا بافلوفنا منذ ساعة بكل ما كنت أريد أن أعرفه ولم أتوصل إلى فهمه حتى سمعتها: إنك لم تشأ أن تجعلني إسكافياً، وأن عليَّ إذاً أن أشكر لك جميلك. إنني لا أدرك سبب نكراني الجميل حتى الآن، حتى بعد أن أُلقي عليّ هذا الدرس. ألا يمكن أن يكون دمك المتغطرس هو الذي يتحدث فيَّ الآن يا أندريه بتروفتش؟

- لا أظن ذلك. يجب عليك أن تسلم، عدا هذا، أن جميع هجماتك التي أردت لها أن تسقط عليَّ أنا منذ قليل، لم تزد على أن آلمتها وعذبتها، هي وحدها. ويخيل إليَّ مع ذلك أنك لست أنت من يحق له أن يدينها. وما هو ذنبها في حقك؟ بالمناسبة: اشرح لي هذه النقطة أيضاً يا صديقي: لأي سبب وعلى أي نية أذعت في المدرسة وفي المدرسة الثانوية وطوال حياتك وحتى لأي إنسان تلقاه (لقد ذُكر لي هذا) أنك ابن زنا؟ لقد علمت أنك تتلذذ بإذاعة هذا. وما ذلك منك في الواقع إلا غباوة ونميمة دنيئة: أنت دولجوروكي، الابن الشرعي لماكار إيفانتش دولجوروكي، الشخص المحترم، المتميز ذكاء وخلقاً. وإذا كنت قد أصبت حظاً من تعليم عال، فإنما يرجع الفضل في ذلك إلى فرسيلوف، مولاك سابقاً. ولكن ما الذي نتج عن ذلك؟ إنك بما أذعته من أنك ابن زنا - وتلك نميمة - إنما فضحت أمك، ولطّختها بالوحل منطلقاً من كبرياء كاذب. وذلك يا صديقي ليس من النبل في شيء، لاسيما وأن أمك ليست هي الآثمة: إن لأمك خلقاِ هو الصفاء الكامل والطهارة التامة. وإذا لم تُسمَّ باسم فرسيلوف، فلسبب وحيد هو أنها لا تزال متزوجة.

- كفى! إنني أوافقك كل الموافقة، وأثق بذكائك ثقة تبلغ من القوة أنني آمل أن تكف عن هذه التقريعات التي أظن أنها طالت كثيراً. أنت رجل تهوى الاعتدال.. وهناك اعتدال في كل شيء، حتى في حبك

Twitter: @ketab_n

المفاجىء لأمي. فدعنا من هذا وقل لي: إذا كنت قد قررت أن تجيء إليَّ وأن تقضي عندي ربع ساعة أو نصف ساعة (وأنا ما زلت لا أعرف لماذا جئت، ولكن لنسلم بأنك جئت لإدخال الطمأنينة والسكينة إلى قلب أمي)، وإذا كنت عدا ذلك تجد لذة كبيرة في الحديث معي رغم كل ما جرى تحت، فحدثني إذن عن أبي، عن ماكار إيفانوف، هذا الجوَّاب. منك أنت إنما أريد أن أسمع شيئاً عنه. إنني أنتوي منذ مدة طويلة أن أطلب منك هذا. وأحب كذلك، ونحن نفترق - ربما إلى أمد طويل - أن أحصل منك على جواب عن هذا السؤال الآخر: هل يعقل أن لا تكون قد استطعت خلال هذه السنين العشرين أن تؤثر في أوهام أمي، وكذلك الآن في أوهام أختي، فتبدد الظلمات الأولى التي تخيم على بيئتها القديمة؟ لست أتكلم في طهارتها طبعا! فإنها كانت دائماً أسمى منك كثيراً في مجال الأخلاق، معذرة.. ولكن ما هي إلا جثة سامية. أما الحياة فهي لفرسيلوف وحده. وكل ما عداه ممن حوله، كل ما له ارتباط به، إنما هو أشبه بنبات... نبات يغذيه بطاقاته وبما فيه من عصارة الحياة. غير أنها كانت هي أيضاً حية في الماضي أليس كذلك؟ وهل وجدت فيها ما تحبه؟ كانت هي أيضاً امرأة، أليس كذلك؟

- يا صديقي، إذا أردت أن تعرف ذلك، فاعلم أنها لم تكن امرأة في يوم من الأيام.

قال ذلك وهو يجعد وجهه ذلك التجعيد القديم الذي أحفظ ذكراه والذي كان يخنقني أشد الحنق، أقصد ذلك التجعيد الذي يوهم المرء أنه إزاء إنسان يملك طيبة صادقة أشد الصدق، مع أن نفسه لا تشتمل في الواقع إلا على سخرية واستهزاء، حتى لقد كنت لا أستطيع في بعض الأحيان أن أفهم من هيئته شيئاً. وعاد يقول:

- لا، لم تكن امرأة في يوم من الأيام. ما من امرأة روسية بامرأة.

Twitter: @ketab_n

- هل البولندية أو الفرنسية هي المرأة؟ أم أن الإيطالية، الإيطالية المشبوبة، هي التي تأسر لب روسي متحضر من الطبقة العليا مثل فرسيلوف؟

- هذا ما كان ينقصني! كان ينقصني أن ألقى هنا واحداً من المتعصبين للسلافية[43]!

وانفجر فرسيلوف ضاحكاً.

إنني أتذكر ما رواه كلمة كلمة. حتى لقد كان يتحدث راضياً مسروراً. وكان واضحاً لي أنه لم يأتِ إليَّ ليثرثر معي أو ليطمئن أمي، وإنما جاء مبيتاً نيات أخرى.

- 2 -

بدأ فرسيلوف ثرثرته المصطنعة فقال:

- لقد عشنا أنا وأمك هذه السنين العشرين كلها في صمت. وكل ما جرى بيننا إنما جرى في صمت أيضاً. فالسمة الرئيسية التي تتسم بها هذه العلاقة التي دامت عشرين عاماً هي الصمت. حتى أنني أظن أننا لم نتشاجر مرة واحدة. صحيح أنني تغيبت كثيراً، فكنت أتركها وحيدة، لكنني كنت أعود في النهاية دائماً. إننا نعود دائماً، هذه أبرز صفة يتصف بها الرجال، وهي من عظمتهم. فلو كان الزواج رهناً بالنساء وحدهن لما استمر زواج. والسمة التي تتميز بها أمك إنما هي الطواعية والمذلة والخضوع، التسليم والرضى، ولكنها تتصف أيضاً بالصلابة والقوة، القوة الحقيقية. أحب أن تلاحظ أنها بين النساء اللواتي لقيتهن خيرهن جميعاً. إن لها قوة، أشهد بذلك: لقد رأيتُ كيف دعمتها هذه القوة. فمتى كان الأمر قناعات (لا قناعات حقيقية فهذا ليس محل بحث، بل ما يمكن أن يسمى عندها قناعات) ومتى كان الأمر أمر تبعاً لذلك أمر شيء

Twitter: @ketab_n

تعده مقدساً، كانت مستعدة لأن تتحمل جميع أنواع العذاب كما يتحملها شهداء. فانظر بنفسك: أأنا أشبه جلاداً يعذب الناس؟ ذلك هو السبب الذي حملني على الصمت في جميع الأحيان تقريباً، وليس السبب هو أن الصمت أسهل. ولست نادماً على ذلك، أعترف لك. فبهذه الطريقة جرى كل شيء بيننا من تلقاء نفسه على نحو إنساني رحب. حتى أنني لا أنسب لنفسي في هذا أي فضل. يجب أن أقول لك في هذه المناسبة إنني أميل إلى أن أظن أنها لم تؤمن بعواطفي الإنسانية في يوم من الأيام، وأنها لذلك ارتعشت من الخوف دائماً. ولكنها رغم ارتعاشها من الخوف لم ترغب في الحصول على أي ثقافة. هؤلاء أناس يحسنون تصريف أمورهم أكثر منا. إنهم على وجه الإجمال يعرفون كيف يدبرون شؤونهم خيراً مما نعرف ذلك نحن. إنهم يستطيعون أن يواصلوا الحياة على ما يشاؤون في أكثر الظروف مناقضة لطبيعتهم، وأن يبقوا في تلك الظروف ما هم فلا يتغيروا. أما نحن فلا نملك هذه البراعة التي يملكون.

– من هؤلاء الذين تعنيهم؟ إنني لا أفهم عنك فهماً واضحاً.

– الشعب يا صديقي. الذين أعنيهم هم الشعب. لقد برهن الشعب على قوته الحية الكبيرة خلال التاريخ، أخلاقياً وسياسياً على حد سواء. ولكن لنرجع إلينا: أستطيع أن أقول إن أمك لم تكن دائمة الصمت. إنها تتكلم أحياناً، ولكنها تتكلم بطريقة تجعلك تدرك إدراكاً واضحاً أنك قد أضعت وقتك سدى فيما سقته إليها من أحاديث ولو كنت قد سلخت من عمرك خمس سنين في تهيئتها لهذه الأحاديث شيئاً بعد شيء. وما أعجب الاعتراضات التي تواجهك بها ولم تخطر لك ببال! لاحظ مرة أخرى أنني لا أصفها بالغباء البتة. بالعكس: إن في هذا نوعاً من ذكاء، بل إن فيه ذكاء فذاً. ولكن لعلك لن تعترف لها بهذا الذكاء...

Twitter: @ketab_n

- لم لا؟ أن ما لا أصدقه هو أن تؤمن أنت حقاً بذكائها، وأن لا تكون في ذلك مرائياً.

- صحيح؟ أأنت تعدّني حرباء؟ يا صديقي، إنني أسرف في مداراتك... كولدي المدلل... ولكن ليكن الأمر كذلك هذه المرة.

- حدثني عن أبي. قل لي الحقيقة إن استطعت.

- ماكار إيفانوفتش؟ نعم، إن ماكار إيفانوفتش هو كما تعلم قن خادم أحبَّ فيما يقال أن يصبح ذا شهرة..

- أراهن على أنك في هذه اللحظة تغار منه!

- بالعكس يا صديقي، بالعكس. وإذا شئت أن تعرف الحقيقة فاعلم أنني مرتاح أشد الارتياح إلى أن لك مزاجاً معقداً هذا التعقيد كله. أحلف لك أنني أعاني الآن ندامة قوية عميقة، وأنني في هذا اليوم نفسه، بل في هذه اللحظة التي تمر، أحس ربما للمرة الألف بالأسف في غير طائل لما حدث منذ عشرين سنة. شهد الله أن كل ما حدث قد حدث مصادفة إلى أقصى الحد... ثم جرى بصورة إنسانية فيما يخصني أنا على الأقل بحسب الفكرة التي كانت قائمة في ذهني عن فضيلة الاتصاف بالروح الإنسانية. آه.. لشد ما كنا نحترق في ذلك الحين شوقاً إلى فعل الخير وخدمة المجتمع والفكرة العليا، ولشد ما كنا نُدين الألقاب والرتب، وامتيازاتنا الموروثة، وتملك الأطيان، وحتى بنك تسليف الفقراء، في رأي بعضنا على الأقل... أحلف لك. كان عددنا قليلاً، ولكننا كنا نحسن الكلام، بل كنا في بعض الأحيان نحسن العمل أيضاً، أؤكد لك.

- أيامَ كنت تنتحب على الكتف مثلاً؟

- يا صديقي، إنني أوافقك سلفاً على كل شيء. بالمناسبة: حكاية الكتف هذه، أنا الذي رويتها لك، فأنت في هذه اللحظة تسيء استغلال

Twitter: @ketab_n

صدقي وثقتي. لاحظ أن الانتحاب على الكتف لا يضعني في وضع سيئ إلى الحد الذي يبدو لأول وهلة، ولا سيما إذا رددته إلى زمانه. لقد كنا عندئذ مبتدئين في أمرنا. صحيح أن ذلك كان مني تصنعاً وتكلفاً. ولكنني كنت أجهل حينذاك أنني لم أكن صادقاً. انظر إلى نفسك مثلاً: أأنت لا تتصنع أبداً في الحياة العملية؟

- حين كنا تحت، منذ قليل، أسرفت في العاطفية بعض الإسراف، وما إن رجعت إلى هنا حتى أحسست بالخجل إذ تصورت أنك قد تظن أنني فعلت ذلك عامداً. صحيح أن المرء يمثّل في بعض الأحيان، مهما يكن صادقاً. ولكنني أحلف لك أنني كنت اليوم، تحت، طبيعياً بغير تصنع البتة.

- حسن ما تقوله. لقد أجدت التعبير: «إن المرء يمثّل في بعض الأحيان، مهما يكن صادقاً». فذلك بعينه هو ما جرى لي أنا: لقد انتحبت صادقاً رغم أنني كنت أمثّل تمثيلاً. أوافقك: كان في إمكان ماكار إيفانوفتش أن يعدّ الانتحاب على كتفه زيادة في السخرية، لو كان أذكى قليلاً. ولكن استقامته أساءت عندئذ إلى نفاذ بصره. والشيء الذي أجهله هو: أأخذته بي شفقة حينئذ أم لا. أذكر أنني كنت أحترق شوقاً إلى أن يرثى لحالي.

قاطعته قائلاً:

- والآن إذ تقول هذا الكلام إنما أنت تسخر أيضاً. إنك على وجه الإجمال، في جميع ما قلته لي خلال هذه المدة كلها، طوال هذا الشهر كله إنما كنت تسخر. لماذا كنت تتصرف معي دائماً هذا التصرف حين تكلمني؟

أجاب يقول بوداعة:

- أتظن ذلك؟ إنك شديد الوسوسة. إذا كنت أضحك فلست

Twitter: @ketab_n

أضحك منك أو على الأقل لست أضحك منك وحدك، فاطمئن. لكنني في هذه اللحظة لا أضحك. لنعد إلى ما كنا فيه. لقد عملت حينذاك كل ما كان في وسعي أن أعمله، وصدقني إذا قلت لك إنني لم أعمل ما عملت في سبيل مصلحتي. لقد كنا نحن، أعني معشر الممتازين عاجزين عن العمل في ذلك الزمان لمنفعتنا بالقياس إلى أبناء الشعب. بالعكس: كنا نسيء إلى أنفسنا أكبر الإساءة، وأظن أن هذا بعينه هو ما كنا نعده «المصلحة العليا التي هي مصلحتنا» بأسمى معاني هذه الكلمة طبعاً. إن المثقف في هذا الزمان وكذلك الأشخاص التقدميين أشد تعلقاً بالمنفعة وسعياً إليها من جيلنا. في ذلك الزمان شرحت لماكار إيفانوفتش كل شيء، بصراحة خارقة، حتى قبل ارتكاب الخطيئة. إنني أسلم اليوم بأن كثيراً من تلك الأشياء لم يكن في حاجة إلى شرح، ولا سيما بمثل تلك الصراحة. فلو أقصرت في الشرح لكان ذلك أقرب إلى الأدب والتهذيب، ناهيك عن العاطفة الإنسانية. لكن أين للمرء أن يكبح جماح نفسه حين يريد أن يغامر فيقوم أثناء الرقص بخطوة جميلة بعد أن يكون سكرُ الرقص قد أخذ منه كل مأخذ! لعل هذا ما كانت تقتضيه في الواقع ضرورات الجمال والخير: إنني لم أجد جواباً عن هذا السؤال بعد. على كل حال، هذه مشكلة أعمق من أن يتناولها حديث سطحي كالحديث الذي يدور بيننا الآن. لكنني أحلف لك أنني ما زلت أموت خجلاً من هذه الذكرى في بعض الأحيان. آنذاك عرضت عليه ثلاثة آلاف روبل. كان صامتاً. وكنت وحدي أتكلم. تصور: لقد خُيّل إليّ أنه خائف مني، أي خائف مما للسيد من حقوق على العبد، فبذلت أقصى جهدي لأشجعه. إنني أتذكر هذا. حضضته على أن يفصح عن جميع رغباته دون أن يخشى شيئاً، بل حضضته على أن ينتقد ما شاء أن ينتقد. وعلى سبيل الضمان قطعت له عهداً على نفسي أنه إذا رفض

Twitter: @ketab_n

شروطي، أي الثلاثة آلاف روبل وإعتاقه (هو وامرأته طبعاً) ورحيله (بدون امرأته طبعاً) ما عليه إلا أن يعلن ذلك صراحة حتى أعتقه فوراً، وأرد إليه امرأته، وأهديهما كليهما هذه الثلاثة آلاف روبل نفسها، فلا يكون عليهما هما أن يرحلا عندئذ، وإنما أرحل أنا إلى إيطاليا وحيداً لمدة ثلاث سنين. لو حدث هذا فإنني ما كنت سأصطحب الآنسة سابوجكوفا إلى إيطاليا، ثق بهذا. كنت بذلك الحين أطهر من أن أفعل ذلك. وماذا إذاً؟ لقد أدرك ماكار هذا حق الإدراك أنني سأفعل ما أقول. ولكنه بقي صامتاً لا يتكلم، ثم لم يتحرك إلا حين أردت أن أرتمي على كتفه مرة ثالثة، فإذا هو يتقهقر، ويجري يده بشارة تنم عن قلة الاكتراث، ويخرج حتى بغير تحرج، فأدهشني منه ذلك، وأؤكد لك. ونظرت إلى نفسي عندئذ في مرآة عرضاً، وهذه ذكرى لن أنساها في يوم من الأيام. إنهم بوجه عام حين يصمتون فلا ينطقون، يكون الأمر أرهب ما يكون. ولقد كان ماكار قاتم المزاج، فكان لا يوحي إليَّ بالثقة، حتى أنني كنت إذا دخل عليَّ أشعر بذعر هائل: إن في هذه البيئة أفراداً، أفراداً كثيرين، تتجسد فيهم قلة الذمة إن صح التعبير. وهذا أحق أن يُخشى من الطعنات. فما أكثر ما جازفت وعرضت نفسي للخطر! فلو أن «أوريا» القروي هذا قد أخذ يزعق ويصرخ، فما عسى كان يحدث لي أنا «داود» الصغير[44] وما عسى كنت أستطيع أن أفعل؟ ذلك هو السبب في أنني عرضت الثلاثة آلاف روبل منذ البداية مدفوعاً إلى ذلك بغريزتي. ولكنني أخطأت الظن لحسن الحظ: فلقد كان ماكار إيفانوفتش هذا شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف...

- قل لي: هل كانت الخطيئة قد وقعت؟ لكأنك قلت لحظة إنك استدعيت الزوج قبل حدوث الخطيئة؟

- أعني... أقصد...

Twitter: @ketab_n

- إذا كانت الخطيئة قد وقعت. وقلت منذ لحظة إنك أخطأت الظن فيه، وإنه كان مختلفاً كل الاختلاف عما صوَّر لك خيالك. . . فماذا كان؟

- ماذا كان؟ آه. . . إنني لا أزال أجهل ما هو. لكنه إنسان مختلف كل الاختلاف، بل إنسان مستقيم جداً، هل تتصور؟ إنني أخلص إلى هذه النتيجة لأن الإحساس بارتكاب ذنب في حقه قد تضاعف مثنى وثلاث. لقد قبل الرحيل في الغداة، بدون كلام، وبدون أن يغفل شيئاً من التعويضات التي عرضتها عليه طبعاً.

- أخذ المال؟

- كيف لا؟ حتى لقد أدهشني في هذه الناحية يا صديقي. لم أكن أحمل ثلاثة آلاف روبل طبعاً. فأخرجت من جيبي سبعمائة وقدمتها إليه دفعة أولى. فهل تعرف ماذا فعل؟ طلب مني سنداً قيمته ألفان وثلاثمائة روبل، واشترط أن يحرر السند لأمر تاجر. وبعد ذلك بسنتين تسلح بهذا السند وطالبني بالمال مع فوائده عن طريق المحاكم، فأدهشني مرة أخرى، لا سيما وأنه كان يجول جامعاً صدقات لبناء كنيسة، وما يزال يجول منذ عشرين سنة إلى الآن. إنني لا أفهم: ما حاجة جوال مثله إلى ذلك المبلغ كله لنفسه؟ . . . إن المال شيء يرغب فيه من يعيش في المجتمع. . . وأنا كنت قد عرضت عليه ذلك المبلغ صادقاً، أو قل في إبان الحرارة الأولى، والاندفاع الملتهب، أما بعد ذلك، فقد كان طبيعياً أن أثوب إلى رشدي. . . وكنت أظن أنه سيعفيني. . . أو قل سيعفينا أنا وهي، أو أنه سيمهلنا بعض الوقت على الأقل. ولكنه لم يقبل حتى أن يمهلنا. . .

(يجب أن أسوق هنا ملاحظة لا غنى عنها: لو مات السيد فرسيلوف قبل أمي فتبقى في أواخر أيامها بغير كوبيك واحد. ولكن الثلاثة آلاف

Twitter: @ketab_n

روبل التي بقيت كاملة غير منقوصة حتى لقد ضاعفتها الفوائد المتراكمة قد أوصى بها ماكار إيفانوفتش لأمي في السنة الماضية. كان قد فهم حقيقة فرسيلوف منذ ذلك الحين).

- قلت يوماً إن ماكار إيفانوفتش كان يجيء إليكم عدة مرات، وإنه كان ينزل دائماً إلى شقة أمي. . .

- نعم يا صديقي، وأعترف لك أنني كنت في البداية أخشى تلك الزيارات كثيراً. ولقد جاء طوال هذه المدة، أي خلال هذه العشرين سنة، ست مرات أو سبعاً لا أكثر. فكنت في الزيارات الأولى أختبئ إذا اتفق أن كنت بالمنزل. حتى أنني في أول الأمر كنت لا أفهم: ما معنى هذا؟ لماذا يجيء؟ ولكنني بعدئذ، بدا لي من بعض العلائم أن ذلك لم يكن منه غباء إلى الحد الذي صوّره لي خيالي. ثم ثار حب الاطلاع في نفسي عرضاً، فمضيت أراه، فخرجت من ذلك بانطباع طريف، أؤكد لك. كانت تلك زيارته الثالثة أو الرابعة، وكنت قد عينت منذ برهة وجيزة وسيط صلح، وصرفت همي، كما ينبغي أن أفعل، إلى دراسة روسيا. فعرفت منه أشياء جديدة لا حصر لها. وعدا ذلك وجدت فيه ما لم أكن أتوقع أن أجده البتة: وجدت نفساً طيبة ومزاجاً متساوياً، حتى لقد وجدت فيه ما يشبه أن يكون جذلاً، فكان هذا أدعى إلى دهشتي من كل ما عداه. لم يشر إلى الأمر أيسر إشارة، هل تفهم؟ ورأيته يعبر عن جوهر الأشياء بلغة واضحة رائعة، أي لم أقع في أحاديثه على تلك الجمل المزوقة المشوشة التي يلاحظها المرء في حديث الأقنان الخدم والتي أعترف لك بأنني لا أطيقها رغم جميع آرائي الديمقراطية، ولم أقع في أحاديثه على تلك الألفاظ الروسية الصميمة المزعومة التي يستعملها «روس صادقون» في رواياتنا ومسارحنا. لا ولا رأيته يتكلم في الدين إلا قليلاً جداً، ما لم تسأله، حتى لقد رأيته يروي أقاصيص فكهة ظريفة عن

Twitter: @ketab_n

الأديرة وحياة الرهبان إذا كنت تهتم بسماعها. ولكنني وجدت فيه خاصة، ذلك الاحترام، احترام المرء على تواضع وبغير تبجح، ذلك الاحترام الذي أرى أنه الشرط الذي لا بد منه للمساواة القصوى، بل أرى أنه يستحيل على المرء بدونه أن يبلغ التفوق. فبهذه القدرة على عدم التغطرس إنما يستطيع المرء أن يصل إلى الدرجة العليا من الاستقامة، وبها إنما يتجلى الإنسان الذي يحترم نفسه حقاً أياً كانت حاله، وأياً كان قدره. ولسوف ترى إذا عشت أن قدرة المرء على احترام نفسه في حالته هو نادرة كندرة الكرامة الصادقة. . . غير أن الشيء الذي خطف بصري وأثار انتباهي أكثر من كل ما عداه بعد ذلك، بعد ذلك لا في البداية (أكد فرسيلوف الكلمات الأخيرة)، هو أن ماكار هذا على جانب عظيم جداً من مهابة الهيئة، وأؤكد أيضاً أنه على جانب عظيم جداً من الوسامة والجمال. صحيح أنه شيخ، ولكنه:

«ملوح الوجه، فارع الطول، ممشوق القوام»[45]

بسيط المظهر، جليل الطلعة. حتى لقد أدهشني أن صوفيا المسكينة فضلتني عليه، كان عندئذ في الخمسين من عمره، ولكن هذا لا ينفي أنه كان رجلاً قوياً جسوراً، وأنني كنت بالقياس إليه شاباً قميئاً متحذلقاً. على أنني أتذكر أن شيب شعره كان شديداً، فلا بد أنه كان شائباً حين تزوجها. . . فلعل هذا أن يكون قد أثّر فيها.

إن هذا الرجل فرسيلوف يتصف بما يتصف به أبناء المجتمع الراقي من تلك العادة الكريهة الباعثة على الاشمئزاز. فبعد أن قال أشياء فيها كثير من الذكاء وكثير من الانصاف (حين لم يستطع أن يفعل غير ذلك)، إذا هو يسف هذا الإسفاف عامداً فيسوق ملاحظة حمقاء غبية من نوع هذه الملاحظة عن بياض شعر ماكار إيفانوفتش وعن أثر ذلك في أمي. لقد فعل ذلك عامداً، ربما دون أن يدرك هو نفسه لماذا فعله. إنها عادة

Twitter: @ketab_n

من عادات أبناء المجتمع الراقي. ولو سمعته لاعتقدت أنه يتكلم جاداً كل الجد، ولكنه في قرارة نفسه إنما كان يسخر أو يضحك.

- 3 -

لا أدري لماذا اعتراني حنق شديد على حين فجأة. إنني أمتعض الآن امتعاضاً كبيراً كلما تذكرت بعض ثورات غضبي أثناء الحديث. نهضت عن كرسيي بغتة وقلت له:

- اسمع. لقد زعمت أنك إنما جئت إليَّ خاصة من أجل أن تظن أمي أننا تصالحنا. وقد انقضى من الوقت ما يكفي لإيهامها بذلك. فهلا تركتني وحيداً؟

فاحمر قليلاً ونهض قائلاً:

- يا عزيزي، إنك تتصرف معي بفجاجة. إلى اللقاء. لا تُفرض الصداقة فرضاً. لكنني أبيح لنفسي أن ألقي عليك هذا السؤال: هل تريد أن تترك الأمير فعلاً؟

- آه.. آه... كنت أعلم أنك تبيت نيات معينة...

- أتظن أنني جئت لأحضك على البقاء مع الأمير لأن لي في ذلك منفعة؟ ولكن ألا تعتقد أيضاً يا صديقي أنني استدعيتك من موسكو لأنني أجني من ذلك فائدة ما؟ ألا ما أشد وسوستك! بالعكس: فعلت هذا كله لخيرك أنت. إنني أتمنى، حتى اليوم وقد تحسنت أحوالي المالية، أن تتيح لنا، أنا وأمك، أن نمد إليك يد المعونة...

- أنا لا أحبك يا فرسيلوف.

- وتناديني باسم «فرسيلوف» أيضاً. بالمناسبة: يؤسفني أشد الأسف أنني لم أستطع أن أترك لك هذا الاسم. وذلك هو كل ذنبي إجمالاً، إذا كان ثمة ذنب، أليس كذلك؟ ولكنني أكرر لك أنني لم يكن في وسعى

Twitter: @ketab_n

أن أتزوج امرأة متزوجة، فكر في الأمر بنفسك.

- لعلّه لهذا السبب أردت أن تتزوج امرأة لا زوج لها، هه؟

فطاف بوجهه تقبض خفيف قصير وقال:

- تقصد مدينة «إمس». اسمع يا آركادي ! لقد أبحت لنفسك هجمة من هذا النوع منذ ساعة مشيراً إليَّ بإصبعك أمام أمك. فاعلم أن هذا هو الأمر الذي تخطيء فيه أكبر الخطأ؛ إنك عن هذه الحكاية مع المرحومة ليديا آخماكوفا لا تعرف شيئاً البتة. لا ولا تعرف أن أمك قد ساهمت فيها مساهمة كبيرة، رغم أنها لم تكن معي هناك. إذا كنت قد رأيت في حياتي امرأة تتحلى بالفضيلة، فإنما وقع لي هذا في ذلك الوقت حين نظرت إلى وجه أمك. ولكن كفى. هذا كله لا يزال سراً، وأنت تتكلم عما تجهل، وتعتمد في كلامك على أقاويل.

- لقد قال الأمير، في هذا اليوم، إنك من عشاق الفتيات الصغار اللواتي لا خبرة لهن.

- الأمير قال هذا؟

- نعم. اسمع: هل تريد أن أقول لك، على وجه الدقة، السبب الذي حضك على المجيء إليَّ؟ لقد ظللت أتساءل طول الوقت عن سر هذه الزيارة، وهأنذا أكتشفه أخيراً.

كان فرسيلوف قد همّ أن ينصرف، ولكنه وقف فجأة والتفت إليَّ منتبهاً. قلت:

- لقد أفلت من لساني منذ ساعة أن الرسالة التي بعثها إلى تاتيانا بافلوفنا، والتي وقعت بين أوراق آندرونيكوف، صارت بعد موته إلى يدي ماريا إيفانوفنا بموسكو. وقد رأيت حين قلت هذا الكلام، رأيت في وجهك نوعاً من التقبض. فلما رأيت الآن ذلك التقبض نفسه يلم بوجهك مرة أخرى أدركت حقيقة الأمر: لقد راودتك هذه الفكرة حين

Twitter: @ketab_n

كنا تحت: إذا عثر عند ماريا إيفانوفنا على رسالة كانت بين أوراق آندرونيكوف، أفلا يمكن أن يعثر عندها على الرسالة الأخرى أيضاً؟ لا شك أن آندرونيكوف قد ترك رسائل تبلغ مبلغاً كبيراً من خطورة الشأن، أليس كذلك؟

- في رأيك إذاً أنني إنما جئتك لاستدراجك إلى الكلام؟

- أنت تعرف.

فاصفر وجهه اصفراراً شديداً.

- هذه الفكرة ليست من عندك. إنني أشتم رائحة المرأة وراء أقوالك الزاخرة بالكراهية وظنونك الفظة!

- المرأة؟ هذه المرأة قد رأيتها أنا في هذا اليوم نفسه! ولعلك من أجل أن تتجسس عليها إنما تريد أن تبقيني عند الأمير؟

- أرى أنك ستوغل في طريقك الجديد إيغالاً بعيداً جداً. أتكون هذه هي «فكرتك»؟ أكمل يا صديقي أكمل، إنك تملك من مواهب التجسس ما لا سبيل إلى جحوده! حين يؤتى المرء موهبة من المواهب فيجب عليه أن ينميها.

وتوقف عن الكلام ليسترد أنفاسه.

- حذار يا فرسيلوف! لا تجعلني عدوك!

- يا صديقي، لا أحد في مثل هذه الحالة يفصح عن كل أفكاره، وإنما هو يحتفظ بها لنفسه. والآن هات ضوءاً، أرجوك. مهما تكن عدوي، فما أظن أنك تتمنى لي أن يدق عنقي على سلَّمك.

ثم أضاف يقول وهو ينزل:

- Tiens, mon ami، ما رأيك يا صديقي في أنني، طوال هذا الشهر، كنت أحسبك فتى طيبا؟ إلا أنك تبلغ من شدة الرغبة في الحياة، والظمأ إلى الحياة أنك لو وهبت ثلاثة أعمار لما اكتفيت بها! هذا

Twitter: @ketab_n

مكتوب على وجهك. وأمثالك أكثرهم طيبون. كم أخطأ ظني فيك!

– 4 –

ليس في طاقتي أن أصف شدة انقباض صدري حين خلوت إلى نفسي: لكأنني قد قطعت قطعة من لحمي! أما لماذا ثارت ثائرتي فجأة، ولماذا أغلظت له الإهانة والإيذاء إلى هذا الحد عامداً، فذلك سؤال لا أعرف له الآن جواباً، ولا عرفت له جواباً في ذلك الحين أيضاً. ولشد ما اصفرّ وجهه! ألم يكن ذلك الاصفرار تعبيراً عن العاطفة أصفاها وأصدقها، وعن الحزن أعمقه وأقواه، لا تعبيراً عن الغضب والإساءة؟ لقد بدا لي دائماً أنه في بعض من اللحظات كان يحبني جداً، فلماذا، لماذا لا أصدّق اليوم هذا، لاسيما وأن أموراً كثيرة قد اتضحت بعد ذلك؟

ولكنني قد ثارت ثائرتي فجأة، فطردته، ربما لأنني افترضت ذلك الافتراض الذي ساورني بغتة وهو أنه جاء إليَّ آملاً أن يعرف إن كان لا يزال عند ماريا إيفانوفنا رسائل أخرى من رسائل آندرونيكوف؟ أما أنه كان مضطراً أن يبحث عن تلك الرسائل وأنه بحث عنها فعلاً، فذلك ما كنت أعرفه. ولكن لعلني في تلك الدقيقة بعينها قد أخطأت الظن كثيراً! ومن يدري؟ لعلني أنا الذي جعلته، بخطأ ظني، يفطن إلى ماريا إيفانوفنا بعد ذلك، وأوحيت إليه إنها قد يكون عندها رسائل!

وإليكم في النهاية هذا الشيء الغريب الآخر: مرة أخرى ردد ما يجول في خاطري كلمة كلمة (عن الأعمار الثلاثة)، وذلك ما كنت قد عبرت عنه لكرافت بهذه الألفاظ نفسها. صحيح أن توارد الألفاظ مصادفة. ولكن يا لها من معرفة جيدة بجوهر طبيعتي! يا لها من بصيرة نافذة ومن حدس صادق! ولكن إذا فهم شيئاً من الأشياء فهما يبلغ هذا

Twitter: @ketab_n

المبلغ من القوة، فلماذا لا يفهم الشيء الآخر؟ هل يستطيع المرء أن يصدّق أنه كان لا يتظاهر تظاهراً، بل كان عاجزاً بالفعل عن أن يدرك أن ما كنت في حاجة إليه ليس هو نبالة محتد فرسيلوف، وأن ما كنت لا أستطيع أن أغفره له ليس هو مولدي من زنا، وأنني على مدى حياتي كلها إنما كنت في حاجة إلى فرسيلوف نفسه، فرسيلوف الإنسان، فرسيلوف الأب، وأن هذه الفكرة قد خالطت دمي؟ هل يمكن لرجل أوتي هذا الفكر المرهف أن يكون ضيق النظرة بليد الإحساس إلى هذا الحد؟ وإذا لم يكن كذلك، فعلام يغيظني، وعلام يتظاهر؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

– 1 –

حاولت في الصباح التالي أن أستيقظ في أبكر وقت ممكن. وكانت العادة في بيتنا أن ننهض في نحو الساعة الثامنة، أقصد أنا وأمي وأختي؛ أما فرسيلوف فقد كان نؤوم الضحى فلا ينهض إلا في التاسعة والنصف. وكانت أمي تأتيني بالقهوة في الثامنة والنصف تماماً. لكنني في هذه المرة لم أنتظر القهوة، واختفيت من البيت في الساعة الثامنة بالضبط. وكنت منذ العشية قد وضعت لنهاري خطة عمل عامة. ولكني رغم عزمي المشبوب على وضع هذه الخطة موضع التنفيذ فوراً، كنت أحس بالتردد وأن أهم نقاط هذه الخطة ينقصها الكثير من الثبات والوضوح لذلك قضيت الليل كله نصف نائم، حتى لأكاد أهذي، ووافتني أحلام كثيرة، فلا أستطيع أن أقول إني نمت حقاً. ومع ذلك نهضت منتعشاً مرتاحاً كما لم أكن منتعشاً ولا مرتاحاً في أي وقت مضى. وكانت أمي هي التي أحب أن أتحاشى لقاءها خاصة. إنني معها لا أستطيع أن أتكلم إلا في موضوع معين، فكنت أخشى أن أتحول عن أهدافي بانطباع جديد مفاجىء.

كان الصباح بارداً، وكان يتموج على الطبيعة كلها ضباب رطب أبيض. لا أدري لماذا تعجبني دائماً أصباح بطرسبرج التي تضج بالحركة

Twitter: @ketab_n

رغم مظهرها الدميم، ولماذا يفتنني كثيراً منظر هذه الجمهرة من الناس الأنانيين المهمومين المنصرفين إلى أعمالهم مسرعين في الساعة السابعة من البكور. وإني لأحب خاصة، وأنا على عجلة في الطريق، أن أتجه إلى أحد فأسأله عن شيء متعجلاً، أو أن يتجه إليّ أحد بسؤال: إن السؤال والجواب مقتضبان دائماً، واضحان، جليان، ينطق بهما السائل والمجيب دون أن يقفا، ويتبادلانهما بما يشبه الصداقة في جميع الأحيان. هذه لحظة من النهار يكون المرء فيها مستعداً للإجابة أحسن استعداد. إن ساكن بطرسبرج يكون في الظهر وفي المساء أقل استعداداً لتبادل الكلام. حتى أنه يكون متأهباً للتأنيب والتقريع، أو للسخرية والاستهزاء، لأيسر الأسباب. ولا كذلك في البكور قبل العمل، فهذا وقت الرصانة والجد. لاحظت ذلك.

اتجهت إلى بطرسبرجسكايا ستورونا من جديد. وإذ كان عليّ أن أعود حتماً إلى فونتانكا ظهراً للقاء فاسين في بيته (لأنه إنما يكون بالبيت ظهراً في أغلب الأحيان)، فقد حثثت الخطى دون أن أتوقف في أي مكان، رغم ما كنت أشعر به من رغبة قوية شديدة في ابتلاع فنجان من القهوة هنا أو هناك. ذلك أنني كان يجب عليّ أن ألحق إيفيم زفيريف في بيته قطعاً قبل أن يخرج؛ فاتجهت إليه، وكدت أن أصل بعد فوات الأوان، إذ كان قد فرغ من احتساء قهوته وتأهب للخروج.

- ما الذي يجيء بك إليّ كثيراً؟

بهذا استقبلني دون أن يتحرك من مكانه. قلت له:

- سأشرح لك حالاً.

إن الأصباح المبكرة، ومنها أصباح بطرسبرج، تُحْدِثُ في الطبيعة الإنسانية أثراً منبّهاً. هناك أحلام ملتهبة تراود المرء في الليل، حتى إذا طلع النور وهبّ البرد، تبخرت تبخراً كاملاً. وقد اتفق لي أن تذكرت

Twitter: @ketab_n

في الصباح بعض أحلام الليل التي لم أكد أفرغ منها أو حتى بعض أفعاله، فإذا أنا أنظر إليها نظرة فيها لوم واشمئزاز. ولكن يجب أن أذكر مع ذلك، عابراً، أن أصباح بطرسبرج، حتى أكثرها خلواً من الشعر، هي عندي بين أصباح سائر الكرة الأرضية، أروعها وأشدها إثارة للخيال. هذا رأيي أنا أو قل هو شعوري أنا، ولكنني أصر عليه. وفي نظري أن الحلم الفظيع الذي يراه هرمان في قصة «البنت البستونية» (وهو شخصية رائعة، غير عادية، تمثل نموذج الشخص البطرسبرجي[46]، نموذج العهد البطرسبرجي!) ينبغي له، في صباح من أصباح بطرسبرج هذه، المتعفنة الرطبة المضبّبة، أن يقوى مزيداً من القوة. مائة مرة تراءت لي من خلال الضباب هذه الرؤيا العجيبة، ولكن الثابتة: «حين سينقشع هذا الضباب ويرتفع، ألن يحمل معه كل هذه المدينة المتعفنة الدبقة؛ وهذه المدينة، ألن تصعد مع هذا الضباب وتزول كالدخان، ولا يبقى في مكانها إلا المستنقع الفنلندي القديم، ويبقى في وسط المستنقع - من أجل الجمال إن شئتم - هذا التمثال البرونزي، تمثال الفارس الممتطي صهوة حصانه اللاهث المنهوك؟»[47] لست أستطيع على كل حال أن أعبّر عن جميع مشاعري، ما دام هذا كله خيالاً، وما دام كله شعراً في آخر الأمر، أي سخافات! ومع ذلك فإنني كثيراً ما ألقيت على نفسي ولا أزال ألقي على نفسي سؤالاً هو في هذه المرة سؤال جنون مطبق: «ها هم أولاء جميعاً يسرعون. فمن يدري؟ إلا يمكن أن لا يكون هذا كله إلا حلماً. ألا يمكن أن لا يكون ههنا إنسان واحد حقيقي، وفعل واحد واقعي، فيكفي أن يستيقظ شخص فجأة، أعني الشخص الذي يرى هذا الحلم، حتى يتبدد كل شيء؟» ولكن هاأناذا نأيت عن موضوعي.

أقولها سلفاً: إن في حياة كل إنسان مشاريع وأحلام تبلغ من الشذوذ والغرابة، فيما يبدو، حدّ أن المرء يستطيع من أول نظرة ودون تعرض

Twitter: @ketab_n

للخطأ أن يعدها جنوناً. وإن خيالاً من هذا النوع هو ما كنت أحمله في ذلك الصباح إلى زفيريف، إلى زفيريف لأنني ليس لي أحد غيره ببطرسبرج يمكن أن أتجه إليه في هذه المرة. والحق أنني لو كنت أملك حرية الاختيار لكان إيفيم آخر من أستطيع أن أعرض له اقتراحي. وحين جلست أمامه أحسست أن الهذيان والحمى مجسدين قد جلسا أمام الاعتدال والعادية مشخّصين. ولكن بينما كنت أنا مؤيداً بالفكرة والعاطفة الصحيحة، كان هو لا يؤيده شيء إلا هذه النتيجة العملية: ذلك لا يعمل أبدا! الخلاصة: أوضحت له أنني ليس لي ببطرسبرج أحد أستطيع أن أتخذه شاهداً غيره، في قضية شرف تبلغ مبلغاً كبيراً من الخطورة، وأنه رفيق قديم وأنه لا يحق له أن يرفض، وأنني أريد أن أدعو إلى المبارزة ضابطاً من الحرس برتبة ملازم هو الأمير سوكولسكي، لأنه منذ أكثر من سنة قد صفع أبي فرسيلوف بمدينة «إمس». يجب أن أذكر أن إيفيم كان على علم بجميع تفاصيل حياتي العائلية، وموقفي من فرسيلوف، وكان يعرف تقريباً كل ما أعرفه أنا نفسي عن حياة فرسيلوف. كنت قد أفضيت إليه بهذا كله مراراً، باستثناء بعض الأسرار طبعا. وقد أصغى إلى كلامي جالساً على عادته، مشعثاً كعصفور في قفص، صامتاً رصيناً منتفخاً مع شعره الأشقر المنفوش. وكانت ابتسامة جامدة ساخرة قد ارتسمت على شفتيه لا تبارحهما. ومما زاد هذه الابتسامة خبثاً أنها لم تكن مقصودة قط، وإنما هي مرتسمة على شفتيه بغير إرادة منه. كان واضحاً أنه في تلك اللحظة كان يحس إحساساً حقيقياً واقعياً بأنه يتفوق عليّ تفوقاً كبيراً في الذكاء والإرادة على السواء. حتى لقد تراءى لي أنه يحتقرني بسبب ما حدث أمس عند درجاتشيف. فلا بد أن يكون الأمر كذلك: إن إيفيم هو الجمهور، إن إيفيم هو الشارع، والشارع لا يعبد إلا النجاح دائماً.

Twitter: @ketab_n

قال يسألني:

- وفرسيلوف، ألا يعرف عن الأمر شيئاً؟

- طبعا لا يعرف.

- فبأي حق تتدخل في شؤونه؟ ثم... ما الذي تريد أن تبرهن عليه بهذا العمل؟

كنت أعرف هذه الاعتراضات، فأوضحت له فوراً أن الأمر ليس سخيفاً إلى الحد الذي يتصوره. فأولا: سأبرهن لذلك الوقح الذي هو أمير أنه لا يزال يوجد رجال يفهمون الشرف حتى بين أبناء طبقتنا. وثانيا: سأخزي فرسيلوف وألقنه درساً. وثالثاً - وذلك هو الشيء الأساسي: سوف يرى فرسيلوف، ولو كان على حق في أنه - لاقتناعات قائمة في نفسه - لم يدع الأمير إلى المبارزة بل تحمل الصفعة، سوف يرى على الأقل أن هناك مخلوقاً قادراً على أن يشعر بالإهانة التي ألحقت بفرسيلوف كشعوره بإهانة ألحقت به هو، ومستعداً لأن يضحي بحياته في سبيله... مع أنه ينفصل عنه إلى الأبد...

- على مهلك.. لا تصرخ.. إن عمتي لا تحب هذا. قل لي من فضلك: أليس بين فرسيلوف وبين هذا الأمير سوكولسكي نفسه دعوى ينظر فيها القضاء بشأن ميراث؟ إنها إذن لوسيلة طريفة جديدة من أجل كسب الدعوى بقتل الخصم في مبارزة.

فأوضحت له أنه ليس إلا غبياً ووقحاً وأنه إذا كانت ابتسامته الساخرة تتسع لحظة بعد لحظة، فما هذا إلا دليل على صلف نفسه وتفاهته، وأنه لا يستطيع أن يفترض أن هذه الاعتبارات الخاصة بالدعوى التي ينظر فيها القضاء لم تخطر ببالي أيضاً ومنذ البداية بالذات، وأن هذه الاعتبارات لا يمكن أن تشرف بوجودها إلا رأسه الخاوي. ثم عرضت له أن القضاء قد فصل في الدعوى، وأن فرسيلوف قد كسبها، وأن

Twitter: @ketab_n

الدعوى لا تستهدف الأمير سوكولسكي، فإذا مات منهم واحد بقي الآخرون، ولكن يحسن طبعاً تأجيل التحدي إلى ما بعد انقضاء المهلة القانونية لرفع الدعوى إلى محكمة النقض (رغم أن الأمراء سوكولسكي لا ينتوون رفعها إلى محكمة النقض)، وإنما يحسن ذلك من باب التقيد بالمواضعات المألوفة، حتى إذا انقضت المهلة القانونية قامت المبارزة، ولقد جئت وأنا أعلم أن المبارزة لن تتم اليوم. ولكنني في حاجة إلى اتخاذ احتياطاتي، لأنني ليس لي أحد أتخذه شاهداً لي ولا أعرف أحداً، فإذا رفض إيفيم أن يكون ذلك الشاهد، كان لي من الوقت ما يتسع للبحث عن شخص غيره على الأقل. فلهذا السبب إنما جئت.

- ما كان عليك إلا أن تجيء بعد انقضاء المهلة القانونية، بدلاً من أن تقطع عشرة فراسخ بدون طائل.

قال ذلك ونهض وتناول كسكيته. فسألته:

- أتكون شاهدي عندئذ؟

- طبعا لا.

- لماذا؟

- أولاً لأنني إذا وافقت الآن على أن أكون شاهداً لك، فسوف تجيء إلى هنا كل يوم طوال مدة المهلة القضائية. وثانياً لأن هذا كله سخافات لا أكثر. أتظن أنني أرضى أن أدمر مستقبلي من أجلك؟ وماذا لو سألني الأمير: «من أرسلك؟» فقلت له: - «دولجوروكي»، فقال لي: «وما شأن دولجوروكي بفرسيلوف؟» قد يكون عليّ عندئذ أن أشرح له أصلك، أليس كذلك؟ لسوف يفطس إذن من فرط الضحك!

- فما عليك عندئذ إلا أن تلطمه على خطمه!

- سخف!

- أتخاف بقامتك الطويلة هذه؟ لقد كنت أقوانا جميعاً في المدرسة.

Twitter: @ketab_n

- أخاف. طبعاً أخاف. ثم إن الأمير سيرفض أن يبارزك. إن المرء يبارز نداً له.

- أنا أيضاً بثقافتي سيد. إن لي امتيازات. إنني ند له... وإذا كان أحدنا لا يرقى إلى مستوى الآخر فهو الذي لا يرقى إلى مستواي.

- لا، لا، أنت صغير جداً.

- صغير؟ كيف؟

- هكذا! نحن كلانا صغير، وهو كبير.

- غبي! إنني بحكم القانون أستطيع أن أتزوج منذ سنة.

- تزوج ما شئت أن تتزوج. ولكنك غُرٌّ لم يشبّ عن الطوق بعد.

أدركت طبعا أنه يريد أن يسخر مني. ولقد كان في وسعي طبعاً أن أستغني عن رواية هذا الجزء الغبي من قصتي، بل لعله كان يستحسن أن يغيب هذا الجزء في المجهول. أضف إلى ذلك أنه منفر بما يتصف به من تفاهة وقلة فائدة، رغم أنه كانت له نتائج خطيرة.

ولكن من أجل أن أعاقب نفسي مزيداً من العقاب، سأروي الخاتمة. فبعد أن أدركت أن إيفيم يسخر مني، أبحت لنفسي أن ألكزه في كتفه بيدي اليمنى، أو على الأصح، بقبضة يدي اليمنى. فأمسكني عندئذ من المنكبين، وأدارني إلى جهة الشارع، وبرهن لي فعلاً على أنه كان أقوانا جميعاً في المدرسة.

— 2 —

لا شك أن القارىء سيتخيل أنني حين تركت إيفيم كنت معتكر المزاج غاضباً، ولكن القارىء سيخطىء إذا هو تخيل ذلك. فلقد كنت أدرك أن الحادث هو مما يقع بين تلاميذ مدرسة، وأنه لا يمسّ جوهر القضية. وقد شربت قهوة في جزيرة فاسيليفسكي متعمداً أن أتجنب

Twitter: @ketab_n

مطعم الأمس في بطرسبرجسكايا ستورونا: فإن هذا المطعم وهزاره يثيران الآن في نفسي كرهاً مضاعفاً. إن بي صفة غريبة: هي أنني يمكن أن أكره الأماكن والأشياء ككرهي للأشخاص تماماً. ومع ذلك أحب في بطرسبرج أماكن معينة سعيدة، أعني أماكن سعدت فيها يوماً. ومن أعجب الأمور أنني أدخر تلك الأماكن السعيدة، أي أتعمد أن أغيب عنها زمناً طويلاً، لأذهب إليها فيما بعد، حين أكون وحيداً وحدة تامة، وحين أكون شقياً شقاء شديداً، فأمضي إلى هناك نشداناً للعزاء وإحياء للذكرى. وفيما كنت أشرب القهوة، أثنيت بيني وبين نفسي على إيفيم وقدرت فيه ما يتصف به من رصانة. نعم، إنه يملك من الحسّ العملي أكثر مما أملك، ولكن هل هو في قلب الواقع أكثر مني؟ أن الواقعية التي لا ترى ما هو أبعد من الأنف أشد خطراً من الخيال الجامح المجنون، لأنها عمياء. ولكني مع ثنائي على إيفيم (الذي لا شك أنه كان في تلك اللحظة مقتنعاً بأنني أغمره بالشتائم مطوفاً في الشوارع)، لم أتخل عن شيء من اقتناعاتي كما لم أتخل عن شيء منها إلى هذا اليوم. لقد رأيت أناساً ما أن ينصب عليهم سطل من ماء بارد حتى يجحدوا لا أعمالهم فحسب، بل أفكارهم أيضاً، وحتى يضحكوا أنفسهم مما كانوا منذ ساعة واحدة يعدونه مقدساً. ما أسهل ذلك عليهم! لعل إيفيم كان على حق أكثر مني حتى في جوهر الأمر، ولعلني أشد الأغبياء غباء وكنت أتصنع فقط، ولكن هذا لا ينفي أن في قرارة المسألة نقطة كنت فيها أنا أيضاً على حق، وأن عندي أنا أيضاً شيئاً صحيحاً عجز الناس عن فهمه على الدوام.

وصلت إلى بيت فاسين في الزاوية التي يلتقي فيها فونتانكا وجسر سميونوفسكي عند تمام الظهر تقريباً، ولكنه لم يكن في البيت. إنه يعمل في جزيرة فاسيليفسكي، ولا يعود إلا في مواقيت معينة، ومن هذه

Twitter: @ketab_n

المواقيت ساعة الظهر في جميع الأيام تقريباً. وإذ كان ذلك اليوم عيداً نسيت الآن ما هو، فقد كنت أقدر أن أجده حتماً. فلما لم أجده وطنت نفسي على انتظاره رغم أنني أجيئه أول مرة.

إليكم كيف فكرت في الأمر: إن مسألة الرسالة التي تتعلق بالميراث هي مسألة ضمير. فإذا احتكمت إلى فاسين كنت أعلن له بذلك أنني أحترمه احتراماً عميقاً فلا بد أن يرضيه هذا إرضاء كبيراً. صحيح أن أمر هذه الرسالة كان يشغل بالي حقا وأنني كنت مقتنعاً اقتناعاً شديداً بضرورة الاحتكام إلى أحد. ولكن أظن أنني كنت أستطيع، حتى في تلك اللحظة، أن أخرج من هذه الصعوبة دون الاستعانة بشخص غريب. والمهم، كنت أعرف أنا نفسي ذلك، أنه يكفي أن أسلم الرسالة إلى فرسيلوف، يداً بيد، ثم فليفعل بها ما يشاء. ذلك كان الحل. أما أن أنصب نفسي قاضياً أعلى في قضية من هذا النوع فذلك أمر غير لائق البتة. وحين أسلم الرسالة، يداً بيد، وحتماً بدون أن أقول شيئاً، فأضع نفسي بذلك خارج القضية، أكون فوراً في حالة الكاسب لأنني إذ أفعل ذلك أعلو على فرسيلوف علواً واضحاً، لأن تنازلي وحده، من جهتي، عن منافع الميراث (لأن جزءاً من الميراث كان سيؤول إليّ، بصفتي ابن فرسيلوف، في الحال أو في المسقبل)، يهب لي حقاً معنوياً إلى أبد الأبدين في الحكم على سلوك فرسيلوف في المسقبل. وما من أحد كان يستطيع أن يأخذ عليّ بأنني دمرت الأمراء، لأن الوثيقة ليس لها قيمة قضائية حاسمة. هذا كله فكرت فيه وقلته لنفسي بوضوح في غرفة فاسين الخالية، حتى لقد خطر ببالي فجأة أنني إنما جئت إلى فاسين راغباً في أن أعرف منه السلوك الذي يجب عليّ أن أسلكه، لا لشيء إلا أن أبرهن له في هذه المناسبة على أنني أنبل الناس وأنزههم، فبذلك أنتقم لنفسي من مذلة الأمس.

Twitter: @ketab_n

وشعرت بكدر شديد بعد أن أدركت هذا كله. ولكنني لم أنصرف بل بقيت، رغم علمي بأن كدري سيزداد دقيقة بعد دقيقة.

يجب أن أذكر أولاً أنني بدأت أكره غرفة فاسين كرهاً شديداً. من حقهم أن يقولوا: «أرني غرفتك فأقول لك من أنت!» كان فاسين يستأجر غرفة مفروشة عند مستأجرين فقراء يتخذون من التأجير مهنة، وكان في البيت مستأجرون آخرون. إنني أعرفها. . . هذه الحجرات الضيقة التي لا تكاد تكون مفروشة، والتي تطمع مع ذلك في أن تبدو مريحة مترفة. إن فيها - بالضرورة - ديواناً رخواً مشترى من «سوق العتيق»، ديواناً يخشى المرء تحريكه، وحوضاً، وسريراً من حديد وراء حاجز. لا بد أن فاسين كان أحسن المستأجرين وأكثرهم ضمانة: إن لكل مؤجرة مستأجراً مفضلا تحمل له الامتنان والشكر حتما. فغرفته ترتب ترتيباً أفضل، وتكنس كنساً أحسن، وفوق ديوانه توضع صورة من الصور، وتحت طاولته تفرش سجادة نحيلة. والناس الذين يحبون هذا النوع من النظافة التي تفوح منها رائحة العفن ويحبون - خاصة - هذا النوع من العناية والاحترام من جانب المؤجرين، يكونون هم أنفسهم محل شبهة. ولقد كنت مقتنعاً بأن لقب «أحسن المستأجرين» كان يتملق فاسين. ولا أدري لماذا أخذ الحنق يجتاح نفسي شيئاً فشيئاً من رؤية هاتين الطاولتين المزدحمتين بالكتب. كانت الكتب والأوراق والمحبرة، كان ذلك كله مرتباً ترتيباً يبعث على أشد الاشمئزاز والنفور. إنه ذلك الترتيب الذي يوافق المثل الأعلى لفلسفة الجمال عند مؤجرة ألمانية وخادمتها. إن الكتب كثيرة. وهي كتب حقاً، لا جرائد ولا مجلات، ولا بد أنه كان يقرؤها. وأغلب الظن أنه حين يقرأ أو يكتب، يصطنع هيئة تعبِّر عن أشد الوقار والدقة. أما أنا فلا أدري لماذا أفضِّل أن تكون الكتب فوضى، فهذا على الأقل ينبئ بأن المرء يعمل بدون أن يجعل من ذلك طقساً.

Twitter: @ketab_n

صحيح أن فاسين هذا مهذب مع الزائرين إلى أقصى حد، ولكن كل حركة من حركاته كأنها تقول: «يسرني أن أقضي معك ساعة من الزمن، ولكنني، متى انصرفت أنت، سأنشغل بأمور ذات شأن». وربما يستطيع المرء أن يجري معه حديثاً شائقاً جداً، وأن يتعلم منه جديداً، ولكن كل إشارة من إشاراته تكاد تنطق عنه قائلة: «سنتحدث معاً، وسأشوقك كثيراً، حتى إذا انصرفت أنت عدت أنا إلى ما هو شائق حقاً»... ومع ذلك لم انصرف بل بقيت. وقد أصبحت الآن على يقين كامل من أنني لست في حاجة إلى نصائحه.

مكثت ساعة بل تزيد، جالساً أمام النافذة، على أحد الكرسيين المصنوعين من خيزران، اللذين كانا هناك. وكان مما يزيد حنقي أن الوقت يمضي، وأن عليّ أن أجد مسكناً قبل المساء. وتمنيت أن أتناول كتاباً عسى أن أبدد الضجر، ولكنني لم أفعل: فلقد كانت فكرة التسلي وحدها تضاعف اشمئزازي. إن صمتاً مطبقاً يخيم منذ أكثر من ساعة. ولكن هاأناذا أميز فجأة، على مقربة مني، وراء الباب الذي يسده ديوان، بدون أن أريد ذلك، وعلى نحو تدريجي، همساً ما ينفك يقوى شيئاً بعد شيء. هما صوتا امرأتين، يسمعهما المرء واضحين، ولكن يستحيل عليه أن يميز الكلام. ولكنني من فرط ضجري حاولت أن أميز ما تقوله المرأتان. كان واضحاً أنهما تتكلمان بحرارة، واندفاع، وأن حديثهما لا يدور على ترهات بل تحاولان الاتفاق وتتجادلان. إن أحد الصوتين يتضرع ويتوسل، وإن الصوت الثاني يجيب رفضاً معارضاً. لا شك أن المرأتين مستأجرتان أخريان. وسرعان ما تسرب إليَّ الملل، وأَلِفت أذناي هذه الأصوات، فكنت أصغي، ولكنني أصغي كالآلة، حتى لقد كنت في بعض الأحيان أنسى نسياناً تاماً أنني أصغي، ثم إذا بحادث خارق يقع على حين بغتة: لكأن أحداً قد نط من على كرسيه بكلتا

Twitter: @ketab_n

ساقيه، أو اندفع فجأة وأخذ يقرع الأرض بقدميه. ثم سُمع أنين، ثم سمعت صرخة، بل قل سمع زئير كزئير وحش غاضب لا يهمه أن يسمعه غرباء أو لا يسمعوه. فوثبت إلى الباب ففتحته، وفتح في الوقت نفسه باب آخر في نهاية الممر (وقد علمت فيما بعد أنه باب المؤجرة)، وخرج من الباب رأسان غريبان مستطلعان. فانقطع الصراخ في الحال، ولكن الباب الذي يجاور بابي فتح فجأة، وخرجت منه امرأة شابة - فيما بدا لي - ولّت هاربة ونزلت السلم مسرعة. وقد أرادت امرأة أخرى مسنة أن تصدها عن الهرب ولكنها لم تفلح في ذلك، فلم تزد على أن أخذت تناديها في أنين وشكاة:

- أوليا! أوليا! إلى أين تركضين؟ آه!...

ولكنها وقد أبصرت بابينا المفتوحين أسرعت ترد بابها دون أن تغلقه، وإنما تركته مشقوقاً لتسمع ما يحدث على السلم، إلى أن غاب وقع خطى أوليا الهاربة غياباً تاماً. رجعت إلى نافذتي. وعاد الهدوء يخيم. حادث لا قيمة له، بل لعله سخيف، وكففت عن التفكير فيه.

بعد ذلك بربع ساعة دوى في الدهليز، أمام باب فاسين، صوت رنان طلق هو صوت رجل. أمسكت يد بقبضة الباب وشقته، فاستطعت أن أبصر في الدهليز رجلاً طويل القامة لا بد أنه لمحني أيضاً، بل لا بد أنه كان يتفرس فيّ، ولكنه لم يدخل بعد، وظل يكلم المؤجرة من آخر الدهليز ويده على قبضة الباب. فكانت المؤجرة ترد عليه بصوت نحيل منغم جذل، وكان في وسع المرء أن يدرك من هذا الصوت وحده أن المرأة تعرف هذا الزائر معرفة قديمة وأنها تحترمه وتقدره قدراً كبيراً، سواء من حيث هو زائر يحظى بثقتها، أو من حيث هو سيد مرح لطيف. وكان الرجل المرح يصيح ويمزح، ولكن الكلام كله يدور على أن فاسين ليس في غرفته، وأنه لن يعثر عليه أبداً، وأن هذا هو حظه، وأنه

Twitter: @ketab_n

سينتظر كما انتظر في المرة السابقة، وكان هذا كله يبدو للمؤجرة أمراً يبلغ غاية الفكاهة. وأخيراً دخل الزائر فاتحاً الباب على سعته كلها.

إنه رجل حسن الهندام، يرتدي ثياب «سيد» كما يقال، ولكن ليس في هيئته ما ينم عن أنه سيد، رغم رغبته الواضحة في الظهور بهذا المظهر. وكان طلقاً غير متحرج، بل قل كان وقحاً على السجية، وهذا أقل كراهية إلى النفس من رجل وقح درس نفسه مدة طويلة أمام مرآة. وكان شعره الكستنائي الذي خطه الشيب قليلاً، وحاجباه الأسودان، ولحيته الكبيرة، وعيناه الواسعتان، كان ذلك كله لا يهب له طابعاً خاصاً، بل يسبغ عليه لا أدري أي نوع من الشبه بجميع الناس. إن رجلاً مثله يضحك، ويهم أن يضحك، ولكنك لا تشعر في صحبته بشيء من المرح أبداً. ومن الهزل ينتقل بسرعة إلى الوقار، ومن الوقار إلى المرح، أو إلى غمزات بالأعين، ولكن هذا كله يتعاقب فوضى وبغير علة ظاهرة. . . على كل حال، لا داعي إلى وصفه سلفاً. لقد عرفت هذا السيد مزيداً من المعرفة فيما بعد، لذلك رسمت له لا إرادياً هنا ملامح أدق كثيراً من الملامح التي كان يمكنني أن أرسمها له لحظة فتح الباب ودخل الغرفة. ومع هذا يصعب عليّ حتى هذا اليوم أن أقول عنه أي شيء محدد دقيق، لأن الطابع الرئيسي الذي يطبع أمثاله هو أنهم أناس غير مكتملين، أناس مبعثرون، أناس غير محددين.

ما أن جلس حتى خطر ببالي فجأة أنه لا بد أن يكون زوج أم فاسين، وهو رجل يقال له السيد ستيبلكوف، سبق أن سمعت عنه شيئاً، ولكنني سمعت ما سمعته عرضاً فيستحيل عليّ أن أتذكر ما هو: كل ما أتذكره هو أن ما سمعته لم يكن خيراً. كنت أعلم أن فاسين اليتيم قد لبث مدة طويلة في كنفه، ولكنه تحرر من سلطانه منذ سنين كثيرة، وأن أهدافهما ومصالحهما متعارضة، وأنهما يعيشان الآن منفصلين في كل أمر من

Twitter: @ketab_n

الأمور. وقد تذكرت أيضاً أن ستيبلكوف هذا يملك بعض الثراء، بل حتى إنه رجل نصاب يمارس المضاربة، أي لعلني كنت قد عرفت عنه أشياء فيها مزيد من التفاصيل، لكنني نسيتها. شملني بنظره دون أن يحييني. ووضع قبعته العالية على الطاولة أمام الديوان، وأبعد الطاولة بقدمه بدفعة قوية متسلطة، وجلس على الديوان الذي لم أجرؤ أنا أن أجلس عليه، بل تهاوى عليه تهاوياً بلغ من الثقل أنني سمعت الديوان يقرقع تحته، وترك ساقيه تتدليان، ثم رفع طرف قدمه اليمنى التي تنتعل حذاء لماعاً وأخذ يتأمل الحذاء. ولكنه لم يلبث أن التفت إليّ وقاسني بعينيه الواسعتين الجامدتين قليلاً. وقال وهو يهز لي رأسه هزاً خفيفاً:

- لا أستطيع أن أجده!

فلم أجب بكلمة.

- ليس سليماً. له آراء في كل أمر. قادم من بطرسبرجسكايا ستورونا؟

سألته:

- هل تقصد أنك قادم من بطرسبرجسكايا ستورونا؟

- بل أنا الذي أسألك هذا السؤال.

- أنا. . . أنا قادم من هناك فعلاً، ولكن كيف عرفت ذلك؟

- كيف؟ هم. . .

وغمز بعينه. ولكنه لم يتنازل فيتفضّل بالشرح.

قلت:

- أنا لا أقيم في بطرسبرجسكايا ستورونا، ولكنني كنت هناك، فمنها إنما جئت إلى هنا.

وظل يبتسم صامتاً، وكانت ابتسامته تصطنع طابع الخطورة، فكرهتها كرهاً شديداً. كان في غمزته هذه شيء أبله.

Twitter: @ketab_n

وقال أخيراً:

- عند السيد درجاتشيف؟

- ماذا عند السيد درجاتشيف؟

وحملقت.

فنظر إليّ وقد لاح في هيئته معنى الانتصار. قلت:

- أنا لا أعرف درجاتشيف.

- هم...

قلت:

- كما تشاء.

وأصبحت لا أطيقه.

- هم.. نعم.. لا!.. اسمح لي. هب أنك تشتري شيئاً من دكان وأن مشترياً ثانياً يشتري شيئاً آخر من دكان آخر مجاور، فما هو هذا الشيء الآخر في رأيك؟ هو مال عند بائع يسمونه مرابياً.. ذلك أن المال هو أيضاً شيء، وأن المرابي هو أيضاً تاجر.. هل تتابع كلامي؟

- أظن.

- ويمر مشتر ثالث فيقول مشيراً إلى أحد الدكانين «هذا حسن» ويقول مشيراً إلى الدكان الآخر «هذا غير حسن»، فما عسى يكون رأيي في هذا المشتري؟

- ما يدريني أنا!

- لا، اسمح لي. أريد أن أضرب مثلاً. لا بد للإنسان من أن يسترشد بأمثلة طيبة. هب أنني أتجول في شارع نفسكي، فلاحظت على الرصيف المقابل في الجهة الأخرى من الشارع رجلاً آخر أحب أن أعرف طبعه. ثم وصلنا كلانا إلى شارع مورسكايا حيث «المخزن الإنجليزي»، فلاحظنا هناك بالضبط متجولاً ثالثاً داسته عربة لتوه. انتبه

Twitter: @ketab_n

الآن انتباهاً قوياً: إن شخصاً رابعاً يمر فيريد أن يعرف طباعنا نحن الثلاثة جميعاً ومنا الرجل الذي داسته العربة، أقصد يريد أن يعرف طباعنا من حيث الروح العملية والميل إلى الأمور الجدّية... هل تتابع كلامي؟

– معذرة، بصعوبة شديدة.

– نعم، هذا ما قدرته. فسأغير الموضوع. هب أنني في مدينة من مدن المياه المعدنية بألمانيا، كما سبق أن ذهبت إلى هناك مراراً كثيرة. ليس مهماً أن أعين اسم المدينة. وأتجول فأرى إنجليزاً. إنك تعلم أنه من الصعب على المرء أن يتعارف مع إنجليزي. ولكن ها نحن أولاء جميعاً، بعد شهرين، وقد انتهى العلاج، نلتقي في الجبال، ونمضي نتسلق معاً، متوكئين على عصى مدببة الأطراف، فنصعد في هذا الجبل أو ذاك. فليس مهماً هذا. ولكن هب أنني عند المنعطف، أي في خاتمة الشوط، هناك حيث يُقطر الرهبان خمرتهم، التقيت بواحد من سكان الجبل وقف جامداً معتزلاً ينظر في صمت، فأردت أن أعرف مدى ما يتصف به من روح الجدّ: فما رأيك؟ هل أستطيع أن أتجه بالاستيضاح إلى الإنجليز الذين أسير معهم بعد أن لم أستطع تبادل الحديث معهم في مدينة المياه؟

– ما يدريني. معذرة. إنني أجد في متابعة كلامك عناء كبيراً.

– كبيراً؟

– نعم، إنك تتعبني.

– هم..

وطرف بعينه وحرك يده بإشارة لا شك إنها كانت تعبر عن معنى الانتصار والظفر. ثم استل من جيبه بوقار كبير وهدوء شديد، جريدة لا بد أنه اشتراها منذ برهة قصيرة، ففضها وأخذ يقرأ في الصفحة الأخيرة منها، كأنه يريد أن يدعني في راحة تامة. ولبث خمس دقائق لا يرفع إليّ بصره.

Twitter: @ketab_n

- لم تنزل أسعار أسهم سكة حديد «بريست جرايفو»، هه؟ إنها لا تزال في ارتفاع! ما أكثر الأسهم التي تدهورت أسعارها.

قال ذلك وهو ينظر إليَّ مهتماً أبلغ الاهتمام. قلت:

- ما زلت لا أعرف عن شؤون البورصة كثيراً.

- أأنت تستنكر؟

- أستنكر ماذا؟

- المال.

- لا أستنكر المال.. ولكنني أرى أن منزلة الفكرة قبل منزلة المال.

- أي.. معذرة.. هب أن رجلاً هو رأسمالي كما يقال..

- الفكرة أولاً، والمال بعد ذلك. فبدون فكرة عليا ينهار المجتمع رغم كل ما يملكه من مال.

لا أدري حقاً لماذا تحمست. ونظر إليّ بشيء من البلادة، كرجل أصبح لا يعرف كيف يخرج من المأزق، ثم تهللت أساريره فجأة، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة ماكرة وقال:

- وفرسيلوف، هه؟ حظي بالغنيمة، هه؟ حكموا له أمس، هه؟

فرأيت فجأة، وعلى دهشة كبيرة مني، أنه يعرف من أنا منذ مدة طويلة، وأنه ربما كان يعرف أشياء كثيرة أيضاً. ولكنني لا أفهم لماذا احمر وجهي فوراً، وشخصت ببصري إليه شخوصاً غبياً أبله فلا أشيح عنه لحظة. فكان واضحاً أنه يشهر انتصاره، وكان ينظر إليّ فرحاً كأنه قبض عليّ بحيلة ماكرة، وأمسكني متلبساً بالجرم. ثم رفع حاجبيه وقال:

- لا! اسألني أنا عن السيد فرسيلوف! ماذا قلت لك منذ هنيهة عن الجدّ في الأمور؟ منذ سنة ونصف كان في وسعه أن يتم صفقة كبيرة بواسطة ذلك الطفل، ولكن ضربته لم تصب هدفها، ودق عنه.

Twitter: @ketab_n

- بواسطة أي طفل؟

- بواسطة طفل لا يزال رضيعاً، وهو ينفق على حضانته سراً. ولكنه لن يجني من ذلك شيئاً، لأن. .

- أي طفل رضيع؟ ما هذا؟

- هو ولده طبعاً، هو ولد له من mademoiselle «الآنسة» ليديا آخماكوفا. «**فتاة فتانة كانت تلاطفني...**»،[48] هه؟ أعواد ثقاب فوسفورية، هه؟

- ما هذه السخافات؟ إنه لم يولد له ولد من آخماكوفا أبداً!

- غريب أمرك! أين كنت أنا إذاً؟ إنني مع ذلك طبيب ومولّد. أن اسمي ستيبلكوف. ألا تعرفني؟ صحيح أنني في ذلك الحين كنت قد انقطعت عن ممارسة مهنة التوليد منذ مدة طويلة. ولكنني كنت أستطيع أن أسدي بنصيحة عملية في حالة عملية.

- أنت مولّد. . هل ولدت آخماكوفا؟

- لا، لم أولدها أبداً. وإنما كان هناك، في فورشتادت[49]، طبيب اسمه جرانتس، مثقل بأعباء أسرة، أُعطي نصف طالر[50]، وهو المبلغ الذي يدفع هناك للأطباء، ثم إنه عدا ذلك لم يكن أحد يعرفه. فقد ذهب وناب منابي. . . فأنا الذي أوصيت به لتزداد الظلمات كثافة. هل تتابع كلامي؟ أنا من جهتي لم أزد على أن أسديت بنصيحة جواباً عن سؤال من فرسيلوف، من أندريه بتروفتش، سؤال التمس فرسيلوف جوابه مني سراً، ولكن فرسيلوف فضّل أن يطارد أرنبين في آن واحد.

كنت أصغي إلى كلامه مندهشاً أعمق الاندهاش.

- والمثل يقول عندنا، بل عند الشعب: «من يطارد أرنبين لم يستطع أن يصطاد أياً منهما». وأنا أقول: إن الاستثناءات إذا تكررت أصبحت هي القاعدة العامة. لقد طارد أرنباً ثانياً، أو قل بالروسية الفصيحة طارد

Twitter: @ketab_n

سيدة ثانية، فلم يظفر بأية نتيجة! إذا أمسكت شيئاً فلتتشبث به، عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة. إنه يتردد حيث يجب الإسراع. فرسيلوف! ألا أنه «نبي للنساء»، كما وصفه أمامي الأمير الشاب سوكولسكي فأحسن الوصف أيما إحسان. لا، لا بد لك أن تأتي إليّ! إذا أردت أن تعرف أشياء كثيرة عن فرسيلوف، فتعال اسألني أنا!

كان واضحاً أنه معجب بفمي المفغور من فرط الدهشة. إنني لم أسمع شيئاً عن هذا الطفل الرضيع قبل ذلك أبداً. وفي تلك اللحظة قرقع باب غرفة الجارتين، ودخل على غرفتهما شخص مسرع.

- فرسيلوف يسكن في سيمينوفسكي بولك، شارع موجايسك، عمارة لتفينوفا، رقم 17؛ أنا قادمة من مكتب العناوين!

بذلك صاح صوت امرأة غاضبة. وكانت كل كلمة من كلماتها مسموعة. فقطب ستيبلكوف حاجبيه، ورفع أصبعه أعلى من رأسه وقال:

- نحن نتكلم عنه هنا، وها هو ذا يظهر هناك... تلك هي الاستثناءات التي تتكرر! صدق المثل: «اذكر الديب وحضّر القضيب» (بالفرنسية).

ونهض عن مكانه بوثبة فجلس على الديوان ووضع أذنه على الباب الذي كان يسده هذا الديوان.

دهشت أنا أيضاً دهشة شديدة. لقد أدركت أن تلك الصرخة لا بد أنها صادرة عن المرأة الشابة التي هربت منذ قليل مهتاجة اهتياجا كبيراً. ولكن ما شأن فرسيلوف هنا؟ وعاد الصراخ الذي سمعته منذ قليل يدوي مسعوراً. إنه صراخ إنسان قد جن غضباً لأنه يُمنع عنه شيء ما، أو يصد عن فعل شيء ما. وكان الفرق الوحيد هو أن الصرخات أو الإعوالات قد دامت الآن مدة أطول. كان ثمة صراع، وكلمات عجلى سريعة: «لا أريد، لا أريد، ردوه هذا، ردوه هذا، حالا»، أو شيئاً من هذا القبيل لا

Twitter: @ketab_n

أستطيع أن أتذكره تذكراً دقيقاً. وكما حدث من قبل، وثب أحد إلى الباب فجأة ففتحه، واندفعت المرأتان في الدهليز تحاول إحداهما أن تصد الأخرى عن الهروب، كما وقع منذ قليل. فإذا بستيبلكوف الذي كان قد نهض من الديوان وراح يصغي متلذذاً، إذا به يثب إلى الباب فوراً ويندفع علانية إلى الدهليز متجهاً إلى المرأتين. واقتربت أنا أيضاً راكضا من الباب بطبيعة الحال. ولكن ظهور ستيبلكوف في الدهليز كان له أثر كأثر سطل من ماء بارد: فما أن رأته الجارتان حتى أسرعتا تغيبان في غرفتهما، وتغلقان بابها بقرقعة. وقد همّ ستيبلكوف أن يركض وراءهما، لكنه توقف رافعاً إصبعه مبتسماً مفكراً. فرأيت في ابتسامته هذه المرة شيئاً فيه أقصى الخبث والشر واللؤم. حتى إذا أبصر المؤجرة واقفة أمام بابها من جديد، أسرع إليها سائراً على رؤوس الأصابع، ولبث يهامسها مدة دقيقتين، فكان واضحاً أنه حصل منها على بعض المعلومات، ثم قفل راجعاً إلى الغرفة بخطى فيها اختيال وثبات، وتناول من على الطاولة قبعته العالية ونظر عابراً إلى وجهه في المرآة، ورتب شعره، ومضى إلى باب الجارتين بوقار مغرور حتى دون أن ينظر إليّ، فظل يتنصت عليهما دقيقة، وقد ألصق بالباب إذنه وراح يرسل إلى المؤجرة عند الطرف الآخر من الدهليز غمزات تحمل معنى الانتصار، فكانت المؤجرة تهدده بإصبعها وتهز رأسها كأنها تقول: «آ. . يا للعفريت. . . يا للعفريت» ثم ها هو ذا ينقر على بابهما بيده وقد لاح في وجهه عزم يخالطه ترقق وتلطف. حتى كان يبدو أنه تحدب من شدة رقته. وها هو ذا صوت من الداخل يسأل:

- هل يؤذن لي بالدخول، لأمر بالغ الخطورة؟

كذلك أجاب ستيبلكوف بصوت عال فيه وقار ورصانة.

فلم يُفتح الباب بسرعة، ثمّ فُتح، فتح في أول الأمر قليلاً أو قل شق

Twitter: @ketab_n

شقاً، غير أن ستيبلكوف أمسك قبضته إمساكاً قوياً، فلا يستطيع أحد أن يعيد إغلاقه. وبدأت المحادثة، فكان ستيبلكوف يتكلم بصوت عال، وما ينفك يحاول أن يدخل الغرفة. لا أتذكر الكلمات التي قالها، ولكن حديثة كان يدور على فرسيلوف، وكان يذكر أنه يستطيع أن يجيء بأخبار، وأن يزوِّد بإيضاحات، وكان يردد: «لا، اسألاني أنا، تعالا إليّ» وهلم جرا. ولم يلبث أن أُدخل بسرعة. فرجعت إلى ديواني، وأخذت أنصت، لكنني لم أستطع أن أميز كل شيء، وإنما كنت أسمع اسم فرسيلوف يتردد كثيراً. وحزرت من نبرة الصوت أن ستيبلكوف قد سيطر على الحديث، فهو الآن لا يتكلم مخاتلاً بلف ودوران، بل يجري كلامه طلقا حاسم اللهجة، كحديثه معي منذ قليل، فتارة يسأل قائلاً: «هل تتابعان ما أقول؟»، وتارة يقول آمراً: «هلا تفضّلتما الآن بأن تدركا» وما إلى ذلك. ولكن لا بد أنه كان لطيفاً غاية اللطافة مع النساء. وقد جلجل ضحكه مرتين، وأغلب الظن أنه كان ضحكاً في غير محله، لأنني كنت أسمع، عدا صوته وأعلى من صوته أحياناً، صوتي المرأتين اللذين لا يعبران عن أي ابتهاج، ولا سيما صوت المرأة الشابة الذي أطلق الصرخات قبل ذلك. كانت تتكلم كثيراً، بلهجة عصبية، وسرعة ظاهرة، من أجل أن تتهم وتتشكى وتطالب بالعدل حتماً. ولكن ستيبلكوف لا يبقى هادئاً: فها هو ذا يرفع صوته أكثر فأكثر، ويزداد ضحكه لحظة بعد لحظة. إن أشخاصاً من نوعه لا يحسنون الإصغاء إلى الآخرين. ولم ألبث أن نزلت عن الديوان، إذ بدا لي أن من العيب أن أتنصت، ورجعت إلى مكاني السابق أمام النافذة على كرسي الخيزران. وكنت مقتنعاً بأن فاسين لا يضمر لهذا السيد أي اعتبار، ولكن لو أفصحت له عن رأيي، لهبّ يدافع عنه برصانة ووقار، ولأخذ يلقنني درساً فيقول: «هذا رجل عملي، إنه واحد من رجال الأعمال هؤلاء

Twitter: @ketab_n

المحدثين الذين يستحيل أن نحكم عليهم من وجهة نظرنا العامة المجردة». وإني لأتذكر من جهة أخرى أنني كنت في تلك اللحظة محطم النفس وكان قلبي يخفق خفقاناً قوياً ولا ريب في أنني كنت أنتظر أن يقع حادث ما. وانقضت حوالي عشر دقائق، فإذا أنا أسمع فجأة، في وسط ضحكة داوية، وثوب أحد عن كرسيه، كما حدث منذ برهة، وأسمع المرأتين تصرخان، وأسمع وثوب ستيبلكوف أيضاً، وألاحظ أنه أصبح يتكلم بلهجة أخرى، كأنه يحاول أن يبرر نفسه، كأنه يضرع إلى المرأتين أن تتكرما فتسمعا كلامه إلى نهايته... ولكنهما لم تصغيا إليه. ودوت صرخات: «اخرج من هنا! ما أنت إلا وغد! ما أنت إلا وقح!» كان واضحاً إذن أنه يُطرد. وقد فتحت الباب في اللحظة التي خرج فيها ستيبلكوف إلى الدهليز من عند الجارتين مدفوعا بأيديهما دفعا. فلما رآني صرخ مشيراً إليّ قائلاً لهما:

– هذا ابن فرسيلوف! إذا لم تريدا أن تصدقاني، فانظرا إذن! هذا هو ابنه بنفسه، هذا هو بعينه! – وقبض على يدي قبضاً قوياً، وهو يقتادني إلى المرأتين، دون أن يضيف إلى ما قاله شيئاً.

كانت المرأة الشابة في الدهليز. وكانت المرأة المسنة في شق الباب على مسافة خطوة منها. أتذكر أن الفتاة المسكينة كانت مليحة: إنها في نحو العشرين من العمر، ولكنها نحيلة هزيلة مريضة الهيئة، يضرب لونها إلى الحمرة، وتشبه أختي بعض الشبه وجها، وتلك سمة خطفت بصري، ونقشت في ذاكرتي. ولكن ليزا ما اجتاحتها في يوم من الأيام – ولا أمكن أن تجتاحها في يوم من الأيام – نوبة غضب شبيهة بنوبة الغضب التي تهز الإنسانة التي تقف أمامي الآن. كانت شفتاها بيضاوين، وكانت عيناها الشهباوان تقدحان شرراً، وكانت ترتعش من شدة الحنق من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. أذكر أيضاً أنني أنا نفسي

Twitter: @ketab_n

كنت في وضع يبلغ غاية الغباء والخزي، فلم أجد كلمة أقولها، بجريرة هذا الرجل الفظ الوقح.

- هبه ابنه! ما قيمة ذلك؟ وإذا كان في صحبتك فلا بد أن يكون وغداً حقيراً مثلك.

والتفتت إليّ فقالت لي:

- إذا كنت ابن فرسيلوف فأبلغ أباك عني أنه سافل، منحط، وأنني لست في حاجة إلى ماله... خذ.. خذ.. خذ.. ردّ إليه هذا المال فوراً!

واستلت من جيبها أوراقاً نقدية. ولكن المرأة المسنة (وهي أمها كما عرفت ذلك فيما بعد) أمسكت ذراعها وقالت لها:

- ولكن قد لا يكون كلامه صحيحاً يا أوليا! قد لا يكون هذا ابنه!

فألقت عليها أوليا نظرة سريعة، وفكرت، وتفرست فيّ باحتقار، وعادت تدخل غرفتها، ولكنها قبل أن تغلق الباب، وقفت على العتبة، وشملت ستيبلكون بنظرة، وأطلقت صرخة حانقة أخرى في وجهه:

- اخرج من هنا!

حتى لقد قرعت بقدمها الأرض. ثم خبطت الباب فأغلقته، وسمع صوت إقفاله من الداخل بالمفتاح. وكان ستيبلكوف ما يزال قابضاً على كتفي، فرفع إصبعه وقد تمدد فمه بابتسامة طويلة تنم عن تفكير، ثم حدق إليّ بنظرة مستفهمة، فجمجمت أقول له:

- أرى سلوكك معي سخيفاً ومعيباً.

ولكنه كان لا يصغي إلى كلامي، رغم أنه لم يحول بصره عني. وتمتم يقول حالم الهيئة:

- هذا ما ينبغي أن يُد.. ر.. س!

- ولكن كيف تجرأت أن تقحمني في هذه الأمور؟ من هذه

Twitter: @ketab_n

المرأة؟ لقد أمسكت كتفي وجررتني. ما هذا كله؟

- أوه! امرأة فقدت بكارتها. . . «الاستثناء الذي يتكرر كثيراً». هل تتابع كلامي؟

وحاول أن يغرز إصبعه في صدري. فقلت وأنا أدفع إصبعه:

- دعني! شيطان يأخذك!

ولكنه أخذ يضحك فجأة، أخذ يضحك ضحكا هادئا طويلاً جذلا. وأخيراً وضع قبعته على رأسه، ثم قال وقد تغيرت سحنته وأربد وجهه وتقطب حاجباه:

- يجب نصح المؤجرة. . . عليها أن تطردهما من الشقة بأقصى سرعة، وإلا. . . سوف ترى! احفظ ما أقوله لك، سوف ترى! وفجأة ظهر عليه الابتهاج، وقال يسألني:

- أتنتظر حتى يجيء جريشا؟

فأجبته بجزم:

- لا، لن أنتظره.

- طيب، سيان. . .

وبدون أن يضيف حرفاً واحداً، أدار ظهره وخرج، وأخذ يهبط السلم حتى دون أن يلقي نظرة على المؤجرة التي كان يبدو عليها أنها تنتظر منه إيضاحات وأنباء. وتناولت قبعتي أنا أيضاً، وأسرعت أنزل بعد أن رجوت المؤجرة أن تبلغ فاسين أنني، دولجوروكي، جئت إليه.

- 3 -

أضعت وقتي. فهاأنذا أبادر إلى البحث عن مسكن منذ خرجت. كنت ذاهلاً. وظللت أطوف في الشوارع عدة ساعات. ودخلت خمسة بيوت مفروشة أو ستة، لكنني واثق بأنني مررت بنحو عشرين بيتاً دون

Twitter: @ketab_n

أن ألاحظها. ما كنت لأتصور أن العثور على مسكن أمر يبلغ هذا المبلغ من الصعوبة. لذلك ضاق صدري ضيقاً شديداً. إن جميع الغرف التي رأيتها تشبه غرفة فاسين، بل هي أسوأ منها، وكراؤها مع ذلك باهظ جداً، أو هو فوق طاقتي المالية. ولم أكن في حاجة إلى أكثر من ركن اضطجع فيه. فكنت إذا أفصحت عن هذا أُجاب في احتقار بأن عليّ أن أتجه إلى أناس ممن «يؤجرون أركانا». زد على ذلك أن جميع البيوت التي رأيتها كانت تزدحم بمستأجرين شاذين يكفي أن أنظر إلى سحنتهم حتى أحس أنني لا أستطيع أن أساكنهم، بل إنني مستعد لأن أدفع مالاً من أجل إلا أعيش بجوارهم. ففي أحد البيوت مثلا رأيت أناساً بغير ردنجوت، يبلغ عددهم عشرة أشخاص، يرتدون صديرة، وقد تشعثت لحاهم، وظهر عليهم الفضول، وليس في سلوكهم أي تحرج، قد احتشدوا في غرفة ضيقة شديدة الضيق وراحوا يلعبون بالورق ويشربون البيرة. وقد عرضت عليّ في ذلك البيت غرفة إلى جانب تلك الغرفة. وفي بيوت أخرى انهمرت عليّ أسئلة المؤجرين فكنت أنا الذي أجيب عن الأسئلة، وبلغت إجاباتي من الغباء أنهم كانوا ينظرون إليّ دهشين. وفي إحدى الشقق وصل الأمر حتى إلى المشاجرة. ولا داعي إلى وصف هذه التفاصيل التافهة على كل حال. وإنما أريد أن أقول إنني قد تعبت تعباً شديداً، أصبت شيئاً من طعام في مطعم حقير حين هبط المساء وكاد الظلام أن يخيم. وانتهيت إلى اتخاذ قرار حاسم أن أذهب وحدي وبنفسي إلى فرسيلوف، فأسلمه الرسالة الخاصة بالميراث (دون أي شرح)، ثم أصعد إلى فوق فآخذ أمتعتي فأملأ بها حقيبتي وصرة، وأمضي ولو إلى فندق أبيت ليلتي فيه. كنت أعلم أن في آخر شارع أوبوخوف، بقرب «قوس النصر» عدة نُزُل يستطيع المرء أن يكتري فيها لنفسه غرفة مستقلة بثلاثين كوبيكاً. فقررت أن أبذل هذه التضحية في

Twitter: @ketab_n

تلك الليلة حتى لا أبقى عند فرسيلوف مدة أطول. ولكنني حين مررت أمام «معهد التكنولوجيا»، خطر ببالي فجأة أن أدخل على تاتيانا بافلوفنا التي تسكن في شقة أمام المعهد. وكانت حجتي التي عللت بها نفسي للدخول على تاتيانا بافلوفنا هي هذه الرسالة نفسها التي تتعلق بالميراث، ولكن رغبتي هذه التي لا تقاوم إنما كانت لها أسباب أخرى طبعاً، وهي أسباب أعجز اليوم أيضاً عن وصفها: كان قد حدث في فكري خلط عجيب بين «الطفل الرضيع» و«الاستثناءات التي تصبح قاعدة عامة»، وما إلى ذلك. ترى أكنت أريد أن أروي شيئاً، أم كنت أريد أن اصطنع أوضاعاً، أم كنت أريد أن أشاجر أحداً، أم حتى كنت أريد أن أبكي؟ لست أدري، ولكنني صعدت سلم تاتيانا بافلوفنا. لم أكن قد زرتها إلا مرة واحدة قبل اليوم، في بداية إقامتي بعد وصولي من موسكو، وذلك لأنقل إليها رسالة من أمي لا أذكر الآن ما هي، أذكر أنني دخلت على تاتيانا بافلوفنا ونقلت إليها الرسالة وانصرفت بعد دقيقة، فلا أنا جلست ولا هي طلبت مني أن أبقى.

قرعت الجرس. ففتحت لي الطباخة الباب فوراً، وأدخلتني صامتة لا تتكلم. إن هذه التفاصيل ضرورية جداً من أجل أن نفهم كيف أمكن وقوع ذلك الحادث الخارق الجنوني الذي كان له شأن خطير في كل ما تبعه من أحداث. ولأبدأ بالكلام على الطباخة. إنها فنلندية سيئة الطبع فطساء الأنف أظن إنها كانت تكره مولاتها تاتيانا بافلوفنا ولكن تاتيانا بافلوفنا كانت لا تستطيع أن تنفصل منها، وكانت تتعلق بها تعلقاً شديداً كتعلق العوانس بكلابها ذات الأنوف الرطبة، أو بقططها الغافية دائماً. كانت الفنلندية تتقلب بين حالتين: فهي إما متأففة متذمرة، وإما صامتة في إثر شجار تظل خرساء لا تنطق بحرف واحد خلال أسابيع بكاملها عقاباً لمولاتها. ولا شك أن مجيئي قد صادف يوماً من أيام الصمت

Twitter: @ketab_n

هذه، لأنها حين سألتها: «هل السيدة في البيت؟» وأتذكر جيداً أنني قد ألقيت عليها هذا السؤال بوضوح - لم تجبني بكلمة، ورجعت إلى مطبخها دون أن تفتح فمها. وإذ ظننت عندئذ طبعاً أن السيدة في البيت، دخلت غرفة الاستقبال، ولكنني لم أجد أحداً، فانتظرت، ظناً مني أن تاتيانا بافلوفنا لن تلبث أن تخرج من غرفتها، وإلا فهل كان للطباخة أن تدخلني؟ ولبثت واقفاً مدة دقيقتين أو ثلاث. وكان الظلام يخيم، وكانت شقة تاتيانا بافلوفنا المظلمة في ذاتها تبدو أكثر تجهماً من كثرة ما يتدلى فيها من قماش هنا وهناك. ولنقل الآن كلمتين عن هذه الشقة الكريهة من أجل أن يتصور القارئ هذا المكان الذي وقع فيه الحادث.

إن تاتيانا بافلوفنا، بسبب طبعها المستبد العنيد، وبسبب تعلقها بالعادات الاقطاعية القديمة، لم تستطع أن تكتفي بغرفة مفروشة، فاستأجرت هذا المسكن الذي يحاكي شقة، لا لشيء إلا أن تعيش فيه مستقلة وأن تكون سيدة بيتها. والحق أن الغرفتين اللتين تتألف منهما هذه الشقة أشبه بقفصين من أقفاص عصافير الكناري، قد التصق أحدهما بالآخر، وكان كل منهما أصغر من أخيه. وهما تقعان في الطابق الثاني، وتطلان على فناء العمارة. إنك حين تدخل هذه الشقة يطالعك في أول الأمر ممر صغير ممطوط، لا يزيد عرضه على متر، ثم ترى قفصي عصافير الكناري المذكورين على يسارك، فإذا نظرت إلى أمام، عند آخر الممر، أبصرت مدخل مطبخ صغير. إن المتر ونصف المتر المكعبة من الهواء، التي لا بد منها للإنسان حتى يعيش اثنتي عشرة ساعة، قد تكون متوفرة في هذا البيت، ولكن لا شك أنه لا يتوفر فيه من الهواء أكثر من ذلك.

الغرفتان واطئتان إلى حد مخيف، والأبشع من هذا أن النوافذ والأبواب والأثاث، إن كل ذلك، كان مكسواً أو مغطى بقماش قطني فرنسي جميل مشجّر، لذلك تبدو الغرفة أشد ظلمة من واقعها مرتين، حتى

Twitter: @ketab_n

لكأنها جوف عربة. ولقد كان المرء يستطيع في الغرفة التي كنت أنتظر فيها أن يتحرك ملتفتاً إذا أراد، رغم أن المكان مزدحم بالأثاث، ولم يكن الأثاث رديئاً: ففي الغرفة أنواع شتى من الطاولات الصغيرة المصنوعة من خشب مرصع مزدان بالبرونز، وفيها أنواع من العلب، ومنضدة لأدوات الزينة رائعة الجمال بل واسعة الثراء. أما الغرفة الصغيرة الأخرى التي كنت أتوقع أن تخرج منها تاتيانا بافلوفنا، وهي غرفة النوم التي تفصلها عن الأولى ستارة، فليس فيها إلا سرير كما عرفت ذلك من بعد. إن هذه التفاصيل كلها ضرورية لفهم الحماقة التي ارتكبتها.

انتظرت لا يساورني أي شك. وإني لكذلك إذا بالجرس يرن. وسمعت الطباخة تجتاز الممر بغير تعجل، وتُدخل عدداً من الزوار صامتة، كما فعلت معي منذ قليل. هما سيدتان تتكلمان كلتاهما بصوت عال. ولكن ما كان أشد دهشتي حين تعرفت صوت إحداهما فعرفت أنها تاتيانا بافلوفنا، وتعرفت صوت الثانية فعرفت إنها المرأة التي لم أكن متهيئاً لأن ألقاها الآن أبداً، ولا سيما في هذا المكان! لم يكن ثمة مجال للخطأ: إنه الصوت الرنان القوي، المعدني الذي سمعته أمس. صحيح أنني سمعته خلال ثلاث دقائق فقط ولكنه ظل يرن في قلبي. لا شك في أنها هي، «امرأة الأمس»! فما العمل؟ إنني لا ألقي هذا السؤال على القارئ. وإنما أنا أتخيل تلك الدقيقة لنفسي، وما زلت إلى اليوم عاجزاً عجزاً مطلقاً عن أن أفسر لنفسي كيف ارتميت فجأة وراء الستارة، فصرت في غرفة نوم تاتيانا بافلوفنا! المهم أنني اختبأت، وما كدت أثب تلك الوثبة التي أخفتني عن الأنظار حتى دخلت السيدتان. لماذا لم أهبّ إلى لقائهما بدلاً من أن أختبىء؟ لا أدري. لقد حدث هذا كله مصادفة، على غير وعي مني إطلاقاً.

Twitter: @ketab_n

واختبأت قرب السرير، فلم ألبث أن لاحظت أن للغرفة باباً يفضي إلى المطبخ، أي مخرجاً يمكن اللجوء إليه والهروب منه إذا وقع مكروه! ولكن يا للهول! لقد كان الباب مقفلاً بالمفتاح، ولم يكن المفتاح بالقفل. فتهالكت على السرير يائساً. ولقد كان واضحاً لي أنني سأستسمع الآن إلى حديثهما. وأدركت منذ الجمل الأولى، منذ الأصوات الأولى، أن حديث المرأتين سري جداً وحرج جداً. أوه! لا شك أن الرجل النبيل الشريف يجب عليه، حتى في مثل تلك اللحظة، أن يخرج ويقول بصوت عال: «أنا هنا، انتظرا!»، وأن يخرج مهما يكن وضعه عندئذ مضحكاً. ولكنني لم أنهض ولم أخرج. لم أجرؤ وخفت أحقر خوف.

قالت تاتيانا بافلوفنا متوسلة ضارعة:

- كاترين نيقولايفنا، عزيزتي، إنك تحزنينني كثيراً. فهدئي نفسك مرة وإلى الأبد، أرجوك، إن هذا الاضطراب ليس من طبعك. حيثما تكوني يكن الفرح، فما بالك فجأة. . . آمل أن تظلي واثقة بي، فأنت تعرفين مدى إخلاصي لك. وتعرفين أن هذا الإخلاص لك يساوي على الأقل إخلاصي لأندريه بتروفتش الذي لا أكتمه وفائي له إلى الأبد. . . صدقيني إذن! أحلف لك بشرفي أنه لا يملك هذه الوثيقة، وربما كان لا يملكها أحد على الإطلاق. ثم إنه لا يقدر على هذا النوع من المكائد، فليس حسناً منك أن تضعيه في موضع شبهة. أنتما كلاكما تخيلتما هذه العداوة. . .

- الوثيقة موجودة. وهو لا يتورع عن شيء. أمس دخلت، فكان أول شخص لقيته هو ذلك الجاسوس الصغير الذي فرضه على الأمير.

- دعكِ من هذا الكلام. أولا، ما هو ذلك الجاسوس الصغير espion. أنا التي ألححت على وضعه عند الأمير. ولولا ذلك لفقد عقله

Twitter: @ketab_n

في موسكو أو مات جوعاً. أو هذه هي على الأقل المعلومات التي تلقيناها من هناك. ثم إن هذا الصبي الفظ ليس أكثر من أبله. فكيف يمكن أن يُتخذ جاسوساً؟

- هو شبه أبله، نعم، ولكن ذلك لا يمنعه من أن يصبح وغداً. لقد كنت معتكرة المزاج بالأمس، ولولا ذلك لفطست من الضحك: اصفر وجهه، وتقدم مسرعاً، وراح يسلم متلطفاً، وأخذ يرطن بالفرنسية. ومع ذلك كانت ماريا إيفانوفنا تحدثني عنه في موسكو حديثها عن عبقري! إن تلك الرسالة المشؤومة لم تتلف، وهي بين أيد خطرة، استنتجت ذلك من هيئة ماريا إيفانوفنا.

- عزيزتي الجميلة! ألم تقولي أنت نفسك إن ماريا إيفانوفنا ليس عندها شيء؟

- هي تزعم ذلك. ولكنها تكذب بل هي حاذقة في الكذب! قبل رحلتي إلى موسكو كان لا يزال يساورني أمل في ألا تكون قد بقيت أي ورقة؛ أما هنا، هنا. . .

- ولكن يقال يا عزيزتي إنها إنسانة طيبة جداً عاقلة جداً، وأن المرحوم كان يقدرها أكثر من سائر بنات إخوته وأخواته. أنا لا أعرفها طبعاً، ولكن كان يجب عليك أن تلاطفيها قليلاً يا عزيزتي الجميلة! ليس صعباً عليك أن تفتنيها: إنني أنا العجوز مغرمة بك، حتى لأكاد أقبلك. . . فهل كان يعز عليك أن تغويها؟

- لاطفتها يا تاتيانا بافلوفنا. حاولت. حتى إنها سرت بذلك سروراً كبيراً. هي أيضاً ماكرة جداً. لا، لا. هذه شخصية ذات طباع أصيلة، خاصة، طباع موسكوفية. . . تصوري أنها نصحتني بأن التجىء إلى رجل اسمه كرافت، كان مساعد آندرونيكوف، فلعله يعرف شيئاً. وأنا أعرف من هو كرافت هذا، بل إنني أذكره قليلاً. ولكن ما إن كلمتني عن

Twitter: @ketab_n

كرافت حتى أيقنت فوراً أنها لا تجهل شيئاً، بل تعرف كل شيء، وإنما هي تكذب.

- ولكن لماذا تكذب؟ على كل حال، يمكن التماس معلومات من كرافت! إن هذا الألماني ليس بالرجل الثرثار، وهو شريف جداً فيما أذكر. صحيح، لا بد من سؤاله! ولكن أظن أنه ترك بطرسبرج...

- رجع أمس. إنني قادمة من عنده... وهذا بعينه هو السبب في أنك ترينني على هذه الحال من التخوف والارتعاش الشديد. كنت أريد أن أسألك يا ملاكي تاتيانا بافلوفنا، ما دمت تعرفين جميع الناس، أما من وسيلة للبحث بين أوراقه؟ لا بد أنه ترك أوراقاً. فمن الذي تؤول إليه هذه الأوراق؟ ذلك أنها قد تقع من جديد بين أيد خطرة. لقد جئت أسألك أن تسدي إليّ بنصيحة.

- أي أوراق تعنين؟ ألم تقولي إنك قادمة من عند كرافت؟

كذلك قالت تاتيانا بافلوفنا التي لم يفهم من سؤالها شيئاً. فأجابت اكاترينا نيقولايفنا:

- نعم، نعم، إنني قادمة من عنده. ولكنه انتحر! مساء أمس.

فقفزت من على السرير. لقد استطعت أن أبقى ساكناً حين سمعتها تصفني بأنني جاسوس وبأنني أبله. وكنت كلما أوغلتا في حديثهما مزيداً من الإيغال، أحس إحساساً قوياً بأنني لا أستطيع أن أظهر لهما إذ كان من المستحيل حتى تصور ذلك! كنت قد عزمت في قرارة نفسي، بعد أن كف قلبي عن خفقانه الشديد، أن أنتظر اللحظة التي تشيع فيها تاتيانا بافلوفنا زائرتها (هذا إذا واتاني الحظ فلم تحتج إلى دخول غرفتها قبل ذلك) فمتى انصرفت آخماكوفا كنت مستعداً لأن أظهر فأخوض معركة مع تاتيانا بافلوفنا!.. أما الآن وقد علمت بانتحار كرافت فقد قفزت واعتراني نوع من التشنج، وأصبحت عاجزاً عن التفكير في أي شيء،

Twitter: @ketab_n

عاجزاً عن التبصر بعواقب الأمور، فإذا أنا أرفع الستارة وأجدني واقفاً أمامهما. ولم تكن حلكة الظلام قد اشتدت بعد، فكان يمكنهما أن ترياني شاحباً مرتعشاً. فهاهما تصرخان. وكيف لا تصرخان؟

تمتمت أقول ملتفتاً إلى آخماكوفا:

- كرافت؟ انتحر؟ مساء أمس؟

فأعولت تاتيانا بافلوفنا تسألني وقد غرزت أصابعها في كتفي:

- أين كنت؟ من أين خرجت؟ كنت تتجسس علينا؟ كنت تتنصت على حديثنا؟

وقالت اكاترينا نيقولايفنا وهي تنهض عن الديوان وتشير إليّ بإصبعها:

- ماذا قلت لك عنه لتوي؟

فقاطعتها صارخاً وقد استبد بي غضب مسعور:

- هذه كلها أكاذيب وسخافات! لقد وصفتني من لحظة بأنني جاسوس. يا إلهي! فاعلمي إذاً أنه لا شيء يستحق من المرء عناء أن يتجسس، بل لا شيء يستحق منه عناء أن يعيش في هذه الحياة الدنيا مع أناس من أمثالكم! إن الأخيار ينتهون إلى الإنتحار. لقد انتحر كرافت في سبيل الفكرة، من أجل هيكوب[51]. ولكن أنّى لك أن تعرفي شيئاً عن هيكوب؟.. لقد حكم على الإنسان هنا أن يحيا في وسط مكائدكم، وأن يتخبط في أوحال أكاذيبكم وأخاديعكم ودسائسكم المستترة الخفية... كفى!

صرخت تاتيانا بافلوفنا قائلة:

- اصفعيه! اصفعيه!

ولكن كاترين نيقولايفنا ظلت تنظر إليّ (أذكر هذا كله بأدق تفاصيله) دون أن تحول بصرها عني لحظة واحدة، ودون أن تتحرك من مكانها

Twitter: @ketab_n

قيد شعرة، فما كان من تاتيانا بافلوفنا إلا أن هبت واقفة تريد أن تتولى تنفيذ النصيحة بنفسها. . فرأيتني أرفع يدي بغير إرادة مني لأحمي وجهي من صفعتها. فإذا هي تتصور من هذه الحركة التي قمت بها أنني أهددها. فصرخت تقول لي:

- هيا! اضرب! إضرب! فتبرهن على أنك بمحتدك خادم! أنت الأقوى، فلماذا تتحرج من نساء مسكينات؟

فصرخت أقول:

- كفى تخرصاً، كفى! ما رفعت يدي على امرأة في يوم من الأيام! لكنك سفيهة يا تاتيانا بافلوفنا. ولقد كنت تحتقرينني دائماً. علامَ احترام الناس؟ وأنت يا كاترين نيقولايفنا، أراك تضحكين. فلا شك أنك تضحكين من هيئتي: نعم، إن الله لم يهب لي وجهاً كوجوه مرافقيك لكنني لا أشعر أمامك بهوان ومذلة. بل على العكس: أنا أحس بأنني أعلى منك. . . ولا قيمة للتعابير على كل حال، فإنما المهم أنني لم أرتكب ذنباً! لقد جئت إلى هنا عرضاً يا تاتيانا بافلوفنا. والمذنب الوحيد إنما هو طباختك الفنلندية، بل قولي إن الذنب ذنبك بسبب تعلقك الشديد بها. لماذا لم تجبني حين سألتها عنك، لماذا أدخلتني إلى هنا رأساً؟ ولعلكما تدركان أنني ما كنت لأستطيع أن أخرج من غرفة امرأة على حين فجأة. . هكذا. . وإلا كان ذلك أمراً فظيعاً. . لذلك آثرت أن أسمع شتائمكما على أن أظهر لكما. أما تزالين تضحكين يا كاترين نيقولايفنا؟

صاحت تاتيانا بافلوفنا قائلة وهي تكاد تدفعني دفعاً:

- اخرج من هنا، أخرج من هنا! لا تأبهي لأكاذيبه يا كاترين نيقولايفنا. سبق أن قلت لك أنه وُصف لي من هناك بأنه مجنون!

- مجنون؟ من هناك؟ من وصفني بأنني مجنون؟ ولكن لا ضير،

Twitter: @ketab_n

كفى هذا! يا كاترين نيقولايفنا، أحلف لك بكل ما أقدس، أن هذا الحديث الذي سمعته سيظل مكتوماً لا أبوح به لأحد. . . هل ذنبي أنني اكتشفت أسراركم؟ وأعلمي خاصة أنني تارك أباك منذ الغد. فتستطيعين أن تطمئني وأن تهدئي بالا فيما يتعلق بالوثيقة التي تبحثين عنها!

- ماذا؟ أي وثيقة تعني؟

اضطربت كاترين نيقولايفنا اضطراباً بلغ من القوة أن لونها شحب شحوباً شديداً. أو هذا ما بدا لي أنا. فأدركت أنني قلت أكثر مما كان ينبغي أن أقول.

وخرجت مسرعاً. وشيعتاني بنظراتهما صامتتين. وكنت أقرأ في وجهيهما دهشة قصوى. الخلاصة أنني ألقيت لغزاً. . .

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

– 1 –

أسرعت أعود إلى البيت. ومن أشد العجب أنني كنت راضياً عن نفسي مغتبطاً. صحيح أن المرء لا يكلم النساء بهذه اللهجة، ولا سيما مثل هذه النساء، بل قل مثل هذه المرأة، ذلك أنني لا أدخل تاتيانا بافلوفنا في حسابي. لعله لا يجوز لرجل أن يقول لامرأة من هذا النوع في وجهها: «أنا لا أعبأ بمكائدك ودسائسك!» ولكنني قلت ذلك، وهذا بعينه هو ما كان يجعلني راضياً. كنت موقناً على الأقل أنني إذ خاطبتها بهذه اللهجة قد بددت كل ما كنت فيه من وضع مضحك، ناهيك عما عدا ذلك. غير أن وقتي لم يتسع للتفكير في هذا كله زمناً طويلاً: ذلك أن كرافت كان يملأ جوانب نفسي كلها. لا أقصد أن انتحاره كان يؤلمني ويعذبني كثيراً، وإنما أقصد أن نفسي قد اهتزت للنبأ اهتزازا قوياً. وحتى اللذة العادية التي يشعر بها الناس حين يرون مصيبة تنزل بغيرهم، كأن تكسر ساق أحد أو يلطخ شرفه أو يموت له عزيز أو ما إلى ذلك، حتى هذه اللذة العادية التي يولدها الرضى الدنيء، قد حل محلها شعور آخر، شعور خالص إلى أقصى الحدود بالحسرة أو بالجزع على كرافت: . لا أدري. . ولكنه شعور يبلغ غاية القوة والحسن. وعن هذا أيضاً كنت راضياً وبهذا أيضاً كنت مغتبطاً. أمر

Twitter: @ketab_n

عجيب: ما أكثر الأفكار الغريبة التي يمكن أن تتدفق وتتلاحق في ذهنك حين يهزك نبأ ضخم كان ينبغي له في الظاهر أن يخنق سائر المشاعر وأن يبعثر جميع الخواطر التي لا تمت إليه بصلة، ولا سيما الخواطر التافهة. ومع ذلك فإن هذه الخواطر التافهة هي التي عرضت لي وملأت نفسي. ما أزال أذكر أنني قد اجتاحتني هزة عصبية قوية، شيئاً بعد شيء، دامت عدة دقائق، بل دامت طول الوقت الذي قضيته في البيت متحدثاً مع فرسيلوف.

وقد جرى هذا الحديث مع فرسيلوف في ظروف غريبة غير مألوفة. سبق أن قلت إننا أقمنا في جناح بفناء عمارة وهذا المسكن رقمه 13؛ فقبل أن أصل إلى بوابة المبنى سمعت امرأة تسأل بصوت عال، وقد نفد صبرها واشتد ضيقها: «أين يقع المسكن رقم 13؟» إنها سيدة فتحت باب دكان خردوات صغير مجاور. ولكن أحداً لم يجب عن سؤالها، بل لعلهم طردوها، لأنني رأيتها تهبط الدرجات غاضبةً مكروبة، وصرخت تقول وهي تخبط الأرض بقدمها:

- فأين البواب إذاً؟

وكنت قد تعرفت هذا الصوت منذ مدة. فقلت وأنا أتقدم منها:

- أنا ذاهب إلى المسكن رقم 13؛ عمن تسألين؟

- إنني أبحث عن البواب منذ ساعة. سألت جميع الناس، وصعدت جميع السلالم.

- إن المسكن الذي تسألين عنه يقع في فناء العمارة. ألم تعرفيني؟

ولكنها كانت قد تعرفتني. وواصلت كلامي فقلت:

- تريدين أن تري فرسيلوف؟ لك معه شأن، ولي أنا معه شأن أيضاً. إنني آت إليه لأودعه إلى الأبد. فهيا بنا.

- أأنت ابنه؟

Twitter: @ketab_n

- لا قيمة لهذا. هبيني ابنه، رغم أن اسمي دولجوروكي أنا ولد غير شرعي. إن لهذا السيد عدداً لا يُحصى من الأولاد غير الشرعيين. ورب ابن شرعي يترك منزل أبيه إذا دفعه الضمير والشرف إلى ذلك. جاء هذا حتى في الكتاب المقدس[52]. ثم أنه قد نال ميراثاً فلا أريد أن أقاسمه هذا الميراث. أريد أن أكتفي بكدِّ يميني. ومن كان كريم القلب ضحى حتى بحياته إذا لزم ذلك. لقد انتحر كرافت، في سبيل الفكرة. تصوري، كرافت الشاب الذي كانت تعقد عليه آمال كبار. . . تفضلي إلى هنا، فنحن نقيم في الجناح. حتى في الكتاب المقدس جاء أن على الأولاد أن يتركوا آباءهم وأن يبنوا لأنفسهم أعشاشاً. . حين تجرفهم الفكرة. . حين يكون لهم فكرة. . آه. . أن الفكرة هي الأمر الرئيسي. . كل شيء قائم في الفكرة. . .

واصلت هذه الثرثرة طول الوقت الذي كنا نصعد فيه إلى بيتنا. لا شك أن القارئ لاحظ أنني لا أراعي نفسي ولا أداري نفسي، وإنما أصفها بما هي. إنني أريد أن أتعلم قول الحق. كان فرسيلوف بالبيت. دخلت دون أن أخلع معطفي. وكذلك فعلت هي. كانت ثيابها خفيفة جداً: فستان قاتم اللون تتحرك فوقه قطعة من قماش لا أدري ما هي، ولكنها وضعت هنالك لتكون بمثابة رداء أو عباءة؛ وطاقية عتيقة مجرودة تغطي الرأس لا تكاد. حين دخلنا الصالة كانت أمي في مكانها المألوف منكبة على شغلها، وخرجت أختي من غرفتها لتنظر، ووقفتْ عند العتبة. وكان فرسيلوف، على عادته، لا يعمل شيئاً، فنهض يستقبلنا. وحدَّق إليّ بنظرة قاسية مستفهمة فأسرعت أقول وأنا أتنحى:

- أنا لا شأن لي في الأمر. لقد التقيت بها أمام البوابة، وكانت تسأل عنك، فلا يدلها أحد. .لكن لي أنا أيضاً قضية سوف يسرني أن أشرحها لك بعد قليل. . .

Twitter: @ketab_n

ولكن فرسيلوف ظل يتأملني مستطلعاً.

وبدأت الفتاة تتكلم وقد نفد صبرها فقالت:

- هل تسمح؟

فالتفت فرسيلوف إليها، فأردفت تقول:

- لقد فكرت طويلاً في السبب الذي دعاك إلى أن تترك لي هذا المال بالأمس... فانتهيت إلى.. الخلاصة: إليك مالك فخذه! وأطلقت صرخةً كما فعلت من قبل، وألقت على الطاولة حزمة من الأوراق المالية. واستطردت تقول: اضطررت أن أذهب إلى مكتب العناوين لأعرف أين تسكن، ولولا ذلك لجئت قبل الآن. ثم أضافت: وهي تلتفت فجأة إلى أمي التي شحب لونها شحوباً شديدا: - اسمعي أنت! إنني لا أريد أن أهينك. فوجهك يدل على أنك سيدة شريفة، وربما كانت هذه الفتاة ابنتك. لا أدري أأنت زوجته أم لا. ولكن اعلمي أن هذا الرجل يقص من الصحف الإعلانات التي تنشرها المربيات والمعلمات بآخر ما يملكن من نقود، ويطوف على هؤلاء المسكينات سعياً إلى منافع غير شريفة مغرياً إياهن بالمال. لا أدري كيف أمكنني أن أقبل ماله أمس! كانت هيئته تدل على استقامة وصدق.. قف مكانك! لا تقل كلمة واحدة! أنت رجل دنيء يا سيد! وهبك شريف النيات فإنني لا أريد مالك! آه.. لا تقل كلمة واحدة! ما أشد سروري بأن أفضحك وأخزيك أمام نسائك! لعنة الله عليك!

وهربت مسرعة. ولكنها عند العتبة التفتت، لا لشيء إلا أن تصرخ قائلة:

- يقال إنك نلت ميراثا!

ثم اختفت كما يختفي الظل. يجب أن أذكر مرة أخرى أنها كانت بشدة غضبها كمجنونة. دُهش، بل ذهل فرسيلوف على نحو عميق. ولبث في

Twitter: @ketab_n

مكانه حالماً، وكأنه يفكر في شيء ما. ثم التفت إليَّ فجأة وسألني:

- ألا تعرفها البتة؟

- رأيتها هذا الصباح مصادفة في بيت فاسين. كانت تضطرب في الدهليز وتطلق الصرخات وترسل إليك اللعنات. ولكنني لم أدخل في حديث، ولا أعرف عنها شيئاً. وقد التقيت بها الآن أمام البوابة. لا بد أنها معلمة الأمس، «تلك التي تعطي دروساً في الحساب».

- هي نفسها. مرةً في حياتي قمت بعمل حسن، و.. وأنت ماذا جاء بك؟

فأجبته بقولي:

- إليك رسالة. لا داعي إلى أن أشفعها بإيضاحات. إنها من كرافت. وقد تلقاها كرافت من المرحوم آندرونيكوف. اقرأها فينيرك مضمونها. ولكنني أضيف أن أحداً في العالم لا يعرف الآن بوجود هذه الرسالة سواي، لأن كرافت الذي أعطانيها أمس قد انتحر فوراً بعد زيارتي له...

فيما كنت أتكلم لاهثاً متعجباً، تناول هو الرسالة، فجعلها في يده اليسرى، وتابع النظر إليَّ بانتباه. وحين أبلغته نبأ انتحار كرافت أنعمت النظر في وجهه لأرى ما أحدثه النبأ في نفسه. فما رأيكم إذا قلت لكم أن النبأ لم يحدث في نفسه أي أثر؟ حتى حاجباه لم يرتفعا! بالعكس: حين رآني أتوقف عن الكلام استل نظارته التي ترتكز على الأنف ويتدلى منها شريط أسود (وكان لا يفارق هذه النظارة أبدا) وقرَّب الرسالة من شمعة، وأخذ يقرؤها بإمعان بعد أن ألقى نظرة على التوقيع الذي يذيلها. ليس في وسعي أن أصف لكم عمق الجرح الذي أصابتني به كبرياؤه وقلة إحساسه. لا بد أنه يعرف كرافت معرفة جيدة. وهذا نبأ خارق على كل حال! ولقد كنت أتمنى طبعاً أن أحدث في نفسه أثراً.

Twitter: @ketab_n

انتظرت نصف دقيقة، وإذ كنت أعرف أن الرسالة طويلة، فقد أدرت له ظهري وانصرفت. كانت حقيبتي مهيأة منذ مدة طويلة، ولم يبق عليَّ إلا أن أجعل بعض أمتعتي في صرة. وخطرت ببالي أمي: لم أكن قد اقتربت منها. وبعد عشر دقائق كنت قد تهيأت تهيؤاً تاماً، وهممت أن أمضي باحثاً عن عربة، فإذا بأختي تدخل عليَّ في حجرتي تحت السقف.

- خذ. إن ماما ترسل إليك الستين روبلا، التي أعطيتها إياها، وترجوك مرة أخرى أن تغفر لها إنها قالت عنها لأندريه بتروفتش. ثم إليك عشرين روبلاً أخرى. فقد دفعت بالأمس نفقات إقامتك خمسين روبلاً، وماما تقول إنها لا يحق لها أن تأخذ منك إلا ثلاثين، لأنها لم تنفق عليك أكثر من ذلك، فهي ترد إليك العشرين روبلاً الزائدة.

- شكرا، لكنني أرجو أن يكون ما قالته حقاً. أستودعك الله يا أختي. أنا راحل!

- إلى أين!

- إلى النزل مؤقتا، حتى لا أقضي في هذا البيت ليلة أخرى. قولي لماما إنني أحبها.

- هي تعرف ذلك. وهي تعرف أنك تحب أندريه بتروفتش أيضاً. كيف لم تخجل من الإتيان بتلك الفتاة المسكينة؟

- أنا لم آت بها، أحلف لك. وإنما لقيتها أمام البوابة.

- بل أنت الذي أتيت بها.

- أؤكد لك . . .

- فكر جيداً، واسأل نفسك، تجد أنك أنت أيضاً كنت سبباً في مجيئها.

- كل ما هنالك أنني سررت جداً بإخزاء فرسيلوف. تصوري أن له

Twitter: @ketab_n

ولداً رضيعاً من ليديا آخماكوفا. . . ولكن لماذا أقول لك هذا الكلام؟ . .

– هو؟ له ولد رضيع؟ خطأ. . ليس الولد منه! من ذا الذي قصَّ عليك هذه الأكذوبة؟

– ما أدراك أنت؟

– ما أدراني أنا؟ أنا التي ربيت هذا الولد في لوغا. اسمع يا أخي: ألاحظ منذ مدة طويلة أنك، بدون أن تعرف شيئاً، تهين أندريه بتروفتش، وبذلك نفسه تهين ماما أيضاً.

– طيب. إذا كان هو على حق، فالذنب عليَّ. هذا كل ما في الأمر. ولكن هذا لا ينفي أنني أحبكما كثيراً. لماذا تحمرين يا أختي؟ طيب، طيب. هاأنت ذي تزدادين احمراراً. على كل حال، سوف أطلب مبارزة ذلك الأمير الصغير، انتقاما للصفعة التي كالها لفرسيلوف بمدينة «إمس». وإذا كان فرسيلوف غير مخطىء في حق آخماكوفا، فيكون هذا أفضل. . .

– ما هذا الذي تقوله يا أخي؟ ألا فكرت قليلاً؟

– من حسن الحظ أن الدعوى قد فصل القضاء فيها. هاأنت ذي الآن تصفرِّين.

ابتسمت ليزا ابتسامة شاحبة من خلال ذعرها وقالت:

– ولكن الأمير لن يبارزك.

– عندئذ سأخزيه على رؤوس الأشهاد. ما بك يا ليزا؟

لقد بلغت ليزا من شحوب الضعف والوهن أنها أصبحت لا تستطيع أن تثبت على قدميها، فإذا هي تتهالك على الديوان.

– ليزا!

هكذا نادتها أمنا من تحت.

Twitter: @ketab_n

فاستجمعت ليزا قوتها ونهضت، وابتسمت لي ابتسامة زاخرة بالحنان، وقالت:

- أخي، دع هذه السخافات، أو فانتظر حتى تعرف من الأمر أكثر مما تعرف الآن. إن ما تعرفه قليل جداً.

- لسوف أتذكر يا ليزا أنك شحبت حين علمت أنني سأبارز الأمير!

- نعم، نعم، تذكر هذا أيضاً.

وابتسمت مرةً أخرى مودعة، ونزلت.

ناديت حوذياً، ونقلت أمتعتي بمعاونته. لم يعترضني في البيت أحد، ولا استوقفني أحد. ولم أودع ماما حتى لا ألقى فرسيلوف. وفيما أنا أركب العربة، برقت في خاطري فكرة سريعة، فإذا أنا أقول للحوذي:

- فونتانكا، جسر سيميونوفسكي!

وأعود إلى عند فاسين.

- 2 -

قدرت أن فاسين لا بد أن يكون مطلعاً على نبأ انتحار كرافت، وأنه أعرف مني كثيراً بالأمر. وذلك ما كان فعلاً. فروى لي فاسين في الحال جميع التفاصيل ملبياً رغبتي ولكن بغير حرارة. فاستنتجت من ذلك أنه متعب، وكان الأمر ذلك حقاً. لقد ذهب في الصباح إلى كرافت. وكان كرافت قد أطلق على نفسه رصاصة مسدس (ذلك المسدس نفسه) بالأمس، منذ هبط المساء، كما يستخرج ذلك من يومياته. إن الكلمات الأخيرة التي دونها في يومياته إنما كتبها قبيل انتحاره بلحظات، وفيها يذكر أنه يكتب في العتمة تقريباً وأنه لا يكاد يميز الأحرف، ولكنه لا يريد أن يشعل شمعة، مخافة أن يخلف وراءه حريقاً، ثم هو يضيف إلى ذلك في السطر الأخير تقريباً قوله الغريب هذا: «أما أن أشعل الشمعة

Twitter: @ketab_n

لأطفئها قبل إطلاق الرصاص مع إطفاء حياتي، فذلك ما لا أريده».
وكان كرافت قد بدأ كتابة يوميات ساعة الموت هذه أمس الأول، فور عودته إلى بطرسبرج، قبل زيارته درجاتشيف. وكان بعد انصرافي يدون شيئاً كل ربع ساعة، أما مرات التدوين الثلاث أو الأربع الأخيرة فلم يكن يفصل بين الواحدة والأخرى منها إلا خمس دقائق. أفصحت عن دهشتي من أن فاسين، وقد أصبحت هذه اليوميات تحت بصره مدة طويلة (إذ أُعطيها ليقرأها) لم يحاول أن ينسخها، لاسيما وأنها لا تملأ أكثر من ورقة واحدة، وأن جميع التدوينات قصيرة، «لو نسخ الصفحة الأخيرة على الأقل!» وذكر لي فاسين مبتسماً أنه يتذكر كل ما ورد في اليوميات، وأن كلامها فوضى لا ينظمه ناظم وإنما هي تسجيل لكل ما كان يخطر ببال المنتحر. وقد هممت أن أؤكد له بأن قيمتها إنما تكمن في هذا نفسه، ولكنني أمسكت عن الكلام، وآثرت أن ألح على أن يتذكر شيئاً مما قرأ. فتذكر بضعة أسطر فعلا. كان كرافت قد كتبها قبل إطلاق الرصاص على نفسه بنحو ساعة، وفيها يقول إنه «يشعر بقشعريرة» وإنه «تمنى أن يشرب كأسا من الخمرة طلباً للدفء، ولكنه تصور أن شرب الخمرة سيزيد غزارة الدم المسفوح، فامتنع عن الشرب». قال فاسين إن كل ما كتبه هو من هذا النوع تقريباً.

هتفت أقول:

– أفهذا ما تسميه سخافات؟

– متى تكلمت عن سخافات؟ كل ما هنالك أنني لم أنسخ اليوميات. وأنا أرى إنها عادية وإن لم تكن سخيفة، أو قل إنها طبيعية، أي هي ما لا بد أن يكون في مثل هذه الحالة. . .

– ولكن الأفكار الأخيرة، الأفكار الأخيرة!

– الأفكار الأخيرة تكون في بعض الأحيان تافهة تفاهة عجيبة. أعرف

Twitter: @ketab_n

منتحراً تشكى في يومياته من أنه لم تزره في مثل هذه الساعة الخطيرة أي «فكرة عليا»: فلا شيء إلا أفكار جوفاء تافهة.

- وهل القشعريرة فكرة جوفاء أيضاً؟

- أتقصد القشعريرة أم غزارة الدم المفسوح؟ أنه لأمر معروف جداً أن كثيراً من الذين يقدرون على التفكير في موتهم الوشيك، سواء أكان موتهم بإرادتهم أم كان بغير إرادتهم، يهتمون في كثير من الأحيان بحسن حالة جثمانهم. وبهذا إنما كان كرافت يخشى انسكاب دم غزير..

جمجمت أقول:

- لا أدري هل هذه واقعة معروفة... وهل هذا الذي تقوله صحيح، ولكن يدهشني أن ترى في الأمر كله شيئاً طبيعياً إلى هذا الحد. إن كرافت كان منذ وقت قصير يتكلم ويقلق ويجلس بيننا. فهل يعقل أن لا تأخذك به أي شفقة؟

- بل تأخذني به شفقة طبعاً. ولكن هذه قضية أخرى. ثم إن كرافت نفسه، على كل حال، قد صور موته في سورة استنتاج منطقي. وقد تبين أن كل ما قيل عنه بالأمس عند درجاتشيف صحيح. لقد ترك دفتراً ضخماً ضمنه نتائج علمية تذهب إلى أن الروس جنس من الطبقة الثانية، وأقام نتائجه على علم الهيئة ودراسة الجمجمة، بل على الرياضيات أيضاً، واستخلص من ذلك أن المرء إذا كان روسيا فلا داعي إلى أن يحيا. إن السمة التي يتميز بها هذا كله، إذا شئت أن تجد له صفة تميزه، أنه في وسع المرء أن يستخلص من الاستنتاجات المنطقية ما يشاء، أما أن ينتحر تدعيماً لهذا الاستنتاج، فذلك ما لا يحدث كل يوم طبعاً.

- يجب أن نكبر قوة إرادته على الأقل.

قال فاسين متهرباً:

- وربما كان يجب أن نكبر غير ذلك أيضاً. ولكن كان واضحاً أن ما

Twitter: @ketab_n

يدور في خلد فاسين إنما هو الغباء وضعف العقل. فكان ذلك يثير حنقي.

- قلت: بالأمس تحدثت أنت نفسك عن العواطف يا فاسين.

- ولست اليوم أنكرها. لكنني إزاء عنف الأمر الذي وقع لا أملك إلا أن أجد فيه من فحش الخطأ ما يجعل حكمي قاسياً يطرد من نفسي حتى الشعور بالشفقة.

- لقد أدركت منذ قليل من النظر في عينيك أنك ستقول سوءاً في حق كرافت. ومن أجل أن لا أسمع ما ستقوله، قررت أن لا أسألك رأيك. ولكنك أفصحت عن رأيك من تلقاء نفسك، فلا يسعني إلا أن أوافق برغم إرادتي على رأيك. ولكنني مستاء منك يا فاسين! إنني حزين على كرافت.

- أرى أننا نغالي قليلاً...

فقاطعته قائلاً:

- نعم، نعم... ولكن ما يبعث العزاء والسلوان على الأقل أن الأحياء الذين يحكمون على المتوفى يستطيعون دائماً في مثل هذه الحالة أن يقولوا لأنفسهم: «مهما يكن المنتحر جديراً بالشفقة والتسامح، فما نزال نحن أحياء، فلا داعي أن نسرف في الحزن».

- طبعا... من هذه الناحية كلامك صحيح... ولكن أظن أنك تمزح! طريفة نكتتك. اسمع. لقد اعتدت أن أشرب الشاي في مثل هذه الساعة فسآمر لنفسي بشاي. وستشاركني طبعاً.

قال ذلك ثم خرج وهو يشمل ببصره حقيبتي وصرتي.

والحق أنني أردت أن أسخر منه انتقاما لكرافت. فقلت ما قلته على نحو ما استطعت. ولكن أغرب ما في الأمر أنه في البداية قد أخذ جملتي مأخذ الجد: «ما نزال نحن أحياء». ومع ذلك، ومهما يكن من

Twitter: @ketab_n

أمر، فقد كان أقرب مني إلى الحق والصواب، حتى في موضوع العاطفة. اعترفت بذلك لنفسي دون أي امتعاض. ولكنني أحسست أنني لا أحبه.

فلما صار الشاي أمامنا أعلنت له أنني أريد أن يستضيفني هذه الليلة، فإذا كان ذلك مستحيلاً فما عليه إلا أن يصارحني، فأذهب إلى النزل. ثم بسطت له خلاصة الأسباب التي تدفعني إلى طلب هذه الضيافة، ذاكراً صراحة وبكل بساطة أنني على شقاق مع فرسيلوف، ولكن دون أن أدخل في التفاصيل. فأصغى إليّ فاسين بانتباه، غير أنه لم يظهر عليه شيء من انفعال. وكان يقتصر على الإجابة عن أسئلتي، ولكن إجاباته كانت لا تخلو من إفاضة، وكانت لهجته لا تخلو من لطف ومودة. ولم أقل كلمة واحدة عن الرسالة التي جئت إلى بيته في الصباح لأسأله النصح في أمرها. وإنما ذكرت أن زيارتي السابقة لم يكن لها من غرض غير الزيارة. إنني بعد الذي قطعته على نفسي لفرسيلوف، وهو أن لا يعرف أحد عن هذه الرسالة شيئاً سواي، قد أصبحت أعتقد أنه ليس من حقي أن أجيء على ذكرها لأحد أبداً. وكان يزعجني كثيراً أن أكلم فاسين في بعض الأمور، أقول في بعض الأمور لا في جميع الأمور، حتى لقد أفلحت في إثارة اهتمامه حين قصصت عليه المشاهد التي وقعت في الدهليز وفي غرفة الجارتين، واختتمت في بيت فرسيلوف. فكان ينصت إليّ بانتباه شديد، ولا سيما حين كان الحديث يتناول فرسيلوف. حتى أنه استعادني الكلام مرتين، ثم شرد فكره حين أتيت على ذكر الأسئلة التي ألقاها ستيبلكوف عن درجاتشيف. على أنه ابتسم في النهاية ابتسامة ساخرة. فبدا لي فجأة في تلك اللحظة أنه لا شيء ولا أحد يمكن أن يربك فاسين في يوم من الأيام. وإني لأذكر أن هذه الفكرة قد عرضت لذهني في صورة تشرفه كثيراً. وقلت أختم حديثي عن ستيبلكوف:

Twitter: @ketab_n

- لم أستطع أن أستخلص كثيراً مما قاله السيد ستيبلكوف، فإنه ينطق بكلام مبهم متهرب. . . ويبدو فيه شيء طائش. فظهر الجد في هيئة فاسين فوراً. وقال:

- صحيح أنه لم توهب له ملكة الكلام، ولكن ذلك يبدو للوهلة الأولى فقط، فقد يتفق له أن يبدي ملاحظات تبلغ غاية الصحة والصواب. ثم إن أمثال هذا الرجل أناس عمليون، أو قل إنهم رجال عمل لا رجال فكر. فيجب أن نحكم عليهم بهذا المقياس. . .

وذلك بعينه ما كنت قد أدركته من قبل.

- قلت: ومع ذلك أحدث عند جارتيك فضيحة رهيبة، فلا يستطيع أحد أن يتنبأ بما كان يمكن أن ينتهي إليه هذا كله.

وعن هاتين الجارتين أسرَّ إليَّ فاسين أنهما هنا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً، وأنهما قادمتان من الأقاليم، وأنهما تشغلان غرفة صغيرة جداً، وأن جميع الدلائل تشير إلى أنهما فقيرتان فقراً مدقعاً، وأنهما تنتظران هنا شيئاً ما. كان لا يعرف أن الفتاة نشرت إعلانا في الجريدة تذكر فيه أنها معلمة، ولكنه علم أن فرسيلوف زارهما. وقد وقعت الزيارة في غيبته، غير أن المؤجرة ذكرتها له. وكانت الجارتان لا تخالطان أحداً، ولا تلقيان حتى المؤجرة. وقد لاحظ فاسين في الأيام الأخيرة أن لدى الجارتين مشكلات لا تجد سبيلها إلى الحل فعلاً، ولكن لم يسبق أن وقعت عندهما مشاهد كالمشاهد التي وقعت اليوم. إنني أتذكر حديثنا عن الجارتين بسبب الأحداث التي تلت ذلك. وكان يخيِّم في غرفتهما آنئذ صمت كصمت الموت. وقد ظهر على فاسين اهتمام شديد حين ذكرت له أن ستيبلكوف رأى أن عليه أن يكلم المؤجرة عن هاتين الجارتين، وأنه ردد مرتين قوله: «سترى، سترى!»

وأضاف فاسين يقول:

Twitter: @ketab_n

- سوف ترى أن هذه الفكرة لم تساوره لغير سبب. إن له في بعض الأمور نظرة حادة صائبة.

- أتعتقد إذاً بأن من الواجب أن تُنصح المؤجرة بطردهما من البيت؟

- لا، ليست المسألة مسألة طردهما من البيت. ولكنني أخشى أن تقع حادثة... على كل حال، فإن جميع هذه الحوادث لا بد أن تنتهي أخيراً على نحو من الأنحاء... دعنا من هذا!

وامتنع فاسين امتناعاً قاطعاً عن إبداء رأيه في زيارة فرسيلوف للجارتين.

- كل شيء ممكن. أحسَّ الرجل بأن في جيبه مالاً... ومن الجائز مع ذلك أن لا يكون قد أراد إلا إعطاء صدقة، فهذه أمور هي من تقاليده، بل لعلها قائمة في طبيعته وميوله.

فلما ذكرت له أقاويل ستيبلكوف عن «الطفل الرضيع»، قال فاسين بتأكيد خاص بلهجة جادة خاصة (ما زلت أسمعها):

- هنا يخطىء ستيبلكوف كل الخطأ. إن ستيبلكوف يبالغ أحياناً في الاعتماد على حسه العملي والركون إليه، وقد يتسرع في استخلاص النتائج بمنطقه الذي كثيراً ما يكون صادقاً نافذاً. فرب حادث قد يتخذ في الواقع صوراً خارقة ليست في الحسبان بالنظر إلى الأشخاص المشتركين فيه، وذلك ما وقع: فإن ستيبلكوف وقد عرف جزءا من القضية استنتج أن الطفل ابن فرسيلوف، والحق أنه ليس من فرسيلوف.

وألححت على فاسين مستزيداً من المعرفة، فما كان أشد دهشتي حين علمت أن الولد من الأمير سرجي سوكولسكي. إن ليديا آخماكوفا، بسبب مرضها أو لطبيعتها الخيالية كانت تتصرف في بعض الأحيان تصرف مجنونة. لقد تولهت بحب الأمير قبل وصول فرسيلوف، ولم «يجد الأمير حرجاً في قبول حبها» حسب قول فاسين.

Twitter: @ketab_n

واستمرت العلاقة لفترة قصيرة، تشاجرا بعدها كما يعرف العارفون، فطردت ليديا الأمير، ويبدو أن الأمير «ابتهج بهذا الطرد وسر به سروراً كبيراً».

كانت ليديا فتاة غريبة الأطوار (كذلك أضاف فاسين): ومن الجائز جداً إنها لم تكن سليمة العقل في بعض الأحيان. ولكن الأمير حين سافر إلى باريس كان يجهل كل الجهل أنه ترك ضحيته حبلى، وظل يجهل ذلك إلى النهاية، أي إلى حين عودته. وفي أثناء ذلك أصبح فرسيلوف صديق ليديا، فعرض عليها الزواج، لا سيما نظراً لظرفها هذا (الذي لم يفطن حتى والداها إليه حتى النهاية تقريباً). وكانت ليديا قد تولهت بحب فرسيلوف فطار لبها فرحاً بعرضه، «ولم تر في هذا العرض تضحية فحسب»، مع تقديرها للتضحية في الوقت نفسه. وقد أحسن طبعاً في تدبير ذلك - أضاف فاسين -. وولد الطفل (بنتاً) قبل الأوان بشهر أو بستة أسابيع، فعهد به إلى مرضعة بمكان في ألمانيا، ثم استرده فرسيلوف، وهو يعيش الآن في روسيا، ربما ببطرسبرج.

- وما حكاية أعواد الكبريت الفوسفورية؟

قال فاسين:

- لا أعرف عن هذا شيئاً البتة. وقد ماتت ليديا آخماكوفا بعد الولادة بأسبوعين. ما ظروف موتها؟ لا أدري. وقد علم الأمير بوجود الطفل بعد أن عاد من باريس لا قبل ذلك، ويبدو أنه في الوهلة الأولى لم يصدق أن الطفل منه... وعلى وجه العموم جهدت جميع الأطرف في إبقاء القصة سراً، وما تزال إلى اليوم محاطة بالغموض.

هتفت أقول مستاء:

- ولكن ما هذا الأمير؟ أهكذا تُعامل فتاة مريضة؟

- لم يكن مرضها في ذلك الحين قد تفاقم... ثم إنها هي التي

Twitter: @ketab_n

طردته. . . صحيح أنه ربما كان قد أسرع يستفيد من هذا الطرد، فرحل على الفور.

- أتبرر سلوك رجل نذل مثله؟

- لا. ولكنني لا أصفه بأنه نذل. إن في الأمر أشياء كثيرة أخرى غير النذالة المباشرة. على كل حال، هذه مسألة عادية مألوفة، وهو لا ينفرد بهذا السلوك من دون سائر الناس.

- قل لي يا فاسين: هل عرفته من قرب؟ إنني أحب كثيراً أن أعتمد على رأيك بسبب ظرف يمسني جداً.

ولكن فاسين أجاب هنا بكثير من التحفظ. فهو يعرف الأمير، ولكنه لم يقل عن عمد ظاهر كلمة واحدة عن ظروف تعرفه إليه. وقد أسرَّ إليَّ بعد ذلك أن طبع الأمير يجيز له أن يكون متسامحاً في الحكم عليه: «إن نفسه تزخر بميول خيرة، وهو إنسان يمكن التأثير فيه، لكنه لا يملك لا من العقل ولا من الإرادة ما يمكنه من السيطرة على رغباته وشهواته». وهو رجل لا ثقافة له، لكنه مهووس بالتنقل والتشرد بين أفكار وأمور لا قدرة له على فهمها. من ذلك أنه يصدع إذنيك بأقوال من هذا النوع: «أنا أمير، أنا سليل روريك»[53]. ولكن لماذا لا أكون مساعد إسكافي إذا احتجت إلى أن أجني رزقي وكنت عاجزاً عن عمل شيء آخر؟ سوف يقرأ الناس على لافتة دكاني حينئذ: «الأمير فلان، إسكافي»، بل إن في ذلك شيئاً «نبيلاً». إنه يقول هذا الكلام مستعداً لتنفيذه، وذلك هو الأمر الخطير. أضاف فاسين هذه الجملة، وأردف: ولكنه لا يقول هذا الكلام عن اقتناع، وإنما يقوله عن خفة عقل وسرعة تأثر. ثم تأتي الندامة بعد ذلك حتماً، فيكون على أتم الاستعداد للانتقال إلى النقيض تماماً. وهكذا تجري حياته كلها. إن في عصرنا أناساً كثيرين يقعون في مآزق لا لشيء إلا لأنهم ولدوا في عصرنا.

Twitter: @ketab_n

بذلك ختم فاسين كلامه. فشرد ذهني ووجمت حالماً مفكراً. ثم سألت فاسين:

- هل صحيح أنه طُرد في الماضي من الجيش؟

- لا أدري أطرد أم لا. ولكنني أعلم أنه ترك الجيش بعد بعض المضايقات. لعلك لا تجهل أنه في الخريف الماضي، وقد أحيل إلى التقاعد، قد قضى شهرين أو ثلاثة أشهر في لوغا؟

- أنا. . . أعلم أنك كنت حينذاك في لوغا.

- نعم، كنت في لوغا أيضاً بعض الوقت. وكان الأمير يعرف كذلك اليزافيتا ماكاروفنا.

هتفت أقول:

- صحيح؟ كنت أجهل هذا. إنني لم أكلم أختي إلا قليلاً. . . ولكن هل استقبلته أمي في بيتها؟

- لا. هذه معرفة بعيدة تمت في لقاء ببيت ثالث.

- نعم. ثم، ماذا قالت لي أختي عن ذلك الطفل؟ هل كان الطفل في لوغا أيضاً؟

- بعض الوقت.

- وأين هو الآن؟

- لا بد أن يكون ببطرسبرج.

صحت أقول مضطرباً أشد الاضطراب:

- لن أصدق أبداً أن تكون أمي قد شاركت أي مشاركة في هذه الألاعيب من قصة ليديا كلها!

فقال فاسين وهو يبتسم ابتسامة تسامح:

- في هذه القصة، التي لا أحاول أن أحلل عقدها على كل حال، لا أرى أن دور فرسيلوف يشتمل على شيء يستحق أن يلام عليه لوماً

Twitter: @ketab_n

شديداً في حقيقة الأمر.

وأظن أن فاسين كان قد سئم من الحديث معي، ولكنه لا يريد أن يظهر سأمه.

وهتفت أقول مرة أخرى:

- لن أصدق أبداً، أبداً، أن امرأة يمكن أن تتنازل عن زوجها لامرأة أخرى! لا، هذا شيء لن أصدقه أبداً!.. أحلف أن أمي لم تشارك أي مشاركة في هذا الأمر!

- يخيل إليّ مع ذلك أنها لم تعارضه؟

- لو كنت في مكانها لثرت وما عارضت، من باب العزة والشَّمَم على الأقل.

قال فاسين يختم كلامه:

- لا أريد من جهتي أن أقطع بحكم في هذا الموضوع.

والواقع أن فاسين، رغم ذكائه كله، كان لا يفهم في شؤون النساء شيئاً، فكانت دائرة كبيرة من الأفكار والحوادث غريبة عنه مجهولة لديه. وصمت. وكان فاسين يعمل مؤقتا في شركة مساهمة، وكنت أعلم أنه يحمل شيئاً من عمله إلى بيته. فلما ألححت في إلقاء الأسئلة عليه، أعلن لي أن هناك حسابات يجب عليه أن ينجزها، فرجوته رجاء حاراً أن لا يشعر من وجودي بحرج. وأظن أن ذلك قد سره. ولكنه قبل أن يجلس إلى مكتبه أراد أن يهيئ لي سريراً على الديوان. وكان قد عرض عليَّ أن أنام على سريره هو، ولكنني رفضت، وأظن أن هذا أيضاً قد سره. واستعرنا من المؤجرة مخدة وغطاء. وكان فاسين مهذباً ولطيفاً إلى أقصى حد، لكنني كنت أشعر بشيء من الضيق حين أراه يتكلف هذا العناء من أجلي. أذكر أنني قبل ثلاثة أسابيع، حين اتفق لي عرضاً أن بتُّ ليلة عند إيفيم في بطرسبرجسكايا ستورونا، كنت أكثر ارتياحا. فهو

Twitter: @ketab_n

أيضاً قد أعد لي سريري على الديوان بغير علم عمته، مفترضاً - لا أدري لماذا - أنها ستساء إذا علمت أن رفاقاً له يجيئون إليه للمبيت عنده. لقد ضحكنا كثيراً، واتخذنا من قميص شرشفاً نغطي به الديوان، ولففنا معطفاً فجعلناه مخدة. وأذكر أن زفيريف، بعد أن أتممنا هذا العمل كله، ربت على الديوان براحة يده قائلاً بعاطفة: Vous dormirez comme un petit roi (ستنام كملِك صغير)[54].

فكان من شأن هذا المرح الغبي، وهذه الجملة الفرنسية التي لا تناسبه أكثر مما يناسب البقرة أن تلبس مريلة، كان من شأن ذلك أن قضيت عند هذا المهرج ليلة بديعة. أما عند فاسين فما كان أشد ارتياحي حين رأيته يجلس أخيراً إلى مكتبه ويدير لي ظهره. اضطجعت على الديوان، وطفقت أفكر في أمور كثيرة وأنا أنظر إلى ظهره.

- 3 -

كان ثمة أشياء كثيرة تبعث على التفكير. وكانت نفسي مضطربة، فلا شيء فيها مكتمل. صحيح أن بعض الإحساسات أبرز من بعض، ولكن ما من إحساس بينها كان يجرني وراءه جراً تاماً، وذلك من فرط وفرتها وغزارتها. كان كل شيء يبرق برقاً إن صح التعبير، بغير ترابط ولا تماسك، وكنت أنا نفسي لا أريد أن أتلبث على شيء، ولا أن أقيم أي نظام. حتى ذكرى كرافت تراجعت شيئاً فشيئاً، فأصبحت في المقام الثاني من اهتمامي. إن ما يبث الاضطراب في نفسي أكثر من كل ما عداه إنما هو حالتي الشخصية. إنني الآن قد «قطعت صلتي» فها هي ذي حقيبتي، وهاأنذا بعيد عن البيت، وهاأنذا أبدأ حياة جديدة. لكأن كل ما سبق أن عقدت النية عليه وهيأت له الأسباب إنما كان قبل الآن لهواً وضحكاً، ثم إذا بكل شيء «يبدأ الآن في الواقع على حين فجأة، على

Twitter: @ketab_n

حين غرة خاصة». فكانت هذه الفكرة تشجعني، وكانت تبهجني رغم الاضطراب الذي كنت أحسه لأسباب شتى. ولكن. . . ولكن كان ثمة إحساسات أخرى. وكان بينها إحساس يتمنّى أن يتقدمها جميعاً وأن يستولي على نفسي كلها. ومن غريب الأمر أن هذا الإحساس كان هو أيضاً يشجعني، ويدفعني إلى فرح شديد. ومع ذلك كان هذا الإحساس قد بدأ بخوف: لقد خفت منذ مدة طويلة، منذ زيارتي لبيت تاتيانا بافلوفنا، أن أكون قد أسرفت في الكلام عن موضوع الوثيقة مع آخماكوفا، بدافع الحماسة والمفاجأة. قلت أحدث نفسي: «نعم، لقد قلت أكثر مما كان يجب أن أقول، فلا بد أنهما حزرتا شيئاً. . . يا للمصيبة! لا شك في أنهما لن تدعا لي راحة إذا ساورتهما شبهة. ولكن. . . ليكن! لعلهما لن تعثرا عليّ. سوف أتوارى عن الأنظار! ولكن ماذا إذا لاحقتاني فعلاً؟.» فإذا أنا أتذكر، بتلذذ متزايد، ما وقع لي مع كاترين نيقولايفنا كاملاً لا ينقصه شيء من التفاصيل. فأرى نظرتها، التي كانت جريئة ولكنها كانت كذلك مدهوشة أشد الدهش، تحدق إليّ. وتذكرت أنني حين خرجت تركتها مشدوهة أيضاً؛ «ليست عيناها سوداوين سواداً حالكاً مع ذلك. . . وإنما السواد الحالك في الأهداب وحدها. . . فهذا ما يضفي على العينين مظهر السواد الشديد. . .»

أذكر أن هذه الذكرى قد أثارت في نفسي اشمئزازا قوياً على حين فجأة، اشمئزازاً وتقززاً منهما ومني على السواء. فأخذت أكيل لنفسي أنواعاً من اللوم، وحاولت أن أصرف فكري إلى شيء آخر. وخطر ببالي هذا السؤال فجأة: «لماذا لم يساورني أي استياء من فرسيلوف بسبب حكايته تلك مع الجارة؟» كنت من جهتي مقتنعاً اقتناعاً قوياً بأنه مثل دور العاشق الولهان، وأنه لم يجيء إلا نشداناً للتسلية، ولكن ذلك لم يثر غضبي في الواقع. حتى لقد بدا لي أنه يستحيل على المرء أن يتصوره

Twitter: @ketab_n

في غير هذه الصورة. ولئن سرني أنه أخزي، فإنني ما اتهمته ولا أدنته قط. وليس هذا ما كان يهمني. وإنما كان الشيء الذي يهمني هو نظرة الكراهية تلك التي ألقاها عليّ حين دخلت عليه مع الجارة. لقد قلت محدثاً نفسي خافق القلب: «ها قد أخذني أخيراً مأخذ الجد!» آه. . . هل كان يمكن أن أغتبط لكراهيته هذا الاغتباط كله لولا أن كنت أحبه؟

وغفوت في النهاية، ثم نمت نوماً عميقاً. وفيما يشبه الحلم، رأيت فاسين وقد أنهى عمله - يرتب كل شيء بعناية، ويلقي على ديواني نظرة ثابتة، ثم يخلع ملابسه ويطفئ الشمعة. كان الوقت قد جاوز منتصف الليل.

- 4 -

بعد ساعتين، استيقظت منتفضاً وجلست كالمخبول على ديواني. كان ينبعث وراء الباب في غرفة الجارتين صراخ رهيب وانتحاب وبكاء وعويل. وكان باب غرفتنا نحن مفتوحاً على مداه، وكان الدهليز مضاء، وكان فيه أناس يصيحون ويركضون. فأردت أن أنادي فاسين، لكنني أدركت أنه لم يكن في سريره. ولم أعرف أين يمكنني أن ألتمس أعواد الثقاب، فتناولت ملابسي تلمسا، وارتديتها مسرعاً في الظلام. لكأن المؤجرة وجميع المستأجرين كانوا على موعد في غرفة الجارتين. إن العويل يصدر عموماً عن صوت واحد، هو صوت الجارة المسنة، أما صوت الفتاة الذي سمعته أمس وما أزال أتذكره تذكراً واضحاً كل الوضوح، فقد كان صامتاً صمتاً مطلقاً. هذه هي الملاحظة الأولى التي برقت في خاطري. وما أن انتهيت من ارتداء ملابسي حتى دخل فاسين مسرعاً، فتناول أعواد الثقاب في لحظة واحدة بيد تعرف المكان، وأنار الغرفة. وكان يلبس قميصاً وثوباً للمنزل وخفين، فأخذ يرتدي ثيابه فوراً.

Twitter: @ketab_n

هتفت أسأله:

- ماذا حدث؟

فقال بما يشبه الغضب:

- قصة مزعجة مربكة! إن الجارة الشابة التي حدثتني عنها بالأمس قد شنقت نفسها في غرفتها.

فانطقلت من صدري صرخة. لن أستطيع أن أصف الألم الشديد الذي اعتراني! وهرعنا إلى الدهليز. أعترف أنني لم أجرؤ أن أدخل غرفة الجارتين. ولم أر الفتاة المسكينة إلا فيما بعد حين فكوها. بل لم أنظر إليها إلا من بعيد. كانت مغطاة بشرشف برز تحته نعلا حذاءيها الضيقان. لم أنظر إلى وجهها. كانت الأم في حالة فظيعة مخيفة. وكانت معها المؤجرة التي لم ألاحظ فيها كثيراً من الارتياع. وكان المستأجرون قد تجمعوا في هذه الغرفة. ولم يكن عددهم كبيراً: بحار عجوز دائم التذمر متشدد في مطالبه، لكنه اليوم هادىء كل الهدوء، وعجوزان - زوج وامرأته - قدما من إقليم «تفير»، وهما شخصان محترمان من رتبة معينة. لن أصف بقية تلك الليلة، ولا الذهاب والإياب، ولا الزيارات الرسمية. لقد ظللت إلى مطلع الصبح ارتعش ارتعاشاً سريعاً من شدة الاضطراب، ورأيت أن من واجبي أن لا أرقد، رغم أنني لا أقوم بأي عمل. وكانت وجوه الجميع تعبر عن يقظة شديدة على كل حال، بل كانت تعبر عن همة ونشاط. أما فاسين فقد ذهب حتى إلى مكان ما. وبرهنت المؤجرة على أنها في هذه الأحوال امرأة ذات شهامة، على غير ما كنت أظنّ. وقد أقنعتها (وذلك أمر شعرت منه بفخر) بأنه لا يجوز أن تترك الأم وحيدة مع جثمان ابنتها، وبأن عليها أن تنقلها إلى غرفتها حتى الغد على الأقل. فوافقت فوراً على رأيي. ورغم أن الأم أخذت تتخبط وتبكي رافضة أن تترك جثمان ابنتها، فقد رضيت

Twitter: @ketab_n

أن تذهب إلى غرفة المؤجرة أخيراً، ولم تلبث المؤجرة أن سارعت تأمر بإشعال السماور. وتفرق المستأجرون بعد ذلك ذاهبين إلى غرفهم وأقفلوا أبوابهم بالمفاتيح. ولكنني لم أشأ أن أرقد بحال من الأحوال، وظللت عند المؤجرة طوال الليل، فسرت المؤجرة بأن يكون في غرفتها شخص آخر، وأن يكون هذا الشخص عدا ذلك قادراً على أن يحدثها في الأمر. وكان السماور نعم الجليس. وعلى وجه العموم السماور في روسيا ضرورة لازمة جداً، وخاصة في جميع الكوارث والنوازل، ولا سيما ما كان منها فظيعاً مفاجئاً شاذاً. . فحتى الأم شربت فنجانين من الشاي، ولكن بعد أنواع من التوسل والتضرع طبعاً، حتى لكأننا أجبرناها على الشرب إجباراً. والحق أنني لم أر في حياتي كرباً أقسى من كرب هذه الأم المسكينة ولا يأساً أوضح من يأسها. وقد طاب لها بعد الانتحاب الشديد والصراخ المسعور أن تأخذ في الكلام عما جرى لابنتها، فأصغيت إلى قصتها بنهم قوي. إن بين التعساء الذين نزلت بهم المصائب، ولا سيما النساء منهم، أناساً يجب عليك في مثل هذه الحالة أن تدعهم يتكلمون ما شاءوا أن يتكلموا. وعدا ذلك فهناك نفوس حرثتها أنواع الشقاء والمحن والأحزان حرثاً إن صح التعبير، واصطبرت طول حياتها وعانت آلاماً ضخمة وآلاماً تافهة لا نهاية لها، فلا شيء يدهشها بعد ذلك، ولو كانت كوارث مفاجئة، ولا شيء ينسيها قاعدة من قواعد فن الكياسة والتماس المودة والشفقة التي كلفها استيعابها غالياً، ولو كان منظر جثمان أعز مخلوق لديها. ولست أحكم على هؤلاء الناس. فليس مصدر هذا عندهم أنانية مبتذلة ولا تربية فجة. بل لعل في هذه القلوب من صفاء الذهن ما ليس في قلوب أبطال لهم من النبل أعظم مظهر؛ ولكن التعود الطويل على المذلة، وغريزة البقاء، واستمرار ما يعانون من الخوف والاضطهاد، قد غلبهم على أمرهم

Twitter: @ketab_n

أخيراً. فمن هذه الناحية كانت المنتحرة المسكينة لا تشبه أمها. ولكنهما متشابهتان في ملامح الوجه تشابهاً تاماً، وإن تكن الفتاة المرحومة جميلة حقاً. إن الأم لم تطعن في السن، فهي في نحو الخمسين من عمرها؛ وكانت شقراء هي أيضاً، ولكن عينيها غائرتان وخديها خاسفان وأسنانها كبيرة صفراء متفاوتة. وكل ما فيها يميل إلى الاصفرار: فجلد الوجه واليدين أشبه بالرق؛ وفستانها القاتم قد اصفر من فرط قدمه؛ وظفر السبابة من اليد اليمنى كان مدهوناً بشمع أصفر لا أدري لماذا.

ولقد كانت القصة التي روتها المرأة المسكينة مشوشة في بعض الأحيان. وسوف أروي لكم الآن ما فهمته وما أتذكره.

- 5 -

لقد جاءتا من موسكو. وهي أرملة منذ مدة طويلة، ولكنها أرملة «مستشار». كان زوجها موظفاً، ولم يترك لها شيئاً، «إلا مائتي روبل هي راتب المعاش، ولكن ما قيمة مائتي روبل؟» ومع ذلك ربت أوليا، وأرسلتها إلى المدرسة الثانوية.. «وما كان ألمعها في الدراسة، ما كان ألمعها! لقد نالت عند تخرجها من المدرسة ميدالية فضية...» (هنا ذرفت المرأة دموعاً غزيرة بطبيعة الحال.) وكان زوجها قد خسر عند تاجر من بطرسبرج مبلغاً يساوي قرابة أربعة آلاف روبل. وفجأة استرد التاجر ثراءه. «لديّ أوراق، واستنصحت، فقيل لي: طالبي بالدين، وستقبضين المبلغ حتماً..» ففعلت ذلك، فأخذ التاجر يوافق. فقيل لي: اذهبي إليه بنفسك. فحزمنا أمتعتنا، أنا وأوليا، وجئنا إلى بطرسبرج، ونحن فيها منذ شهر. وكنا نملك قليلاً من المال. واستأجرنا هذه الغرفة لأنها أصغر الغرف، ولكنها في بيت شريف. لاحظنا هذا بأعيننا، وهو الشيء الهام في نظرنا: فإننا ونحن امرأتان بغير خبرة يمكن

Twitter: @ketab_n

أن يسيء إلينا الناس وأن ينالونا بأذى. ودفعنا لك أجرة شهر سلفاً. ولكن المعيشة في بطرسبرج باهظة التكاليف. ورفض التاجر أن يدفع لنا حقنا. قال: «أنا لا أعرفكما ولا أريد أن أعرفكما»، وكانت الأوراق التي بيدي غير كافية. أدركت ذلك بنفسي. ونصحوني بأن أستشير محامياً شهيراً. كان المحامي الذي نصحوني باستشارته أستاذاً. لم يكن محامياً عادياً بل كان من رجال التشريع، فلا بد أن يقول لي ما الذي يجب عليّ أن أعمله. ذهبت إليه حاملة له آخر ما نملك، خمسة عشر روبلاً. لم يصغ إلي كلامي ثلاث دقائق. وقاطعني يقول: «فهمت، فهمت. أعرف. إذا أراد التاجر أن يدفع دفع، وإذا لم يشأ أن يدفع فلن يدفع. وإذا أقمت دعوى، فقد يحكم عليك بدفع النفقات. فالأفضل أن تحلي المسألة معه صلحاً»، حتى لقد زج في كلامه آيات من الإنجيل مازحاً متهكماً: «كن مراضياً لخصمك ما دمت معه في الطريق، حتى توفي الفلس الأخير»[55]. وشيعني ضاحكاً. هكذا ضيعت خمسة عشر روبلاً! رجعت إلى أوليا. وجلست كل منا أمام الأخرى. وكنت أبكي.. أما هي فإنها لم تبك. بل بقيت ساكنة، شامخة، متألمة. هكذا كان شأنها طول حياتها. لا «آه» و«أوه»! لا تذرف دمعة. وتظل عيناها قاسيتين. وكنت إذا رأيتها على هذه الحال تسري في ظهري رعدة. صدقني إذا أردت أن تصدق: كنت أخاف منها، أخاف منها حقاً، منذ مدة طويلة. وكنت أشتهي في بعض الأحيان أن أتشكى، ولكنني لا أجرؤ أن أتشكى أمامها. عدت إلى التاجر مرة أخيرة، وذرفت دموعاً غزيرة. فلم يزد على أن قال لي: «طيب»، حتى دون أن يصغي إلى كلامي. يجب أن أذكر لكما أننا كنا لا ننوي أن نمكث مدة طويلة، لذلك نفد كل ما كان معنا. رهنت جميع أثوابي واحداً بعد واحد، فكنا نعيش مما نقترض. ونفدت ثيابنا كلها. فأعطتني آخر قميص عندها.

Twitter: @ketab_n

فذرفت دمعة مريرة. وقرعت بقدمها الأرض من شدة غضبها، وهرعت تذهب إلى التاجر بنفسها. إنه رجل أرمل. فكلمها هكذا: «تعالي غداة غد في الساعة الخامسة، فقد يكون عندي ما أقوله لك». فرجعت إلى البيت فرحة جذلى. وأبلغتني ما قاله لها: «سيكون عندي ما أقوله لك». فسررت أنا أيضاً. ولكن شعرت في الوقت نفسه بثقل يجثم على صدري. قلت لنفسي: سوف يحدث شيء! ولكن هل كنت أجرؤ أن أفاتحها بما يساورني؟ وفي غداة الغد رجعت من عند التاجر شاحبة شحوباً شديداً، مرتعشة ارتعاشاً قوياً، وارتمت على السرير. ففهمت كل شيء، ولم أجرؤ حتى أن أسألها عما حدث. هل يمكنك أن تصدق ما وقع؟ لقد أخرج لها هذا اللص الحقير خمسة عشر روبلاً، وقال: «إذا وجدتك عذراء زدت المبلغ أربعين روبلاً». قال لها هذا، في وجهها، دون خجل. فما كان منها إلا أن هجمت عليه - فيما روت لي - ولكنه دفعها عنه برجله، ومضى إلى غرفة أخرى أقفل عليه بابها بالمفتاح. وإني لأعترف لكما صادقة أننا كنا مع ذلك لا نكاد نملك ما نقتات به. وأخذنا صديرة مبطنة بجلد أرنب فبعناها. ثم ذهبت إلى الجريدة، ونشرت إعلانا تقول فيه: أعطي دروساً لجميع العلوم، وللحساب. وقالت لي: «سأقبل أن يدفع لي ثلاثون كوبيكاً». وأصبحت في النهاية، يا سيدتي، أرتاع حين أراها. أمست لا تقول لي شيئاً، بل تبقى جالسة قرب النافذة ساعات بكاملها تنظر إلى سطح المنزل المقابل، ثم تصرخ قائلة على حين فجأة: «لسوف أعمل غسالة، أو أعمل حفارة إذا لزم الأمر!» تقول ذلك ثم تقرع الأرض بقدمها. ذلك أننا ليس لنا أحداً يمكن أن نلتجئ إليه. كنت أفكر: «ما المصير الذي ينتظرنا؟» ولكن ما أزال أخاف أن أتحدث معها. ونامت مرة في وضح النهار، ثم إذا هي تستيقظ فجأة فتفتح عينيها وتنظر إليّ. وكنت أنا جالسة على الصندوق،

Twitter: @ketab_n

أنظر إليها أيضاً. فإذا هي تنهض دون أن تقول شيئاً، وتدنو مني، فتقبلني بقوة، بقوة، ثم تفقد كلتانا الصبر، فنأخذ نبكي، ونظل متعانقين لا تترك إحدانا الأخرى. لم يحدث لها هذا في حياتها إلا تلك المرة. وفيما نحن كذلك دخلت علينا خادمتك ناستاسيا وقالت: «هناك سيدة تسأل عنكم». حدث هذا منذ أربعة أيام. ودخلت تلك السيدة: إنها ترتدي ثياباً حسنة، وتتكلم الروسية، ولكن بلكنة ألمانية. قالت: «هل أعلنت في الجريدة أنك تعطين دروسا؟»، فاحتفينا بها، وأجلسناها، وكانت تضحك بلطف ومودة. وأضافت تقول: «لست أجيء من أجلي أنا، بل من أجل ابنة أخي التي لها أولاد صغار. فتعالي إلينا إذا شئت، وسنتفاهم». وأعطت عنوانها: شارع كذا، عمارة كذا، شقة كذا. إن العمارة تقع قرب جسر كوزنتسكي. وانصرفت. ذهبت أوليا إلى العنوان. بل سعت إليه في ذلك اليوم نفسه. ثم إذا هي تعود بعد ساعتين مصابة بنوبة عصبية رهيبة. وقد روت لي ما حدث لها فيما بعد فقالت: سألت البواب: «أين الشقة رقم كذا؟»، فنظر إليّ البواب وقال: «ما حاجتك إلى هذه الشقة؟» وكان في لهجته غرابة شديدة، حتى لتراود المرء ريبة من سماع هذه اللهجة وحدها. ولكن أوليا قوية الكبرياء، نافدة الصبر، فلا تستطيع أن تطيق الأسئلة الكثيرة والكلمات الفظة. فقال لها البواب مشيراً بإصبعه إلى السلم: «طيب. هي ذي الشقة فاذهبي إليها». وأدار لها ظهره وعاد إلى حجرته. فهل تتصورون ما الذي حدث؟ دخلت أوليا الشقة، وسألت، فسرعان ما هرعت نساء من جميع الجهات تقول لها: «أدخلي، ادخلي!»، وقد هرعن جميعاً ضاحكات، مبهرجات، مخضبات الوجوه بالأصباغ والمساحيق؛ نساء ساقطات يبعثن على التقزز، نظرن إليها وجررنها جراً، وكان هناك من يعزف على البيانو. قالت لي أوليا: «أردت أن أهرب، ولكنهن لم يتركنني».

Twitter: @ketab_n

فخافت، وخارت ساقاها فلا تكادان تحملانها. والنساء ما يزلن ممسكات بها، يكلمنها بلطف ورقة، ويشجعنها. وفتحن زجاجة من خمرة بورتو يردن أن يسقينها. فانتفضت وأخذت تصرخ مرتعشة مرددة: «أتركنني، اتركنني!» وهجمت على الباب فأمسكنها، فأخذت تعول. وعندئذ وثبت الأخرى، تلك التي جاءت إلينا، فصفعت أوليا صفعتين، ودفعتها إلى الخارج وهي تقول لها: «أنت لا تستحقين يا قاذورة، أنت غير جديرة بسكنى بيت لائق!» وهتفت امرأة ثانية قائلة لها وهي تهبط على السلم: «أنت جئت تعرضين نفسك، لأنك ليس في بيتك طعام تسدين به رمقك، وإلا لما رضينا أن ننظر إليك وأنت على ما أنت عليه من هذه الدمامة كلها!» وقد قضت ليلتها في حمى وهذيان. وفي الصباح كانت عيناها تسطعان. نهضت وقالت: «سأرفع دعوى عليها!». ولم أقل شيئاً، ولكني فكرت بيني وبين نفسي: «كيف تمكن الشكوى؟ أين الأدلة؟» وأخذت أوليا تسير في الغرفة طولاً وعرضاً، وتلوي يديها؛ وأخذت الدموع تسيل من عينيها، ولكنها تكز أسنانها متجلدة مكابرة. وقد صار وجهها بلون التراب منذ تلك اللحظة، وظلت على هذه الحال طوال اليوم. وتحسنت في غداة الغد، وسكتت عن الكلام، وكأنها هدأت. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر من ذلك اليوم إنما جاء السيد فرسيلوف.

أقول بصراحة: إنني ما زلت غير قادرة على أن أفهم كيف أمكن أن تصغي أوليا إليه من أول كلمة وهي على ما عليه من شدة الارتياب؟ والحق أن ما جذبنا كلتينا إليه هو هيئته الجادة الرصينة، بل القاسية، وكذلك أسلوبه في الكلام وهو أسلوب رقيق، مهذب، لا مهذب فحسب، بل فيه توقير واحترام أيضاً، بدون أي تملق مع ذلك: إن المرء يحس أن كلامه نابع من قلبه. قال: «قرأت إعلانك في الجريدة. وأرى

Twitter: @ketab_n

أنك لم تحسني كتابته، وذلك قد يسيء إليك». ثم ذكر بعد ذلك شيئاً لم أفهمه، شيئاً عن الحساب. ولكنني رأيت أوليا تحمر وتنتعش وتنصت إلى كلامه وتدخل في الحديث بسرور (فلا بد أنه رجل ذكي جداً!)، حتى لقد سمعتها تشكره. وألقى عليها عدداً من الأسئلة. وعرفت أنه كان يقيم بموسكو فترات طويلة، وأنه يعرف مدير المدرسة معرفة شخصية. وأضاف يقول: «سوف أجد لك دروساً، لأنني أعرف كثيراً من الناس هنا، بل أستطيع أن أوصي بك أشخاصاً لهم نفوذ كبير. بل، إذا شئت الحصول على وظيفة ثابتة فأظنه أمراً ممكناً. . . ولكن اسمحي لي، بانتظار أن يتحقق ذلك، أن ألقي عليك سؤالاً صريحاً بغير لف ولا دوران: ألا أستطيع أن أساعدك في شيء على الفور؟ وثقي بأنك أنت التي تحسنين إليّ إذا أتحت لي أن أساعدك، فيكون عليّ أنا أن أشكر لك صنيعك. والأمر بسيط: سوف تردين إليّ المساعدة متى حصلت على الوظيفة. وأقسم لك بشرفي أنني من جهتي إذا وقعت يوماً في ضائقة كالضائقة التي تعانين منها، فلن أخجل من أن أطلب مساعدتك، إذا كنت ميسورة الحال ولسوف أرسل إليك عندئذ زوجتي وابنتي». . . لن أروي لكما كل حالة، وحسبي أن أذكر أنني ذرفت دمعة حين رأيت شفتي أوليا تختلجان شكراً وعرفاناً بالجميل. ولقد أجابته هكذا: «إذا قبلت مساعدتك، فإنما أقبلها لثقتي برجل شريف مستقيم إنساني يمكن أن يكون بمثابة أبي». . . لقد عبرت عما في ذهنها بكلام يبلغ هذا المبلغ من الحسن والإيجاز والنبل: «رجل إنساني». فما كان منه إلا أن نهض فوراً وهو يقول: «سأجد لك دروساً ووظيفة، حتماً؛ سأهتم بهذا الأمر منذ اليوم، لا سيما وأنك حاصلة على شهادات كافية». . . ولكنني نسيت أن أقول لكما أنه منذ دخل قد دقق في شهادات المدرسة لأنها أرته إياها، وأنه سألها في موضوعات كثيرة. . . وقد قالت لي أوليا بعد

Twitter: @ketab_n

انصرافه: «هل تعرفين يا ماما أنه امتحنني امتحاناً. . . ما أذكاه! ما أمتع الحديث مع رجل في مثل علمه وثقافته». . . كان وجهها يشع فرحاً. وكان على الطاولة ستون روبلاً. قالت لي: «خُذيها يا ماما. حين نحصل على وظيفة. نرد إليه القرض في أقرب وقت. سوف نبرهن على أننا أناس شرفاء، وأن لنا شعوراً مرهفاً وإحساساً رقيقاً، ولقد لاحظ هو ذلك طبعاً». ثم صمتت. ورأيت أنها تتنفس تنفساً عميقاً. وقالت لي بعد برهة: «لو كنا أناس أفظاظاً يا ماما، لرفضنا مساعدته كبرياء وأنفة ولكننا بقبولنا هذه المساعدة برهنا على رقة شعورنا، وعلى أننا نثق به رجلاً جديراً بالاحترام، شائب الشعر، أليس كذلك؟» فلم أفهم في أول الأمر شيئاً، وقلت: «ولكن علام نرفض مساعدة رجل نبيل غني يا أوليا، إذا هو فوق ذلك طيب القلب؟» فقطبت حاجبيها وقالت: «لا يا ماما، ليس هذا هو الأمر، ليس الأمر أمر مساعدة بل الأمر «روح إنسانية». أما المال فلعله كان ينبغي أن لا نأخذه. ألم يعد بأن يجد لي وظيفة؟ كان هذا يكفي. . . رغم شدة حاجتنا إلى المال». قلت «كفاك يا أوليا، ما نحن في حال تسمح لنا بالرفض»، حتى لقد ضحكت وأنا أقول لها هذا الكلام. كنت بيني وبين نفسي مسرورة. ولكن ها هي ذي أوليا تعود إلى الموضوع بعد ساعة قائلة: «تريثي يا ماما. لا تنفقي من هذا المال شيئاً». قالت ذلك بلهجة قاطعة. فسألتها: «لماذا؟»، قالت: «نعم يا ماما، تريثي». ثم لم تنطق بعد ذلك بشيء. وإنما ظلت مساءها كله صامتة. حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، استيقظت فسمعت أوليا تتقلب على سريرها وتسألني: «ألست نائمة يا ماما؟»، فأجبتها: «لا»، فقالت: «هل تعلمين؟ لقد أراد أن يهينني». قلت: «– ما هذا الكلام؟». قالت: «حتماً، حتماً، إنه رجل دنيء. إياك أن تنفقي كوبيكاً واحداً من ماله». وهممت أن أجيبها، حتى لقد بدأت أبكي على

Twitter: @ketab_n

سريري، ولكنها انقلبت إلى جهة الحائط قائلة لي: «لا تجيبيني، دعيني أنام!» ونظرت إليها في الصباح، فلم أتعرفها من فرط تغيرها. صدقا أو لا تصدقا، لكنني أحلف لكما أمام الله أنها قد جنت! إنها منذ عوملت تلك المعاملة في ذلك البيت الساقط القذر، قد اختل قلبها. . . واختل عقلها أيضاً. نظرت إليها في ذلك الصباح، فاستبدت بي الحيرة واستبد بي الخوف. قلت لنفسي: «يجب أن لا أعارضها في شيء». قالت: «إنه يا ماما، لم يترك عنوانه». فقلت: «أنت على خطأ يا أوليا. لقد سمعت حديثه أمس، فأثنيت عليه، ثم أوشكت أن تذرفي دموع الشكر والعرفان بالجميل». ما إن قلت هذا حتى أخذت تصرخ، وتضرب الأرض بقدمها قائلة لي: «ليس في قلبك إلا عواطف ذل! هي تربية عهد العبودية، القديمة!». . . ورغم كل ما قلت لها لم تسمعني بل تناولت قبعتها، وهربت. وصحت أناديها على السلم. ثم تساءلت ماذا دهاها؟ إلى أين هربت؟ لقد ذهبت إلى مكتب العناوين، لتعرف أين يسكن السيد فرسيلوف. وقالت لي حين عادت: «في هذا اليوم نفسه سأرد إليه ماله، سأرمي ماله في وجهه. لقد أراد أن يهينني، كما فعل سافرونوف (التاجر)، ولا فرق بينهما إلا في أن سافرونوف فعل ما فعله بفظاظة فلاح، أما هو فبمكر واحتيال». ولسوء الحظ، في تلك اللحظة نفسها نقر على الباب ذلك السيد الذي جاءنا أمس، وقال: سمعتكما تتكلمان عن فرسيلوف، فأستطيع أن أزودكما بأنبائه». فما أن سمعت اسم فرسيلوف حتى وثبت إلى الرجل مستعرة الغضب. وأخذت تتكلم، وتتكلم. فكنت أنظر إليها فلا أصدق عيني. عهدي بها شديدة الصمت، ما رأيتها في حياتها تتدفق في الكلام هذا التدفق، فكيف تندفع الآن في الحديث هذا الاندفاع، ولا سيما مع رجل لا تعرفه؟ وكان خداها حمراوين، وكانت عيناها تسطعان. . . قال الرجل لها: «إنك على حق

Twitter: @ketab_n

يا آنسة. إن فرسيلوف يشبه كل الشبه أولئك الجنرالات الذين يوصفون في الصحف. يتزين واحدهم بجميع أوسمته، ويسعى إلى المربيات اللواتي ينشرن إعلانات في الجرائد، يسعى ويجد مطلبه. وإذا لم يجده يتكلم، ويبذل الوعود البراقة، ثم يرجع من حيث أتى! يكون قد تسلى على الأقل». حتى أوليا ضحكت، ولكن ضحكها كان مغتاظاً عجيباً. وتناول ذلك السيد يدها وحملها إلى قلبه قائلاً: «أنا أيضاً أملك ثروة في إمكاني دائماً أن أعرضها على فتاة جميلة. ولكن حسبي في أول الأمر أن أقبل يدها»... ورأيت أنه يجذب يدها ليقبلها، فوثبت أوليا، ووثبت أنا معها في هذه المرة، وتعاونا كلتينا على طرده. وفي المساء اختطفت أوليا المال مني وخرجت مسرعة، ثم رجعت وقالت لي: «ماما، انتقمت من ذلك الرجل الحقير!» قلت لها: «أوليا، من يدري أننا لم ندمر سعادتنا بأيدينا، من يدري أنك لم تهيني رجلاً شريفاً محسناً!» وبكيت ألماً وحسرة. لم أستطع أن أسيطر على نفسي. فإذا هي تصرخ قائلة: «لا أريد، لا أريد! هبيه أشرف إنسان في العالم. لا أريد صدقاته! لا أريد أن يشفق عليّ أحد!» ورقدت خالية البال من أية فكرة. لم يدر في خلدي شيء. لطالما نظرت إليه، هذا المسمار المدقوق في الجدار من بقايا مرآة، فلم يخطر في ذهني شيء، لا أمس، ولا قبله، ولا في يوم من الأيام. لم أُقَدّر أن يحدث حادث. لا سيما وأنني كنت لا أتوقع هذا من عزيزتي أوليا. ومن عادتي أنني أنام نوماً ثقيلاً، وأشخر؛ إنه الدم يصعد إلى رأسي. وقد ينزل الدم إلى قلبي فأصرخ في نومي، توقظني أوليا في الليل وتقول لي: «ما هذا يا ماما؟ إنك تنامين نوماً يبلغ من الثقل أنه يصعب إيقاظك عند الحاجة». فأقول لها: «آ... نعم نعم يا صغيرتي أوليا، إن نومي ثقيل، ثقيل جداً». ولا بد إذن أنني كنت في هذه الليلة أشخر ذلك الشخير. وهذا ما كانت تنتظره أوليا:

Twitter: @ketab_n

فنهضت دون أن تخشى شيئاً. وكان عندنا سير طويل نحزم به حقيبتنا، وكان السير ملقى في الغرفة ظاهراً للعيان طول هذا الشهر. ولقد حدثت نفسي صباح أمس قائلة: إن عليّ أن أضعه في مكان، فليس يليق أن يبقى ملقى في الغرفة هكذا! أما الكرسي فلا بد أنها دفعته بقدمها؛ ومن أجل أن لا تحدث ضجة وضعت تحته تنورتها. ولا شك أنني لم أستيقظ إلا بعد مدة طويلة، بعد ساعة أو أكثر. فناديتها. «أوليا! أوليا! أوليا!» لكأن نوعاً من رؤيا قد وافاني فناديتها. وإما لأنني لم أسمع تنفسها في السرير، وإما لأن سريرها بدا لي في الظلام خالياً، فقد رأيتني أثب دفعة واحدة وأمد ذراعي أتلمس السرير: لم يكن في السرير أحد، وكانت المخدة باردة. عندئذ انقبض قلبي، وتجمدت في مكاني كأنني تمثال من حجر، واضطرب عقلي. قلت لنفسي: «لا بد أنها خرجت». ثم لاح لي بقرب السرير، في الزاوية، أمام الباب، أنني أراها واقفة. فنظرت إليها دون أن أقول كلمة، ونظرت إليّ هي أيضاً في الظلام دون أن تتحرك... وفكرت: «لماذا هي واقفة على الكرسي؟» وقلت لها خائفة بصوت خافت جداً: «أوليا، أوليا، هل تسمعينني؟» عندئذ اتضح لي كل شيء فجأة. فتقدمت خطوة إلى أمام، ومددت ذراعي نحوها، وطوقتها. فكانت تترجح بين يدي. وأمسكتها فظلت تترجح. أدركت كل شيء. ولم أشأ أن أدرك... وأردت أن أصرخ ولكن صوتي لم يخرج... تأوهت في داخلي: آه... وهويت على الأرض، وعندئذ صرخت...

قلت لفاسين في الصباح، بين الساعة الخامسة والساعة السادسة:

- لولا صاحبك ستيبلكوف يا فاسين، كان يمكن أن لا يحدث شيء مما حدث.

- ما يدريك؟ بل كان سيحدث حتماً. لا يجوز للمرء أن يحكم في

Twitter: @ketab_n

الأمور على هذا النحو. لقد كان كل شيء يسير إلى هذه الخاتمة... صحيح أن ستيبلكوف هذا، في بعض الأحيان...

ولم يكمل فاسين جملته، وقطب حاجبيه ممتعضاً؛ وانصرف بعد الساعة السادسة ليهتم بتدبير الأمور. فخلوت أخيراً إلى نفسي. لقد طلع النهار. وكنت أشعر بشيء من دوار. ووافتني صورة فرسيلوف: إن القصة التي روتها عنه السيدة تظهره في ضوء جديد. ومن أجل أن أفكر في الأمر على مهل، استلقيت على سرير فاسين بملابسي وحذائي لحظة، وليس في نيتي أن أنام أبداً. لكنني لم ألبث أن نمت، لا أذكر كيف تم هذا. نمت قرابة أربع ساعات. ولم يوقظني أحد.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

– 1 –

استيقظت في نحو الساعة العاشرة والنصف، فلبثت مدة لا أصدق عيني: فعلى الديوان الذي نمت عليه في الليلة البارحة كانت تجلس أمي، وبجانبها الجارة المسكينة، أم المنتحرة. وكانت الاثنتان قد أمسكت كل منهما يد الأخرى، وراحتا تتحدثان بصوت خافت حتى لا توقظاني طبعاً، وكانتا كلتاهما تبكيان. نهضت ووثبت لأقبل أمي، فأشرق وجهها وقبلتني، ورسمت عليَّ إشارة الصليب بيدها اليمنى ثلاث مرات. فدخل فرسيلوف وفاسين. نهضت أمي فوراً وخرجت بصحبة الجارة. مدّ إليَّ فاسين يده. ولم يخاطبني فرسيلوف بكلمة، بل تهالك على المقعد. أغلب الظن أنه جاء إلى هنا هو وأمي منذ وقت. وكان وجهه مشدوداً، وكانت هيئته تنم عن هم وقلق.

ولا شك أنه كان قد بدأ حديثاً مع فاسين، فها هو ذا يكمل حديثه قائلاً له بصوت واضح جداً:

– إن ما آسف له أكثر من كل شيء آخر هو أنني لم أستطع أن أعالج هذا الأمر كله مساء أمس. ولولا ذلك لما وقعت هذه الحادثة الرهيبة! كان في الوقت متسع. لم تكن الساعة قد بلغت الثامنة بعد. وما إن خرجت من عندنا هاربة حتى قررت بيني وبين نفسي أن أدركها هنا، فأبدد ما قام في

Twitter: @ketab_n

ذهنها من فهم خطأ. ولكن تلك القضية المستعجلة التي لم تكن في الحسبان، والتي كان يمكنني مع ذلك أن أرجئها إلى اليوم. . . بل كان يمكنني أن أرجئها أسبوعاً. . . تلك القضية المزعجة هي التي حالت بيني وبين اللحاق بالفتاة إلى هنا، فأفسدت كل شيء. أمور تحدث!

فقال فاسين معترضاً:

– لعلك ما كنت لتستطيع أن تقنعها. إن أحقاداً مريرة كثيرة كانت قد تجمعت في نفسها قبل أن تلقاها.

– بل كنت سأفلح في إقناعها. كنت سأفلح حتما. وكانت في ذهني فكرة أخرى، هي أن أرسل إليها صوفيا آندرييفنا نيابة عني. لقد خطرت هذه الفكرة ببالي، ولكنها لم تستقر فيه. كان يمكن أن تفلح صوفيا آندرييفنا، فلو نفذنا هذه الفكرة لأمكن أن تكون المسكينة حية الآن. لا، لا! لن أقحم نفسي بعد اليوم في. . . «أعمال خير». . . ها قد جربت فكان مسعاي وبالاً! ما كان أغباني حين ظننت أنني ما أزال من أبناء هذا العصر، وأنني أفهم طبيعة الشباب في هذا الزمان! نعم، إن جيلنا قد شاخ حتى قبل أن ينضج. بالمناسبة: إن عدداً هائلاً من الناس لا يزالون بحكم العادة يظنون أنفسهم من جيل الشباب لأنهم كانوا حتى الأمس ينتمون إلى جيل الشباب، ولا يدركون أنهم قد أُقصوا ونُحُّوا.

قال فاسين بتعقل وحكمة:

– وقع هنا خطأ واضح في فهم المسألة. إن أم الفتاة تعترف بأن ابنتها، بعد الحادث الذي وقع لها في بيت المومسات، قد أصبحت كمن فقد عقله. أضف إلى ذلك الظروف القاسية، والإهانة الأولى التي ألحقها بها التاجر. . . إن هذا كله يمكن أن يحدث في الماضي على هذا النحو نفسه، وليس هو في رأيي صفةً تتميز بها شبيبة هذا العصر.

– إن شبيبة هذا الزمان نافدة الصبر قليلاً، ناهيك طبعاً عما تتصف به

Twitter: @ketab_n

الشبيبة في جميع الأزمنة من ضعف إدراك الواقع، ولا سيما شبيبة الزمان الحاضر. . . قل لي: ماذا لفق السيد ستيبلكوف هنا؟

فانبريت أتدخل في الحديث فجأة فقلت:

- إن السيد ستيبلكوف هو سبب البلاء كله. فلولاه لما حدث شيء. لقد صبَّ على النار زيتا.

فأصغى فرسيلوف، ولكنه لم ينظر إليّ. وقطب فاسين حاجبيه. ثم استأنف فرسيلوف كلامه فقال ماطاً كلماته بدون تعجل:

- هناك شيء آخر سخيف ألوم نفسي عليه. يخيل إليَّ أنني بحكم عادة سيئة مستحكمة قد أبحت لنفسي شيئاً من المرح معها، فضحكت ضحكة خفيفة، أي أنني لم أكن قاطعاً وجافاً وجهماً بالقدر الكافي، وهذه صفات ثلاث أظن أن الجيل الجديد يقدّرها قدراً كبيراً. لعلني أتحت لها أن تحسبني سبلادون متجولا[56].

فعدت أقاطعه مرة أخرى قائلاً بعنف:

- بالعكس: إن الأم تؤكد أنك أحدثت في نفسها أثراً حسناً رائعاً، وأن الفضل في هذا الأثر إنما يرجع إلى ما كان فيك من جدٍ بل من قسوة، وما كان فيك من صدق. هذه أقوالها هي نفسها. إن الفتاة الراحلة قد أثنت عليك بعد انصرافك ثناء يحمل هذا المعنى ذاته.

فتمتم فرسيلوف وهو يلقي عليَّ أخيراً نظرة سريعة خاطفة:

- هـ. . . كذا؟

ثم أضاف قائلاً لفاسين وهو يمد إليه ورقة صغيرة.

- خذ إذاً هذه الورقة، فلا بد منها للقضية.

فتناول فاسين الورقة؛ وإذ رأى أنني أنظر إليها مستطلعاً، أعطانيها لأقرأها. إنها بطاقة كتب فيها سطران مضطربان كُتبا خربشةً بالقلم الرصاص، وأغلب الظن أنهما كتبتا في الظلام: «ماما، ماما العزيزة، اغفري

Twitter: @ketab_n

لي أنني قد رسبت في مطلع الحياة: ابنتك أوليا التي أورثتك آلاماً».

قال فاسين شارحاً:

- وُجدت البطاقة في هذا الصباح.

فهتفت أقول مندهشاً:

- يا لها من رسالة غريبة!

فسألني فاسين:

- غريبة؟ لماذا؟

- هل يستطيع المرء، في لحظة كتلك اللحظة، أن يكتب بهذا الأسلوب الهزلي؟

فنظر إليَّ فاسين مستفهماً. فتابعت كلامي أقول:

- هذا الهزل نفسه غريب. إنه من اللغة التي يتخاطب بها تلاميذ المدرسة... من ذا الذي يستطيع، في مثل تلك اللحظة، وفي رسالة لأمه الشقية، التي يحبها هذا الحب الذي نراه واضحاً في الرسالة نفسها،

- أن يكتب: «رسبت في مطلع الحياة»؟

فسألني فاسين وهو لا يزال لا يفهم: - لماذا؟

وقال فرسيلوف أخيراً:

- ليس ههنا أي هزل. قد يكون التعبير غير مناسب، قد يكون ناشزاً، قد يكون من بقايا اللغة التي يتخاطب بها التلاميذ في المدرسة أو الرفاق فيما بينهم كما تقول، أو قد يكون مستمداً من المقالات الساخرة في الجرائد، ولكن لا شك في أن الفتاة المرحومة حين استعملته لم تلاحظ أنها تستعمل لهجة فيها هزل، وإنما هي استعملته في هذه الرسالة الفظيعة بسذاجة تامة وجد كامل.

- مستحيل. لقد أنهت دراستها، وحصلت عند تخرجها على ميدالية فضية.

Twitter: @ketab_n

قال فرسيلوف:

- لا شأن للميدالية الفضية في هذا. كثيرون من ينهون دراستهم في هذا الزمان على هذا النحو.

فقال فاسين مبتسماً:

- تتهجم على الشبيبة من جديد!

فأجابه فرسيلوف وهو ينهض ويتناول قبعته:

- لا، أبداً.

ثم أضاف يقول بجد غير معهود فيه:

- لئن كان الجيل الحالي أقل معرفة بالأدب، فمما لا شك فيه... أن له مزايا أخرى. ثم إن قولي «كثيرون» لا يعني «الجميع». فأنت مثلاً لا يمكنني أن أتهمك بأن ثقافتك الأدبية ناقصة، ومع ذلك فأنت لا تزال شاباً.

فلم أستطع أن أمنع نفسي عن أن أقول:

- ولكن فاسين لا يعد هذا «الرسوب» سوءاً!

مدَّ فرسيلوف يده إلى فاسين صامتاً. وتناول فاسين كسكيتته ليخرج معه قائلاً لي «إلى اللقاء». وخرج فرسيلوف دون أن يوليني انتباها. وكنت أنا أيضاً على عجلة من أمري، لا أملك من الوقت ما أستطيع أن أضيعه سدى: كان عليَّ أن أسعى باحثاً لنفسي عن مسكن يؤويني. إن حاجتي إلى هذا أقوى منها في أي وقت مضى! وكانت أمي قد انصرفت مصطحبة الجارة. فلما خرجت إلى الشارع وجدتني مشرق المزاج... إن إحساساً جديداً رحباً قد نبت في نفسي. وشاءت المصادفة أن ينجح مسعاي. فسرعان ما وقعت على مسكن مناسب. سوف أعود إلى هذا من بعد. أما الآن فلأفرغ من الشيء الأساسي.

حين عدت إلى بيت فاسين لأخذ حقيبتي لم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة كثيراً. وكان فاسين في البيت فما أن رآني حتى هتف يقول لي

Twitter: @ketab_n

جذل الهيئة صادق النبرة:

- كم يسعدني أنك وجدتني! كنت على وشك أن أخرج. هناك حادث يجب أن أنقله إليك، وأنا على يقين من أنه سيهمك كثيراً.

فهتفت أقول:

- أنا على يقين من ذلك سلفاً!

- هيه! ما أشد هذه الخفة في هيئتك! قل لي: ألم تكن تعرف شيئاً عن رسالة كانت عند كرافت، ووقعت أمس بين يدي فرسيلوف، في أمر الميراث الذي آل إليه؟ إن كاتب الوصية قد عبر في هذه الرسالة عن إرادته بما يناقض حكم المحكمة. ويرجع تاريخ الرسالة إلى زمن بعيد. الخلاصة أنني لا أعرف ماذا تتضمن الرسالة على وجه الدقة، ولكن ألا تعرف أنت شيئاً عن ذلك؟

- أعرف، طبعاً. لقد اقتادني كرافت أمس الأول إلى بيته... من عند أولئك السادة، فأعطاني الرسالة. وأنا الذي سلمتها أمس إلى فرسيلوف.

- صحيح؟ ذلك ما قدرته. تصور أن القضية التي تكلم عنها فرسيلوف هنا منذ قليل، والتي حالت بينه وبين اللحاق بالفتاة في مساء الأمس ليبدد ما وقع في وهمها من سوء الظن، إنما هي قضية أثارتها تلك الرسالة. لقد ذهب فرسيلوف إلى محامي الأمير سوكولسكي رأساً، في مساء الأمس، وأعطاه الرسالة وتنازل عن كل الميراث الذي كسبه. وقد اكتسب هذا التنازل الآن صفة شرعية. فإن فرسيلوف لا يهب هبة، وإنما يعترف في صك التنازل بأن الميراث حق كامل للأمراء.

ذهلت. ولكنه أعجبني. الحق أنني كنت مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن فرسيلوف كان سيتلف هذه الرسالة التي تعرّض مصلحته للخطر، وأكثر من ذلك أنني قلت لكرافت: إن إتلاف الرسالة عمل غير شريف، حتى أنني كررت هذا القول لنفسي في المطعم، وأنني «جئت إلى إنسان نزيه

Twitter: @ketab_n

وليس إلى هذا الإنسان»، ولكنني كنت في قرارة نفسي أحس أن هذا الحل يفرض نفسه، وأنه طبيعي سواء كان الرجل شريفاً أم لا. وإذا أمكنني أن أتهم فرسيلوف فيما بعد، فإنما يكون ذلك مني تظاهراً، أي أنني كنت سأصدر الاتهام عامداً لأحتفظ بتفوقي على فرسيلوف. أما الآن، وقد علمت بالمأثرة التي قام بها، فقد أحسست بحماسة صادقة تامة. وأسفت لاستخفافي بالفضيلة وقلة اكتراثي بالواجب، وسرعان ما وضعت فرسيلوف في منزلة أعلى كثيراً من منزلتي. وأوشكت أن أقبِّل فاسين. وهتفت أقول فيما يشبه الهذيان من النشوة:

- ما أعظمه من رجل! ما أعظمه من رجل! من ذا الذي كان يمكن أن يفعل ما فعله؟

قال فاسين:

- أعترف معك بأن كثيراً من الناس ما كانوا ليفعلوا ما فعل... وأن عمله عمل نزيه للغاية...

- «ولكن»؟ أكمل يا فاسين... هل عندك ما تعترض عليه؟

- طبعاً، عندي «ولكن». إن العمل الذي قام به فرسيلوف يشتمل في رأيي على تسرّع، ويشتمل على شيء من الزيف... قال فاسين ذلك وابتسم.

- الزيف؟

- نعم. لقد أراد بهذا أن يرفع قدر نفسه، بل كان كمن يبني لنفسه «نصباً» يرفعه. لقد كان في وسعه أن يقوم بهذا العمل نفسه دون أن يلحق بنفسه ضرراً. لقد كان في وسعه - والظروف هي ما عرفت من أن حكم القضاء صدر ومن أن الوثيقة ليس لها قيمة حاسمة - كان في وسعه أن يحتفظ لنفسه بنصف الميراث أو بجزء كبير منه في أقل تقدير، دون أن يعترض على ذلك أي وجدان مهما يكن شديد الإحساس. وهذا رأي

Twitter: @ketab_n

محامي الخصوم نفسه. لقد تحدثت مع المحامي منذ برهة. فلو فعل فرسيلوف ذلك لكان قد قام بعمل لا يقل جمالاً عن العمل الذي قام به. ولكنه فعل ما فعل حباً بالظهور ورغبة في المباهاة. لقد تحمس السيد فرسيلوف كثيراً وأسرف في التسرع. وقد قال هو نفسه منذ قليل إنه كان يستطيع أن يرجىء الأمر أسبوعاً...

- اسمع يا فاسين... لا يسعني إلا أن أوافق على أن ما تقوله سليم... ولكنني أفضل أن أرى الأمور تجري كما جرت!

- هذه مسألة ذوق. أنت الذي حرضتني على الكلام. ولولا ذلك لصمتّ وما قلت شيئاً.

وتابعت كلامي فقلت:

- هب عمله نُصباً يرتقيه إعلاءً لقدر نفسه فإن هذا رغم ذلك أفضل. إن النصب، رغم كونه نصباً، فهو في حد ذاته شيء هام للغاية. إن هذا «النصب» هو «المثل الأعلى» ذاته. وإذا كانت بعض النفوس تخلو منه الآن فما أظن ذلك أفضل. وليكن مشوهاً بعض التشويه، ولكنني أفضل أن يوجد على أن لا يوجد! ولا شك أنك تفكر هذا التفكير نفسه صديقي فاسين، يا عزيزي فاسين! أنا أعرف أنني أسرف في الحماسة حتى لكأنني أهذي، ولكنك تفهم عني طبعاً، وإلا لم تكن فاسين. على كل حال، فإنني أعانقك وأقبلك يا فاسين!

- من شدة الفرح؟

- من شدة الفرح! ذلك أن هذا الرجل «كان ميتاً فبعث، وكان ضائعاً فرجع!»[57] أنا فتى سيئ يا فاسين، أنا لا أساويك. أعترف لك بذلك لأنني أشعر أحياناً بأنني أصبح إنساناً آخر، أسمى وأعمق في آن واحد. إنني بعد أن كلت لك المديح أمس الأول (وما مدحتك في الواقع إلا لأنني أذللت وسُحقت)، ظللت أكرهك يومين كاملين! وقد عاهدت

Twitter: @ketab_n

نفسي في تلك الليلة على أن لا أجيئك من بعد أبداً، لئن جئت إليك في صباح أمس، فإنني لم أفعل ذلك إلا من حنق، هل فهمت؟ من حنق! وحين جلست هنا على هذا الكرسي وحيداً، أخذت انتقد غرفتك، وانتقدك أنت نفسك، وانتقد كل كتاب من كتبك، وانتقد مؤجرتك، كنت أحاول أن أخفض قيمتك وأن أسخر منك. . .

- ما كان ينبغي أن تقول لي هذا. . .

- في مساء أمس، حين استنتجت من إحدى عباراتك أنك لا تفهم النساء، أسعدني كثيراً أنني استطعت أن أغلبك. ومنذ قليل، بمناسبة الكلام عن «الرسوب في مطلع الحياة»، سعدت مرة أخرى سعادة هائلة لأنني استطعت أن أخطّئك. وما ذلك كله إلا لأنني مدحتك في ذلك اليوم. . .

كان فاسين لا يزال يبتسم، دون أن يدهش أي دهش. وهتف يقول أخيراً:

- ولكن هذا أمر طبيعي! هذا ما يحدث دائماً، لجميع الناس تقريباً، بل هذا هو الشعور الأول الذي يشب في النفس. ولكن لا أحد يعترف به، ولا ينبغي الاعتراف به على كل حال، لأنه ينقضي ولا تترتب عليه أية نتيجة.

- يحدث لجميع الناس؟ هل هذا ممكن؟ هل جميع الناس على هذه الشاكلة؟ هل يمكن أن يعرف المرء هذه الحقيقة ثم يحافظ على هدوئه؟ بمثل هذه الأفكار، تصبح الحياة مستحيلة!

- فأنت إذن ترى ما يراه القائل:

لَوَهمٌ يسمو بالنفس

خير من ألف حقيقة دنيئة[58]

فهتف أقول:

- هذا صحيح كل الصحة. إن هذا البيت من الشعر يعبر عن بديهية مقدسة!

Twitter: @ketab_n

- لا أدري! لا أريد أن أجزم بأن هذا البيت من الشعر صادق أو كاذب. إن الحقيقة قائمة في مكان بالوسط. كذلك شأنها دائماً. فرب أمر واحد يكون حقيقة مقدسة تارة، ويكون كذباً سفيهاً تارة أخرى. غير أن هناك شيئاً أعلمه علم اليقين هو أن هذه الفكرة ستظل إحدى النقاط الهامة التي يثور حولها الجدال بين الناس. وإني لألاحظ على كل حال أن بك الآن رغبة في الرقص. فهيا ارقص! الرقص متعة ولكنني في هذا الصباح قد تلقيت ركاماً ضخماً من العمل... وأرى أنني تأخرت بسببك!

صحت أقول وأنا أمسك حقيبتي:

- سأنصرف حالاً، سأنصرف حالاً! ولكن لي كلمة واحدة. لئن حدث لي مرة أن «ارتميت على عنقك»، فما ذلك إلا لأنك نقلت إليَّ النبأ منذ وصولي بفرح صادق، ولأنك «قد أسعدك» أنني وجدتك في البيت، حتى بعد قضية «الرسوب في مطلع الحياة». فهذا السرور الصادق قد رد «قلبي الفتي» إليك زاخراً بالمحبة. أستودعك الله، أستودعك الله، سوف أحاول أن لا أجيء إليك إلا بعد مدة طويلة، وأنا أعرف أنك ترتاح لغيابي ارتياحاً عظيماً. أقرأ هذا في عينيك. وعلى كل حال، إن في غيابي عنك خيراً لنا كلينا...

وفيما أنا في هذه الثرثرة التي تكاد تخنقني مرحاً وجذلاً، سحبت حقيبتي ومضيت بها إلى مسكني الجديد. وكان الشيء الذي يرضيني إرضاء خاصاً هو أن فرسيلوف قد غضب مني حينذاك، ورفض أن يكلمني وأن ينظر إليَّ. فما أن أودعت حقيبتي في المسكن الجديد، حتى طرت إلى صاحبي الأمير العجوز. يجب أن أعترف بأن بعدي عنه خلال هذين اليومين قد شق على نفسي قليلاً. ولا بد من جهة أخرى أنه علم بما فعله فرسيلوف.

Twitter: @ketab_n

كنت أعرف أنه سيفرح برؤيتي فرحاً شديداً، وأقسم أنني كنت سأذهب إليه في ذلك اليوم بصرف النظر عن رغبتي في سماع ما سيقوله عن فرسيلوف. ولكن كان يخيفني أمس، وقبل ساعات، أنني قد ألقى عنده كاترين نيقولايفنا، أما الآن فلا أخشى شيئاً.

عانقني من شدة فرحه.

وهجمت فوراً على الموضوع الأساسي، فبدأت حديثي معه قائلاً:

- هيه! ما رأيك فيما فعله فرسيلوف؟

فبادرني بقوله:

Cher enfant، يا صديقي العزيز، هذا عمل عظيم، هذا عمل نبيل! حتى كيليان (الموظف الذي يعمل تحت) قد شده منه شدها كبيراً! هذا العمل جنون من جهته طبعاً، ولكنه عمل باهر! إنه مأثرة عظيمة! يجب على المرء أن يعرف كيف يقدر المثل الأعلى!

- أليس كذلك؟ أليس كذلك؟ لقد كنا دائماً على اتفاق في هذه النقطة.

- يا عزيزي نحن دائماً متفقان. أين كنت؟ لقد أردت أن أذهب إليك حتماً، ولكنني كنت لا أعرف أين يمكنني أن أجدك... ولم يكن في وسعي أن أذهب إلى فرسيلوف طبعاً... رغم أنني اليوم، بعد ما حدث... هل تعلم يا صديقي؟ أنه بمثل هذه الميزات إنما أتيح له أن ينتصر على النساء. أنا من هذا على يقين...

- بالمناسبة، قبل أن أنسى... لقد سمعت تعبيراً قيل في حقه، فحفظته لأقوله لك خاصة. أمس، قال شخص بذيء حقير إن فرسيلوف «نبي للنساء». يا له من تعبير عجيب! التعبير نفسه، هه؟ حفظته لأقوله لك...

Twitter: @ketab_n

- «نبي للنساء!» يا له من تعبير أخّاذ (بالفرنسية)! هأهأهأ! تعبير ينطبق عليه تماماً! بل قل إنه لا ينطبق عليه إطلاقاً، لكنه تعبير أصاب هدفاً، بل قل إنه لم يصب أي هدف. . . ولكن. .

- لا بأس، لا بأس! لا تقلق! انظر إليه نظرتك إلى الكلمة الموفقة فحسب. . .

- الكلمة رائعة، وإن لها لمعنى عميقاً. . . الفكرة صحيحة كل الصحة! أقصد. . لعلك ستصدق ما سأقوله لك. . . الخلاصة. . . سأفضي إليك بسر صغير جداً. هل لاحظت في ذلك اليوم أولمبيادا تلك؟ هل تصدق أنها أغرمت بأندريه بتروفتش؟ بل إنني أعتقد أن أملاً يساورها. . .

صحت أسأله مستاء:

- أي أمل؟

- يا عزيزي لا تصح هذا الصياح. كل هذا صحيح. وأنت من جهة أخرى على حق، من وجهة نظرك. بالمناسبة: قل لي يا صديقي، ماذا حدث لك في المرة الماضية أمام كاترين نيقولايفنا؟ لقد رأيتك تترنح، وكدت تسقط. . . حتى أنني هممت أن أثب لأمسك بك.

- ليس هذا أوان الكلام في هذا الأمر. على كل حال، اضطربت بعض الاضطراب، لسبب من الأسباب. . .

- وهأنت ذا يحمر وجهك.

- وهل أنت في حاجة إلى مزيد من الإلحاح؟ إنك تعرف أن بينها وبين فرسيلوف شقاقاً. . . ثم هنالك تلك الأمور كلها. . المهم أنني اضطربت. دعنا من هذا إلى حين آخر!

- فلندعه، فلندعه، أنا نفسي سعيد بأن ندع كل هذا. . . باختصار أنا أشعر بأنني مذنب كثيراً في حقها، بل كنت أتذمر حينذاك أمامك،

Twitter: @ketab_n

أتذكر؟ . . فلتنس ذلك يا صديقي، فهي أيضاً ستغير رأيها فيك، إنني أحدس ذلك جيداً . . . وها هو الأمير سرجي!

ورأيت ضابطاً شاباً جميلاً يدخل. فنظرت إليه بعين نهمة، لأنني لم أكن قد رأيته من قبل أبداً. وإذا قلت إنه جميل، فلأن جميع الناس كانوا يقولون عنه ذلك، ولكن يجب أن أذكر أن وجهه الشاب الجميل كان فيه شيء منفر. إنني أسجل هنا شعوراً أحسسته في الوهلة الأولى، شعوراً خامرني منذ أول نظرة، ثم بقي في نفسي لم يبارحها. إنه نحيل الجسم، حسن القامة، كستنائي الشعر، نضر البشرة على شيء من صفرة، جازم النظرة، تبدو في عينيه، القاتمتين قليلاً، قسوة، حتى حين يكون هادئاً. ولكن نظرته الجازمة هذه هي الشيء المنفر فيه، لأن المرء يحس أنها لا تكلفه إلا ثمناً بخساً جداً. الخلاصة. . إنني لا أعرف كيف أعبر عما أريد أن أقوله. . . على كل حال، كان وجهه قادراً على الانتقال من القسوة إلى المودة فجأة، وذلك بصدق لا يستطيع المرء أن يماري فيه أو أن يجحده. فهذا الصدق كان فيه جذاباً. وثمة سمة أخرى: لقد كانت سحنته، رغم هذه المودة وهذا الصدق، خالية من الفرح على الدوام. فحتى حين كان هذا الأمير يضحك، تحس رغم كل شيء أن قلبه لا بد أن يكون خالياً من الفرح، الفرح الحق، الفرح الرشيق المضيء. . . ولكن ما أصعب رسم صورة لوجه من الوجوه من هذه الناحية! إنني عاجز عن هذا كل العجز. وسرعان ما اندفع الأمير الشيخ فوراً يعرف أحدنا بالآخر، على ما جرت به عادته المستحكمة الحمقاء.

- صديقي الشاب آركادي آندريفتش (مرة أخرى آندريفتش!) دولجوروكي.

فالتفت الأمير الشاب إلى جهتي معبراً بوجهه عن احترام عظيم. ولكن كان واضحاً أنه لم يسمع باسمي من قبل. وتابع صاحبي الأمير المضجر.

Twitter: @ketab_n

- هو. . قريب أندريه بتروفتش. .

(ما أثقل هؤلاء الأمراء العجائز أحياناً بعاداتهم المستحكمة!) تابع كلامه قائلاً:

وسرعان ما حزر الأمير الشاب من أنا. فقال بسرعة:

- آ. . نعم. . سمعت عنك منذ مدة طويلة. . . وقد سررت كثيراً بمعرفة أختك اليزافيتا ماكاروفنا، السنة الماضية، في مدينة لوغا. . . وقد حدثتني عنك أيضاً. . .

دهشت دهشة كبيرة: إن سروراً صادقاً مخلصاً قد التمع في وجهه. وتمتمت أقول وأنا أعقد ذراعيّ على ظهري:

- اسمح لي يا أمير. يجب أن أقول لك بصراحة - ويسرني أن أقول هذا الكلام بحضور أميرنا الغالي - إنني أرغب في لقائك رغبة شديدة، وإن هذه الرغبة قد استبدت بي في الآونة الأخيرة، واشتدت بالأمس اشتداداً خاصاً، ولكن لنية أخرى وغرض آخر. أقول لك هذا بصراحة مهما يدهشك. خلاصة الأمر أنني كنت أريد أن أدعوك إلى المبارزة بسبب الإهانة التي ألحقتها منذ سنة ونصف بفرسيلوف في مدينة «إمس». فإذا اتفق أن رفضت التحدي بحجة أنني تلميذ في المدرسة وأنني فتى مراهق، فإنني كنت سأوجه إليك هذا التحدي أياً كان جوابك، وأياً كان العمل الذي تستطيع أن تقوم به. . . وما أزال عاقداً عزمي على إنفاذ هذه النية نفسها. أعترف لك بذلك.

وقد ذكر لي الأمير العجوز فيما بعد أنني ألقيت هذا الكلام بكثير من النبل والشمم.

وارتسم على وجه الأمير الشاب أسى صادق. وأجابني بلهجة فيها حرارة:

- إنك لم تترك لي أن أتم كلامي. لئن كنت قد وجهت إليك بضع

Twitter: @ketab_n

كلمات نابعة من القلب، فإنما السبب في ذلك ما أحمله الآن لأندريه بتروفتش من عواطف صادقة. يؤسفني أنني لا أستطيع أن أذكر لك على الفور جميع الظروف والملابسات، ولكنني أحلف بشرفي أنني منذ مدة طويلة أشعر بأعمق الأسف للفعل المؤسف الذي بدر مني بمدينة «إمس». وحين عدت إلى بطرسبرج كنت قد عقدت العزم على أن أقدم لأندريه بتروفتش كل الترضيات الممكنة أي أن أطلب منه العفو والمغفرة صراحة على النحو الذي يحدده هو نفسه. إن مؤثرات سامية جداً وقوية جداً هي التي كانت سبب هذا التبدل في الرأي. أما إننا كان بيننا دعوى ينظر فيها القضاء، فذلك أمر لم يكن له أي تأثير فيما اتخذت من قرار. ولكن موقفه مني بالأمس قد هزني هزاً قوياً. وصدقني إذا قلت لك إنني حتى هذه اللحظة ما زلت مضطرباً أشد الاضطراب لم أسترد توازني بعد. اعلم أنني إنما أجيء الآن إلى الأمير لأبلغه أمراً في غاية الخطورة: منذ ثلاث ساعات، أي - على وجه التحديد - في اللحظة التي كان يحرر فيها ذلك الصك مع المحامي، جاءني الرجل الذي هو محل ثقة أندريه بتروفتش، ونقل إليَّ منه دعوة إلى المبارزة... دعوة رسمية.. ثأراً لحادثة «إمس»...

هتفت أقول: - دعاك إلى المبارزة؟ - وأحسست بعيني تلتهبان، وبالدم يصعد إلى وجهي.

- نعم، دعاني إلى المبارزة. وقد قبلت التحدي فوراً. لكنني قررت، قبل النزال، أن أبعث إليه رسالة أعلن له فيها رأيي في الفعل الذي صدر عني، وأعرب له فيها عن أسفي لهذه الخطيئة الرهيبة التي ارتكبتها.. ذلك أنها كانت خطيئة رهيبة، خطيئة فظيعة مشؤومة! أرجو أن تلاحظ، نظراً لمنزلتي في الجيش، أن هذه الخطوة التي أقوم بها قبيل المبارزة، أعني هذه الرسالة عشية النزال، أمر مشين يحرك ألسنة الناس بما يسيء إلى سمعتي، هل تفهم ما أعني؟ ومع ذلك اتخذت قراري

Twitter: @ketab_n

وعزمت أمري. ولكن الوقت لم يتسع لإرسال الرسالة، فبعد انقضاء ساعة واحدة على دعوته إياي للنزال، وصلتني منه رسالة جديدة يرجوني فيها أن أغفر له أنه أزعجني، وأن أنسى تحديه، ويضيف إلى ذلك أنه «يأسف لهذه النوبة الطارئة من الضعف والأنانية التي اعترته عرضاً». تلك ألفاظه نفسها. وبذلك يسهل عليَّ أمر القيام بتلك الخطوة، أعني إرسال الرسالة. وأنا لم أرسلها بعد، ولكنني جئت أباحث الأمير قليلاً بهذا الصدد. . . وصدقني إذا قلت لك أن ما عانيته من عذاب الضمير يفوق ما عاناه أي إنسان. . . هل يرضيك هذا الإيضاح، ولو إلى حين على الأقل، يا آركادي ماكاروفتش؟ هل تقبل أن تسبغ عليَّ شرف اعتقادك بصدق ما أقول صدقاً كاملاً؟

غُلبت. لقد رأيت صراحة لا مراء فيها، صراحة لم أكن أنتظرها أبداً. لا ولا كنت أنتظر شيئاً من هذا القبيل قط. فتمتمت أجيبه بكلمات لا أدري ماذا كانت، ومددت إليه يدي مستقيمتين، فهزهما بيديه فرحاً. ثم خلا بالأمير، وتحدث معه في غرفته نحو خمس دقائق.

حتى إذا خرج من غرفة الأمير قال لي بصوت عال صريح:

- إذا رغبت أن ترضيني رضاءً خاصاً فهيا نذهب الآن إليّ وسأطلعك على الرسالة التي سأرسلها إلى أندريه بتروفتش وأطلعك كذلك على الرسالة التي تلقيتها منه.

فوافقته على ذلك مسروراً أعظم السرور. وانهمك الأمير العجوز بتوديعي وتشييعي، وناداني أيضاً إلى غرفته دقيقة فقال لي هناك:

- يا صديقي، ما أسعدني، ما أسعدني. . . وسنتكلم في هذا من بعد على كل حال. أما الآن فإن هنا في محفظتي رسالتين: ينبغي إيصال إحداهما بنفسك وشرح القضية شخصياً، والرسالة الأخرى إلى البنك، فهناك أيضاً. . .

Twitter: @ketab_n

قال ذلك وكلفني بعملين يقتضيان مني، فيما زعم، أشد اليقظة والانتباه، وشرح لي أن عليَّ أن أذهب إلى البنك، فأودع رسالة، وأوقع على ورقة، إلخ. . .

فهتفت أقول له ضاحكاً وأنا أتناول الرسالتين:

- ما أشد مكرك! يميناً ليس هذا منك إلا تظاهراً وادعاء، وليس هناك أي عمل يجب عليَّ أن أقوم به. وما هاتان المهمتان المزعومتان إلا من صنع خيالك لفقتهما تلفيقاً لتوهمني بأن لوجودي معك نفعاً، وأني أتقاضى أجري عن جدارة واستحقاق!

- أحلف لك إنك لمخطىء يا بني، هما مهمتان مستعجلتان كل الاستعجال. . . - ثم هتف يقول وقد فاض قلبه رقة وعاطفة فجأة:

- بني العزيز! (ووضع يديه على رأسي) وأردف يقول: إنني أباركك، وأبارك مستقبلك. . . لتكن قلوبنا عامرة بالطهارة والعفة كما نحن الآن. . . ولنتحلّ بالخير والجمال إلى أقصى ما يمكن. لنحب الجمال. . . في جميع صوره وكافة أشكاله. . . هيا. . . أخيراً. . . لنشكر الله على نِعَمِه وآلائه. . . إنني أباركك. . .»

ولم يكمل كلامه، بل أخذ يبكي فوق رأسي. وأعترف بأنني كدت أن أبكي أنا أيضاً. ولئن لم أبك فإنني على الأقل قد قبلت صاحبي الشاذ صادقاً مسروراً. بل تبادلنا قبلات كثيرة.

- 3 -

قادني الأمير سرجي (أقصد سرجي بتروفتش، وبهذا الاسم سأسميه بعد الآن) إلى بيته في مركبة أنيقة، فأخذت أعجب بما في شقته من فخامة وأبهة، أو دعك من الفخامة والأبهة وقل إنها شقة كالشقق التي يملكها أناس من «علية القوم»: غرف واسعة عالية وضاءة (رأيت منها

Twitter: @ketab_n

غرفتين وكانت الغرف الأخرى مغلقة)، وأثاث إن كان لا يذكِّر بقصر فرساي أو عصر النهضة، فإنه لين طري مريح وافر أنيق غاية الأناقة، إلى سجاد ثمين، وخشب محفور، وتماثيل صغيرة. ومع ذلك كان الناس مجمعين على أن هذه الأسرة فقيرة معدمة، وأنها أصبحت لا تملك شيئاً البتة. ولكن يجب أن أضيف إلى هذا أن الأخبار كانت تقول إن الأمير سرجي كان يحب أن يذر الرماد في العيون حيث يكون، سواء هنا أو في موسكو أو في الجيش، وأنه مقامر، وأنه مدين. وكنت أنا أرتدي ردنجوتا مهترئاً، وكان الردنجوت عدا ذلك مغطى بالزغب بعد أن نمت من غير أن أخلع ثيابي، ولم أكن قد بدلت قميصي منذ أربعة أيام. على أن الردنجوت لم يكن رديئاً إلى حد يبعث على الاشمئزاز، ولكنني ما أن وجدت نفسي عند الأمير حتى تذكرت ما أوصاني به فرسيلوف من تفصيل رداء جديد.

قلت شارد الذهن:

- تصور أنني قضيت الليل دون أن أخلع ثيابي، بسبب حادثة انتحار.

فلما رأيته يصيخ بسمعه منتبهاً على الفور، رويت له القصة بإيجاز. غير أن ما كان يهمه أكثر من كل ما عداه إنما هو الرسالة التي ينتوي أن يبعثها إلى فرسيلوف. وقد استغربت من جهتي أنه لم يظهر فيه حتى شيء من تبسم، بل لم تبدر منه حتى حركة يسيرة تحمل هذا المعنى، حين أعلنت له بغتة منذ قليل، أنني أريد أن أدعوه إلى مبارزة. فأغلب الظن أنني عرفت كيف أجبره على أن لا يضحك، غير أن الأمر يظل محل استغراب من رجل مثله. جلسنا متقابلين في وسط الغرفة أمام مكتب كبير، وأراني رسالته إلى فرسيلوف، وكانت مهيأة تهيئة كاملة. كانت الرسالة تتضمن جميع المعاني التي عبر عنها عند أميري. حتى لقد كتبت بلهجة فيها حرارة. والحق أنني كنت لا أعرف بعد ماذا يجب أن أراه من

Twitter: @ketab_n

رأي حاسم في هذه الصراحة الظاهرة وهذه الميول الطيبة الخيرة، ولكنني قد بدأت أنقاد للافتتان بالرجل، حتى لقد تساءلت ما الذي يدعو إلى أن لا أصدقه؟ إنه مهما يكن طبعه، ومهما تكن الإشاعات التي تروج عنه، قد يتصف بميول حسنة وسجايا كريمة. ورأيت الرسالة الأخيرة التي بعثها إليه فرسيلوف أيضاً، وهي سبعة أسطر يعلن له فرسيلوف فيها عدوله عن دعوته إلى مبارزته. فرأيت أن هذه الرسالة رغم ما ضمنها في جملته فرسيلوف من كلام عن «ضعفه» وعن «أنانيته» تتميز في جملتها بنوع من الاستعلاء... أو قل إن المرء يحس حين يقرؤها أن الخطوة التي قام بها فرسيلوف تشتمل على نوع من الاحتقار، وقد حاذرت أن أبدي له هذه الملاحظة.

قلت أسأله:

- ولكن ما رأيك أنت في عدوله هذا؟ ألا تعتقد أنه جَبُنَ؟

فابتسم الأمير، ولكن ابتسامته كانت تشتمل على كثير من الجد، وقال: - لا، قطعاً. - وكان يبدو عليه من جهة أخرى مزيد من الهم - وتابع كلامه يقول: إنني أعرف شجاعة هذا الرجل. ولكن له - وهذا رأي خاص بي طبعاً - طرزاً فريداً في النظر إلى الأمور...

فقاطعته قائلاً بحرارة:

- قطعاً. إن شخصاً اسمه فاسين يرى أن في حكاية الرسالة والتنازل عن الميراث نوعاً من إقامة «نصب» يرتقيه إعلاء لقدره في نظر الناس عن عمد... أما رأيي أنا فهو أن هذه الأشياء لا يفعلها المرء حباً بالظهور، وإنما هي تقابل شيئاً عميقاً وعاطفة صادقة...

قال الأمير:

- إنني أعرف السيد.فاسين معرفة جيدة.

- آ.. نعم.. لا بد أنك رأيته في لوغا.

Twitter: @ketab_n

فنظر كل منا في صاحبه فجأة، وأذكر أنني قد احمر وجهي قليلاً. وانقطع الحديث على كل حال. وكنت أنا ميالاً إلى الكلام. كنت أتصور اللقاء الذي تم بالأمس، فيحضني ذلك على أن ألقي عليه بعض الأسئلة، ولكنني لا أعرف كيف أتصرف في الأمر، وكنت أشعر بغير قليل من الارتباك. ومما خطف بصري أيضاً ما لاحظته فيه من حسن أدب ورقة تهذيب وطلاقة حركة، أي ما رأيته فيه من ذلك البريق الذي يكتسبه أمثال هؤلاء الناس وهم لا يزالون في المهد. لكنني وقعت في رسالته على خطأين فاحشين من أخطاء النحو. وأنا في لقاء أمثال هؤلاء الناس لا أخفض رأسي أبداً، حتى إني أزداد حدة، الأمر الذي قد يكون سيئاً في بعض الأحيان. ولم يكن من شأن ردنجوتي المغطى بالزغب أن يهدىء ما يضطرم في نفسي. وكنت قد لاحظت أن الأمير يتفرس فيّ أحياناً بكثير من الاستطلاع.

قلت فجأة:

- قل لي يا أمير: إلا ترى في قرارة نفسك أنه أمر مضحك أن يدعوك «غر» مثلي إلى مبارزة، ولا سيما بسبب إساءة لحقت شخصاً غيره؟

فأجابني برصانة ووقار:

- أنه لأمر طبيعي أن يغضب المرء لإساءة ألحقت بأبيه. فلست أرى في عملك شيئاً سخيفاً يبعث على السخرية.

- أما أنا فأرى عملي سخيفاً سخفاً رهيباً. . من وجهة نظر شخص آخر طبعاً، لا من وجهة نظري أنا. ولا سيما أن اسمي هو دولجوروكي، وليس فرسيلوف. فإذا كنت لا تقول الحقيقة، أو إذا كنت تلطف الأمور من باب الكياسة التي يلتزمها أبناء المجتمع الراقي، فأنت إذن تخدعني في سائر الأمور الأخرى.

فكرر يقول بجد كبير:

Twitter: @ketab_n

- لا، لا أرى في هذا شيئاً سخيفاً. إنك لا تستطيع أن لا تحس بدم أبيك فيك. أليس كذلك؟ صحيح أنك ما تزال فتى يافعاً، و. . لا أدري. . لكن يخيل إليَّ أنه لا يجوز لقاصر أن يبارز، وأنه لا يجوز لأحد أن يلبي دعوته إلى النزال. . فيما توجبه الأنظمة. . . غير أن هناك اعتراضاً واحداً يجدر أن ننظر فيه: إنك حين تدعو إلى المبارزة على غير علم من الشخص الذي لحقت به الإهانة والذي تريد أن تثأر له، ألا تكون بذلك قد انتقصت من قدره ولم توله ما يجب له من احترام؟

وفجأة دخل خادم ليبلغ عن شيء ما، فانقطعت محادثتنا. وأغلب الظن أن الأمير كان ينتظر الخادم، فما أن رآه حتى نهض دون أن يكمل كلامه، وتقدم إلى لقائه مسرعاً، فكلمه الخادم بصوت خافت، فلم أسمع من كلامه شيئاً. وقال لي الأمير:

- معذرة. سأرجع بعد دقيقة.

وخرج. وبقيت وحيداً. وأخذت أذرع الغرفة ذاهباً آيباً وأنا مسترسل في التفكير. غريب: لقد أعجبني الأمير ولم يعجبني. إن فيه شيئاً لا أستطيع أن أحدده، لكنه شيء منفر. قلت أحدث نفسي: «إذا كان لا يسخر مني فإنه إذن ممتلىء استقامة، ولو كان يسخر مني. . . لبدا لي أكثر ذكاء. . .» برقت هذه الفكرة الغريبة في ذهني. ودنوت من الطاولة فأعدت قراءة رسالته إلى فرسيلوف. ومن ذهولي لم أشعر بانقضاء الوقت، حتى إذا أفقت من شرودي لاحظت فجأة أن دقيقة الأمير دامت ربع ساعة. فاضطربت من ذلك بعض الاضطراب. وعدت أسير في الغرفة ذاهباً آيبا. ثم تناولت قبعتي أخيراً وقررت أن أنصرف. إنني أتذكر هذا. قلت لنفسي: إذا رأيت أحداً بعثته يستدعي الأمير، حتى إذا جاء ودعته مؤكداً أن ثمة عملاً يناديني وأنني لا أستطيع المكوث معه أكثر مما مكثت. فبدا لي أن هذا أحفظ للكرامة، لأنني تصورت أنه بتركي هذه

Twitter: @ketab_n

المدة الطويلة إنما يدل على أنه يزدريني.

وكان للغرفة بابان اثنان يقعان في طرفي جدار واحد. وكان البابان كلاهما مغلقين. وكنت قد نسيت من أي باب دخلنا، أو قل إنني لذهولي فتحت واحداً من البابين بغير تفكير، فإذا أنا أفاجأ بأختي ليزا جالسة على ديوان في غرفة طويلة ضيقة. ولم يكن في الغرفة أحد غيرها، فلا بد أنها كانت تنتظر أحداً. ولكن ما أن أعترتني هذه الدهشة الأولى حتى سمعت صوت الأمير يتكلم بصوت عال راجعاً إلى المكتب. فأغلقت الباب فوراً، ودخل الأمير من الباب الآخر فلم يلاحظ شيئاً. أتذكر أنه أخذ يعتذر عن تأخره أشد الاعتذار، وأنه جاء على ذكر امرأة سماها آنا فيدوروفنا... ولكنني كنت قد بلغت من الاندهاش والاضطراب أنني لم أكد أفهم من كلامه شيئاً، وتمتمت أقول إن عليّ أن أعود إلى بيتي حتماً. ثم خرجت متعجل الخطى. ولا شك أن هذا الأمير المهذب ذلك التهذيب كله قد بدا له سلوكي غريباً. وقد شيعني إلى الباب وهو ما يفتأ يتكلم ويتكلم، بينما أنا لا أجيبه بشيء ولا أنظر إليه.

– 4 –

صرت في الشارع، فاستدرت يسرة، وأخذت أسير على غير هدى. كان كل شيء في رأسي مختلطاً ومضطرباً. وكنت أسير سيراً بطيئاً. أظن أنني قطعت مسافة طويلة، تبلغ نحو خمسمائة خطوة. وإني لكذلك إذا أنا أحس ربتاً رفيقاً على كتفي. فالتفت. فرأيت أختي ليزا. لقد أدركتني، ولامست كتفي بمظلتها. وكان في نظرتها المتلألأة فرح عظيم، وشيء من مكر.

– يسرني جداً أنك سرت في هذا الطريق، وإلا لما استطعت أن

Twitter: @ketab_n

ألقاك طول النهار! كانت تلهث قليلاً من سرعة السير.

- ما أشد لهاثك!

- ركضت كثيراً لأدركك.

- ليزا، ألأنت من رأيت منذ قليل؟

- أين؟

- عند الأمير... الأمير سوكولسكي...

- لا، ليست أنا. لا يمكن أن تكون قد رأيتني...

فصمتّ. وسرنا نحو عشر خطوات. انفجرت ليزا ضاحكة، وقالت:

- طبعا أنا التي رأيتني! رأيتني وحدقت إلى عيني، وحدقت إليك أنا أيضاً. فلماذا تلقي هذا السؤال؟ ما أغرب طبعك! ولقد راودتني رغبة قوية في الضحك حين حدقت إليّ. كانت هيئتك مضحكة جداً.

وضحكت ضحكاً شديداً. فبدد ضحكها قلقي.

- ولكن ما جاء بك إلى هناك؟

- زرت آنا فيدوروفنا.

- أية آنا فيدوروفنا؟

- السيدة ستولبييفا. حين كنا نقيم بمدينة لوغا، كنت أقضي عندها أياماً كاملة. كانت تستقبلنا أنا وماما، وكانت تجيء إلينا أيضاً. وكانت لا تزور أحداً غيرنا تقريباً. إنها تمت إلى أندريه بتروفتش بقرابة بعيدة، وكذلك إلى الأمراء سوكولسكي. أظن أنها للأمير بمثابة جدة.

- فهل تقيم عند الأمير؟

- بل الأمير يقيم عندها.

- لمن الشقة إذن؟

- لها. إنها تملك الشقة منذ سنة. وقد وصل الأمير منذ قليل فنزل ضيفاً عليها. وهي نفسها لم تجيء إلى بطرسبرج إلا منذ أربعة أيام.

Twitter: @ketab_n

- طيب. . حفظها الله هي وشقتها. . .

- ولكنها سيدة لطيفة. . .

- لا أنكر عليها ذلك. نحن أيضاً أناس لطاف! انظري إلى هذا النهار ما أجمله! ما أبدع هذا الجو! وما أجملك اليوم يا ليزا! ما أنت إلا طفلة على كل حال.

- قل لي يا آركادي : أرأيت إلى حكاية تلك الفتاة بالأمس ما كان أهولها! . .

- آه. . شيء محزن جداً يا ليزا، محزن جداً!

- محزن حقاً! يا لهذا المصير ما أشد هوله! حتى لأظن أنه من الخطيئة يا آركادي أن نكون نحن فرحين هذا الفرح كله بينما تهوم روحها الآن في الظلمات، في ليل بهيم ليس له قرار، مهانة، حاملة إثمها معها. . . قل لي يا آركادي : من المسؤول عن الإثم الذي ارتكبته؟ آه. . . ما أشد هول هذا كله! هل تفكر أحياناً في تلك الظلمات؟ آه. . لشد ما أخاف من الموت! إنني لا أحب الظلمة. هذه الشمس أحلى كثيراً! تقول ماما إن الخوف من الموت خطيئة. . . قل لي يا آركادي : هل تعرف ماما حق معرفتها؟

- لم أعرفها بعد إلا قليلاً يا ليزا. قليلاً.

- يا لها من إنسانة! يجب أن تعرفها، يجب أن تعرفها. يجب على المرء أن يفهمها خاصة. . .

- أنت أيضاً كنت لا أعرفك، وهاأنذا أعرفك الآن معرفة تامة. في دقيقة واحدة، نفذت إلى حقيقتك كلها. ليزا، مهما تخافي من الموت، فلا بد أنك ذات كبرياء، وجسارة وشجاعة. أنت خير مني، خير مني كثيراً! أحبك حب الجنون يا ليزا. ليزا، يستطيع الموت أن يجيء متى شاء، أما الآن فلنعش، فلنعش! لنا أن نتألم لتلك البائسة، ولكن فلنبارك

Twitter: @ketab_n

الحياة. ألست على حق؟ إن لي «فكرتي» يا ليزا. ليزا، هل تعلمين أن فرسيلوف تنازل عن الميراث؟

- كيف لا أعرف ذلك؟ لقد تعانقنا أنا وماما.

- إنك لا تعرفين ما بنفسي يا ليزا، لا تعرفين ماذا كان هذا الرجل في قلبي...

- دعك من هذا الكلام، إنني أعرف كل شيء!

- تعرفين كل شيء؟ نعم، حتماً! أنت ذكية. أنت أذكى من فاسين. إن لك ولماما عيوناً نافذة، إنسانية، أقصد النظرة، لا العيون.. لقد أخطأت التعبير. ما أغباني أحياناً يا ليزا.

- بل أنت في حاجة إلى من يسيطر عليك. هذا كل شيء!

- سيطري عليّ إذاً يا ليزا. ما أحلى النظر إليك اليوم يا ليزا! هل تعلمين أنك رائعة الجمال؟ لم أر عينيك قبل اليوم أبداً.. رأيتهما الآن أول مرة... من أين جئت بهما يا ليزا؟ من أين اشتريتهما؟ كم دفعت ثمنهما؟ ليزا، أنا لم يكن لي أصدقاء، حتى لقد كانت هذه الفكرة حماقة، أما الصداقة معك أنت فليست حماقة... هل تقبلين أن نكون صديقين؟ هل تفهمين ماذا أريد أن أقول؟

- أفهم كل الفهم.

- أقصد صداقة بغير عقد، بغير شروط. نكون صديقين وكفى، ببساطة!

- نعم، صداقة وكفى، ببساطة.. غير أن لي شرطاً: إذا اتفق أن اتهم أحدنا الآخر يوماً، إذا ساءنا أمر من الأمور، إذا اعتكر مزاجنا، بل إذا نسينا أيضاً كل شيء فلن ننسى أبداً هذا اليوم ولا هذه الساعة! فلنتعاهد على هذا. لنتعاهد على أن نتذكر إلى الأبد، هذا اليوم الذي سرنا فيه معاً وقد أمسك كل منا يد الآخر، وضحكنا فيه كثيراً، وسعدنا

Twitter: @ketab_n

فيه هذه السعادة كلها. . . هل تقبل؟

- نعم يا ليزا، أقسم لك. يخيل إليَّ يا ليزا أنني أسمعك الآن أول مرة. . . ليزا، هل قرأت كثيراً؟

- لم تلق علي هذا السؤال قبل اليوم! أمس فقط، حين أخطأت في كلمة، تفضلت فانتبهت إلى هذا أيها السيد الفيلسوف!

- لماذا لم تبادريني أنت بالحديث بعدما رأيت أنني غبي إلى ذلك الحد من الغباء؟

- كنت أنتظر أن تصبح أكثر ذكاء. لقد عرفتك منذ البداية يا آركادي ماكاروفتش، فسرعان ما قلت لنفسي: «لسوف يجيء، لسوف يجيء آخر الأمر حتماً». وآثرت أن أدع لك شرف القيام بالخطوة الأولى. قلت لك في سري: «لا، عليك أنت أن تجري الآن ورائي!»

- ها. . يا للصغيرة المغناج! طيب قولي بصراحة يا ليزا: لا بد أنك ضحكت مني كثيراً طوال هذا الشهر، أليس كذلك؟

- طبعا. لأنك مضحك فعلاً، مضحك جداً يا آركادي ! ولكن هل تعلم؟ لعلني لهذا السبب إنما أحببتك هذا الشهر، ذلك أنك كنت طريفاً. غير أن طرافتك رديئة أحياناً. أقول لك هذا حتى لا تتباهى وتغتر. ولكن هل تعلم مَنْ ضحك منك أيضاً؟ ماما. ضحكنا معاً. كنا نتهامس قائلين: «غريب الأطوار! ما أغرب أطواره!» وكنت أنت تظن طوال هذا الوقت اننا نرتعد رعباً منك.

- ليزا، ما رأيك في فرسيلوف؟

- هناك أشياء كثيرة يمكن أن تقال فيه. لكننا لن نتكلم عنه الآن. ليس هذا اليوم أوان الحديث عنه، أليس كذلك؟

- أنت على حق! لا، لا، إن ذكاءك رهيب حقاً يا ليزا! إنك أذكى مني حتماً. انتظري قليلاً، إنني متى فرغت من هذه الشؤون كلها،

Twitter: @ketab_n

سوف أذكر لك في النهاية بعض الأشياء. . .

- ما بالك تقطب حاجبيك؟

- لم أقطب يا ليزا، ما هذا بشيء. . . اسمعي يا ليزا. . الأفضل أن أقولها بصراحة: إن لي سمة خاصة هي أن في نفسي نقاطاً حساسة لا أحب أن يلمسها أحد. . . أو قولي إن لي مشاعر معينة لا أحب عرضها طلباً لإعجاب الناس. مخجل، أليس كذلك؟ ولهذا أفضل أحياناً أن أقطب الحاجبين ولا أقول شيئاً. أنت ذكية، فعليك أن تفهمي.

- ولكنني مثلك. إنني أفهمك فهماً كاملاً. وماما أيضاً مثلك. هل تعرف هذا؟

- آه يا ليزا! كل ما أتمناه هو أن نعيش في هذه الحياة الدنيا مدة طويلة! ماذا قلت؟

- لم أقل شيئاً.

- لماذا تنظرين إليَّ؟

- وأنت تنظر إليَّ أيضاً. إنني أنظر إليك، وإنني أحبك.

رافقتها حتى البيت تقريباً. وذكرت لها عنواني. وحين تركتها، قبلتها لأول مرة في حياتي. . .

- 5 -

هذا كله كان حسناً، لولا أن هناك ظلاً كان يعكره: إن فكرة ثقيلة كانت تضطرب في نفسي منذ الليل ولا تبارح خيالي. ذلك أنني حين التقيت في مساء الأمس بتلك المسكينة قلت لها إنني سأترك البيت، وأن على المرء أن يبني عشه بعيداً عن الأشرار، وأن لفرسيلوف عدداً من أولاد الزنا، فلا شك أن هذه الكلمات التي يقولها ابن عن أبيه قد أكدت جميع شكوكها في فرسيلوف، وعززت إحساسها بأنه أهانها أو أراد بها

Twitter: @ketab_n

سوءاً. لقد كنت أتهم ستيبلكوف، ولعلني أنا الذي صببت على النار زيتاً. فكرة رهيبة، رهيبة حتى اليوم... ولكنني في ذلك الصباح، رغم كل ما عانيت من عذاب في أول الأمر، قد بدا لي أن الأمر ليس من الخطورة إلى الحد الذي تصوّرته، وكنت أكرر لنفسي من وقت إلى آخر: «دعك من هذا الكلام، فإن في نفسها ما فيها من الحقد المتراكم قبل أن تراها وقبل أن تقول لها شيئاً، ما كان سيدفعها على الإقدام على فعل ما فعلته حتماً! هيا... سينقضي الأمر، وسأبرأ من هذه الوساوس! وسأكفر عن غلطتي بطريقة من الطرق.. بعمل من الأعمال الحسنة... فما يزال أمامي خمسون عاماً!»

ولكن الفكرة ظلت تتحرك وتضطرب في نفسي.

Twitter: @ketab_n

الجُزءُ الثّاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

- 1 -

انقضى شهران تقريباً. وأرجو من القارئ أن لا يقلق: فسوف يتضح كل شيء. وكما دوّنت في بداية يومياتي تاريخ 9 أيلول (سبتمبر)، فإنني أسجّل هنا تاريخ 19 تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو يوم لا أنساه، وذلك لأسباب كثيرة. يجب أن أذكر أولاً أن من رآني منذ شهرين لن يعرفني إذا هو رآني الآن. هذا من جهة المظهر على الأقل. أقصد أنه سيعرفني، ولكنه لن يفهم شيئاً. إنني أرتدي الآن ثياباً تبلغ غاية الأناقة، بل الغندرة. هذه نقطة أولى. إن الخياط الذي أراد فرسيلوف أن يوصيني به يوماً ووصفه بأنه «فرنسي دقيق في عمله رفيع الذوق» قد خاط لي ثياباً كاملة، ولكنني لا أرتديها فهي لا تبلغ المستوى الرفيع الذي يليق بأنيق مثلي وإنما لي الآن خياطون من درجة أعلى، خياطون من الدرجة الأولى. حتى أنهم فتحوا لي حساباً. ولي حساب مفتوح أيضاً في مطعم راقٍ. ولكنني ما أزال في هذا المجال تعوزني الجسارة: فما أن أملك مالاً حتى أبادر إلى سداد الدين، رغم علمي بأن هذا أمر نابٍ أعرّض به مهابتي للانتقاص. ولي في شارع نفسكي حلاق فرنسي الأصل يعاملني معاملة ودية، يروي لي النوادر والملح كلما ذهبت إليه لتصفيف شعري. وأعترف بأنني أتمرن معه على الكلام بالفرنسية. إنني أعرف اللغة الفرنسية، بل أعرفها معرفة مناسبة، ولكنني في المجتمع

Twitter: @ketab_n

الراقي أشعر دائماً بخجل فلا أجرؤ على التكلم بها مجازفاً. هذا عدا أن لهجتي كما أظن بعيدة عن اللهجة الباريسية. ولي كذلك عربة وحوذي هو ماتفي، يلبيني كلما ناديته. إنه يقود مركبة فخمة يجرها حصان كميت سريع العدو (أنا لا أحب الخيل الصهباء). غير أن هناك أشياء ليست كما أحب. نحن الآن في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني وقد حلّ البرد القارس منذ ثلاثة أيام. ومعطفي قديم مصنوع من فراء الراتون، وهو معطف فرسيلوف البالي، فلو شئت أن أبيعه لما جاءني بأكثر من خمسة وعشرين روبلا. لا بدّ لي من أن أحصل على مال لهذا المساء، بأي شكل من الأشكال. وإلا فإنني «تعيس وهالك». هذه هي الألفاظ التي كنت أستعملها في ذلك الوقت... يا للشقاء! من أين جاءت هذه الألوف، وهذه الخيول، وهذه المطاعم (أمثال مطعم بوريل)[59] على حين فجأة؟ كيف أمكن أن أنسى كل شيء، وأن أتغير كل هذا التغير؟ يا للخزي والعار! أيها القارىء، إني محدثك الآن عن خزيي، عن تلطخي بالعار، ولا شيء يمكن أن يحمل إليّ عاراً أكبر من هذه الذكريات!

إنني أحكم في الأمر كما يحكم قاضٍ، وأعرف أنني مذنب. فرغم أنني والزوبعة تجرفني، كنت وحيداً بلا مرشد ولا ناصح، فوالله لقد كنت أشعر بسقوطي، وليس لي إذاً من عذر. ومع ذلك كنت شبه سعيد خلال ذينك الشهرين. لماذا شبه سعيد؟ بل لقد كنت سعيداً مسرفاً في السعادة، حتى لقد بلغت من فرط السعادة أن شعوري بتلطخ شرفي، وهو شعور يخالجني في لحظات (كثيرة متكررة!)، ويهز نفسي هزاً قوياً، كان يغمرني بمزيد من النشوة والسكر، هل يصدق القارئ؟ كان لسان حالي يقول: «ما دمت أسقط، فلأسقط إلى الدرك الأسفل؛ على أنني لن أسقط، بل سأخرج. إن لي نجماً يهديني!» على جسر هزيل نحيل من نثارة، جسر بغير درابزين، كنت أسير فوق الهاوية، وكان

Twitter: @ketab_n

يسرّني أن أسير هذا السير حتى أنني كنت ألقي النظرات إلى الهاوية. كان يفرحني أن هناك مخاطرة. و «الفكرة»؟ لا خوف عليها، سوف تأتي من بعد، في وسعها أن تنتظر. ما هذا كله إلا «انحرافة»: «. . . لماذا لا يهب المرء لنفسه شيئاً من مسرة؟» ذلكم هو عيب «فكرتي» وأكرر هذا من جديد: إنها تتسامح في جميع الانحرافات. لو كانت أقل صلابة وجذرية لربما كنت أخشى الانحراف عنها.

ما أزال محتفظاً بشقتي الصغيرة. لقد احتفظت بها دون أن أسكنها، وأودعتها حقيبتي وصرتي وأشياء أخرى. أما إقامتي فأكثرها عند الأمير سرجي سوكولسكي. أمكث عنده، وأبيت عنده، وأقيم أسابيع كاملة. . . أما كيف حدث هذا، فسوف ترون ذلك بعد قليل. ولأحدثكم الآن عن مسكني الصغير. إنه عزيز في نفسي. إليه إنما جاء يزورني فرسيلوف بنفسه أول مرة، بعد المشاجرة التي قامت بيننا آنذاك، ثم جاء مراراً كثيرة. أكرر أن تلك المدة كانت عاراً فظيعاً، ولكنها كانت سعادة كبيرة أيضاً. . . كنت في تلك الفترة أوفق في كل شيء، وكان كل شيء يبتسم لي! وكنت أقول لنفسي في تلك اللحظات من النشوة: «علام ذلك التجهم السابق؟ فيم تلك الآلام القديمة الموجعة، وتلك الطفولة المنعزلة المكتئبة والأحلام السخيفة تحت الغطاء في الفراش، وتلك الأيمان والحسابات، وحتى «الفكرة»؟ ذلك كله أخيلتي وأوهامي! العالم شيء آخر كما اتضح. وكنت فرحان جذلاً. كان لي أب: فرسيلوف. وكان لي صديق: الأمير سرجي. وكان لي أيضاً. . .» لكن دعونا من هذا. واحزناه! إن كل ما حدث عندئذ باسم الحب والنبل والشرف قد ثبت بعد ذلك أنه كان قبحاً شنيعاً وغشاً.

كفى!

Twitter: @ketab_n

– 2 –

جاء إليَّ أول مرة بعد قطيعتنا آنذاك بثلاثة أيام.

ولم أكن في البيت. فانتظرني. ورغم أنني انتظرته طوال هذه الأيام الثلاثة فإنني حين دخلت غرفتي الصغيرة، كأن عينيَّ ضربت عليهما غشاوة وقلبي خفق خفقاً شديداً، فوقفت في العتبة. ومن حسن الحظ أن مؤجري قد استحسن أن يتعارف مع الزائر فوراً وقد بدأ يقص عليه حكاية من الحكايات مندفعاً بحرارة حتى لا يصيبه ضجر. إنه مستشار اعتباري، في نحو الأربعين من العمر، مجدور الوجه، مدقع الفقر، مثقل بعبء زوجة مصدورة وابن مريض، له طبع منفتح مسالم وديع رقيق. فابتهجت بوجوده، بل إن وجوده قد أخرجني من مأزق، وإلا فما عساي أقول لفرسيلوف وكيف كان يمكن أن أكلمه؟ كنت أعرف طوال هذه الأيام الثلاثة أن فرسيلوف سيجيء من تلقاء نفسه، وأنه سيكون هو البادىء بالسعي إليَّ، كما كنت أريد تماماً، لأنني ما كنت لأبدأ أنا بالسعي إليه مهما يكن من أمر، لا معاندة له، بل حباً به، مدفوعاً إلى ذلك بنوع من غيرة المحب، لا أعرف كيف أعبر عنها. ولا بد أن القارئ قد ألِفَ أن لا يجد في كتابتي فصاحة أو بلاغة. ولكن رغم أنني انتظرته طوال هذه الأيام الثلاثة، وكنت أتصوره بلا انقطاع داخلا عليَّ، فقد كنت عاجزاً عن تخيّل الحديث الذي سيجري بيننا بعد كل ما حدث، مع أنني بذلت جهوداً كثيرة في سبيل أن أتصور ما قد يدور عليه كلامنا.

قال لي دون أن ينهض:

– ها... هاأنت ذا...

ومد إليَّ يده في ودّ، واستطرد يقول:

– اجلس هنا، إلى جانبنا. إن بيتر ايبوليتوفتش يروي لي قصة شائقة

Twitter: @ketab_n

جداً عن تلك الصخرة التي كانت تُرى قريبة من ثكنة بافلوفسكي، أو ربما قريبة من هنا. . .

فأسرعت أجيب قائلاً وأنا أجلس على كرسي بجانبهما:

- نعم، أعرف تلك الصخرة. . .

كانا أمام الطاولة. وكانت الغرفة الصغيرة مربعاً لا يتجاوز طول ضلعه أربعة أمتار. وكنت أتنفس بمشقة.

التمع في عيني فرسيلوف وميض فرح: لا شك أنه لم يكن هادئ النفس وكان يتوقع أن أقوم بحركات، ثم اطمأن الآن. وأردف متوجهاً إلى مؤجري:

- أرجوك يا بيتر ايبوليتوفتش أن تعيد قصتك من جديد.

كانا قد أخذا يتخاطبان منذ الآن بالاسم الثنائي، اسم الشخص وأبيه. فالتفت بيتر ايبوليتوفتش إليَّ وبدأ كلامه يقول بعصبية وبعض الاضطراب كأنما هو يخشى سلفاً أن لا يكون لقصته التأثير المطلوب:

- نعم، حدث الأمر في عهد الإمبراطور الراحل[60]. أنت تعرف إذن تلك الصخرة التي تجثم في وسط الشارع ولا تزيد على أن تزعج. لا فائدة منها ولا جدوى. أليس كذلك؟ لقد مر الإمبراطور بذلك المكان مراراً كثيرة، وكانت الصخرة في مكانها دائماً. فضاق بها أخيراً. الحق إنها كانت أشبه بجبل، أشبه بجبل في وسط الشارع، يؤذي منظرها الأبصار. فها هو ذا الإمبراطور الراحل يقول: «فلتختف الصخرة من هذا المكان!» نعم قال: «فلتختف!» تعرفون ماذا يعني أن يقول الإمبراطور الراحل: «فلتختف الصخرة من هذا المكان!» هل تتذكرون الإمبراطور الراحل؟ فما العمل بالصخرة؟ طاش صواب الجميع. وكان الأمر يشغل بال المجلس البلدي والأهم يشغل بال واحد لا أذكر الآن من هو بالضبط، غير أنه من أعلى شخصيات ذلك العهد قد كلِّف بتنفيذ أمر

Twitter: @ketab_n

الإمبراطور الراحل. فإليكم ما عمله ذلك الرجل: لقد قيل له إن تنفيذ أمر الإمبراطور سيكلف خمسة عشر ألف روبل، لا تنقص كوبيكاً واحداً، بل تكلف خمسة عشر ألف روبل فضة (ذلك أن الأوراق المالية قد بدِّلت روبلات فضة في عهد الإمبراطور). «خمسة عشر ألف روبل؟ هل يعقل هذا؟» أراد الإنجليز في أول الأمر أن يمدوا سككاً حديدية، فيزلقوا الصخرة فوقها، ثم يجرونها بقاطرة بخارية. ولكن كم كان يمكن أن يكلف هذا من نفقات؟ لم تكن قطارات السكك الحديدية قد وجدت بعد، وكان خط تسارسكويه سيلو هو الخط الوحيد الذي يعمل. . . [61]

فقاطعته أقول متبرماً ممتلئ النفس أسفاً وخجلاً أمام فرسيلوف:

- ألم يكن في الإمكان قطعها؟

ولكن فرسيلوف كان يصغي إلى كلام المحدث بسرور ظاهر للعيان. فأدركت أنه يرحب بوجود الرجل، لأنه كان هو أيضاً يشعر بخجل أمامي، ويحس بحرج من الانفراد بي. كان هذا واضحاً لي، حتى لقد كان ذلك منه بادرة مؤثرة.

- قطعها؟ تلك هي بعينها الفكرة التي خطرت بالبال حينذاك. هي فكرة مونفران الذي كان يبني في ذلك العهد كاتدرائية القديس إسحاق. قال سوف نقطع الصخرة نشراً بالمنشار، ثم ننقلها. نعم، ولكن ما النفقات؟

- لا مجال لأي نفقات، تُقطع نشراً بالمنشار ثم تنقل، هذا كل شيء!

- لا، اسمح. كان لا بد من تركيب ماكينة، ماكينة بخارية. ثم إلى أين تنقل الصخرة؟ إلى أين ينقل جبل هذه ضخامته؟ قيل إن النفقات لن تقل عن عشرة آلاف روبل، عشرة آلاف أو اثني عشر ألفا.

- اسمع يا بيتر ايبوليتوفتش. هذه سخافات. لم يحدث هذا كله على هذا النحو. . .

Twitter: @ketab_n

ولكن فرسيلوف رماني في تلك اللحظة بغمزة خفيفة لا ترى، رأيت فيها إشفاقاً كبيراً على مؤجري بل تألماً شديداً له، فأعجبني ذلك منه كثيراً، وضحكت مجاملاً.

لم يلاحظ الرجل شيئاً وكان يخشى أكبر الخشية كسائر أمثاله من القصاصين أن يقاطعه أحد بإلقاء أسئلة، فقال فرحاً جذلاً:

- نعم، هو كذلك، هو كذلك. لقد جاء شاب من عامة الناس، روسي السحنة تماماً، له لحية صغيرة مدببة، يرتدي قفطاناً طويلاً يغطي الكعبين، ثمل بعض الثمل... بل لم يكن ثملاً. جاء في اللحظة التي كان فيها الإنجليز ومونفران يعقدون مؤتمراً يتبادلون الآراء، ووقف يراقبهم ويستمع إلى أحاديثهم. ووصل الشخص الكبير المكلف بالإشراف على تنفيذ أمر الإمبراطور راكباً عربة فخمة، فأصغى إلى كلام المؤتمرين فثارت ثائرته: كيف تطول المناقشات هذه المدة كلها ثم لا يتوصلون إلى نتيجة؟ وفجأة وقع بصره على ذلك الشاب واقفاً على مسافة غير قريبة، مبتسماً ابتسامة زائفة... لا... ليست زائفة.. ليس هذا هو اللفظ المناسب.. بل.. بل..

فقال فرسيلوف يحاول مساعدته في العثور على الكلمة المناسبة بلباقة:

- ساخرة.

- نعم ساخرة! أقصد ساخرة قليلاً... إنها تلك الابتسامة الروسية الطيبة التي تعرفونها. ومن شدة استياء الرجل الكبير زعق يسأل الشاب:

- «وأنت يا ذا اللحية هناك؟ ما وقوفك؟ ماذا تنتظر؟ من أنت؟»

فأجاب الشاب: - «أنظر إلى الصخرة الصغيرة يا سمو الأمير». نعم بهذا ناداه: سمو الأمير. يبدو لي أنه كان الأمير سوفوروف الإيطالي... بل لا... ليس سوفوروف من أخلاف القائد العسكري[62]... خسارة:

Twitter: @ketab_n

نسيت من هو. ولكن هبه أميراً فلقد كان روسياً صرفاً، كان نموذجاً روسياً حقاً، رجلاً وطنياً، قلباً روسياً رحباً واسعاً. فاستطاع أن يدرك كل شيء. وقال يخاطب الشاب الآتي من الضواحي: - «هيه! أتتولى أنت نقل الصخرة؟ وإلا فما ابتسامتك؟» «يضحكني الإنجليز يا سمو الأمير. فلأن الخزينة الروسية عامرة، ولأن ليس في بلادهم ما يأكلونه، تراهم يطلبون أسعاراً فاحشة! أعطني مائة روبل يا سمو الأمير، فلا ترى للحجر أثراً في مساء غد». في وسعكما أن تتصوروا أثر هذا العرض. أراد الإنجليز بالطبع أن يلتهموه. وضحك مونفران. والأمير وحده هذا القلب الروسي الطيب قال: «أعطوه مائة روبل! أتنقل الصخرة حقاً؟» «في مساء غد نكون قد عملْنا عملَنا يا سمو الأمير». «وكيف تعمل حتى تنقلها؟» «لا يسيئنك جوابي يا سمو الأمير إذا قلت: هذا سرنا نحن». قال له ذلك بلغة روسية أصيلة. فأعجب الأمير، وقال: «أعطوه كل ما يريد!» وتركوه هناك، فما تظنّان: هل وفىٰ بما قال؟

توقف المتحدث لحظة عن الكلام، وأجال علينا نظرة رقيقة زاخرة بالعاطفة. فقال فرسيلوف مبتسماً:

- لا أدري.

وكنت أنا متجهم الهيئة.

فهتف المتحدث هتاف المنتصر، كأنه هو الذي حقق المعجزة، هتف يقول:

- إليكما ما عمل. استأجر فلاحين ومجارف... فلاحين روس بسطاء... وبدأوا يحفرون حفرة بجانب الصخرة تماماً. ظلوا يحفرون طول الليل. حفروا حفرة ضخمة، بضخامة الصخرة نفسها... بل أعمق قليلاً. حتى إذا فرغوا من حفر الحفرة، أمَرَهم أن ينزعوا التراب شيئاً فشيئا وباحتراس من تحت الصخرة نفسها، فبعد أن انتهوا من العمل

Twitter: @ketab_n

لم يعد للصخرة بالطبع ما تعتمد عليه وفقدت الصخرة توازنها. دفعوها بأيديهم إلى الحفرة من الجانب الآخر، على الطريقة الروسية الصرفة، وبدون أي استعداد. فسقطت الصخرة في الحفرة! ثم أسرعوا يهيلون عليها بالتراب، ومهدوا التراب بمخباط، وعبدوا الطريق بأحجار صغيرة فعاد الطريق كما كان ولم يبقَ للصخرة أثر!

قال فرسيلوف:

- عظيم!

- وجاء ناس كثير، هرعت جماهير كبيرة. واغتاظ الإنجليز الذين أدركوا كل شيء منذ زمن طويل. ووصل مونفران وقال: هذه طريقة فلاحين، عمل بسيط جداً! ولكن ذلك بعينه هو السر: عمل بسيط جداً، ثم لم يخطر لكم على بال أيها الأغبياء! أما الرئيس الكبير، الشخص الحكومي العظيم، فاحتضن الرجل وقبله، ثم سأله: «من أين أنت؟» فأجابه الرجل: «من إقليم ياروسلافل يا سمو الأمير. مهنتي خياط، وفي الصيف أجيء إلى العاصمة أبيع فاكهة». ووصل الأمر إلى علم السلطات. فأمرت للرجل بميدالية تتدلى من عنقه. ومضى يتجول والوسام في عنقه، ثم مضى يشرب كثيراً كما يقولون. تعلمان أننا معشر الروس لا نستطيع أن نسيطر على أنفسنا. وذلك هو السبب في أننا ما نزال ندع للأجانب أن يأكلونا، أليس كذلك!

بدأ فرسيلوف يقول:

- حتماً، الذكاء الروسي...

ولكن شاء حسن الحظ أن تنادي القصاص امرأته في تلك اللحظة، فهرع إليها. ولولا ذلك لما استطعت أن أصبر. وأخذ فرسيلوف يضحك.

- لكنه يا عزيزي قد سلاّني ساعة كاملة قبل أن تصل... إن قصة

Twitter: @ketab_n

هذه الصخرة. . . هي من أتفه ذلك الركام من القصص المعبرة عن الوطنية الشائعة بين الناس في بلادنا. ولكن كيف أقاطعه؟ لقد كان يذوب فرحاً كما رأيت. عدا ذلك، أظن أن الصخرة لا تزال في مكانها إذا لم أخطىء، ولم ينزلها أحد في حفرة. . .

فهتفت أقول:

– آه! يا ربي! صحيح هذا! كيف تجرأ فزعم ما زعم؟ . .

– ما هذا الذي تقول؟ ما بالك تستاء هذا الاستياء فلا داعي لذلك. لا بد أنه مزج بين شيئين: لقد سمعت في طفولتي قصة من هذا النوع عن صخرة، ولكنها ليست هذه الصخرة بالطبع. كما أن الرواية كانت مختلفة. اسمع: «وصل الأمر إلى علم السلطات». كانت نفسه كلها تغني لحظة قال هذا. إن أمثال هذه الحكايات ضرورية في هذه البيئة المسكينة. وإن عندهم ذخيرة كبيرة منها، ولا سيما بسبب ميلهم إلى المغالاة. إنهم لم يتعلموا شيئاً، ولا يعرفون أمراً من الأمور معرفة دقيقة صحيحة. فهم إلى جانب قيامهم بأعمال مهنتهم ولعبهم الورق، يشتاقون إلى الحديث عن شيء إنساني، شعري. . . من هو بيتر ايبوليتوفتش هذا؟

– إنسان فقير وبائس.

– أرأيت؟ ولعله لا يلعب بالورق أبداً. أكرر قولي إنه إذا روى هذه الحكايات التافهة كان يرضي بذلك ما يملأ نفسه من حب الإنسان لأخيه الإنسان: لقد أراد أن يسرنا. وهو يرضى بذلك أيضاً ما يزخر به قلبه من روح وطنية. يروون مثلاً قصة أخرى عن أن الإنجليز عرضوا على زوفيالوف[63] مليوناً في مقابل أن لا يضع ماركته على بضاعته. . .

– آه! نعم. نعم! أعرف هذه الحكاية. . .

– لا يوجد أحد لا يعرفها، وهو أيضاً كان يعرف تماماً حين روى

Twitter: @ketab_n

لك قصته أنك قد سبق لك أن سمعتها حتماً، ولكنه يرويها مع ذلك، متخيلاً عن عمد أنك لا تعرفها. إن الحكاية التي تتحدث عن رؤيا ملك السويد[64] قد أصبحت قديمة بينهم فيما يبدو، ولكن الناس كانوا في أيام شبابي يتناقلونها في همس ذي دلالة متلذذين. وكذلك تلك القصة الأخرى التي كانت تروى عن شخصية في مطلع هذا القرن أنها جثت راكعة أمام أعضاء مجلس الشيوخ في أحد اجتماعاته[65]. وقد راجت أيضاً قصص كثيرة عن الكومندان باشوتسكي، ومن بين تلك القصص تلك التي تتحدث عن انتزاع النصب التذكاري. إنهم مولعون كثيراً بالقصص المتعلقة بالبلاط. من ذلك مثلاً حكاياتهم عن تشرنيشيف[66]، وهو وزير في عهد الإمبراطور السابق عمره سبعون عاماً استطاع فيما تروي القصة أن يبدل سحنته تبديلاً كبيراً، فإذا رآه أحد لم يخطر بباله أن يكون قد تجاوز من عمره الثلاثين، حتى أن الإمبراطور الراحل كان لا يصدق عينيه حين يراه في الاستعراضات. . .

- هذه أيضاً أعرفها.

- من ذا الذي لا يعرفها؟ إن هذه الحكايات كلها تبلغ الذروة من فساد الذوق. ولكن إعلم أن هذا النوع من فساد الذوق أوسع وأعمق ذيوعاً مما نظن. إن هذه الرغبة في الكذب من أجل مسرة الآخرين تراها حتى في أرقى مجتمع، لأننا نعاني جميعاً من داء الغلو الذي يضطرم في قلوبنا. كل ما هنالك من فرق هو أن قصصنا تنتمي إلى نوع آخر؛ وتصل الحكايات عندنا، عن أميركا وحدها، إلى درجة الخيالية الرهيبة ومن بين القصاصين حتى رجال الدولة. لا أكتمك أنني أنا نفسي أنتمي إلى هذه الفئة المتميزة بفساد الذوق وعانيت من ذلك طول حياتي. . .

- أنا نفسي قصصت حكايات تشرنيشيف مراراً.

- أنت نفسك؟

Twitter: @ketab_n

- في هذا البيت يسكن عداي مستأجر آخر هو موظف مجدور الوجه أيضاً، متقدم في السن، لكنه واقعي إلى درجة رهيبة، فما أن يفتح بيتر ايبوليتوفتش فمه، حتى يأخذ يقاطعه ويعارضه. وقد وصل الأمر إلى أن بيتر ايبوليتوفتش يتملقه ويخدمه كعبد، لا لشيء إلا أن يحمله على الإصغاء إليه.

- وهذا نوع آخر من فساد الذوق، بل لعله أدعى إلى النفور من النوع الأول. الأول حماسة كله. «كل ما أطلبه هو أن تتيح لي أن أكذب، وسوف ترى أن ما سأقوله جميل جداً». أما النوع الثاني فهو خال من روح الشعر، وكله كآبة: «لن أدعك تكذب. أين وقع هذا؟ متى؟ في أية سنة؟» بكلمة هو إنسان لا قلب له. يا صديقي، اسمح دائماً للناس أن يكذبوا قليلاً. هذا شيء بريء. بل إسمح لهم أن يكذبوا كثيراً. فأنت بذلك تبرهن أولاً على رقة شعورك، وأنت بذلك تحصل ثانياً على حق الكذب أيضاً: فائدتان في آن واحد. Que diable (يا للشيطان)[67] يجب على الإنسان أن يحب أخاه الإنسان.

وأضاف فرسيلوف قائلاً وهو ينهض عن كرسيه:

- إنني مستعجل يجب أن أنصرف. مسكنك رائع. سأذكر لصوفيا آندريفنا ولأختك أنني زرتك فوجدتك في صحة حسنة. إلى اللقاء يا عزيزي.

كيف؟ أهذا كل شيء؟ أنا لم تكن حاجتي إطلاقاً إلى هذا. كنت أنتظر شيئاً آخر، كنت أنتظر الشيء الجوهري، رغم أنني أدركت تماماً أن الأمور لا يمكن أن تجري على غير هذا النحو. وسرت معه إلى السلم حاملاً شمعة. وهمَّ المؤجر أن يخرج من غرفته بسرعة، ولكنني أمسكت ذراعه بشدة ورددته بقسوة، دون أن يلاحظ فرسيلوف ذلك، فنظر إليَّ مدهوشاً، ولكنه اختفى فوراً.

Twitter: @ketab_n

قال فرسيلوف في بطء ماطا كلماته، لا لسبب إلا أن يقول شيئاً وخشية أن أقول أنا شيئاً:

- هذه السلالم... هذه السلالم... نسيت عادة صعودها.. وأنت في الطابق الثالث.. طيب.. الآن أهتدي إلى طريقي.. لا تقلق.. يا عزيزي.. لا تنزل أكثر... قد تصاب بزكام.

ولكنني لم أتركه. ونزلنا معاً إلى الطابق الأول. فإذا أنا أقول له:

- انتظرتك ثلاثة أيام.

أفلتت مني هذه الجملة كأنما برغم إرادتي. وكنت أختنق من شدّة الانفعال.

- شكراً يا عزيزي.

- كنت أعلم أنك آت إليّ حتماً.

- وأنا كنت أعلم أنك تعلم أنني آت إليك حتماً. شكراً يا عزيزي.

وصمت. صرنا أمام الباب الخارجي. وما أزال أتبعه. وفتح الباب، فإذا بالريح تندفع بشدة فتطفىء الشمعة. فأمسكت فجأة ذراعه. وكان الظلام حالكاً. فارتعش ولكنه لم ينطق بكلمة. وارتميت على يده، وأخذت أقبلها بشراهة عدة مرات، بل مراراً كثيرة.

قال:

- لماذا تحبني هذا الحب كله يا بني العزيز؟

إن صوته الآن صوت آخر، صوت مختلج، له نبرة جديدة كل الجدة، لكأن المتكلم شخص غيره.

وأردت أن أجيب، لكنني عجزت عن ذلك، ورجعت أصعد السلم مسرعاً. ولبث هو في مكانه ينتظر. ولم أسمع الباب الخارجي يفتح ثم يغلق مقرقعاً إلا حين صرت في طابقي. وانسللت إلى غرفتي متحاشياً المؤجر الذي خرج مرة أخرى لسبب ما، وشددت المزلاج لأحكم

Twitter: @ketab_n

إغلاق الباب؛ وبدون أن أشعل شمعة، ارتميت فوق سريري مكباً بوجهي على المخدة، وبكيت، وبكيت. تلك أول مرة أبكي فيها بعد مدرسة توشار! وكان نشيجي يخرج من صدري قوياً جداً. . . وكنت أنا سعيد جداً. . . ولكن ما فائدة الوصف!

خططت الآن هذه الأسطر دون أن أشعر بالخجل، لأن ذلك كله لعله كان حسناً رغم كل ما فيه من غرابة مستحيلة.

– 3 –

ولكن أبي حصل على جزائه مني في مقابل ذلك! فقد صرت طاغية. طبيعي أنه لم يجر فيما بعد أي حديث بيننا عن ذلك المشهد الذي جرى في الظلام. التقينا بعد ثلاثة أيام، وكأن شيئاً لم يحدث. حتى لقد كنت فظاً تقريباً أما هو فكان يبدو أيضاً جافاً. وتم اللقاء الثاني في غرفتي كاللقاء الأول، ذلك أنني رغم رغبتي في رؤية أمي لم أردّ له زيارته.

ظلت أحاديثنا طوال تلك المدة، أي خلال هذين الشهرين، تدور على نظريات عظيمة ومسائل مجردة. وهي طبعاً، مسائل إنسانية عامة وضرورية، كنا نحرص حرصاً شديداً على تحاشي الأمر الجوهري. بينما كان هذا الأمر الجوهري بجوانبه الكثيرة هو بعينه ما يتطلب إيضاحاً، بل يتطلب إيضاحاً سريعاً. حتى لم أتكلم لا عن أمي ولا عن ليزا (كنت أزورهما كل أسبوع) ولا عن نفسي في نهاية الأمر، ولا عن قصتي كلها. أفكان هذا الصمت خجلاً، أم كان نوعاً من حماقة الشباب؟ لا أدري. أظن أنه كان نوعاً من حماقة الشباب، لأن الخجل يستطيع المرء أن يتغلب عليه بطريقة من الطرق. . لقد سمت فرسيلوف سوء العذاب. حتى لقد كنت في معاملته وقحاً عدة مرات، وكان ذلك على مضض مني أيضاً: كانت الوقاحة تنطلق من تلقاء ذاتها، على نحو لا سبيل إلى مغالبته

Twitter: @ketab_n

ومقاومته، فكنت لا أملك أن أنهي نفسي عنها. وكان في لهجته هو شيء من سخرية، على عهدي به، وإن تكن هذه اللهجة رقيقة دائماً في منتهى الرقة مهما يكن من أمر. ومما أدهشني أيضاً أنه كان يفضل أن يجيء إليَّ، حتى صرت في النهاية لا أذهب إلى أمي إلا قليلاً، مرة واحدة في الأسبوع لا أكثر، ولا سيما في الآونة الأخيرة، حين طاش صوابي تماماً. وكان يأتي دائماً في المساء، فيجالسني ويثرثر، وكان يحب أيضاً أن يثرثر مع مؤجري، فكان يحنقني أن يصدر هذا عن رجل مثله. وقد برق في ذهني خاطر: أتراه ليس له أحد عداي يذهب إليه؟ ولكنني كنت أعلم علم اليقين أن له معارف، حتى أنه في المدة الأخيرة قد جدد كثيراً من العلاقات القديمة بالمجتمع الراقي، بعد أن أهمل تلك العلاقات في السنة الماضية. ولكن كان لا يبدو مفتوناً بهذه العلاقات كثيراً، ولم يجدد عدداً كبيراً منها إلا تجديداً رسمياً شكلياً، وإنما هو يؤثر في أن يجيء إليَّ. ومما يؤثر في قلبي أحياناً أنه حين يجيء في المساء، يكاد يشعر كلَّ مرة تقريباً بشيء من الخجل لحظة يفتح الباب، فينظر إليَّ في البرهة الأولى بعينين تعبران عن قلق خاص كأنه يسأل: «ألا أضايقك؟ إذا كنت أضايقك فقل لي ذلك فأنصرف!» بل كان يلقي السؤال أحياناً. ففي ذات مرة، مثلاً، في الآونة الأخيرة، دخل عليَّ وكنت قد فرغت من ارتداء بدلة جديدة جاءتني من عند الخياط منذ لحظة، وكنت أتهيأ للخروج ذاهباً إلى «الأمير سرجي» من أجل أن نمضي معاً إلى مكان نقصده (أما ما هذا المكان، فسوف أشرح ذلك فيما بعد). دخل فرسيلوف وجلس، ربما دون أن يلاحظ أنني أتهيأ للخروج. إن له ذهولا عجيباً في بعض الأحيان. وبما يشبه المصادفة، أدار الحديث عن المؤجر. فثارت ثائرتي، وقلت:

- آه! ليذهب المؤجر إلى الشيطان!

فإذا هو ينهض فجأة، ويقول:

Twitter: @ketab_n

- آه! يا عزيزي. أظن أنك تتهيأ للخروج، وأنني أضايقك، فسامحني، أرجوك. . .

وأسرع يخرج بمذلة. إن هذه المذلة يظهرها لي رجل مثله، رجل يبلغ منزلته في المجتمع الراقي، ويتصف بما يتصف به من روح الاستقلال، ويملك ما يملكه من أصالة الشخصية، إن هذه المذلة كانت لا تلبث أن تثير في قلبي على الفور كل ما يضمره له من محبة وحنان، وكل ما يحمله له من ثقة به. ولكن إذا كان يحبني هذا الحب كله فلماذا لم يزجرني حين لطخت نفسي بالعار؟ كان يكفي أن يقول لي حينئذ كلمة واحدة حتى أتوقف وأسيطر على نفسي. أو ربما كان لا يكفي ذلك. ولكنه كان يرى فرط غندرتي، ويلاحظ تعاليَّ وتبجّحي، ويبصر سائق عربتي الحوذي ماتفي (حتى لقد أردت مرة أن أوصله إلى بيته بعربتي فرفض، بل لقد تكرر ذلك مراراً فكان في كل مرة يرفض). وكان يرى أنني أتلف أموالاً طائلة، ثم هو لا يقول كلمة واحدة، ولا ينطق بحرف واحد، بل لا يبدي أي ميل إلى الاستطلاع! إن هذا لا يزال يدهشني حتى اليوم. وكنت أنا لا أتحرج أمامه. بل كنت أعرض كل شيء، دون أي شرح أو تعليق طبعاً. كان هو لا يسألني، وكنت أنا لا أتكلم من تلقاء نفسي.

ومع ذلك أوشكنا مرتين أو ثلاث مرات أن نتكلم عن الأمر الجوهري، فسألته مرة في البداية بعد التنازل عن الميراث بفترة قصيرة مم سيعيش الآن، فأجابني قائلاً بصوت هادىء هدوءً خارقاً:

- سأدبر أمري بطريقة ما يا صديقي.

إنني أعلم الآن أن المبلغ الصغير الذي تملكه تاتيانا بافلوفنا، والذي يصل إلى خمسة آلاف تقريباً قد أُنفق نصفه على فرسيلوف في هاتين السنتين الأخيرتين.

Twitter: @ketab_n

ومرة تكلمنا عن أمي. قال فجأة بحزن:

- كثيراً ما قلت لصوفيا آندريفنا في مطلع حياتنا المشتركة، بل في مطلعها ووسطها ونهايتها: «يا عزيزتي، إنني أعذبك وسأظل أعذبك عذاباً شديداً؛ ولست آسف لذلك ما دمت أمامي. ولكنني أعلم أنني سأموت ندماً إذا أنت مت».

وإني لأذكر من جهة أخرى أنه كان في ذلك المساء صريحاً صراحة خاصة، وقال:

- ليتني على الأقل كنت امرءاً تافهاً لا إرادة له، متألماً من أنه كذلك! ولكن لا. فأنا أعلم أنني قوي قوة لا نهاية لها. ما مكمن قوتي في رأيك؟ إن قوتي هي في هذه القدرة المباشرة على التلاؤم مع كل شيء، وهي قدرة يتميز بها جميع الروس الأذكياء من أبناء جيلنا. لا شيء يستطيع أن يدمرني ويقضي عليّ، ولا شيء يستطيع أن يدهشني. إنني قوي التحمل ككلب الحراسة. أستطيع أن أحس عاطفتين متعارضتين في لحظة واحدة معاً، بسهولة لا تفوقها سهولة، ودون أن تشارك في ذلك إرادتي طبعاً. ولكنني أعرف مع ذلك أن هذا أمر فيه حطة، لأن فيه فرط تعقل. لقد عشت حتى الآن قرابة خمسين عاماً، وما أزال إلى الآن أجهل أهو شر أم هو خير أن أبلغ هذه السن. لا شك في أنني أحب الحياة، وهذا ما تشهد به الوقائع. ولكن حب الحياة عند رجل مثلي، شيء فيه خسة. هناك أمور جديدة في هذه الأزمنة الأخيرة: فأمثال كرافت لا يتلاءمون فينتحرون. واضح أن أمثال كرافت حمقى. ومعنى ذلك أننا نحن أذكياء. فليس هناك تواز يمكن أن نقيمه، وتبقى المسألة مفتوحة. هل يعقل أن لا تكون الأرض قد وجدت إلا لأناس مثلنا؟ أغلب الظن أن الجواب سيكون بالإيجاب... ولكن هذه الفكرة تحزن النفس. على كل حال تبقى المسألة مفتوحة.

Twitter: @ketab_n

كان يتكلم بحزن. ومع ذلك لا أدري أكان صادقاً أم لا؟ إن في نفسه على الدوام نوعاً من سر لا يريد أن يكشف عنه بحال من الأحوال.

- 4 -

أغرقته عندئذ بالأسئلة. هجمت عليه هجوم الجائع على قطعة خبز. فكان يجيبني دائماً بمودة وصراحة، ولكنه ينتهي في الختام إلى حِكَم عامة وأقوال مأثورة، فيستحيل عليَّ أن أستخرج من أقواله شيئاً. وكانت هذه الأسئلة جميعها قد أقلقتني طوال حياتي. وإني لأعترف بأنني كنت أرجىء طلب الإجابة عنها دائماً في موسكو إلى حين لقائنا في بطرسبرج. حتى لقد أعلنت له ذلك، فلم يسخر مني، بل شد على يدي على ما أتذكر. فيما يتعلق بالسياسة العامة والمسائل الاجتماعية لم أستطع أن أنتزع منه شيئاً على وجه التقريب؛ وكانت هذه المسائل مع ذلك هي التي تقلقني أكثر من كل ما عداها، بحكم «فكرتي». وفيما يتعلق بأناس مثل درجاتشيف استطعت أن أنتزع منه في ذات مرة هذه الملاحظة: «إنهم أدنى من أي نقد». ولكنه سرعان ما أردف يضيف بغرابة أنه «يحتفظ لنفسه بهذا الحق: وهو أن لا يخلع على رأيه هذا أي قيمة ذات بال». أما ما ألقيته عليه من أسئلة عن الدول المعاصرة ما مآلها، وعن العالم ما مصيره، وعن العالم الاجتماعي كيف يتجدد، فإنه أصم أذنيه عن سماعه زمناً طويلاً، ثم استطعت في النهاية أن أنتزع منه بصعوبة بالغة بضعة كلمات. فقال ذات مرة:

- أظن أن هذا كله سيتم على نحو عادي جداً. إن جميع الدول، رغم توازن الميزانيات، و«عدم وجود عجز» ستفيق ذات صباح، فإذا هي متورطة تورطاً حاسماً، وترفض جميعها أن تدفع وإذا هي جميعها في إفلاس شامل. ولكن جميع العناصر المحافظة في العالم بأسره

Twitter: @ketab_n

ستناهض هذا، لأن هذه العناصر ستكون هي مالكة الأسهم وستكون هي الدائنة، فلا تريد أن تقبل الإفلاس. وبطبيعة الحال، ستحدث عندئذ الأكسدة العامة إذا جاز التعبير: يزداد كثيراً عدد اليهود، ويقوم حكمهم، وبعد ذلك، فإن جميع الذين لم يملكوا أسهماً في يوم من الأيام، ولا ملكوا شيئاً بعامة، أي جميع الشحاذين، سيرفضون المساهمة في الأكسدة طبعاً. . . فتقوم المعركة. . وبعد سبع وسبعين هزيمة يبيد الشحاذون مالكي الأسهم، ويأخذون أسهمهم، ويحلون محلهم، كمساهمين أيضاً بطبيعة الحال. وقد يقولون شيئاً جديداً، وقد لا يقولون. وأغلب الظن أنهم سيفلسون هم أيضاً. أما فيما عدا هذا يا صديقي، فإنني لا أستطيع أن أوغل مزيداً من الإيغال في قراءة المصائر التي سوف تغير وجه العالم. على كل حال، إقرأ رؤيا يوحنا. . .

- ولكن هل ستكون الأمور مادية إلى هذا الحد؟ هل شؤون المال وحدها هي التي ستنهي العالم الحاضر؟

- آه! أنا لم أنظر إلا إلى زاوية من اللوحة طبعاً، ولكن هذه الزاوية مرتبطة بسائرها ارتباطاً لا انفصام له.

- فما العمل إذن؟

- أوه، يا ربي! لا تسرف في التسرع، هذا كله ليس وشيك الحدوث. أفضل شيء على كل حال، هو أن لا يعمل المرء شيئاً البتة. فيكون ضميرك مرتاحاً على الأقل، لأنك لا تكون شاركت في أي شيء. . .

- دعنا من هذا الكلام. لنتكلم جادين. أريد أن أعرف ما الذي يجب عليَّ أن أفعله، وكيف ينبغي أن أعيش؟

- ما الذي يجب عليك أن تفعله يا عزيزي؟ كن شريفاً، لا تكذب أبداً، لا تشته أن تملك منزل جارك. . . الخلاصة: عليك بالوصايا

Twitter: @ketab_n

العشر فاقرأها. . . إن كل شيء مدون فيها إلى الأبد.

- كفى، كفى، هذا كله قديم جداً، وما هو إلا ألفاظ، وإنما المهم أن نعمل.

- طيب، إذا كنت فريسة ضجر شديد، فحاول أن تحب أحداً أو أن تحب شيئاً، أو حتى أن تتعلق بشيء.

- إنك لا تزال تسخر! ثم ما عساي أفعل وحدي، باتباع وصاياك العشر؟

- تطبقها غير متشرد بين المشكلات والشكوك فتصبح إنساناً عظيماً.

- مجهولاً من جميع الناس.

- لا سر يبقى خافياً.

- إنك ما تزال تسخر!

- طيب، إذا كنت تأخذ كل شيء مأخذ الجد إلى هذه الدرجة، فالأفضل أن تسارع إلى التخصص: كن مهندساً أو محامياً. فيكون لك شاغل حقيقي جدي، وتهدأ بالاً، وتنسى جميع هذه الأمور الصبيانية التافهة.

سكت. ما عسى أستطيع أن أستخرج منه؟ ولكنني كنت بعد كل حديث من هذه الأحاديث أضطرب مزيداً من الاضطراب، ويزداد قلقي عما كان عليه من قبل. ثم إنني كنت أرى رؤية واضحة أنه لا يزال في نفسه نوع من سر لا يكشف عنه. وكان هذا ما يجذبني إليه مزيداً من الجذب يوماً بعد يوم.

قاطعته يوماً أقول:

- اسمع، لقد ساورني دائماً أنك لا تقول هذا الكلام إلا عن غضب وألم، أما في قرارة نفسك فإنك شديد الحماسة لفكرة عليا تخفيها أو تخجل من الاعتراف بها.

Twitter: @ketab_n

- شكراً يا عزيزي.

- اسمع! لا شيء أسمى من أن يكون المرء نافعاً. فقل لي: في أي شيء يمكنني في اللحظة الحالية أن أكون نافعاً أكبر نفع؟ أعرف أنك لن تحل المسألة. ولكنني في حاجة إلى رأيك: قل لي رأيك، فآخذ به! حدّد لي ما هي الفكرة العظيمة إذاً؟

- تبديل الحجارة خبزاً[68]، هذه هي الفكرة العظيمة.

- أعظم فكرة؟ الواقع أنك رسمت طريقاً كبيراً. ولكن قل لي: أهذه أعظم فكرة؟

- هي عظيمة جداً يا صديقي، عظيمة جداً. ولكنها ليست العظمى. هي عظيمة، ولكن عظمتها من مرتبة ثانية، وهي عظيمة في الوقت الراهن فحسب: فمتى شبع الإنسان لم تبق عظيمة. بل إن الإنسان سرعان ما سيقول: «طيب، هاأنذا شبعت، فماذا أعمل الآن؟». ويبقى السؤال قائماً إلى الأبد.

- لقد تكلمت ذات مرة عن «آراء جنيف». ولم أفهم أنا ما «آراء جنيف» هذه.

- «آراء جنيف» يا صديقي، هي الفضيلة بغير يسوع المسيح[69]. تلك هي أفكار هذه الأيام، بل قل هي فكرة الحضارة الحديثة كلها. الخلاصة: هذه حكاية من تلك الحكايات الطويلة التي تبعث على الضجر والسأم. فأحرى بنا أن نتكلم عن شيء آخر، والأفضل أن نصمت.

- تود دائماً لو تصمت!

- تذكر يا صديقي أن الصمت جيد، لا خطر منه، وأنه جمال.

- الصمت جميل؟

- طبعاً. الصمت جميل دائماً، والصامت أجمل من المتكلم دائماً.

Twitter: @ketab_n

ولكن الكلام على نحو ما نتكلم أنا وأنت أشبه بالصمت على كل حال. تباً لهذا الجمال، وأكثر من ذلك، تباً لهذه الفائدة.

قال لي فجأة وهو يغير لهجته قليلاً، حتى لقد كان كلامه عاطفياً وكان فيه شيء من إلحاح خاص:

- يا عزيزي، لا أريد أبداً أن أغويك فأبدل مثلك العليا بفضيلة من الفضائل البرجوازية. لا أريد أن أقول لك إن «السعادة خير من البطولة». بالعكس: البطولة أسمى من أي سعادة، واستعداد المرء للبطولة هو في ذاته سعادة. ذلك الأمر لا جدال فيه بيننا. تلك مسألة محلولة. وإذا كنت أحترمك فلأنك استطعت في عصرنا العفن هذا أن تنشىء لك في قرارة قلبك «فكرة» (اطمئن، أنني أتذكر هذا الأمر). ولكن يستحيل عليك أن لا تفكر أيضاً في الاعتدال. ذلك أنك تحلم الآن بحياة لها دوي، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا، وأن تحطّم لا أدري ماذا، أن تسمو فوق روسيا كلها، أن تمر مرور سحابة رعد، أن تغرق العالم كله في الرعب والإعجاب، ثم تمضي تختفي في الولايات الأميركية الشمالية. إن في قلبك شيئاً كهذا بظني، لذلك أرى أن من المفيد أن أحذرك، لأنني أحمل لك عاطفة صادقة.

ماذا كان في وسعي أن أستخرج من هذا أيضاً؟ إن هذا الكلام لا يتضمن إلا قلقاً عليّ بصدد حالتي المادية. هو الأب بعواطفه الخالية من كل روح شعرية، وإن تكن عواطف طيبة. ولكن أهذا ما كنت في حاجتي إليه إزاء أفكار ينبغي لكل أب صادق أمين أن يرسل ابنه إلى الموت تضحية في سبيلها، كما فعل هوراس القديم بأبنائه في الزمان الخالي من أجل الفكرة الرومانية؟[70]

وكنت أسأله كثيراً عن الدين، ولكن الضباب في هذا المجال كان أكثف من الضباب في كل مجال آخر. فإذا سألته عن رأيه في هذا

Twitter: @ketab_n

المجال؟ أجابني أغبى إجابة، كما يجاب طفل صغير، فقال: «يجب أن تؤمن بالله يا عزيزي!».

وقد اشتد حنقي مرة فهتفت أقول له:

- فإذا كنت لا أؤمن بهذا كله؟

فإذا هو يقول لي:

- ذلك حسن جداً يا عزيزي!

- حسن جداً؟ كيف؟

- هذه علامة طيبة جداً يا صديقي، بل هي أضمن علامة، لأن الملحد الروسي - هذا إذا كان ملحداً حقاً وكان على شيء ولو قليل من الذكاء - هو خير إنسان في هذا العالم، فهو يميل دائماً إلى أن يعامل الله بالحسنى لأنه طيب من كل بد، وهو طيب لأنه مسرور بإلحاده سروراً كبيراً. إن الملحدين في بلادنا روسيا أناس جديرون بالاحترام، أناس يوثق بهم إلى أقصى حد، وهم دعامات الوطن إن صح التعبير...

هذا شيء طبعاً. لكنه ليس كل ما كنت أريده. مرة واحدة فقط أفصح عن فكرته، ولكن بطريقة تبلغ من الغرابة أن دهشتي ازدادت، ولا سيما بعد الذي ترامى إلى سمعي عما يأخذ به نفسه من كفارات ومن عبادات كاثوليكية. قال لي يوماً، ولم تكن في البيت بل في الشارع، بعد حديث طويل، وكنت أوصله إلى منزله:

- يا عزيزي، يا صديقي، إن حب البشر على ما هم عليه أمر مستحيل. ومع ذلك يجب أن تحبهم. لذلك يجب أن تصنع لهم خيراً وأن تكظم عواطفك وتسد أنفك وتغمض عينك (هذا الشرط الأخير لا غنى عنه). تحمل ما يفعلون من شر ولا تؤاخذهم إن استطعت، «متذكراً أنك أنت أيضاً إنسان». هذا لا ينفي أن من حقك أن تقسو

Twitter: @ketab_n

عليهم إذا وهب لك أن كان ذكاؤك أعلى ولو بقليل من متوسط ذكائهم. البشر منحطون بطبيعتهم، وهم يحبون أن يحبوا عن خشية وخوف. فلا تستسلم لهذا الحب، ولا تكف عن احتقارهم. في سورة من سور القرآن يأمر الله نبيه بأن ينظر إلى الكفار نظرته إلى فئران، وأن يحسن إليهم، ويمضي في طريقه. إن في هذا شيئاً من تعال، ولكنه صدق وحق. فاحتقر البشر، حتى حين يكونون طيبين، فحين ذلك إنما هم أشد ما يكونون عفناً ونتناً. آه، يا عزيزي، أنا لا أقول هذا الكلام إلا لأنني أعرف نفسي معرفة جيدة! لا يملك إنسان غير غبي إلا أن يحتقر نفسه، شريفاً كان أو غير شريف. يستحيل على الإنسان أن يحب أخاه الإنسان ولا يحتقره. رأيي أن الإنسان خُلق بتكوين جسمه عاجزاً عن حب أخيه الإنسان. لقد وقع خطأ لغوي منذ البداية. ما ينبغي أن تفهم من «حب الإنسانية» إلا الإنسانية التي خلقتها لنفسك في قرارة قلبك (بتعبير آخر: أنا أخلق نفسي وأخلق لها الحب)، أي الإنسانية التي لن توجد حقيقة واقعة في يوم من الأيام أبداً.

- لن توجد أبداً؟

- أعترف يا صديقي بأن ذلك أمر سخيف، ولكن ليس الذنب ذنبي أنا. وكما لم أُسأل رأيي حين خُلق العالم، فإني أحتفظ لنفسي بالحق أن يكون لي رأي.

هتفت أقول:

- كيف يمكن بعد هذا أن يقال عنك أنك مسيحي متحمس ومبشّر، وأنك راهب تأخذ نفسك بكفارات وعبادات؟ لا أفهم!

- من ذا يقول عني هذا؟

فقصصت عليه ما سمعت. فأصغى إلى كلامي بانتباه شديد، ولكنه توقف عن الحديث. . .

Twitter: @ketab_n

لا أفلح في تذكر المناسبة التي جرتنا إلى هذا الحديث الذي لا أنساه. ولكنني أذكر أنه زعل، وذلك أمر كان لا يكاد يحدث له أبداً. كان يتكلم باندفاع، وبغير سخرية، كأنما هو يوجه كلامه إلى شخص غيري. ولكنني هنا أيضاً لم أصدقه: أيعقل أنه يتناول جدياً مع شخص مثلي موضوعات كهذه؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

– 1 –

في ذلك الصباح من 15 تشرين الثاني رأيته عند «الأمير سرجي». إنني أنا الذي وصلت بينهما، ولكن كان بينهما نقاط التقاء كثيرة من قبل أن أصل أنا بينهما (أقصد تلك القصص التي وقعت بينهما في الخارج، إلخ). وعدا ذلك كان الأمير قد قطع له عهداً بأن يخصص له ثلث الميراث على الأقل، أي قرابة عشرين ألف روبل من كل بد. وأذكر أنني قد دهشت من أن يخص فرسيلوف بثلث الميراث لا بنصفه. ولكنني لم أقل شيئاً. ولقد بذل الأمير هذا الوعد بمبادرة منه. أما فرسيلوف فلم ينطق بنصف كلمة، لم ينبس بحرف. إن الأمير هو الذي قدَّم العرض، فلم يقابله فرسيلوف إلا بالصمت، ولا ذكَّر به في يوم من الأيام، ولا بدا عليه أن يتذكره البتة. يجب أن أشير عابراً إلى أن الأمير قد افتتن به في أول الأمر افتتاناً كبيراً، ولا سيما بأحاديثه، حتى لقد تحمس له، وأعرب لي عن ذلك مراراً. بل إنه كان في بعض الأحيان، حين يخلو إلي، يهتف قائلاً عن نفسه بما يشبه اليأس «إنه إنسان ضئيل الحظ من الثقافة، وإنه يسير في طريق خطأ»... آه! كنا حينئذ صديقين حميمين! وقد حاولت من جهتي أن أوحي إلى فرسيلوف برأي حسن في الأمير، مدافعاً عن عيوبه، مع أنني أراها. ولكن فرسيلوف كان يبقى صامتا أو كان يبتسم.

Twitter: @ketab_n

وقد صحت ذات يوم أقول لفرسيلوف منفرداً به:

- إذا كانت له عيوب، فإن له مزايا تساويها.

فأجابني فرسيلوف وهو يضحك ساخراً:

- إنك تبالغ في مدحه وأي مبالغة!

- أين المبالغة؟ لست أفهم؟

- تقول إن مزاياه تساوي عيوبه. فلو كانت له مزايا بقدر عيوبه لغدا قديسا!

ولم يكن هذا رأياً بطبيعة الحال. حينئذ كان يتحاشى الكلام عن الأمير كتحاشيه الكلام عن الأمور الجوهرية عامة، بل كان تجنبه الكلام عن الأمير أشد من تجنبه الكلام عن تلك الأمور الجوهرية. وكنت أقدر أنه يزور الأمير في غيابي، وأن بينهما علاقات خاصة. ولكنني كنت راضياً بالأمر. وكان لا يثير غيرتي أن يكون في حديثه مع الأمير من الجد والوضوح والإيجابية إذا صح التعبير أكثر مما في حديثه معي من مثل ذلك كله، وأن يتميز حديثه إليه بسخرية أقلّ من سخرية حديثه إليّ. بل قد بلغت من فرط السعادة أن ذلك كان يرضيني ويعجبني. وكان يشفع لفرسيلوف في هذا عندي أن الأمير رجل محدود الذكاء قليلاً، فيحتاج حتى يفهم إلى دقة في العبارات، ويفوته إدراك معنى بعض الأمازيح. ولكن ها هو ذا قد أخذ يتحرر في الآونة الأخيرة. وبدا أن عواطفه نحو فرسيلوف قد تتغير. ولاحظ فرسيلوف ذلك بما أوتي من رهافة الحس. ولاحظت تغيراً كهذا في علاقات الأمير بي. حتى لقد كان هذا التغير واضحاً كل الوضوح. فلم يبق من صداقتنا الأولى الحارة إلا صور ميتة. ومع ذلك ظللت أذهب إليه. وهل كان يمكنني أن أفعل غير هذا بعد أن أبحرت؟ آه... ما كان أشد سذاجتي! أمعقول أن بساطة القلب يمكنها أن تودي بإنسان إلى مثل هذه الدرجة من الخراقة والحطة؟

Twitter: @ketab_n

كنت أقبل منه مالاً، وفي ظني أن ذلك ليس له شأن، وأنه من طبيعة الأمور. بل قل لم يكن الأمر كذلك: لقد كنت أعلم منذ ذلك الحين أن هذا ليس ما كان يجب علي أن أعمله، ولكنني كنت لا أفكر في الأمر كثيراً، ولا أتلبث عليه طويلاً. ولم أكن أذهب إليه من أجل المال، رغم حاجتي الشديدة الرهيبة إلى المال. وكنت أعلم أنني لا أذهب إليه من أجل المال، ولكنني أدرك أنني أجيء كل يوم فآخذ مالاً. على أنني أدور في الزوبعة وكانت نفسي عدا ذلك مشغولة بشيء آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف. كانت نفسي كلها تغنّي!

حين دخلت في نحو الساعة الحادية عشرة من ذلك الصباح، وجدت فرسيلوف عند الأمير مشارفاً على ختام حديث مستفيض. كان الأمير يصغي وهو يذرع الغرفة ذاهباً آيباً. أما فرسيلوف فكان جالساً. وكان يبدو على الأمير شيء من الاضطراب. إن فرسيلوف يبث في نفسه بعض الاضطراب دائماً تقريباً. فالأمير شديد التأثر إلى درجة السذاجة، وكان هذا يجعلني أنظر إليه من عل في أكثر الأحيان. ولكنني أعود فأكرر أنه في هذه الأيام الأخيرة قد ظهر فيه شيء من خبث وشر. فلما رآني توقف، وتقبض وجهه قليلاً. وكنت أعرف بيني وبين نفسي كيف أفسر هذا الظل يظهر على وجهه في ذلك الصباح، ولكنني لم أتوقع أن تتبدل سحنته هذا التبدل. كنت أعلم أن هناك أنواعاً شتى من المنغصات قد تراكمت عليه، ولكن المؤسف أنني كنت لا أعرف إلا عشر معشارها، وكان ما عدا ذلك سراً أجهله جهلاً تاماً. وكان من الحماقة والوقاحة أنني كنت أحياناً كثيرة أحاول أن أواسيه وأن أسدي إليه بالنصح، دون أن يفوتني أن أسخر من ضعفه في استعلاء قائلاً له: ما هذا الاضطراب بسبب هذه «الترهات»! وكان يلتزم الصمت. ولكن يستحيل أن لا يكرهني كرهاً رهيباً في تلك اللحظات: لقد كنت في وضع زائف دون

Twitter: @ketab_n

أن يخطر ببالي ذلك. آه. . . شهد الله أن الأمر الجوهري ما كان يدور في خلدي، ولا كان يخطر لي على بال!

ومع ذلك مد إليَّ يده بحركة مهذبة. وهز فرسيلوف رأسه محيياً دون أن يقطع حديثه. وتمددت على الديوان. يا لها من لهجة ويا لها من أساليب كنت ألجأ إليها في ذلك الوقت! كنت أزداد غلواً في الطيش، وأعامل أصدقاءه معاملة أصدقائي. آه. . . لو كان يمكن أن أتقهقر الآن في الزمان إلى الوراء، لسلكت سلوكاً آخر. . .

كلمتان أخيرتان قبل أن أنسى: كان الأمير ما يزال يسكن تلك الشقة نفسها، لكنه يشغلها الآن كلها تقريباً، فإن مالكتها ستولبييفا لم تقض فيها إلا شهراً واحداً ثم سافرت.

– 2 –

كانا يتكلمان عن طبقة النبلاء. يجب أن أذكر أن هذه المسألة كانت تشغل بال الأمير كثيراً في بعض الأحيان، رغم ما يصطنعه من مظاهر التقدمية؛ حتى لأعتقد أن كثيراً من الجوانب السيئة في حياته قد نشأت عن ذلك، أو بدأت بذلك: إنه من فرط ولوعه بلقب الأمير قد قضى حياته كلها يبذر المال ويغرق في الديون مدفوعاً بزهو باطل وكبرياء كاذبة، رغم أنه لا يملك ثروة. وقد أسمعه فرسيلوف مراراً أن النبالة ليست في هذا، وحاول أن يدخل في قلبه تصوراً أرفع من هذا التصور. ولكن الأمير تأذى في آخر الأمر، وأهانه أن يلقنه أحد دروساً. ولا شك أن مشهداً من هذا النوع كان يجري في ذلك الصباح، ولكنني لم أحضر بدايته. وقد بدت لي أقوال فرسيلوف في البداية رجعية، ولكنه استدرك بعد ذلك.

كان يقول (وأنا أنقل المعنى وحده بقدر ما تسعفني الذاكرة):

Twitter: @ketab_n

- إن كلمة شرف تعني الواجب. فحين تسيطر في دولة من الدول طبقة عليا، فإن البلاد تكون قوية عزيزة الجانب. ولهذه الطبقة دائماً شرفها ولها دائماً ديانة شرف تعتنقها. وقد تكون هذه الديانة خطأ ولكنها رباط يحقق تلاحم البلاد دائماً تقريباً، فهي نافعة في الأخلاق، وهي نافعة في السياسة خاصة. ولكن العبيد يتألمون وأعني بالعبيد جميع أولئك الذين لا ينتمون إلى تلك الطبقة؛ فمن أجل أن لا يتألموا توهب لهم المساواة في الحقوق. هذا ما حدث عندنا، وهو أمر حسن جداً. غير أن جميع التجارب التي تمت حتى الآن، وفي كل مكان (أي في أوروبا)، تدل على أن المساواة في الحقوق تؤدي إلى انخفاض في مستوى الشرف، وفي مستوى الواجب تبعاً لذلك. فالأنانية حلت محل الفكرة القديمة التي كانت تشد البلاد برباط قوي، وصار كل شيء إلى حرية للأفراد. فلما تحرر البشر، وخلوا من فكرة تشد بعضهم إلى بعض، بلغوا في آخر الأمر من فقدان كل رابطة عليا أنهم أصبحوا لا يدافعون عن حريتهم. ولكن النبالة الروسية لم تشبه النبالة الأوروبية في يوم من الأيام. وحتى في أيامنا هذه، بعد أن فقدت حقوقها، تظل نبالتنا قادرة على أن تبقى طبقة عليا تحافظ على الشرف والأنوار والعلم والفكرة السامية، ولا سيما إذا هي كفت عن أن تكون طبقة مغلقة، وإلا كان في انغلاقها موت الفكرة. وقد ظلت أبواب النبالة في بلادنا مشقوقة منذ مدة طويلة، والآن حان الوقت الذي يجب أن تفتح فيه هذه الأبواب على مصاريعها. فإذا كل مأثرة من مآثر الشرف أو العلم أو الشجاعة تهب لصاحبها في بلادنا حق الانتماء إلى هذه الطبقة العليا فبذلك تستحيل الطبقة من تلقاء نفسها إلى جمع يضم خيار الناس بالمعنى الصادق الحق لهذه الكلمة، لا بالمعنى القديم من حيث أنها طبقة مغلقة ذات امتيازات. ففي هذه الصورة الجديدة، أو قل هذه الصورة المجددة

Twitter: @ketab_n

يمكن أن تبقى هذه الطبقة وأن تستمر.

فكشف الأمير عن أسنانه قائلاً:

- وماذا يبقى عندئذ من النبالة؟ إن ما تتصوره لهو محفل ماسوني لا طبقة نبلاء.

يجب أن أعود فأكرر أن الأمير رجل جاهل جهلاً رهيباً، حتى لقد استدرت على ديواني غضباً، رغم أنني لم أوافق فرسيلوف على ما قاله موافقة تامة. وأدرك فرسيلوف أن الأمير حانق. فأجاب يقول له:

- لا أدري ماذا تعنيه بالماسونية. ولكن إذا رفض حتى أمير روسي هذه الفكرة، كان معنى ذلك أن الوقت لم يحن بعد، وأن الفكرة سابقة لأوانها. صحيح أن الفكرة القائلة بأن الشرف والثقافة شرطُ الانتماء إلى طبقة لا تغلق أبوابها ولا تجمد على حالها بل ما تنفك تتطور وتتجدد، هي طوباوية، ولكن هل هي مستحيلة؟ يكفي أن هذه الفكرة قائمة ولو في عدد قليل من الأذهان حتى تقول إنها لم تضع، فهي تسطع كسطوع نقطة مضيئة في ظلمات كثيفة. قال الأمير:

- أراك تحب أن تستعمل هذه الألفاظ: «فكرة عليا»، «فكرة كبيرة»، «فكرة تربط الناس وتشدهم بعضهم إلى البعض» إلخ. فأريد أن أفهم ما الذي تعنيه على وجه الدقة من قولك: «فكرة كبيرة»؟

فأجاب فرسيلوف بتهكم ناعم:

- لا أدري في الواقع بماذا أجيبك يا عزيزي الأمير. بل لعلني أكون أقرب إلى الصدق إذا قلت لك إنني عاجز عن الإجابة. إن الفكرة الكبيرة هي في العادة عاطفة تظل أحياناً بدون تعريف خلال مدة طويلة جداً. ولكنني أعلم أن هذه العاطفة هي ما ولد الحياة الحية دائماً، أقصد الحياة التي ليست حياة مصطنعة قائمة على الألفاظ، بل حياة حقة، حياة يتدفق فيها الفرح ولا يخالطها ضجر. فالفكرة العليا التي تنبع منها هذه الحياة

Twitter: @ketab_n

هي إذن ضرورة لا غنى لها، وإن ساءت الناس طبعاً.

- ولماذا تسوء الناس؟

لأن الناس يسأمون أن يعيشوا بأفكار، ويبهجهم أن تخلو معيشتهم منها.

وبلع الأمير هذه الغمزة. ثم قال يسأل (وقد استعر غضبه بوضوح):

- وما تلك الحياة الحية في رأيك؟

- لا أدري أيضاً يا أمير. ولكنني أعرف أنها شيء بسيط غاية البساطة، شيء عادي إلى أبعد الحدود، شيء ظاهر للعيان كل يوم في كل دقيقة، بل شيء يبلغ من البساطة أننا لا نصدق إطلاقاً أنها تبلغ هذا المبلغ من البساطة، ونمر بها طبعاً منذ ألوف السنين دون أن نلاحظها أو أن نتعرفها.

قال الأمير:

- لكنني أردت أن أقول إن فكرتك عن النبالة هي في الوقت نفسه إنكار النبالة ونفي لها.

- فاعلم إذاً، ما دمت حريصاً على ذلك، أن النبالة لعلها لم توجد عندنا في يوم من الأيام.

- هذا الكلام كله غامض غموضاً رهيباً، مبهم إبهاماً فظيعاً. حين يتكلم الإنسان، يجب عليه في رأيي أن يشرح ويوضح. . .

وتغضَّن جبين الأمير، وألقى نظرة سريعة على الجدار. فتناول فرسيلوف قبعته ونهض وهو يقول:

- يشرح ويوضح؟ لا بل الأفضل أن لا يشرح وأن لا يوضح. وهذه آفة من آفاتي على كل حال: فأنا لا أفيض في الشرح والإيضاح. نعم، هو كذلك. وثمة سمة غريبة أخرى من سمات طبعي: إذا اتفق لي أن أخذت أشرح وأن أوضح فكرة أؤمن بها، فإنني في جميع الأحيان تقريباً

Twitter: @ketab_n

أكف أنا نفسي عن الإيمان بها في ختام شرحي. وأخشى أن تجري الأمور اليوم هذا المجرى. إلى اللقاء يا عزيزي الأمير. إنني أسترسل في الحديث وأنقاد للثرثرة عندك دائماً، وهذا أمر لا يغتفر.

وخرج. فشيعه الأمير بأدب، ولكنني تأذيت وجرح شعوري.

وقال لي الأمير فجأة دون أن ينظر إليَّ، ودون أن يتوقف وهو يتجه إلى مكتبه:

- ما بال وجهك يتجهم؟

فأجبته أقول متهدج الصوت:

- يتجهم وجهي لأنني أرى تبدلاً في لهجتك معي وحتى مع فرسيلوف... تبدلاً يبلغ من الغرابة أن... لا شك أن كلام فرسيلوف قد كان في البداية رجعياً إلى حد ما ولكنه استدرك فيما بعد، و... لعل أقواله كانت فكرة عميقة، ولكنك لم تفهمها، و...

- لا أريد أن يلقنني أحد دروساً، وأن يعاملني معاملة صبي صغير.

كذلك قال الأمير بلهجة قاطعة فيها شيء من الغضب. فقلت له:

- يا أمير، إن هذه الأقوال...

- دعنا من الحركات المسرحية، من فضلك! إنني أعلم أن ما أفعله فيه حطة، فأنا مبذر، وأنا مقامر؛ وربما كنت لصاً... نعم؛ ربما كنت لصاً؛ لأنني أتلف مال أسرتي، ولكنني لا أريد إطلاقاً قضاة يحكمون عليَّ من فوق. لا أريد ذلك، ولا أقبله. أنا قاضي نفسي. وما معنى هذا الكلام الملتبس الذي يقوله؟ إذا كان يريد أن يقول لي شيئاً، فليعبر عنه بصراحة بدلاً من الإيغال في هذه المتاهات المظلمة والنبوءات الغامضة. ومع ذلك ينبغي أن يكون قبل كل شيء أهلاً لأن يقول لي شيئاً، يجب أن يكون هو نفسه رجلاً شريفاً...

- أولا: أنا لم أحضر بداية الحديث، وأجهل عمَّ كنتما تتكلمان. ثم

Twitter: @ketab_n

لماذا تقول إن فرسيلوف ليس شريفاً؟ هلا إذنت لي بإلقاء هذا السؤال!

- كفى، كفى، أرجوك. لقد طلبت مني بالأمس ثلاثمائة روبل. فإليك هي!

قال ذلك ووضع المال أمامي على الطاولة، وجلس في مقعد، وارتد مسنداً ظهره بحركة عصبية، ووضع ساقاً على ساق. فوقفت في حيرة وتمتمت أقول:

- لا أدري. لقد طلبت منك هذا المبلغ فعلاً. . . وأنا في حاجة ماسة إليه حقا. . . ولكن إزاء هذه اللهجة التي تخاطبني بها، فإنني. . .

- دعك من اللهجة. وإني لأعتذر إليك إذا قد نطقت بكلام يجرح شعورك. وأؤكد لك أن هناك هموماً أخرى تملأ نفسي! اسمع، لقد تلقيت رسالة من موسكو. إنك تعلم أن أخي ساشا قد مات وهو صبي منذ ثلاثة أيام. وتعلم أن أبي مصاب بشلل منذ سنتين. وقد كتبوا إليَّ أن حالته ساءت حتى أصبح لا يستطيع أن ينطق بكلمة، ولا يقدر أن يتعرف أحداً. وهم هناك مبتهجون منذ الآن، بسبب الميراث؛ ويريدون أن يذهبوا به إلى خارج البلاد. ولكن الطبيب كتب إليَّ قائلاً إن من المشكوك فيه أن يبقى أبي حياً أكثر من أسبوعين آخرين. وهكذا سنبقى أنا وأمي وأختي. . . فكأنني سأكون وحيداً. بل هاأنذا وحيد. . وذلك الميراث، ذلك الميراث، آه. . . ألا ليته لم يجيء أبداً! ولكن إليك ما كنت أريد أن أبلغك إياه: لقد وعدت أندريه بتروفيتش أن يناله من هذا الميراث ما لا يقل عن عشرين ألف روبل. . . ولكن، تصور، أننا بسبب الإجراءات الرسمية لم نستطع بعد أن نحصل على هذا الميراث حتى الآن. حتى أنني. . أقصد. . حتى أننا. . . أقصد حتى أن أبي لم يصبح بعد مالك هذه الضيعة. ومع ذلك ما أضخم المبالغ التي أنفقها في هذه الأسابيع الثلاثة الأخيرة!. . وما أكبر الفائدة التي يأخذها هذا الوغد

Twitter: @ketab_n

الدنيء ستيبلكوف. . . إنني أعطيتك الآن آخر ما معي. . .

– آه، يا أمير، إذا كان الأمر كذلك. . .

– ليس هذا ما أقصده. أن ستيبلكوف سيجيئني اليوم بمال قطعاً، وسيكون ما يجيئني به كافياً لوقت ما. ولكن الشيطان وحده يعرف هذا الرجل! لقد توسلت إليه ضارعاً أن يجد لي عشرة آلاف روبل، فأستطيع أن أعطي أندريه بتروفتش عشرة آلاف على الأقل. إن الوعد الذي بذلته بأن أترك له ثلث الميراث يعذبني تعذيباً شديداً. لقد قطعت على نفسي عهداً، وينبغي أن أفي به. وأحلف لك أنني أحترق رغبة في تحقيق التزاماتي ولو من هذه الناحية. إنها ثقيلة على نفسي؛ ثقيلة جداً لا تطاق! إن هذه العلاقة ترهقني. . . إنني لا أستطيع أن أرى آندريه بتروفتش، لأنني لا أستطيع أن أنظر إليه وجهاً لوجه. . . لماذا يسيىء استغلال حالتي هذه؟

– كيف يسيىء استغلال حالتك يا أمير؟

قلت له ذلك وأنا أقف أمامه مبهوتاً. وأضفت:

– هل ألمح أو غمز أو عرّض أحياناً؟

– آه. أبداً. إنني لأقدر له هذا. لكنني أنا الذي ألمح إلى نفسي. وأخيراً أزداد تورطاً وارتباطاً. . . إن ستيبلكوف هذا. . .

– اسمع يا أمير، هدىء نفسك، أرجوك. أرى أنك كلما أمعنت في هذا السبيل اشتد اضطرابك. وقد لا يكون الأمر مع ذلك إلا سراباً. . . آه. . . أنا أيضاً تورطت تورطاً دنيئاً لا يغتفر. لكنني أعرف أن هذا عارض طارئ. . . سوف يكفيني أن أربح مبلغاً معيناً ثم. . . قل لي: إن دينك عليَّ يصبح ألفين وخمسمائة روبلاً إذا أنا أخذت هذه الثلاثمائة، أليس كذلك؟

– يبدو إنني لا أطالبك بسداد هذا الدين.

قال الأمير ذلك وكشر فجأة.

Twitter: @ketab_n

قلت:

- تقول إنك ستعطي فرسيلوف عشرة آلاف روبل، فإذا قبلت الآن ما أخذته منك فيجب أن يدخل في حساب العشرين ألفا التي ستخص بها فرسيلوف. ولن أقبل أن يكون الأمر غير ذلك. ولكن... ولكنني سأرد إليك المبلغ بنفسي حتماً. هل تظن أن فرسيلوف يجيء إليك من أجل هذا المال؟

قال الأمير بلهجة تحمل معنى اللغز:

- ليت مجيئه كان من أجل المال لكان ذلك أسهل عليَّ.

- تكلمت عن «علاقة ترهقك»... فإذا كنت تعني فرسيلوف وتعنيني فهذا والله! كلام جارح. وقلت أيضاً: لماذا لا يكون هو كما يريد من الناس أن يكونوا؟ هذا هو منطقك، فاسمح لي أن أقول لك إن هذا ليس بمنطق. هبه لا يلتزم بما يطلبه من غيره، إن هذا لا يمنعه من الدعوة إلى الحقيقة. ولماذا كلمة الدعوة هذه؟ ثم إنك تستعمل كلمة النبوءات، فقل لي: هل أنت الذي وصفته في ألمانيا بأنه «نبي للنساء»؟

- لا، لست أنا.

- ذكر لي ستيبلكوف أنك قائل هذه الجملة.

- كذب. لست قادراً على خلع ألقاب فكهة. ولكن إذا أراد أحد أن يدعو إلى الشرف، فليكن شريفاً هو نفسه: ذلك منطقي... سواء لديّ أن يكون هذا المنطق خطأً. أريد هذا، وسيكون. فلا يجرؤن أحد بعد على أن يجيء إليَّ ليحكم عليَّ ويعاملني معاملة صبي صغير.

وهتف يقول وهو يحرك يده بإشارة تهيب بي أن لا أعقّب على كلامه:

- كفى! آه... أخيراً.

وفتح الباب ودخل ستيبلكوف.

Twitter: @ketab_n

لا يزال كما كان، حسن الهندام أنيقاً، ناهداً بصدره إلى أمام، محدقاً بنظره تحديقاً أبله، ظاناً نفسه أمكر من غيره، راضياً عن ذاته أعظم الرضى. ولكنه حين دخل هذه المرة ألقى على الغرفة نظرة مستطلعة غريبة، وكان في نظرته شيء من روية وتفرس، فكأنه يحاول أن يحزر من رؤية وجهينا شيئاً من الأشياء. على أنه لم يلبث أن اطمأن بالاً، وأضاءت شفتيه ابتسامة غرور فيها «طلب وقح»، كنت أتقزز منها كثيراً.

ولقد كنت أعلم منذ مدة طويلة أنه يزعج الأمير كثيراً. وسبق أن جاء إلى الأمير، وأنا عنده، مرة أو مرتين. وأنا أيضاً. . كان لي معه شأن في الشهر الأخير، ولكنني في هذه المرة استغربت زيارته بعض الاستغراب لسبب من الأسباب.

قال له الأمير دون أن يحييه:

- حالا.

وأدار لنا ظهره وأخذ يخرج من مكتبه أوراقاً وحسابات. ولقد كنت من جهتي متأذياً من الكلمات الأخيرة التي قالها لي الأمير تأذياً شديداً. فإن إشارته إلى أن فرسيلوف رجل غير شريف كانت تبلغ من شدة الوضوح (وشدة ما تبعثه في النفس من الدهشة أيضاً) أنه كان يستحيل أن لا أطالب لها بإيضاح مستفيض. ولكن كان لا يمكن أن يخطر هذا بالبال أثناء وجود ستيبلكوف. وعدت أتمدد على الديوان، وفتحت كتاباً كان أمامي، فرأيتني أصيح للأمير بلهجة بدت غير طبيعية إلى أبعد الحدود:

- بيلنسكي! الجزء الثاني! . . .[71] هذا شيء جديد! هل تريد أن تتثقف؟

وكان الأمير منهمكاً في أوراقه وبدت عليه العجلة، ولكنه ما إن سمع

Twitter: @ketab_n

كلماتي حتى التفت إليَّ وقال لي بخشونة:

- دع هذا الكتاب وشأنه، من فضلك!

فكانت جملته هذه تتجاوز الحدود المألوفة، ولا سيما أمام ستيبلكوف! وبمصادفة تشبه العمد جعَّد ستيبلكوف وجهه بحركة دنيئة ماكرة، وأومأ برأسه مشيراً إلى الأمير خلسة. فأشحت وجهي عن هذا الرجل الغبي. وقلت أخاطب الأمير:

- لا تزعل يا أمير، فهاأنذا أدعك للرجل الرئيسي، وأنسحب. . .

كنت قد قررت أن لا أتحرج في كلامي. فقال ستيبلكوف جذلاً وهو يشير إلى نفسه بإصبعه:

- أأنا الرجل الرئيسي؟

- نعم أنت. أنت الرجل الرئيسي، وإنك لتعرف ذلك حق معرفته!

- لا، اسمح لي. إن في كل مكان على هذه الأرض رجلاً ثانياً. فأنا الرجل الثاني. ثمة رجل أول، ورجل ثان. الرجل الأول يفعل، والرجل الثاني يأخذ. فبذلك يصبح الثاني أولاً ويصبح الأول ثانياً. أصحيح أم لا؟

- جائز، ولكنني لا أفهم قصدك، على عادتي.

- اسمح لي. لقد قامت في فرنسا ثورة. وأُعدم الناس بالمقصلة. ثم جاء نابوليون فأخذ كل شيء. فالثورة هي الأولى، ونابليون هو الثاني. ولكن نابوليون أصبح هو الأول، وأصبحت الثورة هي الثانية. أصحيح أم لا؟

يجب أن أذكر عابراً أنني حين أخذ يتكلم عن الثورة الفرنسية رأيت في كلامه ذلك المكر نفسه الذي لاحظته سابقاً فأضحكني كثيراً. إنه ما يزال ينظر إليَّ نظرته إلى رجل ثوري، فكلما لقيني رأى من واجبه أن يتناول موضوعاً من هذا النوع.

Twitter: @ketab_n

قال الأمير:

- هيا بنا! وخرجا كلاهما إلى غرفة أخرى. حتى إذا خلوت إلى نفسي اتخذت قراراً قاطعاً بأن أرد إليه الثلاثمائة روبل متى انصرف ستيبلكوف. لقد كنت في حاجة ماسّة إلى هذا المال؛ ولكنني عزمت أمري واتخذت قراري.

لبثا نحو عشر دقائق لا يُسمع لهما صوت، ثم إذا هما يتكلمان بصوت عال على حين فجأة. أصبحا يتكلمان كلاهما في آن واحد، ولكن الأمير لم يلبث أن أخذ يصرخ، فلو سمعته لقلت إنه غاضب غضباً يبلغ درجة الحنق الشديد. وكان يندفع في بعض الأحيان اندفاعاً قوياً إلى درجة كنت حتى أنا أتسامح معه فيها. ولكن خادماً دخل في تلك اللحظة نفسها، فدللته على الغرفة التي فيها الأمير، فما إن دخل عليهما حتى هدأ كل شيء في الغرفة دفعة واحدة. وسرعان ما خرج الأمير مهموم الهيئة ولكنه مبتسم. ورجع الخادم راكضاً، فما انقضى نصف دقيقة حتى دخل زائر.

إنه رجل مهيب الطلعة، يزدان كتفا بزته العسكرية بأشرطة، ويحمل صدره رقما إمبراطورياً، ولا يزيد عمره على ثلاثين عاماً، وهو من أبناء المجتمع الراقي، تعبر هيئته عن صرامة ورصانة. يجب أن أنبه القارىء إلى أن سرجي بتروفتش كان لا ينتمي حقاً إلى المجتمع البطرسبرجي العالي، رغم شوقه المحرق إلى ذلك، (كنت أعرف فيه هذه الرغبة)، فلا بد أن يقدر مثل هذه الزيارة قدراً عظيماً. ولقد تم التعارف بين الرجلين منذ مدة قصيرة بعد جهود كبيرة بذلها الأمير، (كنت أعرف ذلك)، والزائر إنما يردُّ الآن للأمير زيارة سابقة، ولكن شاء سوء الحظ أن يجيئه مباغتاً. فرأيت ما زخرت به سحنة الأمير من ألم، وما كان في نظرته من حيرة حين التفت لحظة إلى ستيبلكوف. ولكن ستيبلكوف

Twitter: @ketab_n

احتمل هذه النظرة كأن شيئاً لم يكن، ولم يخطر بباله أبداً أن يرتبك، بل جلس على الديوان طلق الحركة منبسط الأسارير، وأخذ ينكش شعره بيده إظهاراً لاستقلاله في أغلب الظن. حتى لقد اكتسى وجهه الوقار والمهابة. الخلاصة أنه كان لا يطاق! أما أنا فكنت حينها قد عرفت طبعاً كياسة السلوك، فما كان لأحد أن يحمر خجلاً من وجودي. ولكن ما كان أشد دهشتي حين لمحت في الأمير تلك النظرة نفسها، النظرة الحائرة المسكينة الكارهة، فأدركت أنه خجل من وجودنا كلينا، وأنه لا يفرق بيني وبين ستيبلكوف من هذه الناحية! فأحنقتني هذه الفكرة. فرأيت نفسي أسترخي على المقعد استرخاء أدعى إلى الراحة، وأخذت أقلب الكتاب غير مكترث، كشخص لا يعنيه شيء البتة. وكذلك ستيبلكوف، فقد حملق عينيه، ومال إلى أمام، واصاخ بسمعه إلى الحديث، ولعله كان يظن أن هذا من الأدب واللطف. فألقى عليه الزائر نظرة أو نظرتين. وكذلك فعل لي على كل حال.

أخذ الأمير والزائر يتناقلان أنباء عائلية. كان الزائر قد عرف أم الأمير التي هي سليلة أسرة كريمة المحتد مشهورة. وإذا صح ما أدركته فقد كان الزائر، رغم ما بدا عليه من بساطة ولطافة، في غاية الصرامة والاستعلاء ويحسُّ بأنه يبلغ من رفعة القدر أن زيارة منه لا بد أن تكون شرفاً عظيماً لمن يحظى بها مهما تكن مكانته. ويقيني أن الأمير، لو خلا الرجلان أحدهما إلى الآخر، لأظهر وقاراً أكبر وحذقاً أعظم، غير أن شيئاً من الاختلاج في ابتسامته التي لعلها كانت مفرطة في التودد، وشيئاً من الذهول الغريب، كانا يفضحان ما في داخله من حرج وضيق.

وما إن انقضت خمس دقائق أو يكاد حتى أُعلن عن وصول زائر آخر شاءت المصادفة التي تشبه العمد أن يكون حضوره هو أيضاً مسيئاً إلى سمعة الأمير. إنني أعرف هذا الزائر: سمعت عنه كثيراً وإن لم يعرفني

Twitter: @ketab_n

هو يوماً. إنه شاب في غضارة الشباب، وإن يكن في الثالثة والعشرين من العمر، يرتدي أجمل الثياب، وينتمي إلى أسرة كريمة، ويتمتع بوسامة، ولكن لا شك أنه لا يختلف إلى المجتمع الراقي. ولقد كان في العام الماضي ما يزال ضابطاً في فوج من أشهر أفواج فرسان الحرس، ولكنه اضطر أن يستقيل من الخدمة، وعلم جميع الناس سبب ذلك. حتى أن أهله أعلنوا في الصحف أنهم غير مسؤولين عن ديونه. ولكن هذا لم يمنعه من الاستمرار في اللّهو والمجون، مقترضاً بفائدة تبلغ عشرة في المائة كل شهر، مقامراً بمبالغ ضخمة في مجتمعات القمار، مبذّراً في سبيل فرنسية شهيرة. ولقد ربح منذ أسبوع، في سهرة واحدة، قرابة اثني عشر ألف روبل؛ فاحتفل بهذا النصر. وهو على علاقة ودية بالأمير، حتى لقد كانا يقامران بمبالغ مشتركة في كثير من الأحيان. ارتعش الأمير حين رآه. لاحظت ذلك وأنا قابع في مكاني. وكان هذا الفتى يشعر أنه في بيته حيث كان، ويتكلم بصوت عال دون أي تحرج أمام أي إنسان، ويقول كل ما يخطر بباله مرحاً فرحاً. وما كان له أن يلاحظ طبعاً أن مضيفنا يرتجف اضطراباً وقلقاً بسبب صحبته أمام زائره العظيم.

وسرعان ما بادر يقاطعهما متحدثاً عن لعب الليلة البارحة حتى قبل أن يجلس. قال مخاطباً الضيف الكبير وهو يحسبه واحداً من الصحب:

- أظن أنك كنت حاضراً أيضاً.

ولكنه بعد أن أنعم النظر فيه استدرك يقول هاتفاً:

- آ. . . معذرة. . . ظننتك واحداً من عصبة الأمس.

فأسرع الأمير يعرف الرجلين أحدهما بالآخر.

- ألكسي فلاديميروفتش دارزان! إيبوليت الكسندروفتش ناشوكين!

وكان من الممكن للأمير أن يقدم إليه هذا الفتى إذ إن أسرته كانت

Twitter: @ketab_n

كريمة ومعروفة، أما نحن أنا وستيبلكوف فلم يقدمنا إليه، فلبثنا في ركنينا. وأبيت أنا إباء قاطعاً أن ألفت وجهي نحو الجمع. ولكن ستيبلكوف ابتسم ابتسامة فرحة حين رأى الفتى، وهمَّ أن يفتح فاه متكلماً. وأخذ هذا كله يسليني.

قال دارزان:

- كنت في العام الماضي ألقاك كثيراً عند الأميرة فيريجينا.

فأجاب ناشوكين بظرف:

- أذكرك. ولكنك كنت في ذلك الوقت ترتدي بزة عسكرية فيما أظن.

- نعم، كنت أرتدي بزة عسكرية، ولكن بسبب... هه! قد جاء ستيبلكوف إلى هنا! ما شأنه هنا؟... بسبب أمثال هؤلاء السادة أصبحت لا أرتدي البزة العسكرية.

قال ذلك وهو يشير إلى ستيبلكوف صراحة، وانفجر ضاحكا. وعدّ ستيبلكوف هذه العبارة تودداً لطيفاً، فضحك هو أيضاً فرحاً. واحمر الأمير خجلاً؛ وأسرع يلقي على ناشوكين سؤالاً ما؛ بينما اقترب دارزان من ستيبلكوف وانخرط معه في حديث حار، ولكن بصوت خافت.

سأل الزائر الأمير:

- يبدو أنك عرفت في الخارج معرفة جيدة كاترين نيقولايفنا آخماكوفا؟

- آ. طبعاً عرفتها...

- أظن أن نبأ سيذاع هنا في القريب. يقال إنها ستتزوج البارون بيرونج.

فصاح دارزان يقول: - هذا صحيح!

فقال الأمير يسأل ناشوكين باضطراب واضح ونبرة خاصة:

Twitter: @ketab_n

- أأنت تعلم هذا . . . علم اليقين؟

- بل ذُكر لي . وأظن أن الناس قد بدأت تتحدث فيه منذ الآن . لكنني لا أعلمه علم اليقين .

قال دارزان وهو يدنو منهما :

- آ . . . النبأ أكيد، قال هذا لي دوباسوف أمس، ودوباسوف دائماً أول من يعلم أمثال هذه الأخبار . ولا بد أن الأمير يعرف على كل حال . . .

انتظر ناشوكين أن يفرغ دارزان من كلامه، ثم التفت إلى الأمير من جديد يقول له :

- أصبحتْ لا تختلف إلى المجتمع إلا نادراً .

فقال الأمير بلهجة جافة :

- كان أبوها مريضاً في الشهر الماضي .

فإذا بدارزان يقول فجأة دون تفكير :

- هذه سيدة لها مغامرات كما أظن .

فرفعت رأسي ونصبت جذعي، وقلت :

- يسرني أنني أعرف كاترين نيقولايفنا معرفة شخصية، وأظن أن من واجبي أن أؤكد لكم أن تلك الشائعات جميعها ليست إلا أكاذيب دنيئة . . . اختلقها أولئك الذين حاموا حولها ثم لم يظفروا بطائل . . .

وصمتّ بعد هذه المقاطعة الحمقاء، وظللت أنظر إلى الحضور ملتهب الوجه قائم الجذع . فالتفت الجميع إليَّ، ولكن ستيبلكوف لم يلبث أن ضحك ساخراً . ودهش دارزان فابتسم أيضاً .

وقال الأمير مشيراً إليَّ، معرفاً بي دارزان :

- آركادي ماكاروفتش دولجوروكي!

فقال دارزان لي صريح الهيئة باش الوجه :

Twitter: @ketab_n

- أه! صدقني يا أمير: لست أنا من يتحدث في الأمر. ثمة شائعات، ولست أنا من يذيعها وينشرها.

فأجبته قائلاً بسرعة:

- أواه! لست أقصدك!

ولكن ستيبلكوف كان قد انفجر يضحك كما لا يليق بأحد أن يضحك، وكان سبب هذا الضحك، كما اتضح فيما بعد أن دارزان ناداني بقوله «يا أمير». هذا مقلب آخر يدبره لي هذا الاسم المشؤوم! وما زلت إلى الآن أحمرّ خجلاً حين أتذكر أنني لم أجرؤ - بسبب ذلك الخجل طبعاً - على أن أصحح ذلك الخطأ الأحمق فوراً وأن أعلن أنني لست الأمير دولجوروكي، بل دولجوروكي فحسب. تلك أول مرة يحدث لي فيها هذا. وكان دارزان ينقل بصره مدهوشاً بين ستيبلكوف الضاحك وبيني وهو مبهوت.

ثم اتجه إلى الأمير يسأله فجأة:

- ها... نعم... مَنْ تلك الفتاة الجميلة التي رأيتها الآن على سلم بيتك شقراء ثاقبة العينين؟

فأسرع الأمير يجيبه وقد احمر وجهه:

- حقا لا أدري!

فقال دارزان ضاحكا:

- فمن يدري إذن؟

فتلعثم الأمير يقول:

- مع ذلك.. من الجائز.. من الجائز أن..

فقال ستيبلكوف وهو يشير إليَّ على حين فجأة:

- نعم نعم... هي أخته، أليزافيتا ماكاروفنا. أنا أيضاً رأيتها منذ مدة قصيرة...

Twitter: @ketab_n

فقال الأمير مؤيداً، ولكن بهيئة وقورة جادة في هذه المرة:

- ها... نعم! لا بد إنها أليزافيتا ماكاروفنا، من أقرب معارف آنا فيودوروفنا ستولبييفا التي أسكن الآن في بيتها. لا بد أنها زارت اليوم داريا أونيسيموفنا - وهي أيضاً من أقرب المعارف - التي عهدت إليها آنا تيودوروفنا بالبيت حين سافرت.

وكان الأمر تماماً كما قال الأمير. إن داريا أونيسيموفنا هي أم تلك الفتاة المسكينة أوليا التي سبق أن تكلمت عنها. لقد جاءت بها تاتيانا بافلوفنا في نهاية الأمر إلى ستولبييفا التي آوتها. وكنت أعلم حق العلم أن ليزا تجيء إلى ستولبييفا، وأنها كانت ترى أحياناً داريا أونيسيموفنا المسكينة التي أصبح جميع أهل بيتنا يعطفون عليها ويحبونها. ولكنني في تلك اللحظة، بعد ذلك الكلام - وأقول بالمناسبة إنه كلام حصيف جداً - الذي قاله الأمير، ولا سيما بعد تلك الفورة السخيفة من ستيبلكوف، وربما أيضاً لأنني سميت أميراً، احمر وجهي فجأة إحمراراً شديداً. ومن حسن الحظ أن ناشوكين نهض في تلك اللحظة نفسها مودعاً، ومد يده إلى دارزان أيضاً. فلما لم يبق معي إلا ستيبلكوف، أومأ ستيبلكوف إلى دارزان الذي كان في العتبة مديراً لنا ظهره، فلوحتُ لستيبلكوف بقبضة يدي.

وما إن انقضت دقيقة حتى انصرف دارزان هو أيضاً، بعد أن اتفق على موعد مع الأمير غداً في بيت سبق لهما أن اختاراه، في بيت من بيوت القمار طبعاً. وأثناء خروجه هتف يقول شيئاً لستيبلكوف، وانحنى لي انحناء خفيفاً أيضاً. فما إن انصرف حتى وثب ستيبلكوف من مكانه، وتسمر في وسط الغرفة رافعاً إصبعه في الهواء، وقال:

- إن هذا السيد الصغير قد اقترف في الأسبوع الماضي ما يلي: وقَّع على سند توقيعاً مزيفاً باسم آفريانوف. ما يزال السند موجوداً. هذه

Twitter: @ketab_n

جريمة. ثمانية آلاف روبل!

فسألته وأنا أرشقه بنظرة كاسرة:

- وهل السند عندك أنت؟

- أنا عندي مصرف؛ عندي بنك إقراض، لا سند. هل تعرف ما يعني بنك إقراض بباريس؟ هو خبز وخير للفقراء. فأنا عندي مثل هذا البنك...

فلما رجع الأمير، أوقفه عن الكلام بقسوة، وقال له بلهجة عنيفة:

- ما عملك هنا؟ لماذا بقيت؟

فقال له ستيبلكوف وهو يطرف عينيه بسرعة:

- آ... والمسألة؟ أليست المسألة؟

فصرخ الأمير قائلاً وهو يضرب بقدمه الأرض:

- كلا، ثم كلا، ثم كلا! قلت لك...

- طيب... إذا كان الأمر كذلك، فليكن كذلك.. ولكن الأمر لن يكون كذلك...

قال ستيبلكوف هذا، ثم استدار بحدة وخرج على حين فجأة خافضاً رأسه، حانياً ظهره. وصرخ الأمير يقول له في العتبة:

- واعلم أنني لست خائفاً منك إطلاقاً يا سيد!

كان الأمير مستعر الغضب والحنق. وأراد أن يجلس، لكنه رآني فلم يفعل. وكانت نظرته كأنها تقول لي: «وما بقاؤك أنت أيضاً؟» فبدأت أتكلم فقلت له:

- يا أمير... أنا...

لكنه قاطعني قائلاً:

- لا وقت عندي يا آركادي ماكاروفتش! حقاً لا وقت عندي! يجب عليَّ أن أخرج.

Twitter: @ketab_n

- لحظة قصيرة يا أمير. أمر هام جداً. إليك أولا الثلاثمائة روبل.

- ما معنى هذا؟

لقد كان يمشي فتوقف. قلت:

- بعد الذي حدث... وبعد الذي قلته عن فرسيلوف من أنه رجل غير شريف... ثم بعد لهجتك هذه في الكلام طول الوقت... الخلاصة، لا يمكنني أن أقبل أخذ هذا المال.

- ومع ذلك ظللت تقبل طوال شهر كامل.

وجلس فجأة على كرسي. وكنت واقفاً أمام الطاولة أفرك كتاب بيلنسكي بإحدى يدي، وأمسك قبعتي بالأخرى. قلت:

- كانت العواطف تختلف يا أمير... وما كان لي أن أصل إلى ذلك المبلغ الضخم لولا هذا القمار... الخلاصة أنني لا أستطيع أن أقبل!

- أنت غاضب لأنك لم تستطع أن تجلّي في أي أمر من الأمور. هلا أرحت هذا الكتاب، من فضلك!

- ماذا تعني بقولك إنني لم «أستطع أجلّي في أي أمر من الأمور»؟ ثم إنك، بحضور ضيوفك، قد عاملتني كمعاملتك ستيبلكوف وجعلتني في مثل منزلته.

فقال وهو يضحك ضحكة لاسعة:

- آ... ذلك هو السرّ وعدا هذا فقد تحيرت حين سمّاك دارزان أميراً.

كانت ضحكته شريرة. فانفجرت أقول:

- لست أفهم... ثق أن لقب الأمير هذا الذي تحمله أنت، لا أرضى أنا أن أشيله من الأرض...

- أعرف طبعك. لشد ما صحت صياحاً مضحكاً لتدافع عن آخماكوفا... اترك هذا الكتاب!

Twitter: @ketab_n

فهتفت أقول:

- ما معنى كلامك؟

فإذا هو ينتصب على مقعده غاضباً كأنه يهم أن يثب، ويزأر قائلاً:

- اترك الكتاب!

فقلت وأنا أسارع إلى الخروج من الغرفة:

- ذلك ما يجاوز أخيراً جميع الحدود.

ولكن ما كدت أتجاوز الصالون حتى سمعته يناديني من عتبة مكتبه:

- ارجع يا آركادي ماكاروفتش! تعال.. تعال.. حالاً!

فلم أستمع له، وانصرفت. لكنه لحق بي بخطوات حثيثة وأمسك ذراعي وجرَّني إلى مكتبه، فلم أقاوم.

قال لي وقد شحب لونه من شدة الانفعال، ومدَّ إليَّ الثلاثمائة روبل التي تركتها:

- خذها! خذها ضروري!.. وإلا فإننا.. ضروري خذها!

- ولكن كيف يمكنني أن آخذ يا أمير؟

- أنا مستعد لأن أعتذر إليك. هل تريد؟ هاأنذا أعتذر: معذرة.

- يا أمير، أنا قد أحببتك دائماً، فإذا كنت أنت أيضاً أحببـ...

- أنا أيضاً... خذها!

فأخذتها. وكانت شفتاه ترتجفان.

- إنني أفهمك يا أمير. إنك غاضب من ذلك الوغد... ولكنني لن أقبل أن آخذ المال إلا إذا تبادلنا القبلات، كما كنا نفعل بعد مشاجراتنا السابقة...

وكنت أرتجف أنا أيضاً وأنا أقول هذا الكلام.

فدمدم الأمير وهو يبتسم بحيرة:

- يا للعواطف الرقيقة!

Twitter: @ketab_n

لكنه مال عليَّ وقبلني. فسرت رعدة في جسمي: ذلك أنني حين قبلني رأيت في وجهه اشمئزازاً واضحاً.

- هل جاءك بالمال على الأقل؟

- آ. . . لا قيمة لهذا!

- من أجلك إنما. . .

- جاء بالمال، جاء به. . .

- يا أمير، لقد كنا أصدقاء. . وأخيراً. . إن فرسيلوف. . .

- طيب. . . طيب. . .

- ما زلت لا أدري حقاً هل هذه الثلاثمائة روبل. . .

وكان المبلغ بيدي. فقال:

- خذها! خذها!

وعاد يبتسم من جديد، لكن ابتسامته كانت تشتمل على شر وسوء. أخذت المال.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

- 1 -

أخذت المال منه لأنني كنت أحبه. ولمن لا يصدقني سأُقول إنني في اللحظة التي أخذت فيها المال كنت مقتنعاً اقتناعاً جازماً بأن في وسعي أن أحصل على المال من مصدر آخر لو شئت. ومعنى هذا أنني لم آخذه عن حاجة، بل أخذته على سبيل الكياسة حتى لا أجرح شعور الأمير. كذلك كنت أفكر في ذلك الحين. واأسفاه! على أنني حين تركت الأمير كنت أحس بضيق شديد رغم كل شيء. لقد أحسست بتبدل ضخم في سلوكه معي ذلك الصباح. إنه لم يسبق أن استعمل في مخاطبتي لهجة كتلك اللجهة يوماً. أما على فرسيلوف فقد كانت ثورته صريحة معلنة. لا شك أن ستيبلكوف كان قد عكر مزاجه. ولكن تبدل سلوكه قد بدأ قبل ذلك. أعود فأقول: إن هذا التبدل كان يلاحظ منذ الأيام السابقة، ولكنه لم يكن قوياً هذه القوة، لم يكن قد بلغ هذه الدرجة.

ولعل من العوامل التي كان لها تأثيرها أيضاً، ذلك النبأ الأحمق الذي يتعلق بالبارون بيورنج، ذلك الضابط من ضباط حاشية القيصر. . . ولقد انصرفت مضطرباً أنا أيضاً. . . ولكن كل ما في الأمر أن شعاراً آخر كان يلوح أمام عيني حينذاك، فكنت أفوّت كثيراً من الأمور خالي البال، وكنت أتعجل انقضاءها، أطرد كل ما هو مظلم، والتفت إلى كل ما هو

Twitter: @ketab_n

مضيء لامع ساطع . . .

ان الساعة لم تبلغ الواحدة بعد. ومن عند الأمير ذهبت مع سائق عربتي ماتفي رأساً إلى - إلى مَن؟ هل تصدقون؟ - إلى ستيبلكوف! كل ما في الأمر أنه لم تفاجئني زيارته للأمير (وكان قد وعده بأن يجيء إليه) بقدر ما فاجأتني غمزات أرسلها إليّ، على عادته السخيفة، ولم تتناول ما كنت أتوقع أن تتناوله. كان ستيبلكوف قد بعث إليّ بالبريد رسالة ملغزة استلمتها في مساء أمس يتوسل إليّ فيها أن أزوره اليوم بين الساعة الواحدة والساعة الثانية، قائلاً: «إن هناك أشياء غير متوقعة يريد أن يبلغني إياها». ولم يشر إلى هذه الرسالة بكلمة واحدة حين كنا عند الأمير. ما عسى يكون بيني وبين ستيبلكوف من أسرار! إن الفكرة وحدها مضحكة. ومع ذلك فإنني، بعد كل ما جرى، كنت أشعر بشيء من الانفعال وأنا ذاهب إليه. صحيح أنني اتجهت إليه مرة، منذ أسبوعين، لاقتراض بعض المال، وقد عرض عليّ أن يقرضني، ولكننا لم نصل إلى اتفاق لسبب ما ورفضت العرض: لقد جمجم عندئذ بكلمات غامضة على عادته، وبدا لي أنه يريد أن يعرض عليّ شيئاً ما وأن يفرض عليّ شروطاً خاصة. وإذ أنني أعامله باستعلاء كلما التقينا عند الأمير، فقد رفضت فكرة فرض شروط خاصة، رفضتها بإباء وشمم، وخرجت رغم أنه ركض ورائي إلى الباب يحاول صدي عن الخروج. واقترضت المال يومئذ من الأمير.

إن ستيبلكوف يعيش حياة باذخة: يسكن في منزل يتألف من أربع غرف رائعة، جميلة الأثاث، مع خادمين، رجل وامرأة، ومع مدبرة للبيت متقدمة في السن. دخلت غاضباً. وبدأت أتكلم منذ أن اجتزت الباب، فقلت:

- اسمع، يا عزيزي، قل لي أولاً: ما هذه الرسالة التي بعثتها إلي؟

Twitter: @ketab_n

إنني أرفض أن يكون بيننا مكاتبة. ولماذا لم تقل ما تريد قوله، حين كنا منذ قليل عند الأمير؟ كنت بين يديك!

- وأنت، لماذا لم تتكلم حينئذ أيضاً؟ لماذا لم تسألني عن شيء؟

قال ذلك وفتح فاه بابتسامة تعبر عن رضا كامل.

فضرخت أقول غاضباً:

- الجواب بكل بساطة هو أن المحتاج منا إلى الآخر هو أنت لا أنا.

- فلماذا تجيء إليّ إذاً؟

وكاد يقفز من شدة سروره. فسرعان ما استدرت أريد أن أنصرف، ولكنه أمسك كتفي وقال:

- لا، لا، كنت أمزح. إن الأمر جد. سترى. فجلست. أعترف بأن الفضول قد انتصر. جلسنا متقابلين عند طرف مكتب كبير. ورأيته يبتسم ابتسامة ماكرة، ويرفع إصبعه، فهتفت أقول له غاضباً من جديد:

- أرجوك، لا مكر ولا إصبع! ولا رموز بخاصة! هلمّ إلى الوقائع رأساً، وإلا انصرفت فوراً.

فقال عاتباً عتباً غبياً وهو يترجح على كرسيه مائلاً إلي ويرفع جميع غضون جبينه:

- إنك... متكبر.

- بالتكبر تجب معاملتك!

- أخذت اليوم... مالاً من الأمير: ثلاثمائة روبل. وأنا أملك مالاً. ومالي خير من ماله.

- من أين عرفت أنني قبلت؟ أهو الذي قال لك؟ وشدهت شدهاً قوياً.

- هو قال لي. ولكن هدئ نفسك. لم يقل لي ذلك إلا عرضاً. لم يقله متعمداً. ولكنه قال لي. وكان في إمكانك مع ذلك أن لا تقبل. أهذا صحيح أم لا؟

Twitter: @ketab_n

- ولكنني، فيما سمعت عنك، تسلخ جلود الناس سلخاً بما تأخذه من فائدة لا تطاق؟

- إن لي بنك تسليف. أما أنا فلا أسلخ جلد أحد، ولا أعطي إلا للأصدقاء. أما غير الأصدقاء فيمكنهم أن يقترضوا من بنك التسليف. . .

إن بنك التسليف هذا الذي يشير إليه ستيبلكوف ما هو إلا تسليف مبالغ من المال على رهون، ومقره في مسكن آخر مسجل باسم ما، وكانت أحواله مزدهرة.

وأردف ستيبلكوف يقول:

- وللأصدقاء أعطي مبالغ ضخمة.

- هل الأمير واحد من هؤلاء الاصدقاء؟

- هو واحد منهم. لكنه يقول سخافات. ويجب أن ينتبه ويحاذِر.

- أهو بين يديك إلى هذه الدرجة؟ هل ديونك عليه ضخمة؟

- عليه. . . ضخمة!

- سيدفع لك. إن له ميراثاً. . .

- هذا الميراث ليس له. وهو مدين لي بمال، وبغير المال أيضاً! . . . الميراث لا يكفي. سأقرضك بغير فائدة.

قلت ضاحكاً:

- بصفتي «صديقاً» كذلك؟ ما الذي جعلني استحق هذه الصداقة؟

- سوف تستحقها.

وتقدم نحوي من جديد بكل جسمه وهمّ أن يرفع إصبعه، فهتفت له:

- ستيبلكوف! لا إصبع! والا انصرفت.

فقال وهو يغمز غمزة ماكرة:

- اسمع. . . قد يتزوج آنا آندريفنا!

Twitter: @ketab_n

- اسمع يا ستيبلكوف، إن حديثك يتخذ طابع الفضيحة. . . كيف تجرؤ أن تجيء على ذكر اسم آنا اندرييفنا؟

- لا تغضب!

- إنني أجبر نفسي على الاستماع إليك، لأنني أرى بوضوح أن ثمة مكيدة تدبر، فأريد أن أعرفها. . . ولكن قد ينفد صبري يا ستيبلكوف!

- لا تغضب. دعك من التكبر. دع التفكير لحظة قصيرة للاستماع إليّ ثم تعود إليه من جديد. أنت تعرف ما يتعلق بآنا آندرييفنا؟ وتعرف أن الأمير قد يتزوجها؟

- سمعت عن مثل هذا المشروع طبعاً. أعرف كل شيء. ولكنني لم أكلم الأمير في هذا الموضوع يوماً، وإن كنت أعرف أن الفكرة إنما هي فكرة الأمير سوكولسكي العجوز الذي هو الآن أيضاً مريض. وأنا لا يد لي في هذه القصة كلها، ولم أقل شيئاً في يوم من الأيام. أقول هذا لك لشرح المسألة فقط، والآن أريد أن ألقي عليك سؤالين: أولاً - لماذا تكلمني في هذا الموضوع؟ ثانياً - هل كاشفك به أنت؟

- ليس هو الذي يكلمني في هذا الأمر. هو لا يريد أن يكلمني فيه، ولكنني أكلمه فيه أنا، فلا يريد أن يصغي إليّ. وقد أخذ يصرخ صراخاً قوياً حين كنا عنده منذ قليل.

- إنني أفهمه! وإنني أؤيده!

- إن الأمير سوكولسكي، العجوز، سيعطي آنا آندرييفنا مهراً كبيراً، فهو راض عنها. فإذا خطبها الأمير سوكولسكي الشاب استطاع أن يرد إليّ مالي. وسوف يرد إليّ الدين الآخر أيضاً. سيرده إليّ حتما! أما الآن فلا يستطيع ذلك.

- ولكن قل لي: ما شأني أنا في الامر، وما النفع الذي ترجوه مني؟

- تستطيع أن تنفعني في أمر أساسي. إنك على صلة بهم. وأنت

Twitter: @ketab_n

معروف في كل جهة. فتستطيع أن تطلع على كل شيء.

- آه! وما الذي يجب أن أطلع عليه؟

- يجب أن تعرف: هل الأمير يريد؟ هل آنا آندرييفنا تريد؟ هل الأمير العجوز يريد؟ تستطيع أن تعرف الحقيقة.

فانتفضت حانقاً وقلت له:

- كيف تجرؤ أن تعرض عليّ أن أكون لك جاسوساً، وأن أكون لك جاسوساً في سبيل مال أيضاً؟

- لا تتكبر! لا تتكبر! دع التكبر مدة قصيرة أخرى، خمس دقائق لا أكثر!

وأجلسني. وكان واضحاً أنه لا يهاب لا إشارات يدي، ولا صيحات صوتي. وقررت أن أصغي إليه حتى النهاية.

- وإنما يجب عليّ أن أعرف بسرعة، أن أعرف بسرعة... فقد يفوت الأوان بعد حين! لقد لاحظتَ كيف بلع الأمير المسألة حين تكلم الضابط عن البارون وآخماكوفا، أثناء وجودنا عنده منذ قليل، ألم تلاحظ؟

شعرت بإذلال لأنني أواصل الإصغاء إلى كلامه، ولكن فضولي كان قد ثار فلا سبيل إلى مغالبته.

قلت بلهجة قاطعة:

- اسمع! انت... أنت وغد. وإذا كنت أبقى هنا، وأصغي إلى كلامك، وأسمح لك بأن تتكلم عن هؤلاء الأشخاص... وحتى إذا كنت أجيبك، فليس معنى ذلك أبداً أنني أعترف لك بهذا الحق. كل ما هنالك أنني أرى أن ثمة مكيدة تدبر... ما عسى أن يكون أمل الأمير فيما يتعلق بكاترين نيقولايفنا؟

- ليس له أي أمل. غير أنه ساخط.

Twitter: @ketab_n

- غير صحيح.

- إنه ساخط. فيما يتعلق بآخماكوفا، انتهى الأمر. بقي مخرج واحد: آنا آندرييفنا. سأعطيك ألفي روبل، بلا فوائد ولا سند.

قال ذلك وارتد إلى ظهر مقعده بحركة حازمة مهيبة، وحملق ناظراً إليّ. وحملقت أنا أيضاً.

- انك ترتدي بدلة مشتراة من شارع «ميليونايا الكبير»[72]. فانت في حاجة إلى مال، في حاجة إلى مال. ومالي خير من ماله. سأدفع أكثر من ألفي روبل...

- ولكن لماذا؟ لماذا؟ لست أفهم!

وضربت الأرض بقدمي غاضباً، فمال عليّ وقال بلهجة معبرة.

- حتى لا تعرقل؟

فصرخت أقول:

- ولكنني لا أتدخل!

- أعرف أنك تصمت. وهذا حسن.

- لست في حاجة إلى استحسانك. وهبني تمنيت لهذا الزواج أن يتم، فسأظل لا أتدخل، لأنني أرى أن لا شأن لي في الأمر وأن تدخلي لا يليق!

- صحيح، أفهم أنه لا يليق!

ورفع إصبعه. ثم أردف قائلاً:

- نعم، لا يليق؟

وانفجر ضاحكاً. ثم تابع كلامه فقال:

- أفهم، أفهم! لا يليق بك أن تتدخل! ولكنك لن تصنع حواجز، أليس كذلك؟

وغمز بعينه، لكنني رأيت في غمزته وقاحة فظيعة، بل رأيت فيها

Twitter: @ketab_n

سخرية وحطة. لقد افترض وجود دناءة في نفسي، وكان يعوّل على هذه الدناءة. ذلك واضح. لكنني لم أدرك بعد ما الذي كان يريد أن يصل إليه.

وهذا هو يقول بلهجة ذات دلالة:

- إن آنا آندرييفنا هي أيضاً أختك.

- أمنعك من الكلام عن هذا الموضوع. وليس من حقك أن تتكلم عنها.

وتابع ستيبلكوف بنفس اللهجة:

- لا تتكبر، دقيقة أخرى. لا أكثر. اسمعني: سوف يقبض مالاً. فيكفل الجميع، الجميع. هل تتابع كلامي؟

وقد شدد على قوله «الجميع» قلت:

- أتظن إذن أنني سأقبل ماله؟

- ألست تقبله الآن؟

- الآن آخذ النصيب الذي يخصني.

- النصيب الذي يخصك؟

- النصيب الذي يخصني من مال فرسيلوف: أنه مدين لفرسيلوف بعشرين ألف روبل.

- هو مدين لفرسيلوف، لا لك أنت.

- فرسيلوف أبي.

- لا. أنت اسمك دورجوروكي، وليس فرسيلوف، على أن النتيجة واحدة.

والحق أنني فكرت حينئذ هذا التفكير. كنت أعلم أن لهذا شأناً هاماً جداً. فلم أكن غبياً إلى ذلك الحد. ولكنني أكرر مرة أخرى أنني ما فكرت هذا التفكير إلا «كياسة».

Twitter: @ketab_n

صرخت أقول:

- كفى. إنني لا أفهم شيئاً البتة. وكيف تجرؤ فتدعوني لمثل هذه السخافات؟

- هل يعقل أنك لم تفهم حقاً؟ أتراك تتعمد عدم الفهم تعمداً؟

قال ستيبلكوف ذلك في بطء وهو يرشقني بنظرة نافذة تصحبها ابتسامة شك. فقلت أجيبه:

- أحلف لك أنني لا أفهم.

- أقول إنه سيكفل الجميع، الجميع. وإنما المهم أن لا تعرقل أنت ولا تصرفه عن الأمر...

- يبدو أنك فقدت عقلك! ما الذي تعنيه بقولك الجميع. أتراه يكفل فرسيلوف مثلا؟

- لن يكفلك وحدك، ولن يكفل فرسيلوف وحده، بل سيكفل آخرين... إن آنا آندرييفنا اختك، مثل أليزافيتا ماكاروفنا سواء سواء.

نظرت إليه محملقاً. فإذا أنا أرى في نظرته الدنيئة إليّ نوعاً من شفقة عليّ. وقال:

- لا تفهم؟ طيب! هذا أحسن! أنه لحسن جداً أن لا تفهم. هذا أمر محمود... إذا صح أنك لا تفهم حقاً!

فبلغ حنقي ذروته، فصرخت أقول وأنا أتناول قبعتي:

- شيطان يأخذك أنت وسخافاتك! إنك رجل مختل العقل.

- ماهذه سخافات! هل اتفقنا؟ اسمع... سوف ترجع.

فأجبته قائلاً بلهجة قاطعة وقد صرت في العتبة:

- لا.

- بل سوف ترجع... وسنقول عندئذ كلاماً آخر. سيدور بيننا حديث هام. ألفا روبل. تذكر هذا لا تنسه!

Twitter: @ketab_n

لقد أحدث في نفسي أثراً يبلغ من الاضطراب والدناءة أنني حين خرجت من عنده حاولت أن لا أفكر فيه، واقتصرت على أن بصقت، اشمئزازاً. وكنت كلما تصورت أن الأمير كلمه عني وعن هذا المال أحسست بما يشبه وخز الأبر. وقلت أحدث نفسي بلهجة قاطعة! «سوف أربح، فأرجع إليه أمواله في هذا اليوم نفسه».

وأصبحت أرى ستيبلكوف وغداً ساطعاً متألقاً، رغم كل غبائه وركاكته، لا سيما وأنني قدرت أن ثمة مكيدة تحاك حتماً. غير أن وقتي كان لا يتسع للاهتمام بالكشف عن مكائد، وذلك هو السبب الرئيسي في عماوتي العابرة! نظرت في ساعتي قلقاً، فرأيت أنها لم تبلغ الثانية. أستطيع إذن أن أقوم بزيارة، والا لهلكت من فرط الانفعال إلى أن تحين الساعة الثالثة. فذهبت إلى آنا آندرييفنا فاسيلوفا، أختي. كانت قد انعقدت الصلة بيني وبينها منذ مدة غير قصيرة عند الأمير العجوز أثناء مرضه. وكان شعوري بأنني لم أره منذ ثلاثة أيام أو أربعة يعذب ضميري. ولكن آنا آندرييفنا هي التي ساعدتني: كان الأمير يتعلق بها تعلقاً عظيماً، فلقد وصفها حتى أمامي بأنها ملاكه الحارس. يجب أن أقول بالمناسبة: إن فكرة تزويجها الأمير سرجي بتروفتش إنما نبتت فعلاً في رأس صاحبي الأمير العجوز، حتى لقد عبر لي عن هذا غير مرة، في السر طبعاً وقد نقلت الخبر إلى فرسيلوف لأنني كنت قد لاحظت أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالأنباء التي أنقلها إليه عن لقاءاتي بآنا آندرييفنا، رغم أنه قليل الاكتراث بسائر الأمور الجوهرية. وقد جمجم فرسيلوف عندئذ قائلاً إن آنا آندرييفنا تملك من الذكاء ما يجعلها قادرة على الاستغناء عن نصائح الآخرين في أمر يبلغ هذا المبلغ من الدقة والحرج. لا شك أن

Twitter: @ketab_n

ستيبلكوف كان على حق حين افترض أن العجوز سيخص آنا آندرييفنا بمهر ضخم، ولكن كيف اجترأ أن يعوّل على شيء له هو؟ إن الأمير الشاب قد صرخ يقول، وهو يخرج، إنه لا يخافه: ولكن ألم يكن مدار حديثهما في مكتب الأمير على آنا آندرييفنا في الواقع؟ إنني أتصور الحنق الذي كان يمكن أن يستعر في نفسي لو كنت في مكانه.

ولقد كنت في الآونة الأخيرة أذهب إلى آنا آندرييفنا أحياناً كثيرة. ولكن كان يحدث دائماً شيء غريب: إنها هي التي كانت تحدد لي موعداً في جميع المرات، وكانت تنتظرني حتماً، ولكن ما أن أدخل حتى تشعرني بأنني وصلت على غير توقع. لاحظت ذلك فيها، ولكنه لم يضعف تعلقي بها. وكانت تقيم عند فاناريوتوفا، جدتها، كربيبة لها طبعاً (كان فرسيلوف لا يدفع شيئاً لإعالتها)، ولكن دورها عندها يختلف كل الاختلاف عن الدور الذي يسند عادة إلى ربيبات السيدات الكبيرات، كما نلاحظ ذلك مثلاً في قصة بوشكين «البنت البستونية»، ربيبة الكونتيسة العجوز. لقد كانت آنا آندرييفنا نوعاً من كونتيسة هي نفسها. كان لها في المنزل مسكنها الخاص، المستقل كل الاستقلال، رغم أنه يقع في الطابق نفسه الذي تسكنه فاناريوتوفا، وفي الشقة نفسها، ولكنه يتألف من غرفتين منفصلتين، فلم أصادف أحداً من آل فاناريوتوفا في يوم من الأيام، لا حين كنت أدخل، ولا حين كنت أخرج. وكان من حقها أن تستقبل من تشاء، وأن تصرف وقتها كما تحب. صحيح أنها كانت قد بلغت الثالثة والعشرين من عمرها. وقد انقطعت عن التردد إلى المجتمع منذ السنة الماضية انقطاعاً يكاد أن يكون تاماً، رغم أن فاناريوتوفنا كانت لا تضن بأية نفقة على حفيدتها التي كانت تحبها كثيراً فيما سمعت. وكان يعجبني في آنا آندرييفنا أنني كنت ألقاها في ثياب بسيطة دائماً، وأراها عاكفة على شغل أو على كتاب في جميع الأحيان.

Twitter: @ketab_n

وكان في هيئتها شيء يكاد يكون رهبانياً، يذكرك بسكان الأديرة، فكان هذا يعجبني فيها أيضاً. وكانت قليلة الكلام، وتزن كلامها، وتعرف كيف تصغي إلى كلام غيرها، وذلك ما كنت أنا عاجزاً عنه. وكان وجهها يتخضب بالحمرة قليلاً إذا قلت لها إنها تذكرني كثيراً بفرسيلوف رغم أنني لا أرى بينهما أية سمة مشتركة. وكانت تحمرّ في كثير من الأحيان، تحمرّ احمراراً سريعاً، ولكن الحمرة التي تخضب وجهها حمرة ضئيلة دائماً، فكانت هذه الصفة من صفات وجهها تعجبني كثيراً. وكنت عندها لا أسمي فرسيلوف باسمه أبداً، وإنما اسميه أندريه بتروفتش، وكان هذا يتم من تلقاء نفسه حتى لقد لاحظت أن آل فاناريوتوف عامة يشعرون بخجل من فرسيلوف. لاحظت هذا على آنا آندرييفنا وحدها، وإن كنت لا أستطيع أن أقول هل كلمة «الخجل» هي الكلمة المناسبة. ولكن كان ثمة شيء من هذا القبيل. وكنت أكلمها أيضاً عن الأمير سرجي بتروفتش، فكانت تصغي إلى كلامي كثيراً، وكان يبدو لي أنها تهتم بما أحمل إليها من مثل هذه الأنباء. ولكن كان يحدث دائماً أنني أنا الذي أنقل إليها هذه الأنباء، أما هي فلم تسألني عن شيء في يوم من الأيام. ولم أجرؤ أبداً أن أكلمها عن إمكان زواج بينهما، رغم أنني رغبت أن أفعل ذلك مراراً كثيرة، لأن هذه الفكرة كانت تعجبني أنا أيضاً إلى حد ما. ولكن ما أكثر الأشياء التي أصبحت لا أجرؤ على أن أتعرض لها بحديث عندها، ومع ذلك كنت أشعر في غرفتها بارتياح كبير. ومما كنت أحبه كذلك حباً كبيراً أنها كانت واسعة الثقافة، فهي تقرأ كثيراً، بل تقرأ كتباً ليست سهلة، وكانت أكثر مني إقبالاً على القراءة وانهماكاً فيها.

إنها هي التي استدعتني إليها في المرة الأولى. وقد قدرت أنها ربما كانت تريد أن تعلم مني أمراً ما. آه. . . ما أكثر الأمور التي كان كثير من

Twitter: @ketab_n

الناس في ذلك الأوان يستطيعون أن يعلموها مني!. . . وكنت أقول لنفسي: «لاضير! إنها لا تستقبلني لهذا السبب وحده». الخلاصة أنني قد أسعدني أن أكون قادراً على أن أفيدها في أمر من الأمور، و. . . حين كنت أجلس بقربها، كان يبدو لي دائماً أن أختي هي التي تجلس بجانبي، رغم أننا لم نتكلم يوماً عن قرابتنا لا تصريحاً ولا تلميحاً. فكأن هذه القرابة لم توجد في يوم من الأيام. كان يبدو لي حين أزورها أنني يستحيل عليّ استحالة تامة أن أتعرض لهذا الموضوع، وكنت حين أنظر إليها تبرق في خاطري أحياناً فكرة عجيبة: إنها ربما كانت تجهل هذه القرابة ما دامت تقف مني هذا الموقف وتعاملني هذه المعاملة.

– 3 –

حين دخلت عليها وجدت عندها ليزا على غير توقع. فكدت أشده. كنت أعرف معرفة جيدة أنهما قد التقيا قبل الآن. حدث ذلك اللقاء عند «الطفل الرضيع». قد أتكلم فيما بعد، إذا عرضت لي فرصة، عن تلك النزوة التي اعترت آنا آندرييفنا، ذات الكبرياء والخفر، وهي أن ترى ذلك الطفل، وقد أتكلم أيضاً عن اللقاء الذي تم بينها وبين ليزا هناك. ولكن لم أكن أتوقع أبداً أن تقوم آنا آندرييفنا بدعوة ليزا إليها. لذلك دهشت حين رأيتهما، وكانت دهشة لذيذة. وبدون أن أظهر شيئاً من هذه الدهشة طبعاً، حييت آنا آندرييفنا، وصافحت ليزا مصافحة حارة، وجلست بقربها. وكانتا كلتاهما منكبتين على عمل خطير الشأن: كان فستان السهرة التي تملكه آنا آندرييفنا، وهو فستان غالٍ لكنه قديم، أي لُبس قبل الآن ثلاث مرات، كان ذلك الفستان ممدوداً على الطاولة وعلى ركبهما وقد رغبت آنا آندرييفنا في تغيير شكله. إن ليزا «فنانة» كبيرة في هذا المجال، وصاحبة ذوق مرهف. هذا إذن مجلس مهيب

Twitter: @ketab_n

تعقده «سيدات عاقلات». وتذكرت فرسيلوف، فضحكت، وكنت مشرق المزاج على كل حال.

قالت آنا آندرييفنا مبرزة كل كلمة من كلماتها بوقار:

- أنت اليوم جذل جداً. هذا شيء يدعو للسرور.

إن لها صوتاً واطئاً عميقاً دافئاً، ولكنها تنطق كلماتها دائماً بهدوء ورفق، خافضة أهدابها الطويلة قليلاً، على ابتسامة خاطفة تطوف بوجهها الشاحب.

قلت مرحاً:

- تعرف ليزا كم أكون مزعجاً حين لا أكون جذلاً.

فقالت ليزا بمكر:

- وربما كانت آنا آندرييفنا تعرف ذلك أيضاً.

هذه وخزة من ليزا العابثة. آه، يا ليزا العزيزة! لو أني عرفت ما كان يجثم على صدرها في ذلك الوقت!

وقالت آنا آندرييفنا تسألني:

- ماذا تعمل الآن؟

(لاحظوا أنها هي التي رجتني أن أجيء إليها اليوم).

قلت أجيبها:

- أنا الآن هنا. وإني لأتساءل لماذا يحلو لي دائماً أن أراك قارئة في كتاب أكثر مما يحلو لي أن أراك عاكفة على شغل من أشغال الخياطة؟ لا، حقاً إن أشغال الخياطة لا تناسبك. أنا من هذه الناحية أشارك أندريه بتروفتش رأيه.

- ألم تحزم أمرك على دخول الجامعة بعد؟

- أشكرك شكراً لا حدود له على أنك ما نسيت أحاديثنا السابقة. هذا دليل على أنني أخطر ببالك أحياناً. ولكن... فيما يتعلق بالجامعة،

Twitter: @ketab_n

لم أثبت على أمر بعد. ثم إن لي أهدافي.

قالت ليزا:

- أي إن له سره.

قلت:

- دعي هذه الأمازيح يا ليزا! إن رجلاً ذكياً قال منذ أيام إن حركتنا التقدمية كلها خلال عشرين عاماً قد برهنت قبل كل شيء على مدى إيغالنا في الجهل، ولا شك أنه ينسب هذا إلى جامعتنا طبعاً.

فقالت ليزا:

- لا بد أن بابا هو الذي قال هذا الكلام. فأنت في أكثر الأحيان لا تزيد على أن تكرر أقواله.

- لكأنك تفترضين يا ليزا أنني ليس لي شيء من فكر.

وقالت آنا آندرييفنا مدافعة عني قليلاً:

- من المفيد للمرء في هذا الزمان أن يحسن الاستماع إلى أقوال أشخاص أذكياء، ثم يحسن حفظها.

فاستأنفت كلامي قائلاً بحرارة:

- حقا يا آنا آندرييفنا. إن من لا يفكر الآن في روسيا ليس بمواطن! ربما كنت أنظر إلى روسيا من زاوية خاصة: لقد تحملنا الغزو التتري، ثم تحملنا قرنين من العبودية[73]، ولعل تحمُّلنا هذا مرده إلى أن الأمرين كليهما قد أرضيانا. والآن وهبت لنا الحرية، ويجب أن نتحملها: فهل نحن على ذلك قادرون؟ هل الحرية ترضينا وتتفق وذوقنا؟ هذا هو السؤال.

ألقت ليزا نظرة سريعة على آنا آندرييفنا. فسرعان ما غضّت آنا آندرييفنا طرفها، وأخذت تبحث عن شيء ما فيما حولها. ورأيت ليزا تحاول أن تسيطر على نفسها بكل ما أوتيت من قوة. ولكن بصرينا التقيا مصادفة على حين فجأة، فإذا بليزا تضحك. فانفجرت قائلاً.

Twitter: @ketab_n

- ليزا أنا لا أفهمك!

فكفت عن الضحك، وأسرعت تقول بلهجة يخالطها حزن:

- اغفر لي - لا أدري ماذا في رأسي. . .

واختلجت في صوتها دموع على حين فجأة. فخجلت خجلاً شديداً، وتناولت يدها فقبلتها بشدة.

فقالت آنا آندرييفنا برفق ووداعة. وهي تراني أقبل يد ليزا:

إنك طيب القلب نبيل النفس كثيراً.

- إني ليسعدني جداً يا ليزا أن أراك هذه المرة تضحكين. هل تصدقين يا آنا آندرييفنا أنني في هذه الأيام الأخيرة أرى في وجهها كلما لقيتها نظرة غريبة، فكأنها تتساءل: «ترى هل علم شيئاً؟ هل يجري كل شيء مجرى حسناً؟». حقاً إن فيها شيئاً من هذا النوع.

فألقت عليها آنا آندرييفنا نظرة بطيئة ثابتة، فخفضت ليزا عينيها. وقد أدركتُ على كل حال أن الصلة بينهما أوثق مما تصورتها حين دخلت. فسرتني هذه الفكرة وأبهجتني.

قلت مخاطباً آنا آندرييفنا بعاطفة:

- قلت منذ هنيهة إنني طيب القلب، فلا تستطيعين أن تتصوري يا آنا آندرييفنا مدى ما أصيب من تحسن حين أكون عندك، ومدى ما أشعر به من سعادة حين ألقاكِ.

فأجابتني قائلة بوقار:

- وأنا يسرني أن أسمعك تقول هذا الكلام في هذه اللحظة.

يجب أن أذكر أنها لم تكلمني في يوم من الأيام عن حياة الفوضى التي أعيشها، وعن الزوبعة التي كانت تجرفني أعاصيرها، رغم أنها كانت - فيما أعرف - على علم بكل شيء، حتى أنها سألت عني بعض الناس. فكان هذا أول الماع منها، فما زادني ذلك إلا ميلاً إليها.

Twitter: @ketab_n

وقلت أسألها:

- وكيف صحة مريضنا؟

- آه، تحسنت كثيراً. نهض عن فراشه. وقد خرج يتنزه أمس واليوم بالعربة. ولكن ألم تذهب إليه أنت اليوم؟ إنه ينتظرك.

- إنني مذنب في حقه - ولكنك أنت التي تزورينه الآن، فتحلين محلي تماماً. إنه رجل لا وفاء له، استغنى بك عني، واستبدلك بي.

اتخذت هيئة الجد الشديد، لأن مزاحتي يمكن أن تبدو عامية مبتذلة. فدمدمت:

- أنا آت من عند الأمير سرجي بتروفتش، وأنا... بالمناسبة يا ليزا: هل كنت منذ قليل عند دارنا أونيسيموفنا؟

فقالت ليزا باقتضاب، دون أن ترفع رأسها:

- نعم.

ثم سألتني فجأة، كأنما لتقول أي شيء:

- ولكن كنت أظن أنك تذهب إلى الأمير المريض كل يوم؟

فأجبت أقول ضاحكاً ضحكة قصيرة:

- أذهب. ولكنني لا أكمل الطريق إليه، فما إن أدخل البيت حتى أمضي يسرة.

قالت آنا آندرييفنا:

- حتى الأمير نفسه لاحظ أنك تزور كاترين نيقولايفنا كثيراً. تكلم عن هذا أمس وضحك كثيراً.

- مم ضحك؟

فأجابت آنا آندرييفنا وهي تضحك فجأة:

- كان يمزح كما تعلم. قال إن المرأة الجميلة الشابة لا تثير دائماً في قلب شاب سنُه سنّك إلا الاستياء والحنق...

Twitter: @ketab_n

هتفت أقول:

- اسمعي... إنها عبارة بارعة. لا شك أنها ليست منه، بل منك أنت. أليس كذلك؟

- لماذا؟ بل هي منه.

فإذا أنا أنبري فجأة فأسألهما بجرأة يخالطها التحدي:

- فما قولكما إذا كانت هذه المرأة الجميلة تتنبه إلى الشاب رغم أنه لا قيمة له ولا شأن، يقبع في ركنه حانقاً من أنه «صغير»، ثم إذا هي تفضله فجأة على جميع من يحومون حولها ويحيطون بها مولهين عابدين؟

كان قلبي يخفق. فانفجرت ليزا تقول ضاحكة:

- إذن لقد ضعت!

فهتفت قائلاً:

- ضعت؟ لا، لم أضع. وأظن أنني لن أضيع أبداِ. إذا وقفت امرأة في طريقي، فسوف تكون مضطرة أن تتبعني. لا يسد أحد طريقي إلا ويناله عقاب...

لقد قالت ليزا في ذات يوم، عرضاً، بعد ذلك بمدة طويلة، إنني قد نطقت بهذه الجملة على نحو غريب، بجد شديد، كأنني أستغرق في التفكير. ولكنها كانت في نفس الوقت «تبلغ من فرط الإضحاك أنه لم يكن للمرء سبيل إلى السيطرة على نفسه، والامتناع عن الضحك».

وقد انفجرت آنا آندرييفنا تضحك مرة أخرى بالفعل.

فصحت أقول منتشياً، لأن هذا الحديث والمجرى الذي سار فيه قد طاب لي كثيراً:

- اضحكي يا آنا آندرييفنا. اضحكي مني. ضحكك لذة لي. إنني أحب ضحككِ. إن لك موهبة مميّزة: تصمتين ساكنة، ثم إذا أنت

Twitter: @ketab_n

تنطلقين في ضحك ما كان لشيء في وجهك قبل ثانية واحدة أن ينذر به. عرفت سيدة بموسكو معرفة ليست قريبة. كنت أختلس النظر إليها من زاويتي: إنها تكاد تكون في مثل جمالك، ولكنها لا تحسن الضحك مثل ضحكك فكان وجهها، الذي لا يقل فتنة عن وجهك، يفقد هذه الفتنة متى ضحكت، أما وجهك فإنه يزداد فتنة بفضل هذه الموهبة. . . إنني منذ مدة طويلة أريد أن أذكر لك هذا.

ولقد مكرت حين نطقت بتلك الجملة عن السيدة التي «تكاد تكون في مثل جمالك». تظاهرت بأن الجملة أفلتت مني بدون إرادة، وحتى بدون أن ألاحظ ذلك. كنت أعرف أن مثل هذا المديح الذي يفلت من قائله «إفلاتا» يؤثر في المرأة أضعاف تأثير المديح الجميل المقصود. ولقد كنت واثقاً بأن آنا آندرييفنا سرّت رغم الحمرة التي تخضب بها وجهها. والسيدة كانت من تلفيق خيالي: فإنني ما عرفت في يوم من الأيام سيدة كهذه السيدة في موسكو. وما كان ذلك مني إلا بقصد إزجاء المديح لآنا آندرييفنا، وبعث المسرة في قلبها.

قالت وهي تبتسم ابتسامة لطيفة:

- في الحقيقة يمكن للمرء أن يفكر أنك في هذه الأيام الأخيرة كنت خاضعاً لتأثير امرأة جميلة. . .

فأحسست كأني أطير. . . واستولت عليّ الرغبة في أن أبوح لهما بشيء. . . لكنني سيطرت على نفسي وأمسكت عن الكلام.

- بالمناسبة، لقد كنت تتكلم منذ قليل عن كاترين نيقولايفنا بلهجة عدائية.

فقدحت عيناي شررا، وانبريت أجيب قائلاً:

- لقد أسأت التعبير. . . وإنما يرجع ذلك إلى تلك النميمة الخبيثة التي تزعم أن كاترين نيقولايفنا تناصب أندريه بتروفتش العداء. وهم

Twitter: @ketab_n

يقولون فيه النمائم أيضاً إذ يزعمون أنه أحبها وعرض عليها الزواج ويزعمون سخافات أخرى أيضاً. وليست هذه النميمة أخبث من تلك النميمة الثانية التي تزعم أنها وعدت الأمير سرجي بتروفتش، أثناء حياة زوجها، بأن تتزوجه متى ترملت، ثم لم تف بوعدها. إنني أعلم من المصادر الأولى أن الأمر ليس كذلك وهذا كله لم يكن إلا مزاحاً، أعلم من المصادر الأولى. ففي ذات مرة، قالت للأمير أثناء لحظة مرح في الخارج «ربما» في المستقبل. ولكن ألم يكن هذا كلاماً في الهواء؟ وأنا أعلم حق العلم أن الأمير من جهته لا يمكن أن يولي مثل هذا الوعد أي اعتبار.

ثم استدركت أضيف:

- وليست له أية نية اطلاقاً.

وأضفت أدسّ بمكر قولي:

- أظن أن في ذهنه أفكاراً أخرى. صدقاني إذا قلت لكما أنه، حين حدثه ناشوكين في بيته منذ قليل عن أن كاترين نيقولايفنا قد تتزوج البارون بيورنج، استقبل النبأ أحسن استقبال.

هنا سألت آنا آندرييفنا قائلة برصانة يخالطها نوع من الدهشة:

- ناشوكين كان عنده؟

- نعم، ناشوكين نفسه. أظن أنه واحد من أولئك الرجال الذين يوحون بالاحترام و. . .

- وناشوكين هو الذي كلّم الأمير عن هذا الزواج من بيورنج.

كذلك تابعت آنا آندرييفنا أسئلتها وقد استيقظ اهتمامها فجأة فقلت:

- عن الزواج، لا، بل هو تكلم عن احتمال الزواج، عن شائعة قال إنها تروج في المجتمع. أما أنا فإنني مقتنع بأنها حكاية ملفقة!

ففكرت آنا آندرييفنا ثم عكفت على شغلها.

Twitter: @ketab_n

وأضفت أقول بحماسة مباغتة:

- إنني أحب الأمير سرغي بتروفتش. صحيح أن له عيوبه، وقد سبق أن كلمتك عنه... أقصد أنه محدود الأفكار... ولكن ألا تشهد له هذه العيوب نفسها بأنه امرؤ نبيل النفس؟ في هذا اليوم مثلاً كدنا أن نتشاجر من أجل فكرة: هو مقتنع بأن على المرء إذا أراد الكلام عن النبل أن يكون هو نفسه نبيلاً، والا فإن كل ما يقوله كذب. فهل هذا الكلام منطقي؟ لا... ولكنه يشهد لقائله بأنه شديد المطالب فيما يتعلق بالنبل والواجب والعدالة. ألست على حق؟

وهتفت فجأة أقول وقد وقعت عيني مصادفة على الساعة الموضوعة فوق المدفأة...

- آ يا إلٰهي!... كم الساعة؟

فقالت آنا آندرييفنا بهدوء بعد أن نظرت إلى الساعة:

- الثالثة إلا عشر دقائق.

وكانت طول مدة حديثي عن الأمير تصغي إلى كلامي خافضة عينيها، بابتسامة فيها شيء من سخرية ماكرة لكنها لطيفة: لقد كانت تعرف لماذا أمدحه هذا المديح كله. وكانت ليزا تنصت مائلة على شغلها، ولكنها أصبحت لا تشارك في الحديث منذ مدة طويلة.

فقزت ناهضاً كمن أصابه حرق. فقالت آنا آندرييفنا تسألني:

- أأنت مستعجل؟

- نعم... لا... بل تأخرت، هذا صحيح. سوف انصرف بعد لحظة يا آنا آندرييفنا.

كذلك بدأت أقول منفعلاً انفعالاً شديداً وتابعت كلامي:

- كلمة واحدة يا آنا آندرييفنا... لا أستطيع أن لا أقول لك اليوم ما أريد قوله! أريد أن أعترف لك بأنني قد باركت مراراً ما أظهرته لي من

Twitter: @ketab_n

طيبة ولطف إذ دعوتني إلى زيارتك... وقد تركت معرفتي بك في نفسي أثراً عميقاً... إن نفسي هنا في حجرتك كأنما تتطهر من الأدران، فأخرج من عندك وأنا خير ما كنت قبل أن أجيء. هذا صحيح. حين أكون إلى جانبك لا أستطيع أن أقول سوءاً، بل لا أستطيع حتى أن تراودني أفكار سيئة. فالأفكار السيئة تتلاشى من ذهني متى رأيتني معك. فإذا برقت في خيالي ذكرى سيئة وأنا بقربك خجلت فوراً ووجلت وذبت خجلاً. ولقد سرني مسرة خاصة في هذا اليوم أن أجد أختي عندك... إن هذا يدل على كثير من النبل فيك... إنه يدل على معاملة جميلة... الخلاصة: لقد أظهرتِ أشياء «أخوية» جداً، إذا سمحت لي أخيراً أن أحطم الجليد، وأن...

كانت آنا آندرييفنا أثناء كلامي قد نهضت من مكانها، وأخذ وجهها يحمر مزيداً من الاحمرار شيئاً بعد شيء. وها هي ذي ترتاح فجأة كأن لكل شيء حدوداً ما ينبغي تجاوزها، وتسرع إلى مقاطعتي قائلة:

- ثق أنني سأقدر عواطفك بكل قلبي... ولقد كنت أفهمها حتى قبل أن أسمع كلامك... منذ مدة طويلة..

وقطعت كلامها مرتبكة وهي تصافحني مودعة. وأحسست فجأة يد ليزا تشدني من كمي بصورة غير ملحوظة. فودعت وانصرفت. وسرعان ما أدركتني ليزا في الغرفة الأخرى.

- 4 -

قلت أسأل ليزا:

- ليزا، لماذا شددتني من كمي؟

- إنها شريرة، إنها ماكرة، إنها لا تستحق... إنها لا تحرص عليك إلا لتستدرجك إلى الكلام...

Twitter: @ketab_n

كذلك أسرّت اليّ ليزا بهمس سريع مبغض حاقد. لم أرَ لليزا هيئة كهذه الهيئة في يوم من الأيام. قلت:

- أعوذ بالله يا ليزا، ماهذا الذي تقولينه؟ إنها فتاة عذبة جداً!

- إذن أنا الشريرة.

- ماذا بك يا ليزا؟

- أنا شريرة جداً. ربما كانت أعذب فتاة، وكنت أنا السيئة الشريرة. هيا، دعني. اسمع: إن ماما تطلب منك «ما لا تستطيع أن تكلمك فيه». هذه ألفاظها نفسها، يا عزيزي آكاردي، أترك القمار يا عزيزي، أرجوك، أتوسل إليك... وماما أيضاً...

- ليزا، أعلم هذا بنفسي، ولكن... أنا أعلم أنني بما فعلته قد برهنت على ضعف في الإرادة... ولكن ما هذه إلا سخافات عابرة لا أكثر. اسمعي: لقد راكمت على نفسي ديوناً رهيبة كما لا يفعل ذلك إلا رجل أحمق، وإنما أريد الآن أن أربح لمجرد أن أسدد تلك الديون. والربح ممكن. كنت حتى الآن أقامر على غير هدى، أقامر منقاداً للمصادفة، أقامر بغباء. أما الآن فلن ألقي كل روبل إلا بروية وتفكير. لن أكون أنا إذا لم أربح! أنا لم أدمن القمار. ليس القمار بالشيء الأساسي. ما هو إلا عرض طارئ. أؤكد لك ذلك! أنا أقوى من أن لا أكف متى شئت... سأرد الديون، ثم أكون لكم دون غيركم، وقولي لماما إنني لن أترككم...

- ما أبهظ الثمن الذي دفعته للحصول على تلك الثلاثمائة روبل!...

قلت مرتعشاً:

- من أين عرفت هذا؟

- سمعت داريا أونيسيموفنا كل شيء...

Twitter: @ketab_n

وفي هذه اللحظة دفعتني ليزا إلى وراء الستارة فوجدنا نفسينا داخل «المصباح» وهو حجرة صغيرة مدورة كلها نوافذ، فما أن أفقت من ذهولي حتى سمعت صوتاً أعرفه، وصليل مهماز، ومشية عرفت صاحبها. فهمست أقول لليزا:

- هو الأمير سرجي.

فأجابتني بهمس أيضاً:

- هو نفسه.

- لماذا أراك خائفة هذا الخوف كله؟

- هكذا! لا أريد بحال من الأحوال أن يراني هنا. . .

- Tiens! أتراه يحاول مغازلتك؟ لسوف أريه. . .

قلت هذا مبتسماً، ثم أردفت أسألها. . .

- إلى أين تذهبين؟

- لنخرج. أنا ذاهبة معك.

- هل ودعت هناك؟

- نعم، ومعطفي في حجرة المدخل. . .

وخرجنا. وفيما كنا نهبط السلالم ساورتني فكرة، فقلت:

- هل تعلمين يا ليزا؟ لعله جاء يعرض عليها الزواج.

فأجابت ليزا قائلة بهدوء وبطء ولهجة قاطعة:

- لا. . . لن يعرض عليها.

- هل تعلمين يا ليزا؟ أنني رغم المشاجرات التي وقعت بيني وبينه - ما دام قد روى لك كل شيء - أحبه حباً صادقاً وأتمنى له النجاح، أحلف لك. لقد تصالحنا. حين نكون سعداء، نكون أخياراً. إن له كثيراً من الميول الرائعة ونفسه محبة للبشر، أو قولي على الأقل إن نفسه تربة صالحة لنمو مشاعر حب البشر. فإذا أصبح بين يدي فتاة مثل

Twitter: @ketab_n

فرسيلوفا، التي تتمتع بقوة الإرادة وحصافة الرأي، أمكن أن يكون إنساناً طيباً وسعيداً. يؤسفني أنني مستعجل جداً. ولكننا سنسير بالعربة معا بعض المسافة. أريد أن أحكي لك شيئاً. . .

– بل إذهب وحدك. وسأسير أنا في اتجاه آخر. هل تأتي للغداء؟

– سآتي، سآتي. هذا وعد. اسمعي يا ليزا. هناك شخص حقير، بل شخص هو أدنأ المخلوقات طراً، اسمه ستيبلكوف إذا كنت تعرفينه: إن لهذا الشخص تأثيراً رهيباً وسلطاناً كبيراً على شؤون الأمير سرغي وأعماله. . . إن لديه سندات مالية. . . الخلاصة أنه قابض عليه قبضاً شديداً، وقد بلغ الأمير من فرط السقوط أن الاثنين كليهما أصبحا لا يريان مخرجاً من المصاعب المالية إلا هذا الزواج من آنا آندرييفنا. فيجب تنبيهها تنبيهاً جدياً. هذه سخافات على كل حال. ستتولى ترتيب كل شيء بنفسها فيما بعد. ثم ما رأيك؟ هل ترفضه؟

فقاطعتني ليزا قائلة:

– إلى اللقاء. ليس في وقتي متسع.

ورأيت فجأة في نظرتها السريعة الخاطفة كرهاً يبلغ من القوة أنني لم أملك إلا أن أصيح مرتاعاً:

– ليزا، عزيزتي، لماذا. . .؟

– ليس هذا الكره لك. ولكن انقطع عن القمار. . .

– آه. . . تقصدين القمار. فلن أقامر إذاً، انتهى!

– قلت منذ هنيهة: «حين نكون سعداء». فهل أنت «سعيد»؟

– سعيد سعادة هائلة يا ليزا! سعادة هائلة! آه. . . رباه. . . الساعة بلغت الثالثة، بل تجاوزتها! استودعك الله يا صغيرتي ليزا. قولي يا ليزا، يا عزيزتي، هل يستطيع المرء أن يدع امرأة تنتظره؟ أيجوز هذا؟

– أنت على موعد غرامي؟

Twitter: @ketab_n

ألقت عليّ هذا السؤال وهي تبتسم ابتسامة خفيفة وُلدت على شفتيها ميتة، ابتسامة راعشة مختلجة.

قلت لها:

- ناوليني يدك لتجلب لي الحظ!

- لتجلب لك الحظ؟ يدي؟ يستحيل أن أفعل بحال من الأحوال!

وابتعدت مسرعة. وقد أطلقت تلك الصرخة جادة كل الجد! وارتميت على عربتي فركبتها.

نعم، نعم، إن تلك «السعادة» هي التي جعلتني كالخلد الأعمى، لا أدرك شيئاً ولا أرى إلا نفسي!

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

– 1 –

أشعر اليوم حتى بخوف من سرد القصة. كل ما سأرويه حدث منذ زمن طويل. ولكن ذلك كله ما يزال إلى هذه الساعة يبدو لي أشبه بسراب. كيف أمكن أن تضرب امرأة مثلها «موعداً» لصبي تافه كالصبي الذي كنته في ذلك الأوان؟ ذلك ما يبدو للوهلة الأولى أنه حدث! بعد أن تركت ليزا، وابتعدت مسرعاً، خفق قلبي، وتصورت أنني فقدت عقلي حقاً: إن فكرة موعد تضربه لي هذه المرأة قد بدت لي مستحيلة استحالة صارخة على حين فجأة، فلا سبيل إلى تصديقها. ومع ذلك كان لا يساورني أي شك فيها. أكثر من هذا أن تصديقي الفكرة كان على قدر قوة استحالتها، فكلما بدت لي استحالتها أقوى، كان تصديقي لها أكبر.

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة قليلاً، فكان هذا ما يقلقني: «ما دام هناك موعد، فكيف يمكن أن أصل متأخراً!». وعرضت لذهني أسئلة غبية من نوع هذا السؤال: «أيهما أفضل بالنسبة لي الآن: الجسارة أم الوجل؟». ولكن ذلك كله كان يمضي عابراً. أما الشيء الأساسي فهو يمكث في قلبي، وهو ما لم أستطع أن أحدده. لقد قالت بالأمس: «غداً، في الساعة الثالثة، سأكون عند تاتيانا بافلوفنا». ذلك كل شيء. ولكن أولاً: لقد كانت تستقبلني في غرفتها دائماً على انفراد، وكانت

Twitter: @ketab_n

تستطيع أن تقول لي كل ما تريد دون أن تنتقل إلى بيت تاتيانا بافلوفنا. فلماذا تحدد مكاناً آخر هو بيت تاتيانا بافلوفنا؟ ثانياً: هل ستكون تاتيانا بافلوفنا في البيت أم لا؟ إذا كان الأمر أمر موعد، فيجب أن لا تكون تاتيانا بافلوفنا في بيتها، فكيف السبيل إلى حملها على الغياب عن البيت بدون أن يُشرح لها كل شيء سلفاً؟ هل يكون معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا مطلعة على السر؟ كان هذا يبدو لي أمراً لا يمكن تصوره، كان يبدو لي مفتقراً إلى الحياء بل وفظاً تقريباً.

ثالثاً وأخيراً: لعل الأمر كله لا يزيد على أنها تنتوي زيارة تاتيانا بافلوفنا، فأبلغتني رغبتها أمس بدون أي هدف آخر، فطفقت أنا أتصور وراء ذلك أشياء لا وجود لها. لقد قالت ما قالته عرضاً، وقالته بإهمال، وبهدوء، وبعد جلسة مملة جداً، لأنني طوال الوقت الذي مكثته عندها كنت مضطرباً لسبب ما، فأنا جامد في مكاني أجمجم بكلام مشوش، ولا أعرف ماذا أقول، وأشعر بغضب وبوجل رهيب، وكانت هي - كما اتضح ذلك فيما بعد - تتهيأ للخروج، فكان يسرها أن تراني أنصرف. تلك الأفكار كلها كانت تغلي وتفور في رأسي، وقررت أخيراً أنني سأذهب إلى هناك، وأقرع الجرس، فتفتح لي الطباخة، فأسأل هل تاتيانا بافلوفنا في البيت؟ فإن لم تكن تاتيانا بافلوفنا في البيت كان معنى ذلك أن الأمر أمر «موعد» حقاً. ولكن لم يكن يساورني أيسر شك، لم يكن يساورني أي شك!

صعدت راكضاً. وهناك، على فسحة السلم، أمام الباب تبدّد كل رعبي. قلت لنفسي: «هيا، ليحدث أي شيء، فإنما المهم أن يحدث بأقصى سرعة!».

وفتحت الطباخة الباب. وبصوتها الأخن وبرودتها الكريهة قالت إن تاتيانا بافلوفنا ليست بالبيت. «وليس بالبيت أحد آخر؟ ألا ينتظر أحد

Twitter: @ketab_n

تاتيانا بافلوفنا؟» لقد أردت أن ألقي عليها هذا السؤال، ولكنني لم أفعل، وإنما قلت محدثاً نفسي: «سأرى بعيني». وجمجمت أقول للطبّاخة أنني سأنتظر تاتيانا بافلوفنا، وخلعت معطفي، وفتحت الباب. . .

كانت كاترين نيقولايفنا جالسة أمام النافذة «تنتظر تاتيانا بافلوفنا» فما أن رأتني حتى بادرت تسألني مهمومة قلقة:

- أهي إذاً غائبة؟

وكان صوتها ووجهها لا يتفقان وما كنت أتوقع، فجمدت في العتبة. وتمتمت أسألها:

- من هي؟

- تاتيانا بافلوفنا! لقد رجوتك أمس أن تبلغها أنني سأجيء إليها في الساعة الثالثة.

- أنا. . . ما رأيتها.

- هل نسيت؟

جلست كمن حكم عليه بالإعدام. هذا هو الأمر إذاً! إنه واضح وضوح النهار! ومع ذلك لم أستسلم وما زلت أصدّق فكرة الموعد. قلت أقاطعها نافد الصبر:

- لا أذكر أنك رجوتني أن أبلغها شيئاً. إنك لم تطلبي مني شيئاً: كل ما قلته لي هو أنك ستكونين ببيتها في الساعة الثالثة.

ولم أكن أنظر إليها وأنا أقول هذا الكلام.

فهتفت تقول فجأة:

- آه! إذا كنت قد نسيت أن تبلغها، وإذا كنت تعرف أنني سأكون هنا فلماذا جئت إذن؟

فرفعت رأسي، ونظرت إليها، فلم أر في وجهها لا سخرية ولا غضبا، وإنما رأيت ابتسامة مضيئة مرحة، ورأيت تلك الشيطنة التي تشبه

Twitter: @ketab_n

أن تكون شيطنة طفل، والتي يعبر عنها وجهها دائماً، فكأن هيئتها كانت تقول: «ها قد غلبتك، فما عساك قائلاً الآن».

لم أشأ أن أجيب، وخفضت عيني من جديد: ودام هذا الصمت نصف دقيقة. ثم إذا هي تسألني:

- أأنت قادم من عند بابا؟

قلت:

- بل من عند آنا آندرييفنا. لم أكن عند الأمير نيقولاي إيفانوفتش...

ثم أضفت على حين غرة:

- ولقد كنت تعلمين هذا حق العلم!

- ألم يحدث لك شيء عند آنا آندرييفنا؟

- أتقصدين أن هيئتي هيئة مجنون؟ لقد كانت هيئتي هيئة مجنون من قبل أن أذهب إلى آنا آندرييفنا.

- فهل استرددت عندها شيئاً من عقلك؟

- لا. وإنما علمت هناك أنك ستتزوجين البارون بيورنج.

فظهرت عليها علائم الاهتمام فجأة، وسألتني:

- أهي التي قالت لك هذا؟

- بل أنا الذي أعلمتها به، لأنني سمعت ناشوكين يقوله للأمير سرجي بتروفتش في أثناء زيارته له.

وما زلت خافضاً عيني لا أنظر إليها. لأن النظر إليها معناه أن أغرق في الضياء والفرح والسعادة. وأنا لم أشأ أن أكون سعيداً. ثم وخز الحنق قلبي، فإذا أنا أتخذ قراراً ضخماً في لحظة واحدة. فطفقت أتكلم وأتكلم، دون أن أعرف ماذا أقول. كنت أختنق، وأتمتم، وأتلعثم، ولكنني أصبحت أنظر إليها بجرأة. وكان قلبي يخفق. تحدثت عن أشياء

Twitter: @ketab_n

غير محدّدة ولكنها قد تكون قيلت بصورة مرتبة. فكانت في البداية تصغي إلى كلامي مبتسمة ابتسامتها الهادئة التي لا تبارح وجهها أبداً، ولكن الدهشة ثم الارتياع لم يلبثا أن أخذا يبرقان في نظرتها الثابتة. ومع ذلك لم تفارقها ابتسامتها، غير أن هذه الابتسامة نفسها أخذت تختلج في بعض الأحيان:

ورأيتها ترتعش كلها، فسألتها فجأة:

- ماذا بك؟

فأجابتني كالمذعورة: أنا خائفة منك.

- فلماذا لا تنصرفين إذاً؟ إنك تعلمين أن تاتيانا بافلوفنا غائبة، وأنها لن تأتي بعد قليل. فما عليك إلا أن تنهضي وتنصرفي.

- كنت أريد أن أنتظرها... أما الآن فالأفضل فعلا أن...

قالت ذلك ونهضت نصف نهوض.

فقلت وأنا استوقفها:

- لا، لا. ابقي جالسة. هاأنت ذي ترتعشين من جديد. ولكنك ما تزالين في ذعرك تبتسمين... ابتسامتك هذه لا تفارقك أبداً... وهاأنت ذي تبتسمين ابتسامة صريحة كاملة...

- أأنت تهذي؟

- نعم، أهذي.

همست تقول مرة أخرى:

- أنا خائفة...

- ممّ؟

فقالت وهي تبتسم أيضاً، ولكنها مذعورة فعلاً:

- خائفة من أن تحطم الجدار.

قلت:

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك!

وطفقت أتكلم وأتكلم من جديد. كنت كمن يطير طيراناً. كان شيء ما يدفعني. لم أكن قد كلمتها قبل الآن على هذا النحو في يوم من الأيام أبداً، لأنني كنت شديد الخجل دائماً. ما زلت أشعر بالخجل الرهيب الآن أيضاً ولكنني أتكلم. أذكر أنني حدثتها عندئذ عن وجهها، فقلت لها هاتفاً على حين فجأة:

- أصبحت لا أستطيع أن أحتمل ابتسامتك. لماذا كنت أتخيلك، وأنا بموسكو، رهيبة، رائعة، تطلقين الكلام زاخراً بالسخرية على عادة أبناء المجتمع الراقي؟... نعم، بموسكو. كنا نتكلم عنك هناك أنا وماريا إيفانوفنا، ونحاول أن نراك كما لا بد أن تكوني... هل تتذكرين ماريا إيفانوفنا؟ لقد ذهبت إليها مرة. وفي أثناء السفر إلى هنا حلمت بك طوال الليل في القطار. وهنا، قبل وصولك، ظللت شهراً كاملاً أنظر إلى صورتك في مكتب أبيك فلم أستطع أن أحزر شيئاً. إن تعبير وجهك مزيج من شيطنة طفولية وبساطة لا نهاية لها: ذلك هو وجهك! وذلك ما كان يثير دهشتي الشديدة خلال زياراتي لك. آه... أنت أيضاً تعرفين كيف تنظرين بتكبر واستعلاء، وكيف تجعلين نظرتك ساحقة: إنني أتذكر كيف نظرت إليّ عند أبيك حين وصلت من موسكو.. لقد رأيتك عندئذ، ومع ذلك لو سألني أحد عنك بعد ذلك فوراِ، لما استطعت أن أقول له شيئاً في وصفك، بل لما استطعت أن أجيبه بشيء حتى عن قامتك! ذلك أنني ما إن رأيتك حتى صرت أعمى. إن صورتك لا تشبهك البتة: عيناك ليستا قاتمتين بل هما واضحتان، غير أن أهدابك الطويلة هي التي تلقي عليهما ظلالاً فتبدوان قاتمتين. وأنت بدينة الجسم، ربعة القامة، ولكن بدانتك قوة وخفة، هي بدانة قروية شابة معافاة. ووجهك أيضاً قروي، إنه وجه

Twitter: @ketab_n

قروية حسناء. لا تزعلي، ذلك جيد، ذلك أفضل... هذا الوجه المستدير المورد الواضح الجسور الضاحك و... الخجول! نعم، الخجول! إن وجه كاترين نيقولايفنا آخماكوفا لخجول! خجول وعف، أحلف لك. بل هو أكثر من عف: هو وجه طفلة. ذلك هو وجهك! لطالما اندهشت فتساءلت: أهذه هي تلك المرأة نفسها؟ وأنا أعلم الآن أنك ذكية جداً، أما في أول الأمر، فكنت أظنك محدودة الفكر قليلاً. وأن لك روحاً فرحة، ولكن بدون تجمّل مصطنع. وأحب فيك أيضاً ابتسامتك الأبدية هذه: هي جنتي! وأحب أيضاً هدوءك، وعذوبتك، وحديثك الرصين الهادئ الذي يكاد يكون وانياً. إنني أحب هذا الونى. يخيل إليّ أنك لو هوى تحت قدميك جسر لظللت تتكلمين بهذه اللهجة الرصينة الموزونة... كنت أظنك ذروة التكبر والأهواء الجامحة، ثم يمضي شهران ولا أسمع منك خلالهما إلا حديثاِ كحديث طالب لطالب... ولم أتخيل في يوم من الأيام جبهة كهذه الجبهة: إنها ضيقة قليلاً كجباه التماثيل، لكنها طرية بيضاء كالمرمر، تحت شعر غزير رائع. وإن لك صدراً عالياً، ومشية مرنة، وجمالاً خارقاً، لكنك لا تشعرين من ذلك بخيلاء. الآن إنما أقتنع بهذا، وكنت أرفض دائماً أن أصدقه!

أنصتت إلى كلامي المستفيض الفظيع محملقةً. وكانت ترى أنني أرتجف. وقد حاولت عدة مرات إيقافي عن الاسترسال في هذا الحديث بحركة رشيقة متهيبة من يدها الصغيرة المغمودة في قفازها، ولكنها كانت لا تلبث في كل مرة أن تسحب يدها حائرة متهيبة. حتى لقد كانت ترتد إلى الوراء بحركة سريعة في بعض الأحيان. ومرتين أو ثلاث مرات، عادت الابتسامة تضيء وجهها. ولكنها في النهاية خافت فعلاً وشحب لونها. فما كدت أتوقف عن الكلام حتى مدت إليّ يدها،

Twitter: @ketab_n

وقالت بصوت ضارع مبتهل، ولكنه ما يزال رصيناً:

- ما ينبغي أن يُقال هذا... لا يجوز للمرء أن يتكلم هكذا...

ونهضت فجأة، وتناولت شالها وفروتَيْ يديها بغير تعجّل. فهتفتُ أسألها:

- أتنصرفين؟

فأجابت بلهجة ممطوطة فيها حسرة وعتاب:

- أنا خائفة منك... إنك تسرف...

- اسمعي! لن أحطم الأسوار، أحلف لك.

- لكنك بدأت تحطمها.

ولم تستطع أن تكبح نفسها، فابتسمت. وأضافت تقول:

- حتى أنني لست واثقة بأنك ستدعني أنصرف.

أظن أنها كانت تخشى حقاً أن أسد عليها طريقها.

قلت:

- بل سأفتح لك الباب بنفسي، هيا اذهبي... ولكن... اعلمي أنني اتخذت قراراً ضخماً. فإذا كنت تريدين أن تهبي لنفسي ضياء، ارجعي واجلسي واسمعي مني كلمتيَن أخريين. وإذا لم تريدي، فانصرفي، وسأفتح لك الباب بنفسي.

فنظرت إليّ وعادت تجلس.

فهتفت أقول ثملاً:

- لو كنتِ امرأة أخرى لخرجت مستاءة أشد الاستياء. ولكنك عدت تجلسين.

- إنك لم تبح لنفسك أن تقول لي مثل هذا الكلام في يوم من الأيام.

- كنت خجولاً، وما زلت خجولاً، وحين وصلت إلى هنا، كنت لا أعرف ما عساني أقول. أتظنين أنني أصبحت غير خجول؟ إنني ما أزال

Twitter: @ketab_n

خجولاً. لكنني اتخذت قراراً ضخماً على حين فجأة، وأحسست أنني سأنفذه. فلما اتخذت ذلك القرار طاش صوابي وطفقت أتكلم. اسمعي الكلمتين اللتين أريد أن أقولهما لك: أأنت تتخذينني جاسوساً أم لا؟ أجيبيني! هذا هو السؤال!

فاحمر وجهها بسرعة: واستدركتُ أقول لها:

- لا تجيبيني بعدُ يا كاترين نيقولايفنا. استمري على الإصغاء، ثم قولي لي الحقيقة كلها.

لقد قلبت جميع الحواجز دفعة واحدة، وأصبحت أطير في الفضاء.

- 2 -

- منذ شهرين، كنت واقفاً هناك وراء الستارة، وأنتِ على علم بذلك... وكنت أنت تتحدثين مع تاتيانا بافلوفنا عن الرسالة. فظهرت لكما، وأسرفت في الكلام خارجاً عن طوري بغير روية. فأدركت على الفور أنني على علم بشيء ما... ولم يكن في وسعك إلا أن تدركي... كنت تبحثين عن وثيقة هامة، وتخشين خطرها عليك خشية كبيرة. انتظري يا كاترين نيقولايفنا، لا تتكلمي بعد. إنني أعلن لك بأن شبهاتك كانت في محلها: فالوثيقة موجودة... كانت موجودة... فقد رأيتها بعيني.. إنها رسالتك إلى آندرونيكوف، أليس كذلك؟

فسألتني بسرعة وقد امتلأت نفسها حيرة وانفعالاً.

- رأيت تلك الرسالة؟ وماذا صارت اليه؟

- مزقها كرافت.

- مزقها أمامك؟ رأيته يمزقها؟

- مزقها أمامي، أغلب الظن أنه كان قد قرّر موته... ولم أكن أعرف أنه سيقتل نفسه...

Twitter: @ketab_n

- إذن أتلفها. الحمد لله!

كذلك قالت ببطء، بعد أن تنفست الصعداء. ثم رسمت إشارة الصليب.

لم أكذب عليها. بل لقد كذبت، لأن الوثيقة كانت عندي، ولم تكن عند كرافت فيما يتعلق بجوهر القضية، لأنني في اللحظة التي كذبت فيها قطعت عهداً على نفسي لأحرقنّ تلك الرسالة في هذا المساء نفسه. ويميناً لو كانت الرسالة في جيبي حينذاك، لأخرجتها وناولتها إياها. . . ولكنني لم أكن أحملها، وإنما كانت في البيت. وقد لا أعطيها الرسالة مع ذلك لأن من المخجل أن أعترف لها بأن الرسالة كانت عندي طول هذه المدة فاحتفظت بها ولم أسلمها إليها. ولكن لا فرق: فلقد قررت أن أحرق الرسالة على كل حال، وأنا إذن لم أكذب! أقسم لقد كنت صادقاً في تلك اللحظة.

وتابعت أقول خارجاً عن طوري:

- فإذا كان الأمر كذلك، فأرجو أن تجيبيني عن هذا السؤال: لماذا جذبتني إليك ودللتني واستقبلتني في بيتك؟ أليس لأنك قدّرت أنني على علم بأمر الوثيقة؟ انتظري يا كاترين نيقولايفنا، انتظري دقيقة أخرى، لا تتكلمي، أتيحي لي أن أنهي كلامي: إنني طوال المدة التي ظللت أزورك في أثنائها، كنت أقدر أنك لا تلاطفينني ولا تدللينني إلا لتستدرجيني إلى الكلام عن تلك الرسالة، ولتجبريني على الاعتراف. . . انتظري دقيقة أخرى. كنت أقدر وأشتبه، ولكني كنت أتألم وأتعذب. أصبحت لا أحتمل منك هذا الرياء. . . ذلك أنني اكتشفت أنك بين سائر مخلوقات الله أنبلها نفساً! أقول لك بصراحة، نعم، أقول لك بصراحة: إنني كنت عدوك، ولكنني وجدت أنك أنبل مخلوقات الله، فغلبتني دفعة واحدة. ولكن الرياء. . . أقصد شبهة

Twitter: @ketab_n

الرياء كانت ترهقني. . . فيجب الآن أن يتقرر كل شيء، أن يتوضح كل شيء. لقد حان الوقت. ولكن انتظري قليلاً، لا تتكلمي، واعرفي كيف أنظر أنا إلى هذا كله الآن، في اللحظة الراهنة بالضبط: إذا كانت الأمور قد جرت على هذا النحو فلن أغضب، بل أقصد: لن أستاء، لأن هذا طبيعي: إنني أدرك ذلك حق الإدراك. أي شيء في هذا يخالف الطبيعة أو يتصف بأنه شر؟ الوثيقة تعذبك وتقلقك، وأنت تقدرين أن فلانا من الناس على علم بكل شيء. فمن حقك أن تتمني أن يتكلم فلان هذا. . . ليس في هذا شر؛ ليس فيه أي شر. إنني أتكلم صادقاً كل الصدق. ومع ذلك يجب أن تقولي لي الآن شيئاً. . . يجب أن تعترفي (اغفري لي استعمال هذه الكلمة). إنني في حاجة إلى معرفة الحقيقة. لسبب ما أنا في حاجة ماسة إلى معرفة الحقيقة! فقولي لي: هل من أجل أن تستدرجيني إلى الكلام عن تلك الوثيقة إنما لاطفتني ودللتني. . . يا كاترين نيقولايفنا؟

كنت أتكلم ولا أستطيع التوقف عن الكلام، وكان جبيني يحترق احتراقاً. وكانت تصغي إليَّ بغير قلق، حتى أن هيئتها كانت تنم عن عاطفة. ولكن نظرتها كانت تشتمل على وجل، ربما من شعورها بشيء من الخجل أو من العار.

ثم قالت بصوت بطيء خافت:

- نعم، من أجل ذلك.

وأضافت تقول فجأة وهي ترفع إليَّ يديها قليلاً.

- سامحني، أخطأت.

لم أكن أتوقع هذا. توقعت كل شيء إلا هاتين الكلمتين، حتى منها هي التي كنت أعرفها الآن. صحت أقول:

- وتقولين «أخطأت»؟ بكل صراحة تقولين «أخطأت»؟

Twitter: @ketab_n

- آه! إني لأشعر بأخطائي في حقك منذ مدة طويلة. . . ويسعدني اليوم أن يكون كل شيء قد توضح. .

- منذ مدة طويلة؟ فلماذا لم تقولي ذلك في حينه؟

فابتسمت وقالت:

- ذلك أنني كنت لا أعرف كيف أقوله.

وابتسمت مرة أخرى وأضافت تقول مستدركة:

- أو قل كان في إمكاني أن أعرف. . . لكنني كنت أشعر بعذاب الضمير. . . لأنني، كما تقول، لم «أجذبك» في أول الأمر إلا من أجل ذلك الهدف، ثم لم ألبث أن أحسست أنا باشمئزاز. . . وسئمت ذلك الزيف كله. . . أؤكد لك! وسئمت تلك الهموم كلها. . .

أضافت ذلك بلهجة تنم عن مرارة.

قلت:

- لماذا، لماذا لم تسأليني صراحة؟ كان في وسعك أن تقولي لي: «أنت تعرف أمر الرسالة، فعلام التظاهر؟» فلو ألقيت عليَّ ذلك السؤال لاعترفت لك فوراً بكل شيء!

- كنت. . . كنت خائفة منك بعض الخوف. بل يجب أن أعترف بأنني ما كنت أثق بك. ثم، إذا شئتَ الحقيقة كلها: لقد مكرت أنا ومكرت أنت!

قالت هذه الجملة الأخيرة وهي تضحك ضحكة قصيرة. فهتفت أقول مصعوقاً:

- نعم، نعم، لقد كنت دنيئا. آه. . . إنك لا تعرفين عمق الهوة التي سقطت فيها!

- ها أنت تعود إلى الكلام عن الهوّة. . . إنني أعرف أسلوبك!

وابتسمت ابتسامة رقيقة، ثم أضافت تقول بحزن:

Twitter: @ketab_n

- إن تلك الرسالة هي من بين حوادث حياتي أبعثها على الحزن، وهي من أفعالي أكثرها خفة وطيشاً. لطالما أنبني ضميري على كتابتها. إنني بتأثير الظروف وتأثير مخاوفي قد شككت في أبي العزيز الشهم. وإذ قدرت أن هذه الرسالة يمكن أن تقع بين أيدي أناس أشرار... إذ كانت لي دلائل تحملني على هذا التقدير (قالت ذلك بحرارة)، فقد ارتعدت خوفاً من أن يستخدموها وأن يطلعوا عليها بابا... وكان يمكن أن يؤثر ذلك في صحته تأثيراً شديداً بسبب حالته التي هو فيها، فإذا هو يكرهني...

ثم أضافت تقول وقد حدقت في عينيّ بصدق فالتقطت في نظرتي شيئاً ما في أغلب الظن:

- نعم... وخفت أيضاً على نفسي... خفت أن يحمله مرضه على أن يحرمني من أرزاقه... كان هذا الشعور ماثلاً هو أيضاً. ولكن لا شك أنني كنت هنا مخطئة في حقه: فهو أطيب قلباً وأكرم نفساً من أن لا يغفر لي. ذلك كل ما حدث. أما عن سلوكي معك، فما كان ينبغي لي أن أتصرف كما تصرفت! إنني أشعر الآن بخزي.

بذلك ختمت كلامها وقد اعتراها خجل مباغت. فهتفت أقول:

- لا، ليس لك أن تشعري بخزي.

- لقد عوَّلت فعلا على حرارة اندفاعك، أعترف بذلك.

قالت هذا وهي تخفض عينيها.

فهتفت أقول كالسكران:

- كاترين نيقولايفنا، من ذا يجبرك على مثل هذه الاعترافات أمامي؟ ماذا كان يكلفك من جهد أن تنهضي فتبرهني لي بألفاظ منتقاة وعلى نحو دقيق جداً أنه كان ثمة شيء ما فعلاً، ولكن هذا الشيء لا قيمة له... كما يُجيد أن يفعل ذلك أبناء مجتمعك الراقي في مواجهة الحقيقة؟ إنني

Twitter: @ketab_n

امرؤ غليظ بليد، فلو فعلت ذلك لصدقتك على الفور، ولصدقت كل ما قد تقولينه لي! ماذا كان يكلفك من جهد أن تفعلي هذا؟ لم تكوني خائفة مني فعلاً، أليس كذلك؟ فكيف ارتضيت بإرادتك أن تخفضي قيمتك أمام دعيّ حقير، ومراهق تافه؟

فقالت بوقار شديد، لأنها لم تدرك كلامي في أغلب الظن:

- أنا لم أخفض قيمتي أمامك، لأنني قلت الحقيقة على الأقل.

- بالعكس، بالعكس. إن هذا بعينه هو ما أعترض عليه.

صاحت تقول وهي تحمل يدها إلى وجهها كأنما لتخفيه بها:

- آه! كان هذا مني شراً وطيشاً! وأمس كنت أشعر بالخزي؛ فلذلك كنت سيئة الحال حين جئت تزورني.

ثم أضافت تقول:

- والواقع أن الظروف توجب عليّ حتماً أن أعرف الحقيقة كاملة عن مصير تلك الرسالة المشؤومة، التي كنت على وشك أن أنساها. . . فكنت أستقبلك في بيتي لا بسبب تلك الرسالة وحدها. . .

أضافت هذه الجملة الأخيرة بغتة. فوجف قلبي. وألمت بشفتيها ابتسامة رقيقة. وأردفت قائلة:

- بالطبع، لم أكن أستقبلك بسبب تلك الرسالة وحدها. . لا. . حتما. . إنني. . . إنني. . . لقد عبرتَ أنت بدقة بالغة عن هذا منذ قليل يا آركادي ماكاروفتش. . . فذكرتَ أننا كثيراً ما نتحدث كما يحدث طالب طالبةً. أؤكد لك أنني في بعض الأحيان أشعر في المجتمع بضجر وسأم، ولا سيما بعد إقامتي في الخارج، وبعد تلك المصائب العائلية كلها. . . حتى لقد أصبحت لا أخرج كثيراً، وليس هذا عن كسل مني. وكثيراً ما أتمنى أن أعتزل في الريف، فأعيد هناك قراءة كتبي المفضلة التي هجرتها منذ زمن طويل، والتي لا أتمكن من إعادة قراءتها هنا.

Twitter: @ketab_n

على أنني قد قلت لك هذا كله من قبل. إنك تتذكر ذلك. حتى ضحكتَ لأنني أقرأ الجرائد الروسية، بمعدل جريدتين في اليوم، أليس كذلك؟

– لا، لم أضحك. . .

– لا شك أنك كنت أنت أيضاً تتأثر. لقد اعترفت لك منذ مدة طويلة بأنني روسية، وبأنني أحب روسيا. تتذكر أننا كنا نشترك دائماً في قراءة «الوقائع» كما كنت تسميها (وابتسمتْ). ورغم أنك كنت في كثير من الأحيان. . . غريباً منفرداً بعض الشيء، فقد كنت في أحيان أخرى تتحمس فتعرف كيف تقول كلمة حق، وكنت تهتم بنفس الأشياء التي كنت أهتم بها أنا. إنك لطيف وأصيل متى كنت «طالباً». أظن أن الأدوار الأخرى لا تلائمك كما يلائمك دور الطالب.

أضافت هذه الجملة الأخيرة وهي تبتسم ابتسامة حلوة فيها مكر محبب. واستطردت تقول:

– تتذكر أننا كنا في بعض الأحيان نقضي ساعات كاملة في الاهتمام بالأرقام فنحسب ونقيس، نحصي عدد المدارس في بلادنا، ونتساءل عن تطور التعليم وما يقود إليه؛ وننظر في عدد جرائم القتل، وجرائم السطو، ونقارن ذلك كله بالأنباء السارة. . . كنا نحاول أن نعرف أين يتجه هذا كله، وما الذي سنصير إليه آخر الأمر. ووجدت فيك الصدق. إن الرجال في المجتمع الراقي لا يخاطبوننا أبداً بهذه اللغة نحن معشر النساء. كنت في الأسبوع الماضي أكلم الأمير «. . . سوف» عن بسمارك، لأنني شديدة الاهتمام ببسمارك، وكنت لا أعرف ماذا يجب أن يكون رأيي فيه. فهل تتصور ما فعله الأمير؟ جلس إلى جانبي، وطفق يقص عليَّ حكايات شتى مسرفاً في ذكر التفاصيل، وكان في كلامه كله نوع من السخرية، وذلك النوع من التسامح والتنازل الذي

Twitter: @ketab_n

يُظهره «كبار الرجال» في العادة حين يكلموننا نحن النساء إذا «تدخلنا فيما لا يعنينا». لقد أصبحت لا أطيق هذا التنازل والتسامح... هل تتذكر أننا نحن أوشكنا أن نتشاجر في كلامنا عن بسمارك؟ كنت تريد أن تبرهن لي على أن لك «فكرة أعلى كثيراً» من فكرة بسمارك.

قالت هذا وضحكت فجأة. واستطردت تقول:

- ما رأيت في حياتي إلا رجلين اثنين كلماني جادين حقا؛ أحدهما المرحوم زوجي الذي كان رجلاً ذكياً جداً... وكانت نفسه تزخر نبلاً (قالت هذا بلهجة مؤثرة)، وأما الثاني فأنت تعرف...

فهتفت أقول وأذناي مصغيتان لكل كلمة تقولها:

- هو فرسيلوف!

- نعم. كنت أحب كثيراً أن أسمعه. وقد أصبحت في النهاية... صريحة معه كل الصراحة بل لعلني أسرفت في هذه الصراحة، غير أنه أصبح بعدئذ لا يصدقني.

- لا يصدقك؟

- وما صدقني أحد في يوم من الأيام على كل حال.

- ولكن فرسيلوف! فرسيلوف!

قالت وهي تخفض عينيها وتبتسم ابتسامة غريبة:

- لم يقتصر على أن لا يصدقني، بل قرر جازماً أنني «أتصف بجميع العيوب».

- ليس فيك عيب واحد.

- بل إن لي بعض العيوب، أنا أيضاً.

هتفت أقول وقد سطعت عيناي:

- كان فرسيلوف لا يحبك، فلذلك لم يفهمك.

فتغير شيء ما في وجهها وقالت بحرارة وإلحاح شديد:

Twitter: @ketab_n

- دع هذا الأمر، ولا تكلمني أبداً عن هذا. . . عن هذا الرجل. ولكن كفى، لقد حان الوقت. . . (ونهضت لتنصرف). - فماذا؟ أتغفر لي أم؟ قالت هذا وهي تحدق فيَّ تحديقاً صريحاً.

- أنا؟ أغفر لك؟ اسمعي يا كاترين نيقولايفنا، ولا تغضبي: هل صحيح أنك ستتزوجين؟

فقالت حائرة، كالمرتاعة:

- لم يتقرر الأمر بعد.

- أهو رجل طيب؟ معذرة، اغفري لي هذا السؤال.

- نعم، هو طيب جداً. . .

- لا تجيبي بعد الآن، لا تنعمي عليَّ بأي جواب. أنا أعلم أن هذه الأسئلة مستحيلة حين ألقيها أنا! وقد أردت أن أعرف أهو جدير أم لا. ولكنني سأعرف عنه بنفسي.

قالت مرتاعة:

- آ. . . اسمع!

- طيب، طيب. . . سأمتنع، سأمتنع، سأصرف النظر عن هذا الأمر. . . ولكن إليك ما أريد أن أقوله لك: أسأل الله أن يهيئ لك جميع أنواع السعادة، جميع أنواع السعادة التي تمنيتها. . . جزاء ما وهبت لي من سعادة في هذه الساعة القصيرة! إن ذكراك قد نُقشت الآن في نفسي إلى الأبد. لقد كسبت كنزاً عظيماً هو فكرة الكمال هذه التي تجسدينها. كنت أقدر فيك خداعاً وغنجاً زائفاً، فكنت من ذلك شقياً. . . لأنني لم أستطع أن أوفق بين هذا الاشتباه وبين ما أراه فيك. وأصبحت في الأيام الأخيرة أفكر في هذا الأمر ليلاً ونهاراً. أما الآن فقد وضح لي كل شيء وضوحاً تاماً! حين كنت آتياً إلى هنا كنت أتصور أن ألقى نفاقاً ومكراً، وحيّة لائبة، فإذا أنا أجد شرفاً، ومجداً، وطالبةً. . .

Twitter: @ketab_n

أتضحكين؟ اضحكي! ولكنك قديسة، فلا يمكنك أن تضحكي مما هو مقدس. . .

- أنا لا أضحك إلا لأنك تستعمل تعابير رهيبة. فما هي هذه «الحية اللائبة» التي ذكرتها؟

وانفجرت تضحك. ولكنني تابعت كلامي متحمساً أقول:

- لقد أفلتت منك اليوم كلمة ثمينة. كيف أمكنك أن تقولي أمامي أنك كنت تعوِّلين على «حرارة اندفاعي»؟ صحيح أنك قديسة، وأنت نفسك تقرِّين بهذا ما دمت تتخيلين أنك ارتكبت ذنوباً تريدين التكفير عنها. . . مع أنه ليس ثمة ذنب في الواقع، لأن كل ما يصدر عنك فهو مقدس رغم أن شيئاً ما حدث. ولكن كان في إمكانك مع ذلك أن لا تنطقي بذلك التعبير، وبهذه العبارات.

واستطردت أقول صائحاً مشوشاً:

- إن هذه الصراحة التي ليست أمراً مألوفاً إنما تدل على عفتك العظمى، وعلى ما تضمرينه لي من احترام وعلى ما تحسينه من ثقة بي. آه! لا تحمري، لا تحمري. . . من ذا الذي تقوَّل عليك فزعم أنك امرأة جامحة الهوى؟ آه. . . اغفري لي. . . إنني أرى في وجهك تعبيراً عن ألم! اغفري لمراهق مندفع في عباراته الخرقاء! ولكن هل الأمر اليوم أمر عبارات، أمر تعابير؟ ألستِ فوق كل التعابير؟ قال فرسيلوف يوماً: لئن قتل عطيل ديدمونة[74]، ثم قتل نفسه، فإنه لم يفعل ذلك عن غيرة، وإنما فعله لأنه سُلب مثله الأعلى. إنني أفهم اليوم هذا الكلام، بعد أن رُدَّ إليَّ مثلي الأعلى!

قالت بعاطفة:

- إنك تسرف في مدجي: أنا لا أستحق هذا المدح!

ثم أضافت تقول مازحة:

Twitter: @ketab_n

- هل تذكر ما كنت أقوله عن عينيك؟

- كنت تقولين عنهما إنهما مجهران، وأنني أرى الذبابة جملاً! لا، إنني لا أضخم الأمور الآن. . . ماذا؟ أتنصرفين؟

كانت في وسط الغرفة تحمل شالها وفروتَيْ يديها، فأجابتني تقول:

- بل سأنتظر أن تنصرف أنت، ثم أمضي بعدك. عليَّ أن أكتب كلمتين لتاتيانا بافلوفنا.

- أنا منصرف، أنا منصرف، ولكنني أكرر مرة أخرى: أرجو الله أن يعطيك السعادة، وحيدة أو مع من تختارين! أما أنا فلست في حاجة إلا إلى مثلي الأعلى!

- عزيزي، عزيزي الطيب آركادي ماكاروفتش، صدق أنني أفكر فيك. . . إن أبي يصفك دائماً «بالفتى اللطيف، الطيب». صدق أنني سأتذكر دائماً ما رويته لي عن ذلك الصبي الصغير المسكين الذي تُرك عند غرباء، وما رويته لي عن أحلامه في عزلته. . . إنني لأفهم كيف كوّنت نفسك فهماً واضحاً كل الوضوح. . .

ثم أضافت تقول وهي تبتسم ابتسامة ضارعة زاخرة بالحياء والخفر، وتشدّ على يدي مصافحة:

- ولكن لا يجوز لنا بعد اليوم أن نلتقي كما كنا نلتقي، مهما نكن طالبين. . . و. . . أظن أنك تفهم هذا، أليس كذلك؟

- لا يجوز؟

- لا، لا يجوز. وسيستمر ذلك مدة طويلة. . . هذا ذنبي أنا. إنني أرى أن اجتماعنا بعد الآن مستحيل استحالة مطلقة. . . على أننا سوف نلتقي أحياناً عند بابا. . .

«أتخشين «حرارة» اندفاعي؟ ألا تثقين بي؟»

أردت أن أهتف ملقياً عليها هذا السؤال، ولكنها بلغت من شدة

Twitter: @ketab_n

الخجل في تلك اللحظة إلى درجة أن الألفاظ لم تخرج من حلقي.

أوقفتني فجأة بقرب الباب وقالت تسألني:

- قل لي: هل رأيت... بعينيك... أن تلك الرسالة قد تم تمزيقها؟ هل تتذكر هذا تذكراً واضحاً؟ وكيف عرفت أن الورقة التي تم تمزيقها هي نفسها رسالتي إلى آندرونيكوف؟

- حدثني كرافت عن مضمونها، بل أطلعني عليها... أستودعك الله! كنت إذا جئت إليك أفقد كل شجاعة أمامك، فإذا خرجتِ هممت أن أقبل الموضع الذي وطأته بقدميك من الأرض.

قلت هذا الكلام الأخير على حين غرة لا أدري كيف ولا لماذا. ثم خرجت بسرعة دون أن أنظر إليها.

أسرعت إلى بيتي. كانت نفسي مترعة بحماسة شديدة وافتتان قوي. وكان كل شيء يعصف في خاطري كزوبعة. وكان قلبي زاخراً مفعماً. فلما اقتربت من منزل أمي تذكرت فجأة ما رأيته في ليزا من التنكر لجميل آنا آندرييفنا، وتذكرت الكلمة الرهيبة القاسية التي قالتها في حقها منذ قليل، فشعرت بقلبي ينسحق ألماً لهما كلتيهما! «ما أقسى قلوبهن جميعاً! ولكن ليزا ما بالها؟». كذلك تساءلت وأنا أضع قدمي على درج الباب.

وصرفت ماتفي، بعد أن أمرته بأن يعود إليّ في الساعة التاسعة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

– 1 –

وصلت متأخراً عن موعد الغداء، ولكنهم لم يكونوا قد جلسوا إلى المائدة: كانوا ينتظرونني. وقد أعدوا للغداء ألواناً من الطعام إضافية، ربما لأنني كنت لا آكل عندهم إلا نادراً، فكان على المائدة سردين وما إلى ذلك من المشهّيات. ولكن ما كان أشد دهشتي وما كان أكبر حزني حين رأيتهم جميعاً كأنهم مهمومون مكفهرون: فأما ليزا فإنها حين رأتني لم تكد ترتسم على شفتيها ابتسامة، وأما ماما فكان واضحاً أنها قلقة، وأما فرسيلوف فقد تبسم ولكن بجهد. سألت نفسي: «أتراهم تشاجروا؟» وجرى كل شيء في البداية مجرى حسناً، باستثناء أن فرسيلوف امتعض حين جيء بحساء الشعيرية، ثم سخط حين جيء بالكفتة، فأفلتت منه كلمات غاضبة:

– يكفي أن أقول إن صنفاً من أصناف الطعام لا تحتمله معدتي حتى أراه في اليوم التالي على المائدة!

فقالت أمي تجيبه وجلى:

– ماذا تريد يا أندريه بتروفتش؟ لا يستطيع المرء أن يخترع في كل يوم لونا جديداً.

– إن أمك على نقيض بعض صحفنا التي ترى في كل جديد شيئاً حسناً.

Twitter: @ketab_n

لقد أراد فرسيلوف أن يمزح، أن يقول شيئاً فيه مرح وصداقة، ولكنه لم يفلح، بل لم يزد على أن أرعب أمي مزيداً من الرعب، وهي لم تفهم شيئاً من تلك المقارنة بينها وبين الصحف طبعاً، ومضت ترسل نظرات مرتبكة هنا وهناك. وفي تلك اللحظة دخلت تاتيانا بافلوفنا، وأعلنت أنها قد تغدت، وجلست على الديوان قريبة من أمي.

لم أكن قد أفلحت بعد في الحصول على حظوة هذه الإنسانة. على العكس، لقد كان تهجمها عليَّ يزداد بمناسبة، وبغير مناسبة. وكان استياؤها قد اشتد في الآونة الأخيرة: فهي لا تستطيع أن ترى ثيابي الأنيقة، وقد روت لي ليزا عنها أنها كادت تصاب بنوبة عصبية حين علمت بأن لي حوذياً تحت إمرتي. وقد أصبحت في النهاية أتحاشاها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. أذكر أنني منذ شهرين، حين رفض فرسيلوف الميراث هرعت إلى بيتها أحدثها عن سلوكه، ولكنني لم أحظ منها بأي عطف على هذا السلوك، حتى لقد استاءت استياء رهيباً. لقد أسخطها أشد الإسخاط أن فرسيلوف رد الميراث كله بدلاً من أن يرد نصفه، ووجهت إليَّ أنا ملاحظة لاذعة فقالت:

– أراهن أنك على ثقة بأنه رد الميراث ودعا الآخر إلى المبارزة لا لشيء إلا أن يعلو قدره واعتباره في نظر آركادي ماكاروفتش.

كادت تحزر! فلقد كنت أحس بشعور من هذا النوع حينذاك.

وما إن دخلتْ حتى أدركتُ فوراً أنها ستهجم عليَّ حتماً، بل كنت مقتنعاً أنها ما جاءت إلا لهذا الغرض. لذلك بادرت إلى اصطناع لهجة طلقة جداً، ولم يكلفني هذا جهداً كبيراً، لأنني كنت لا أزال متحمساً مفعم النفس فرحاً. يجب أن أشير مرة واحدة وإلى الأبد إلى أن هذه اللهجة الطلقة كانت لا تناسبني أبداً، ولا توافق سحنتي إطلاقاً، وأنها كانت دائماً تجللني بالخزي، وذلك ما حدث، فسرعان ما وجدت

Twitter: @ketab_n

نفسي منقاداً للكذب، ذلك أنني - بدون أية عاطفة سيئة، بل بدافع الخفة وحدها - حين لاحظت أن ليزا حزينة حزناً شديداً، أفلت من لساني على حين فجأة، دون أن أفكر فيما أقوله، أفلت من لساني قولي:

- منذ مدة طويلة لم آكل هنا، ثم هاأنت ذي عابسة الوجه، متجهمة الهيئة يا ليزا، كأنك اخترتِ هذا اليوم قصداً عمداً!

فأجابتني ليزا تقول:

- أعاني من صداع.

ثم إذا بتاتيانا بافلوفنا تهجم هجمتها قائلة:

- آه! يا إلهي! ما قيمة أن تكوني مريضة؟ لقد تفضل آركادي ماكاروفتش فجاء إلى هنا ليتغدى: فيجب عليك أن ترقصي وأن تبتهجي!

فانبريت أقول:

- إنك بلية حياتي حقاً يا تاتيانا بافلوفنا! لن أجيء بعد اليوم أبداً متى كنت هنا!

قلت ذلك وخبطت المائدة براحة يدي في غضب صادق. فانتفضت أمي، وألقى عليَّ فرسيلوف نظرة غريبة. وانفجرت أنا أضحك واستغفر. قلت ملتفتاً إلى تاتيانا بافلوفنا، بلهجة ما تزال طلقة:

- إنني أسحب كلمة «البلية» يا تاتيانا بافلوفنا.

فأجابت تقول جازمة:

- لا، لا، ثق أنك تمدحني مدحاً عظيماً حين تصفني بأنني بلية حياتك، ولا تصفني بنقيض ذلك!

جمجم فرسيلوف مبتسماً:

- يا عزيزي، يجب على الإنسان أن يعرف كيف يتحمل البلايا

Twitter: @ketab_n

الصغيرة في هذه الحياة. ولا جمال للحياة بغير بلايا!

فصحت أقول وأنا أضحك ضحكاً عصبياً:

- إنك في بعض الأحيان رجعي رهيب!

- يا صديقي، هذا لا يهمني!

- لا، هذا مهم! إنك مسرف في التهذيب، لماذا لا تقول للحمار بكل صراحة إنه حمار؟

- أنفسك تعني؟ أنا أولاً لا أريد ولا أستطيع أن أحكم على أحد!

- لماذا لا تريد؟ لماذا لا تستطيع؟

- كسلاً واشمئزازاً. قالت لي امرأة ذكية يوماً: ليس من حقي أن أحكم على الآخرين، «لأنني لا أجيد الألم»، ومن أجل أن ينصب المرء نفسه حاكماً وقاضياً، يجب عليه أن يكتسب حق الحكم بما يقاسي من آلام. صحيح أن هذا الرأي يشتمل على غلو وتفخيم، ولكن لعله يصدق في تطبيقه عليَّ، وقد ارتضيت أن أصدقه وأن أتقيد به.

هتفت أسأله:

- هل يمكن أن تكون تاتيانا بافلوفنا هي التي قالت لك هذا الرأي؟

فقال فرسيلوف وهو يرشقني بنظرة دهشة:

- كيف حزرت؟

- من النظر في وجهها، فقد ارتعش فجأة.

الحق أنني لم أحزر إلا مصادفة. وقد علمت فيما بعد أن هذه الجملة إنما قالتها تاتيانا بافلوفنا لفرسيلوف بالأمس أثناء مناقشة حامية. أكرر من جديد أنني جئت إليهم منطلق النفس مفعم القلب فرحاً في غير الأوان المناسب: فقد كان لكل منهم هم ثقيل جاثم على صدره.

قلت:

- إنني لا أفهم شيئاً، لأن هذا الكلام كله مجرد جداً. ميزتك أنك

Twitter: @ketab_n

تحب الكلام في أمور مجردة يا أندريه بتروفتش. وهذه سمة من سمات الأنانية. فالأنانيون وحدهم يحبون أن يتكلموا في الأمور المجردة!

قال:

- عبارة جميلة! ولكن دعني ولا تلح.

فتابعت كلامي منطلقاً أقول بحرارة:

- بل اسمع لي! ما معنى قولك «أن يكتسب حق الحكم بما يقاسي من آلام؟» كل إنسان شريف فهو قاض. ذلك رأيي أنا.

- لن تقع إذن على عدد كبير من القضاة.

- أعرف واحداً.

- من هو؟

- إنه هنا يتحدث معي!

فابتسم فرسيلوف ابتسامة غريبة، ومال على إذني بجسمه كله، وأمسك كتفي، وهمس يقول لي: «إنه يكذب عليك».

لا أستطيع حتى اليوم أن أفهم ماذا أراد أن يقول، ولكن لا شك أنه كان في تلك اللحظة مضطرباً اضطراباً شديداً (عقب علمه بنبأ من الأنباء كما أدركت ذلك فيما بعد)، ولكن هذه الجملة المباغتة «إنه يكذب عليك» قد قيلت بلهجة تبلغ من الجد وهيئة تبلغ من الغرابة والبعد عن المزاح، أنني رأيتني أرتعش ارتعاشا عصبياً، حتى لكأنني مرتاع، وألقيت عليه نظرة متوحشة. ولكن فرسيلوف أسرع يضحك.

قالت أمي بعد أن خافت حين رأته يهمس في إذني:

- الحمد لله! لقد ظننت أن.. لا تزعل منا يا عزيزي آركادي. الأذكياء في هذا العالم يستغنون عني أنا وعنك أنت، ولكن من عسى يحبك كما نحبك بعد أن نرحل عن هذه الحياة؟

- لهذا السبب أرى يا ماما أن حب الأبوين مناف للأخلاق، فهو

Twitter: @ketab_n

حب لا يحظى به المرء عن جدارة واستحقاق. في حين ينبغي أن يكون الحب مستحقاً.

- ستستحقه فيما بعد، أما نحن فنحبك من دون سبب.

فإذا الجميع يضحكون. فهتفت أقول ضاحكاً كذلك:

- لعلك يا ماما لم تقصدي أن تسددي إلى هدف معين، ولكن أصبت قلب هذا الهدف.

وانبرت تاتيانا بافلوفنا تهجم عليَّ من جديد فقالت:

- أتراك كنت تظن أن هناك أسباباً تدعو إلى حبك؟ إنهم يحبونك من دون سبب يدعو إلى حبك، بل قل إنهم يحبونك من خلال الاشمئزاز منك!

فهتفت أقول مرحاً:

- آه... لا!.. أتعرفين من قال لي اليوم إنه يحبني؟

فأسرعت تاتيانا بافلوفنا تقول بحنق غير مألوف، فكأنها قد توقعت مني تلك الجملة نفسها:

- إذا قال لك أحد إنه يحبك، فإنما قال ذلك ليسخر منك. لا بد لإنسان مرهف الشعور، ولا بد لامرأة بخاصة أن تشمئز من نفسك السوداء. إن لك فرقاً في شعر رأسك، وإنك تلبس قمصياً ناعماً، وترتدي ثياباً يخيطها لك خياط فرنسي، ولكن ذلك كله ليس إلا وحلاً! من ألبسك؟ من يطعمك؟ من يعطيك مالاً لتقامر في الروليت؟ تذكَّرْ مَنْ الذي لا تستحي أن تطلب منه هذا المال!

تخضبت أمي بحمرة شديدة. لم أر في حياتي خجلاً كهذا الخجل يجلل وجهها. فثار حنقي وقلت محمر الوجه بلهجة قاطعة:

- إذا كنت أنفق فإنما أنفق مالي، وليس عليَّ حساب أؤديه لأحد!

- مالك؟ مالك أنت؟ كيف؟

Twitter: @ketab_n

- إذا لم يكن مالي فهو مال أندريه بتروفتش الذي لا يمنعه عني. آخذه من الأمير سداداً لدين أندريه بتروفتش عليه. . .

فقال فرسيلوف فجأة بلهجة جازمة:

- يا صديقي، ليس لي عنده كوبيكاً واحداً.

كانت الجملة ذات مغزى رهيب. فتوقفت عن الكلام فوراً. آه! لا شك أنني كان في وسعي، وأنا أتذكر الحالة النفسية المشوشة الطائشة التي كنت عليها حينذاك أن أخرج من الحرج باندفاعة «نبيلة» او بكلمة ذات تأثير أو بأية حيلة أخرى. ولكنني لاحظت فجأة في وجه ليزا المكفهر تعبيراً شريراً فيه اتهام وظلم ويكاد يشتمل على سخرية، فإذا بشيطان يدفعني فأقول لها وأنا ألتفت إليها:

- يبدو لي يا آنسة أنك تزورين كثيراً داريا أونيسيموفنا في بيت الأمير. أليس كذلك؟ فهل تتكرمين وتتفضلين أن تعطي الأمير هذه الثلاثمائة روبل التي أنبتموني عليها هذا التأنيب كله؟

وسللت المال من جيبي ومددته إليها. هل يصدق أحد أن هذه الكلمات الشريرة قد قيلت بغير أي قصد، أعني أنها كانت خالية من أي تلميح إلى أي أمر؟ بل كان لا يمكن أن تشتمل على أي تلميح، لأنني كنت في تلك اللحظة لا أعرف شيئاً البتة. ولعل كل ما أردت أن أفعله هو أن أخزها وخزة بريئة، وكأن أقول مثلاً: يا آنسة تتدخل فيما لا يعنيها، هلا رضيت - ما دمت تحرصين على أن تحشري أنفك في كل مكان - أن تذهبي إلى هذا الأمير، إلى هذا الشاب، إلى هذا الضابط البطرسبرجي، فتنقلي إليه هذا المال «ما دمت تحبين كثيراً أن تتدخلي في شؤون الشباب». ولكن ما كان أشد انشداهي وما كان أعظم ذهولي حين رأيت أمي تنهض بحركة سريعة مفاجئة، وترفع إصبعها مهددة إياي، وتصرخ قائلة لي:

Twitter: @ketab_n

- اخرس! لا تتجاسر!

ما كان في وسعي أن أتوقع منها شيئاً من هذا القبيل، فإذا أنا أنتفض، لا من ذعر، بل من ألم، من جرح في القلب نازف موجع، لأنني أدركت فجأة أنه قد وقع شيء فظيع رهيب. ولكن ماما لم تصمد طويلاً، فدفنت وجهها في يديها وخرجت من الغرفة مسرعة، وتبعتها ليزا دون أن تنظر إلى الجهة التي كنت فيها؛ وتأملتني تاتيانا بافلوفنا في صمت نصف دقيقة، ثم هتفت تقول ملغزة وهي تنظر إليَّ مدهوشة:

- هل يُعقل أنك أردت أن تقول كلاماً قذراً؟

وبدون أن تنتظر مني جواباً، خرجت مسرعة هي أيضاً. ونهض فرسيلوف عن المائدة وفي وجهه تعبير عن عداوة تكاد تكون شريرة، وتناول قبعته من ركن في الغرفة، وجمجم يقول مستهزئا:

- كنت أقدِّر أن لا تكون غبياً هذا الغباء كله. . . وإنما أن تكون بريئا لا أكثر. إذا رجعن فقل لهن أن لا ينتظرنني لتناول الحلوى، فسأقوم بجولة.

بقيت وحدي. ووجدت الأمر في البداية غريباً، ثم وجدته مهيناً جارحاً، ورأيت في النهاية أنني على خطأ. ولكنني لم أدرك ما خطئي، وإنما كنت أحس إحساساً بأن خطأ قد صدر عني. وجلست أمام النافذة أنتظر.

وبعد عشر دقائق تناولت قبعتي أنا أيضاً، وصعدت إلى غرفتي القديمة التي تقع تحت السقف. كنت أعلم أنهما هناك، أعني أمي وليزا، وأن تاتيانا بافلوفنا قد انصرفت. وقد وجدتهما في غرفتي فعلاً، جالستين على ديواني تتهامسان. فما أن رأتاني حتى انقطع تهامسهما. وما كان أكبر دهشتي حين لم تظهرا لي غضباً! إن ماما على الأقل قد طالعتني بابتسامة.

Twitter: @ketab_n

أردت أن أتكلم فقلت:

- اغفري لي يا ماما. . .

ولكن ماما قاطعتني قائلة:

- هيا هيا! لا قيمة لهذا. . . ولكن فليحب كل منكما الآخر، ولا تتشاجرا أبداً. فيمنّ الله عليكما بالسعادة.

فقالت ليزا بعاطفة واقتناع:

- هو يا ماما لن يسيء إليَّ يوماً. ثقي بأقوالي!

وهتفت أقول:

- لولا تاتيانا بافلوفنا هذه لما حدث شيء من هذا كله. إنسانة مسيئة.

قالت ليزا وهي تشير إليَّ:

- أرأيت يا ماما؟ أسمعت؟

وصحت أقول:

- وإليكما ما أحب أن أعلنه لكما كلتيكما: إذا كان ثمة في الدنيا حقير فهو أنا، ولولاي لكان كل شيء بهيجاً.

- لا تزعل يا عزيزي آركادي ، ولكن ليتك تكف عن. . .

- عن القمار؟ عن القمار؟ سأكف يا ماما. سأقامر اليوم آخر مرة، ولا سيما بعد الذي أعلنه أندريه بتروفتش صراحة منذ هنيهة إذ قال إنه ليس له على أحد هناك كوبيك واحد. لا تستطعين أن تتصوري مدى ما أشعر به من خجل. . . ولكن عليّ أن أتحدث معه. . . ماما العزيزة، لقد قلت هنا في آخر مرة كلمة خرقاء. . . كذبت يا ماما العزيزة: الحق أنني أريد صادقاً أن أؤمن. كان ذلك مني تبجحاً لا أكثر. فأنا أحب المسيح حباً عظيماً. . .

كنا في المرة السابقة قد جرى بيننا حديث من هذا النوع فعلاً. وقد

Twitter: @ketab_n

تألمت أمي كثيراً وارتاعت كثيراً. فلما سمعت ما قلته الآن ابتسمت لي كما يبتسم المرء لطفل، وقالت:

- إن المسيح يا عزيزي آركادي سيغفر كل شيء: سيغفر تجديفاتك وما هو أسوأ منها أيضاً. المسيح أب، المسيح ليس في حاجة إلى شيء، وسيظل يتلألأ حتى في أعمق الظلمات...

ودعتهما وخرجت مفكراً في احتمالات لقائي فرسيلوف في هذا اليوم. هناك أشياء كثيرة يجب أن أحادثه فيها، وقد استحال ذلك منذ قليل. وقدّرت أنه لا بد أن يكون الآن في بيتي ينتظرني. فذهبتُ إلى بيتي ماشياً. بعد الدفء جاء الصقيع الخفيف فالمشي يحلو في مثل هذا الجو البارد.

- 2 -

كنت أقيم بقرب جسر «الصعود» في عمارة كبيرة[75]، وكان مسكني يطل على فناء العمارة، فما إن دخلت بوابة العمارة حتى رأيتني أصطدم بفرسيلوف الذي كان خارجاً من عندي، وقال:

- على عادتي، كنت أتنزه ماشياً فوصلت إلى مسكنك، حتى لقد انتظرتك عند بيتر ايبوليتوفتش، ولكنني ضجرت في النهاية. إنهما، هو وزوجته لا يكفان عن التشاجر. بل إن زوجته مستلقية الآن في فراشها تبكي. ألقيت نظرة ثم انصرفت.

شعرت بشي من الاستياء لا أدري لماذا. وقلت:

- أظن أنني الشخص الوحيد الذي تزوره، فكأنك لا تعرف أحداً في بطرسبرج إلا أنا وبيتر ايبوليتوفتش.

- سيان لديَّ يا صديقي.

- فأين تذهب الآن؟

Twitter: @ketab_n

- لا، لن أصعد إليك ثانية، فإذا شئت تنزهنا ماشيين، فالأمسية رائعة.

قلت فجأة:

- لو أنك، بدلاً من الاسترسال في تأملات مجردة، قد تحدثت معي، لو أنك - مثلا - قلت كلمة تلميحاً إلى القمار اللعين، فلعلني ما كنت لأنجرف ذلك الانجراف كما يفعل أبله معتوه.

فقال وهو يزن كلامه:

- أأنت نادم؟ هذا حسن. لقد قدرت دائماً أن انغماسك في القمار ليس أصلاً فيك، وإنما هو انحراف عابر..! إنك على حق يا صديقي، فالقمار من الموبقات، ناهيك عن أن المرء قد يخسر كل ما له من المال.

- وقد يخسر مال غيره أيضاً.

- هل خسرت مال غيرك؟

- خسرت مالك أنت. كنت أقترض من الأمير على حساب دينك عليه. ولا شك أنه سخف وحماقة رهيبة مني أن أعد مالك مالي، ولكنني كنت أريد دائماً أن ألعب لأسترد الخسارة.

- أنبهك مرة أخرى يا عزيزي إلى أن الأمير ليس عليه لي دين. أنا أعرف أن هذا الشاب يعاني هو نفسه ضيقاً شديداً، وأرى أنه ليس مديناً لي بشيء رغم وعوده.

- إذا صح هذا كانت حالي سيئة سوءاً مضاعفاً... بل هي حال تدعو إلى الضحك. فما صفتي الآن حتى يعطيني وآخذ منه؟

- هذا شأنك أنت... ولكن قل لي بصراحة: أليس هناك أي سبب خاص يبيح لك الاقتراض منه، هه؟

- لا شيء إلا كوننا رفيقين...

Twitter: @ketab_n

- لا شيء إلا كونكما رفيقين؟ أليس هناك أي سبب آخر يسوّغ لك أن تقترض منه، هه؟ أليس هناك اعتبارات معينة مثلاً؟

- ما عسى يكون هنالك من اعتبارات؟ لست أفهم!

- هذا أفضل. الأفضل أن لا تفهم! أعترف لك يا صديقي بأنني كنت على يقين من هذا. «لِنَقف عند هذا الحدّ يا عزيزي» (بالفرنسية) وحاول أن تكف عن القمار مع ذلك.

- ليتك أسديت لي هذه النصيحة من قبل! بل إنك حتى في هذه اللحظة تسديها إليَّ بلهجة تخلو من كل حرارة.

- لو نصحتك قبل الآن لما زدنا على أن نختصم، ولما سرّك كثيراً أن تستقبلني في بيتك مساء. اعلم يا عزيزي أن جميع هذه النصائح التي تستهدف نفع الآخرين ليست إلا تدخلاً في شؤونهم وضميرهم. ولطالما تدخلت هذا التدخل فما جنيت منه إلا المنغصات والسخريات. وهبني لم أعبأ بالمنغصات والسخريات، فإن الشيء الهام هو أن هذا التدخل لا يثمر أبداً، فما من أحد يستمع لك مهما كانت محاولاتك، ويأخذ الناس يكرهونك.

- يسعدني أنك بدأت تكلمني في غير الأمور المجردة. هناك شيء آخر أريد أن أسألك عنه منذ مدة طويلة ولكنني لم أستطع ذلك حتى الآن. جيد جداً أننا نمشي الآن في الشارع. هل تتذكر ذلك المساء الذي كنا فيه، في «تابوتي»، في بيتكم، منذ شهرين، فسألتك عن ماما وعن ماكار إيفانوفتش؟ هل تتذكر كيف استرسلت في الكلام منطلقاً «بغير تحرج»؟ فهل كان معقولاً أن أبحثَ لابنك الغرّ بأن يخوض في الكلام عن أمه بهذه الألفاظ؟ ولكنك لم تصدر عنك كلمة اعتراض واحدة! حتى لقد «حللت أزرارك».أنت نفسك، فشجعتني على المزيد.

- يا صديقي، يسعدني أن أسمعك تفصح عن... مثل هذه

Twitter: @ketab_n

المشاعر. . . نعم، أتذكر ذلك جيداً. . . لقد كنت أتوقع في تلك اللحظة فعلاً أن أرى حمرة في وجهك، ولئن أرخيت لك العنان، فلعلني إنما فعلت ذلك لأجعلك تبلغ آخر الحدود. . .

– فلم تزد إذن على أن خدعتني، وعكرت النبع الصافي الذي كان في نفسي مزيداً من التعكير! نعم، ما أنا إلا مراهق شقي، وإني لأجهل في كل لحظة ما هو خير وما هو شر. فلو أريتني الدرب ولو قليلاً لفهمت ولسرت في الطريق القويمة فوراً. ولكنك لم تزد على أن أثرت حنقي.

– أيها الابن العزيز، لقد أوجست دائماً أننا سنتفق على كل حال في يوم في الأيام حتما: فهذه «الحمرة» في وجهك قد ظهرت الآن من تلقاء نفسها بدون أن أدلك على شيء، وأحلف أن هذا خير لك. . . إنني ألاحظ يا عزيزي أنك قد تحسنت كثيراً في هذه الآونة الأخيرة. . . أيكون الفضل في هذا لصحبة ذلك الأمير الشاب؟

– لا تمدحني، فإنني لا أحب هذا. لا تخلق في قلبي هذا الاشتباه الأليم وهو أنك إنما تمدحني نفاقاً ورياءً على حساب الحقيقة حتى لا أكف عن الإعجاب بك. أما في هذه الآونة الأخيرة. . . فقد ترددت على نساء. هل تعلم أن آنا آندرييفنا مثلا تحسن استقبالي في بيتها وتكرم وفادتي؟

– أعرف ذلك منها نفسها يا صديقي. نعم، إنها لطيفة وذكية. «لنَقِفَ عند هذا الحد يا عزيزي» (بالفرنسية في الأصل)، حالتي اليوم سيئة سوءاً يبلغ حدود الغرابة. ألعله السأم؟ إنني أنسب هذا إلى البواسير. ما أخبار البيت؟ لا شيء؟ تصالحتم وتعانقتم طبعا، هه؟ هذا ما جرى قطعاً أنه أمر محزن أحياناً أن يضطر المرء إلى العودة إليهما حتى بعد جولة مزعجة. وأحيانا يتفق لي أن أطيل الطريق تحت المطر المنهمر حتى أؤخر لحظة

Twitter: @ketab_n

العودة إلى هذا الجحر. . . ما أشده سأماً يا رب! ما أشده سأماً! . .

- أمي . . .

- أمك أكمل مخلوقات الله وأعذبها، «ولكن». . . الخلاصة: يظهر أنني لا أساويهما قيمة. بالمناسبة: ما بالهما اليوم؟ إن هيئتهما في هذه الأيام الأخيرة على. . . ماذا أقول؟ إنني أحاول دائماً أن أجهل، ولكن لا بد أن هناك أمراً. . . ألم تعلم شيئاً؟

- لا أعلم شيئاً البتة، بل ما كان لي أن ألاحظ شيئاً لولا هذه اللعينة تاتيانا بافلوفنا التي لا تستطيع أن تمتنع عن العض. إنك على حق: لا بد أن هناك أمراً. لقد وجدت ليزا عند آنا آندرييفنا، وكانت. . . حتى لقد أدهشتني حالها. أظن أنك تعلم أن آنا آندرييفنا تستقبلها؟

- أعلم يا صديقي. وأنت. . . متى كنت عند آنا آندرييفنا؟ في أية ساعة على وجه الدقة؟ إنني في حاجة إلى معرفة هذا بسبب واقعة ما.

- بين الساعة الثانية والساعة الثالثة. وتصور أنني حين خرجت رأيت الأمير داخلاً. . .

وحكيت له زيارتي من أولها إلى آخرها تفصيلاً. فأصغى إلى كلامي دون أن يقول كلمة واحدة. ولم يعقب بشيء على احتمال زواج الأمير بآنا آندرييفنا. وحين كلت المديح لآنا آندرييفنا متحمساً تحمساً شديداً عاد يجمجم مرة أخرى «إنها لطيفة». وقلت فجأة كأنما أفلتت مني الجملة إفلاتاً:

- لقد أدهشتها اليوم إدهاشا هائلاً حين نقلت إليها ذلك النبأ الجديد كل الجدة من أنباء المجتمع الراقي. وهو أن كاترين نيقولايفنا أخماكوفا ستتزوج البارون بيرونج.

- أدهشتها؟ تصور أنها أبلغتني هذا النبأ «الجديد» هي نفسها في هذا الصباح قبل الظهر، أي قبل أن تدهشها أنت ذلك الإدهاش الهائل.

- ما هذا الذي تقول؟

Twitter: @ketab_n

وتسمرت في مكاني، واستطردت أتكلم فقلت:

- من أين يمكنها أن تعرفه؟ ولكن ما هذا الذي أقوله أنا؟ أنه لأمر محقق أنها استطاعت أن تعرف النبأ قبلي، ولكن أتصور أنها أصغت إلى كلامي إصغاءها إلى نبأ جديد كل الجدة! ولكن. . . ولكن ما هذا الذي أقوله أنا؟. . عاشت رحابة الصدر! يجب على المرء أن يقبل جميع الطباع بجميع خصائصها، أليس كذلك؟ فأنا مثلاً إذا علمت بنبأ من الأنباء طفقت أذيعه فوراً، أما هي فإنها تحكم إغلاق علبة تبغها على كل ما تعرف. . .حسن، حسن! إنها مع ذلك ألطف المخلوقات، وإن طبعها أروع الطباع!

- لكل إنسان خلقه طبعاً! ولكن الشيء الفريد هو أن هذه الطباع الرائعة تمتاز أحياناً بأنها تلقي عليك ألغازاً غريبة. تصور أن آنا آندرييفنا قد رشقتني اليوم بهذا السؤال من غير لف ولا دوران: «أتحب كاترين نيقولايفنا آخماكوفا أم لا؟»

هتفت أقول مشدوهاً مرة أخرى:

- يا للسؤال العجيب السخيف!

واسودَّت الدنيا في عيني لحظة. إنني لم أبحث معه هذا الأمر في يوم من الأيام، وها هو ذا الآن، من تلقاء نفسه. . .

- وكيف شرحت سؤالها؟

- لم تشرحه إطلاقا يا صديقي. . . وإنما عادت علبة التبغ تُغلق بإحكام أشد. والأمر الأهم الذي يجب أن تأخذه بالحسبان هو أنني لم أقبل في يوم من الأيام حتى احتمال إجراء أحاديث من هذا القبيل معي. . . ولا هي قبلت ذلك أبداً من قبل. ولكنك تقول إنك تعرفها، ففي وسعك إذن أن تتخيل أن مثل هذا السؤال لا يناسبها أبداً. . . أتراك تعرف شيئاً؟

Twitter: @ketab_n

- إن صدور هذا السؤال عنها لغز في نظري كما هو لغز في نظرك. لعله فضول، لعله مزاح؟

- أه! بالعكس. لقد كان في السؤال جد كثير. حتى أنه لم يكن سؤالاً بل ما يشبه استجواباً، ولا شك إنها ألقته مدفوعة بأسباب خارقة قاطعة. سوف تراها، أليس كذلك؟ فهل تستطيع أن تعرف منها شيئاً؟ بل إنني أطلب منك هذا طلباً، لأن الأمر، كما ترى...

- ولكن الأمر الأهم هو إمكان افتراض أنك تحب كاترين نيقولايفنا! معذرة: إنني لا اعرف كيف أخرج من هذه الحيرة وهذا الذهول. أنا لم أبح لنفسي في يوم من الأيام أبداً أن أكلمك في هذا الموضوع ولا في أي موضوع من هذا النوع..

- ولقد تصرفت تصرفاً حكيماً يا عزيزي!

- إن مغامراتك القديمة لا يليق أن تكون موضوع حديث بيننا طبعاً. ولو كلمتك عنها لكان ذلك مني حماقة. ولكنني في هذه الآونة الأخيرة، في هذه الأيام الأخيرة، قد هتفت مراراً متسائلاً بيني وبين نفسي: هل أحب هذه المرأة في يوم من الأيام ولو لحظة واحدة؟ آه! لو أنه فعل لما اقترف في حقها خطأ يبلغ ذلك المبلغ من الهول الذي بلغه خطؤك بعد ذلك. إنني أعرف ما وقع: أعرف عداوتكما المتبادلة وما يشعر به كل منكما نحو الآخر من نفور وكره إن صح التعبير. لقد سمعت عن هذا، سمعت عنه كثيراً منذ كنت في موسكو؛ وما يبرز واضحاً للعيان هنا في المقام الأول هو أن ثمة كرهاً شديداً وعداوة ضارية وانعدام الحب. فكيف تسألك آنا أندريفنا فجأة: هل أنت تحب كاترين نيقولايفنا؟ أيعقل أنها غير مطلعة إلى هذه الدرجة؟ سخافات! لا بد أنها أرادت أن تضحك!

قال فرسيلوف بصوت لاحظت فيه فجأة شيئاً من عصبية واضطراب

Twitter: @ketab_n

عميق ينفذان إلى القلب، وهذا ما لا يحدث له إلا نادراً:

- لكنني ألاحظ يا عزيزي أنك تتكلم أنت نفسك عن كاترين نيقولايفنا بحرارة شديدة. لقد قلت منذ لحظة أنك تتردد إلى نساء. . . وإنني لأشعر بحَرَج طبعاً إذا أنا سألتك عن أمور كهذه. . . ولكن أليست «هذه المرأة» في عداد صديقاتك الجديدات؟

اختلج صوتي فجأة وقلت:

- هذه المرأة. . . إسمع يا أندريه بتروفتش، اسمع: إن هذه المرأة هي ما وصفتَه منذ حين عند الأمير بأنه «الحياة الحية»، هل تتذكر هذا الذي قلته؟ ولقد شرحت كلامك عندئذ بأن هذه الحياة الحية شيء يبلغ من الصراحة والوضوح والبساطة وينظر إليك نظرة تبلغ من الاستقامة أنك بسبب هذه الاستقامة وبسبب هذا الوضوح وهذا الجلاء إنما يستحيل عليك أن تصدق أنه هو ما ظللنا نبحث عنه طوال حياتنا بكثير من المشقة والعناء. . وبهذه النظرة نظرت إلى تلك المرأة المثالية، فوجدتَ في الكمال وفي المثل الأعلى «جميع العيوب»! ذلك هو رأيي!

يستطيع القارئ أن يتصور مدى ما وصلت إليه من خروجي عن طوري!

صاح فرسيلوف يقول:

- «جميع العيوب!» أوه! هذه كلمة أعرفها. إذا كانت العلاقة بينكما قد بلغت من الدرجة أنها ذكرت لك تلك العبارة، فربما كان يحسن بي أن أهنئك، أليس كذلك؟ إن هذا يفترض أن بينكما صلة تبلغ من الصميمية أنه يجب عليَّ أن أحمد لك تواضعك وتكتمك اللذين لا يقدر عليهما كثير من الشبان. . .

كان في صوته رنين من ضحك لطيف، ضحك مودة، ضحك ملاطفة. . . وكان شيء من كياسة ومن إغاظة في أقواله وفي وجهه

Twitter: @ketab_n

المتألق، إذا صدق ما لمحته في الظلام. كان في حالة اهتياج شديد. وأشرقت نفسي رغم إرادتي.

هتفت أقول محمر الوجه وأنا أشد في الوقت نفسه على يده التي كنت قد تناولتها ثم لم أتركها بدون أن أشعر:

- تواضع! تكتم! لا، لا تواضع ولا تكتمّ. الخلاصة: ليس ثمة ما يدعو إلى تهنئتي، ولن يحدث شيء من هذا أبداً، أبداً.

كنت أختنق اختناقاً، وأطير طيراناً. كانت تملؤني رغبة قوية في أن أطير، إن في الطيران فتنة عظيمة! واستطردت أقول:

- وهب شيئاً من ذلك حدث في يوم من الأيام، ولو مرة واحدة، فإن رأيي يا بابا العزيز اللطيف، اسمح لي بأن أناديك بابا، رأيي أنه من غير الجائز لأي إنسان، لا لابن وأبيه فحسب، أن يتحدث إلى شخص آخر عن علاقاته بامرأة، مهما تكن هذه العلاقات طاهرة نقية! بل كلما كانت هذه العلاقات أطهر وأنقى كان كتمانها أوجب وألزم. إن الحديث في هذه الأمور يثير الاشمئزاز، وينافي الكياسة. الخلاصة: ليس في هذا المجال نجيّ يفضي إليه المرء بأسراره! فكيف إذا لم يكن ثمة شيء البتة؟ هل يجوز الكلام في هذه الحالة؟ هل يجوز؟

- إلا إذا اشتهى المرء أن يتكلّم. . .

- سؤال محتشم، محتشم جداً: إنك قد عرفت في حياتك نساءً، وكانت لك بهن علاقات. . . أليس كذلك؟ إنني ألقي عليك هذا السؤال عاماً. . عاماً. . لا خاصاً!

احمر وجهي وكنت أختنق حماسة. قال:

- لنفرض أنه كانت هناك خطايا وأنني عرفت نساء، فماذا تطلب مني؟ وما هو سؤالك؟ .

- إليك حالة أريد أن تفسرها لي، ما دامت تجربتك أكبر: هذه امرأة

Twitter: @ketab_n

تقول لك وهي تودعك، تقول لك فجأة، بغير مقدمات، وهي تنظر إلى جانب: «سأكون في الساعة الثالثة من الغد في مكان كذا. . .» عند تاتيانا بافلوفنا مثلا. . .

ها قد اندفعت إلى النهاية. كان قلبي يخفق، بل لقد كف قلبي عن الخفقان. بل لم أستطع أن أواصل كلامي، فأمسكت لحظة عن الكلام. وكان هو يصغي بانتباه شديد. فاستطردت أقول:

- وفي الساعة الثالثة من الغد، كنت عند تاتيانا بافلوفنا. دخلت. وكنت أفكر على النحو التالي: «ستفتح لي الطباخة هل تعرف طباختها؟ فأسألها فوراً: هل تاتيانا بافلوفنا هنا؟ فإذا أجابتني بأنها ليست هنا، وبأن سيدة تنتظرها» فما الذي يجب أن أستخلصه من هذا؟ قل لي إذا كنت. . . أقصد إذا كنت. . .

- يجب أن تستخلص من هذا أن موعداً قد ضرب لك ولكن هل حدث هذا؟ وهل حدث اليوم؟ نعم؟

- أوه! لا، لا، لا! أبداً! أبداً! لقد حدث، ولكنه لم يحدث على هذه الصورة! هو موعد، ولكن لا لهذا الأمر. أعلن ذلك قبل كل شيء، حتى لا أكون رجلاً غير شريف. لقد حدث، ولكن. . .

- يا صديقي، هذا كله أخذ يثير فضولي إلى درجة أنني أقترح عليك أن. . .

- كنت في الماضي أتصدق بذهب على كل سائل. . . مضى ذلك الزمان، بضعة كوبيكات فقط لأشرب مغرفة خمرة! إن ضابطاً سابقاً هو الذي يستجديك بضعة كوبيكات، ضابط برتبة نقيب!

إن قامة طويلة هي قامة شحاذ لعله ضابط محال على التقاعد فعلاً قد سدَّت طريقنا فجأة. وكان أعجب ما في أمره أن هندامه أحسن كثيراً من أن يكون هندام شحاذ. ولكن ذلك لم يمنعه من مدِّ يده مستعطياً.

Twitter: @ketab_n

- 3 -

إذا كنت أذكر واقعة لهذا الضابط الشّقي فإنني أفعل ذلك عامداً، لأن فرسيلوف إنما يعرض لذاكرتي الآن دائماً محاطاً بجميع تفاصيل هذه الواقعة، حتى التفاصيل الدقيقة منها، وهي واقعة كانت له حاسمة مشؤومة، ولكنني لم أكن أعرف أنها كذلك.

رفع فرسيلوف صوته عالياً غير طبيعي على حين فجأة، وقال يخاطب الضابط وهو يقف أمامه:

- دعنا يا سيد، وإلا ناديتُ الشرطة فوراً!

ما كان لي أن أتوقع غضباً كهذا الغضب، من فيلسوف كهذا الفيلسوف. لسبب تافه هذه التفاهة. ولاحظوا قطعنا حديثنا عندئذ في نقطة هي أكثر النقاط إثارة لاهتمامه واجتذاباً لانتباهه، كما قال ذلك هو نفسه منذ هنيهة.

فصرخ الضابط يقول بفظاظة وهو يحرك يده:

- أليس معك خمسة عشر كوبيكاً؟ أي وغد يملك خمسة عشر كوبيكاً في هذه الأيام! وغد! سافل! يرتدي فاخر الثياب، ثم هو يجعل الخمسة عشر كوبيكاً قضية كبيرة من قضايا الدولة!

فصاح فرسيلوف منادياً:

- يا شرطي!

ولكن الأمر لم يتطلب نداءه إذ كان الشرطي يقف هناك، في ناصية الشارع، وكان قد سمع شتائم الضابط، فقال له فرسيلوف:

- أرجو أن تكون شاهداً على الشتم! أما أنت فتعال معنا إلى المخفر!

فقال الضابط:

Twitter: @ketab_n

- هأ هأ! يستوي عندي... لك ما تشاء... لن تستطيع أن تثبت شيئاً! وخاصة لن تستطيع أن تثبت ذكاءك!

فقال فرسيلوف جازماً:

- أيها الشرطي، لا تتركه، وخذنا إلى المخفر.

فهمست أسأل فرسيلوف:

- حقاً؟ إلى المخفر؟ لماذا!

- حتماً يا عزيزي. إن هذه الفوضى في شوارعنا قد أخذت تضجرني ضجراً رهيباً. فلو قام كل امرىء بواجبه، لكان في ذلك خير للمجتمع. «إن ذلك مضحك ولكن هذا ما سنفعله» (بالفرنسية في الأصل).

مشينا نحو مائة خطوة كان الضابط يصخب ويغضب ويتعجرف، مؤكداً أن هذه المعاملة شيء «غير معقول»، وأن «خمسة عشر كوبياً» لا تستحق أن... إلخ؛ ثم مال على الشرطي يهمس في إذنه. وكان يبدو على الشرطي، وهو رجل عاقل يكره الفضائح في الشوارع، أنه يوافقه على رأيه، ولكن بمعنى واحد، فكان يجمجم قائلاً له بصوت خافت: «لا سبيل الآن»، «لقد نشأت قضية»، «لو تعتذر فيقبل السيد اعتذارك، لكان يمكن أن...».

فصرخ الضابط يقول:

- طيب. اسمع يا سيدي المحترم إلى أين نذهب؟ إنني أسألك: إلى أين نركض هذا الركض؟ هل هذا من الطرافة في شيء؟ ما رأيك في أن يعتذر لك هذا الإنسان الشقي وهو يعاني ما يعاني من ألوان العذاب... ما رأيك في أن تكتفي بما أوقعت فيه من إذلال حتى الآن... اللعنة! لسنا في صالون على كل حال... نحن في الشارع... وفي الشارع تكفي اعتذارات كهذه...

فتوقف فرسيلوف وانفجر ضاحكاً. فكدت أتصور أنه لم يسترسل في

Twitter: @ketab_n

هذه القصة كلها إلا على سبيل التسلية. ولكن الأمر لم يكن كذلك.
قال:

- إنني أعذرك كل العذر يا حضرة الضابط، وأؤكد لك أنك لا تخلو من موهبة. ولك أن تتصرف هذا التصرف حتى في الصالونات. قريباً سيكون هذا صالحاً كل الصلاح للصالونات أيضاً. وبانتظار ذلك، إليك أربعين كوبيكاً فاشرب بها وكلْ. وأعتذر إليك عن إزعاجك يا حضرة الشرطي، أود لو شكرتك عن جهدك أيضاً ولكنك الآن تظهر من النبل...

ثم التفت فرسيلوف إليّ قائلاً:

- ويا عزيزي.. إن هناك مشرباً ليس في حقيقته إلا مكاناً قذراً، ولكننا نستطيع أن نشرب فيه شاياً، فأنا أدعوك... لسنا بعيدين عنه، فهلم بنا إليه.

أعود فأقول مرة أخرى إنني ما رأيته مهتاجاً هذا الاهتياج في يوم من الأيام. ومع ذلك كان وجهه مرحاً مشرقاً بالضياء. لكنني لاحظت أنه حين أخرج من محفظة نقوده قطعتين كل منهما بعشرين كوبيكاً، كانت يداه ترتعشان وكانت أصابعه لا تطاوعه، حتى أنه رجاني أخيراً أن أقوم عنه بإخراج النقود وإعطائها للضابط. لا أستطيع أن أنسى هذا.

وقادني إلى مشرب صغير تحت مستوى أرض الشارع على ضفة القناة[76]. ولم يكن في المشرب ناس كثير. وكان يُعزف فيه على أرغن آلي مبحوح متنافر الأنغام. وكانت تنتشر في جوه روائح فوط ملوثة بالدسم. وجلسنا في ركن.

- لعلك لا تعرف أنني أحب أحياناً، من فرط الضجر، من فرط الضجر الرهيب الذي يرهق القلب، أن أنزل إلى هذه الأماكن القذرة. فهذه الأجواء، وهذا اللحن النشاز من «لوسيا»[77]، وهؤلاء الخدم الذين

Twitter: @ketab_n

يرتدون ثياباً وطنية روسية تبلغ حد الإسفاف، وهذا الدخان الذي يتصاعد من المدخنين، وهذه الصرخات التي يطلقها لاعبو البليارد، ذلك كله يبلغ من العامية والابتذال أنه يكاد يكون من صنع الخيال. طيب يا عزيزي، ماذا كنا نقول؟ إن ذلك الابن من أبناء إله الحرب مارس قد قطع علينا الحديث عند أهم نقطة فيما أظن. . . ولكن إليك الشاي. إنني أحب الشاي حباً شديداً هنا. . . تصور أن بيتر إيبوليتوفتش كان يؤكد منذ قليل لذلك المستأجر الآخر المجدور أن البرلمان الإنجليزي قد شكل قصداً وعمداً في القرن الماضي لجنة من رجال القانون مهمتها أن تدرس جميع الجوانب من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلاطس، لا لشيء إلا أن يعرف كيف يمكن أن تجري الأمور إذا طبقت قوانينا[78]، وقد هُيئت لهذه المحاكمة جميع أسباب الأبهة والجلال، وحُشِدَ لها جهاز قضائي من مدعين إلى محامين إلى سائر ما هنالك. . . وأن المحلفين قد اضطروا أن يخرجوا بقرار إدانة. . . شيء يثير الدهشة! وقد أخذ المستأجر الغبي يناقش ويجادل، ثم غضب وسخط وأعلن أنه سيترك البيت منذ الغد. . . وأخذت المؤجرة تذرف دموعاً غزيرة لأنها ستفقد بتركه البيت إيراداً. . . «لكن دعنا من هذا» (بالفرنسية في الأصل) إن في هذه المشارب عنادل أحياناً. هل تعرف تلك الحكاية الموسكوفية القديمة التي تروى على غرار حكايات بيتر ايبوليتوفتش؟ يقال إن عندليباً كان يغرد في مشرب بموسكو. فدخل المشرب واحد من أولئك التجار الذين يعتمدون قاعدة: «أفعل ما أشاء». وقال يسأل: «كم ثمن العندليب؟» فقيل له «مائة روبل» فقال: «إشووه وجيئوني به!»، ففعلوا، فلما صار العندليب على مائدته قال: «اقطعوا لي منه شريحة بعشرة كوبيكات!» لقد رويت هذه الحكاية يوماً لبيتر ايبوليتوفتش، ولكنه لم يشأ أن يصدقها، حتى لقد استاء. . .

Twitter: @ketab_n

وتكلم فرسيلوف كثيراً أيضاً. إنني لا أروي هذه الجمل التي قالها إلا على سبيل المثال. وكان يقاطعني كلما فتحت فمي لأشرع في سرد قصتي، فيمضي يقول ترهات لا يربط بينها رابط ولا علاقة لها بما نحن فيه. وكان يتكلم بحرارة ومرح. وكان يضحك لكل أمر من الأمور، بل كان يقهقه، وذلك ما لم أعهده فيه من قبل قط. وقد شرب كأسا من الشاي دفعة واحدة، وسكب لنفسه كأسا أخرى. إنني أفهم الآن الحالة النفسية التي كان فيها: كان مثله كمثل رجل تلقى رسالة عزيزة غالية هامة طال انتظاره لها، فوضعها أمامه وتعمد أن لا يفضها، فهو يقلبها بين أصابعه مدة طويلة، وينعم النظر في غلافها، ويتأمل خاتم البريد الذي عليها، ويمضي إلى غرفة أخرى يصدر أوامره إلى الخدم، أي هو يؤجل الدقيقة الهامة التي يعلم أنها لن تفلت منه، وذلك ليزيد لذته ومتعته وبهجته.

قصصت عليه كل شيء طبعاً.. كل شيء.. من البداية.. ودام حديثي قرابة ساعة. وهل كان يمكن أن يكون الحال غير كذلك؟ لقد كنت شديد الظمأ إلى الكلام حتى قبل ذلك. بدأت بالحديث عن لقائنا الأول في منزل الأمير العجوز عقب وصولها من موسكو. ثم رويت له كيف تتابعت الأحداث شيئاً بعد شيء. لم أغفل شيئاً، لم أسقط شيئاً، ولا كان في إمكاني أن أسقط شيئاً: كان هو نفسه يضعني في الطريق، ويحزر، ويلقنني، حتى خيِّل إليَّ في بعض اللحظات أنني أعيش حكاية خيالية، وأنه كان دائماً هناك، جالساً في مكان ما أو واقفاً وراء الباب، في كل مرة، طوال هذين الشهرين: كان يعرف سلفاً كل حركة من حركاتي وكل عاطفة من عواطفي. ووجدت في هذا الاعتراف له لذة لا نهاية لها، لأنني كنت أرى فيه كثيراً من اللطف القلبي، وكثيراً من الرقة النفسية، ورأيت فيه قدرة مدهشة على أن يحزر كل شيء من نصف كلمة. وكان يصغي إليَّ إصغاء فيه حب وحنان، كما تصغي امرأة. وقد

Twitter: @ketab_n

استطاع خاصة أن يحسن التصرف فما شعرت بأي خجل. وكان يستوقفني في بعض الأحيان بغتةً ليسألني عن أمر تفصيلي، وكثيراً ما كان يقاطعني ويردد بلهجة عصبية قائلاً: «لا تنس التفاصيل، التفاصيل خاصة، فكلما كانت واقعة من الوقائع أصغر شأنا في نظر المرء، كانت أعظم خطراً في حقيقة الأمر أحياناً». وقد عاد إلى هذه الفكرة مراراً. وطبيعي أنني في بداية قصتي قد تعاليت عليها، ولكن سرعان ما رجعت إلى الحقيقة، فرويت له صادقاً أنني كنت مستعداً لأن أقبّل المكان الذي تطؤها قدمها من أرض الغرفة. وكان أروع وأجمل ما في الأمر أنه فهم فهماً كاملاً أن في وسع امرأة أن «تتعذب خوفاً من وثيقة»، وأن تبقى في الوقت نفسه طاهرة نقية لا مأخذ عليها، كما ظهرت لي اليوم. وقد فهم كذلك كلمة «الطالب» حق فهمها. ولكن حين شارفت على النهاية لاحظت أن ابتسامته الطيبة ونظرته كان يلوح فيها من حين إلى حين نوع من نفاد الصبر، والقسوة، والذهول. وحين وصلت إلى «الوثيقة» تساءلت بيني وبين نفسي: «أأقول له الحقيقة أم لا؟»، ثم لم أقلها له رغم حماستي كلها. أسجل هذا هنا لأذكره مدى الحياة. لقد شرحت له أمر الوثيقة على نحو ما شرحته لها هي، أي أقحمت كرافت. فالتمعت عيناه، وارتسم على جبهته غضن غريب شديد القتامة، وقال يسألني:

- أتتذكر تذكراً واضحاً يا عزيزي أن تلك الرسالة قد أحرقها كرافت بلهب شمعته؟ ألست متوهّماً؟

فأجبته مؤكداً:

- لا لست متوهّماً.

- ذلك أن لهذه الرسالة شأنا خطيراً عندها، فإذا كانت بين يديك كان في وسعك منذ اليوم أن. . .

أما ما الذي «في وسعي أن. .» فلم يذكره. وإنما تابع كلامه يسألني:

Twitter: @ketab_n

- هل صحيح حقاً أن الرسالة ليست الآن بين يديك؟

فارتعشت، ولكن في داخل نفسي لا في ظاهرها. أما في الظاهر فإنني لم أفضح أمري بشيء، ولا طرفت لي عين. حتى أنني أردت أن لا أصدق سؤاله، فقلت:

- ماذا؟ بين يدي، الرسالة بين يدي الآن؟ كيف تكون بين يدي وقد أحرقها كرافت؟

- أحرقها؟

وحدّق إليَّ بنظرة من نار، نظرة جامدة ما أزال أذكرها. وظل مع ذلك مبتسماً، غير أن كل ما كان في وجهه من طيبة، ومن رقة قد اختفى فجأة. وعبرت هيئته عن حيرة وإبهام. وإزداد ما كان يظهر عليه من ذهول. فلو كان أكثر سيطرة على نفسه، لو أنه سيطر على نفسه كما كان يسيطر عليها الآن، لما ألقى عليَّ ذلك السؤال عن الوثيقة. أما وأنه فعل، فهذا دليل أكيد على أنه كان خارجاً عن طوره. ولكنني اليوم إنما أقول هذا الكلام. أما في ذلك الوقت فإنني لم أدرك التغير الذي أصابه، بمثل هذه السرعة، وظللت أطير، وظلت نفسي زاخرة بتلك الموسيقى نفسها. ولكن قصتي انتهت. ونظرت إليه، فقال لي فجأة منذ فرغت من الحديث:

- شيء غريب، غريب جداً يا صديقي: تقول إنك كنت هناك من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة، وأن تاتيانا بافلوفنا لم تكن في البيت، أليس كذلك؟

- من الساعة الثالثة إلى الساعة الرابعة والنصف تماماً.

- تصور أني ذهبت إلى تاتيانا بافلوفنا في الساعة الثالثة والنصف تماماً، فاستقبلتني في المطبخ. إنني أصعد إليها على سلّم الخدمة في كل مرة تقريباً.

فهتفت أقول وأنا اتقهقر إلى وراء من شدة الدهشة:

Twitter: @ketab_n

- ماذا؟ استقبلتك في المطبخ؟

- نعم، وقالت لي إنها لا تستطيع أن تستقبلني، فلم أمكث إلا دقيقتين. وما كنت قد ذهبت إليها إلا لأدعوها إلى الغداء على كل حال.

- لعلها وصلت في تلك اللحظة نفسها؟

- لا أدري. ولكن لا. مستحيل. لقد كانت لابسة بلوزة بيتية. كانت الساعة هي الثالثة والنصف تماماً.

- ولكن. . . ألم تقل لك تاتيانا بافلوفنا أنني عندها؟

- لا. . . لم تقل لي إنك هناك. . . وإلا لكنت عرفت فما سألتك عن شيء.

- اسمع، هذا أمر خطير جداً. . .

- نعم. . . ذلك يتوقف على الجهة التي تنظر إليه منها. . . ولكنني أرى أن وجهك قد اصفر لونه. . . فأين الخطورة في الأمر؟

- لقد ضُحك عليَّ كما يُضحك على طفل. . .

- بل كل ما في الأمر أنها «خافت من حرارة اندفاعك»، كما قالت لك، فلجأت إلى مساعدة تاتيانا بافلوفنا.

- يا لها من حيلة يا رب! اسمع، لقد أنطقتني ذلك الكلام كله بحضور شخص ثالث، أمام تاتيانا بافلوفنا. معنى هذا أن تاتيانا بافلوفنا سمعت ما قلته! هذا. . . هذا رهيب! بل رهيب تصوره!

- «كل شيء نسبي يا عزيزي» (بالفرنسية) ثم إنك قد ناديت «برحابة» الفكر، للمرأة عامة، وهتفت تقول: «عاشت رحابة الفكر».

- لو كنت أنا عطيل، وكنت أنت ياجو، لما استطعتَ أن تفعل خيراً من هذا. . ولكنني أضحك. . فلا يمكن أن يكون ههنا عطيل، إذ ليس ثمة علاقات من هذا النوع. وكيف لا أضحك؟ ليكن ما كان! إنني أظل رغم كل شيء مؤمناً بما هو أسمى مني كثيراً، ولا أفقد مثلي الأعلى! إن

Twitter: @ketab_n

كان ذلك مزاحاً منها، فإنني أغفره لها. إنها تمزح مع مراهق مسكين. ليكن. أنا من جهتي لم ألبس أي قناع. والطالب. . . الطالب كان هناك رغم كل شيء. . . كان. . . كان في قلبها، كان في نفسها. . كان وبقي وسيبقى. وكفى الآن! اسمع: ما رأيك؟ أأمضي إليها فوراً فأعرف الحقيقة كلها، أم لا؟

قلت وأنا أضحك، ولكن الدموع كانت تترقرق في عيني.

- وماذا في الأمر؟ اذهب إليها يا صديقي إذا كنت ترغب في ذلك.

- أحس أنني لطخت نفسي إذ قصصت عليك هذا كله. لا تزعل، يا عزيزي ولكنني أعود فأقول إنه لا يجوز لرجل أن يتحدث عن امرأة إلى شخص آخر. إن من تتخذه نجياً وتفضي إليه بأسرارك لن يفهم أبداً. الملاك نفسه لن يفهم. حين تحترم امرأة فلا تتخذ لك نجياً تبوح له بأمورك. وإذا كنت تحترم نفسك فلا تفعل ذلك أيضاً. إنني الآن لا احترم نفسي. إلى اللقاء. لن أغفر لنفسي ما فعلت. . .

- دعك يا عزيزي، إنك تبالغ! أنت نفسك قلت «إنه لم يحدث شيء».

وخرجنا إلى الشارع، وودَّع كل منا الآخر. وقال لي وفي صوته ارتعاش خاص:

- ولكن ألا تقبّلني يوماً من كل قلبك قبلة طفل، كما يقبل ابن أباه؟

فقبلته بحرارة.

قال:

- عزيزي. . . كن طاهراً نقياً على الدوام كما أنت طاهر نقي في هذه اللحظة.

لم أقبّله قبل هذه المرة في حياتي، ولا كان يمكنني أن أتصور أن يطلب مني هو نفسه ذلك.

Twitter: @ketab_n

حواش

(1) «هأنا آخذ بكتابة قصة خطواتي...» يجري السرد في الرواية على لسان بطلها، المراهق آركادى دولجوروكي، ولكن ليس في صورة يوميات، بل في صورة مذكرات وذكريات. وقد أقدم دوستويفسكي على هذه الصيغة بعد تردد طويل. ففي 12 آب 1874 يسجل في دفاتر المسودات: «حل هام للمسألة... أن أبدأ بكلمة: أنا».

(2) «... أبدأ مذكراتي بيوم 19 أيلول من السنة المنصرمة...» اعتنى الكاتب عناية دقيقة بالتسلسل الزمني لأحداث الرواية. وتستغرق الأحداث فيها حوالي أربعة أشهر، من 19 آب حتى منتصف كانون الأول 1874 (حددت السنة حسب الدلائل المحتملة). ويسجل أركادي أحداث هذه الأشهر الأربعة بعد وقوعها بنصف سنة، في منتصف أيار من العام التالي.

(3) «الأمير دولجوروكي؟...» كان آل دولجوروكي أو دولجوروكوف من أشهر وأعرق عائلات الأمراء في روسيا.

(4) «... إن الزواج بين الأقنان الخدم في عهد القنانة...» الأقنان الخدم هم الخدم في منازل الإقطاعيين في روسيا قبل عام 1861. ففي ظل نظام القنانة الذي لم يلغ إلا عام 1861 كان للإقطاعيين حق التصرف في مصائر وملكية وكد الفلاحين الذين يعتبرون ملكاً لهم.

(5) قصة «أنطون المسكين» للكاتب د.جريجوروفتش (1822–1899) وقصة «بولينا ساكس» للكاتب أ. دروجينين (1824–1864) نشرتا عام 1847 في مجلة «سوفريمينّيك» (المعاصر) وأثرتا تأثيراً كبيراً على ميول القطاع التقدمي من المجتمع الروسي بما تميزتا به من أفكار إنسانية.

(6) «... مدرسة توشار...» اسم توشار هو تحريف لاسم سوشارد، الذي كان صاحب بنسيون تعليمي في موسكو. وكان دوستويفسكي يتردد عليه تلميذا غير مقيم في عام 1833.

(7) «وتمضي معي إلى كوزنتسكي...» شارع كوزنتسكي موست بموسكو - شارع كانت تقع فيه محلات الأزياء العصرية.

Twitter: @ketab_n

(8) «ولكن هذا من شأن شيللر...» المقصود هنا: هذا شيء رومانسي، نسبة إلى الشاعر الألماني الرومانسي فريدريك سيللر (1759-1805) الذي كان له تأثير كبير على إبداع دوستويفسكي.

(9) يا بني العزيز (بالفرنسية في الأصل).

(10) يقتضي الاحترام في تقاليد المخاطبة الروسية أن تجري المخاطبة بصيغة الجمع لا المفرد - المعرّب.

(11) جيمس روتشيلد (1792-1868) مصرفي باريسي، مؤسس دار آل روتشيلد المالية. والدوق بيري (1778-1820) هو الابن الثاني لكارل العاشر والمرشح لتولي عرش فرنسا، وقد هاجر مع أبيه إلى باريس عام 1784 بعد عودة الملكية. وفي 13 شباط 1820 لقي مصرعه على يد العامل لوفيل بغية استئصال ذرية البوربونيين.

(12) حي في بطرسبرج في جزيرة وسط نهر النيفا خلف قلعة بطرس وباول. وللوصول إليه من حي سيميونوفسكي كان لا بد من اختراق جزء كبير من المدينة من الجنوب إلى الشمال.

(13) «أما يزال عازماً على الهروب إلى أميركا؟..» في ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر انتشرت في أوساط الشباب الروسي نزعة نحو الهجرة إلى أميركا بغية أن يجربوا بأنفسهم حياة العمال الأمريكيين.

(14) «ما من غريب واحد، اطمئن بالاً.» استخدم الكاتب في وصف اجتماع حلقة ديرجاتشيف في الرواية مواد محاكمة «الدولجوشينيين» وزعيمهم أ. دولجوشين (1848-1885). وقد بحث مجلس الشيوخ من 9 إلى 15 تموز 1874 قضية الدولجوشينيين الذين وجهت إليهم تهمة «وضع البيانات الإجرامية وطبعها وتوزيعها بغية إثارة الأهالي وحضهم على التمرد».

(15) مسبقاً (باللاتينية في الأصل).

(16) «... كل هذه الثكنات... كل هذه الكتائب...» الكتيبة (الفلانجا)، حسب أفكار الاشتراكي الطوباوي الفرنسي فورييه (1772-1837) هي الجماعة الاجتماعية الإنتاجية - الاستهلاكية، التي ينبغي أن تصبح الخلية الأساسية للبناء الاجتماعي المثالي.

(17) «... ما حدث في مدينة إمس...» مدينة إمس أو باد - إمس هي منتجع في ألمانيا. وقد تعالج دوستويفسكي في إمس عامي 1874 و1875، وعكف هناك على كتابة «المراهق».

Twitter: @ketab_n

(18) «... ليذهب إلى فيلنو...» فيلنو أو فيلنوس، مدينة على شاطىء البلطيق وهي عاصمة جمهورية لاتفيا حالياً.

(19) «أنا لا أؤمن بوباء الانتحارات...» نشرت الصحافة الروسية في سبعينات القرن التاسع عشر مواد عن حوادث انتحار كثيرة تفشت وسط الشباب.

(20) «فلما نشبت الحرب مع أوروبا عاد إلى الخدمة في الجيش ولكنه لم يرسل إلى القرم...» المقصود هنا حرب القرم 1853-1856 التي حاربت روسيا فيها ائتلافا مكوناً من إنجلترا وفرنسا وتركيا وسردينيا نظراً لتصادم المصالح الاقتصادية والسياسية لهذه البلدان في الشرق الأوسط.

(21) «كونيغسبرج» - العاصمة السابقة لبروسيا الشرقية، وقد أصبحت الآن تسمى كالينينجراد، وهي عاصمة محافظة كالينينجراد بجمهورية روسيا الاتحادية.

(22) «... في عداد أول جماعة من «وسطاء الصلح»...» «وسيط الصلح» هي وظيفة حكومية أنشئت في روسيا بعد إلغاء نظام القنانة. وحينما قام وسطاء الصلح الأول بتحديد الأراضي المقسمة بين الإقطاعيين والفلاحين (1861-1863) طالبوا في بعض الحالات بإضفاء الطابع الديمقراطي على هذا الإصلاح ودافعوا عن مصالح الفلاحين.

(23) أب (منVater بالألمانية).

(24) « بخيلين من نوع هارباجون أو بليوشكين...» هارباجون هو بطل كوميديا «البخيل» (1669) للأديب الفرنسي جان باتيست موليير (1622-1673). وبليوشكين هو شخصية من رواية «النفوس الميتة» (1842) للأديب الروسي نيقولاي جوجول (1809-1852)، وقد أصبحت صورة تعبر عن البخل والجشع الشديدين.

(25) شرط ضروري (باللاتينية في الأصل).

(26) «... كوكوريف وبولياكوف وجوبونين...» هم رأسماليون روس أغنياء من الجيل الأول.

(27) جون لاو (1671-1729) رجل إنجليزي هرب إلى باريس حيث أنشأ مصرفاً في عام 1716 قام بإصدار أوراق بنكنوت بدون تغطية.

(28) «... ولكن هذا تاليران، وهذا بيرون...» شارل موريس تاليران (1754-1838) دبلوماسي فرنسي شهير، أستاذ في فن اللعب الدبلوماسي المرهف، واليكسيس بيرون (1689-1773) شاعر فرنسي كتب قصائد وكوميديات، وأوبرات كوميدية وهجائيات قصيرة.

Twitter: @ketab_n

(29) «... حسبي هذا الإدراك...» مقطع من مونولوج البارون في التراجيديا القصيرة «الفارس البخيل» (1830) للشاعر الروسي الكبير ألكسندر بوشكين (1799-1837). وقد أوحى هذا المونولوج إلى أركادي بـ «فكرته».

(30) «... مثل الغراب، سيكفيني غذاء في صحرائي». إشارة إلى الأسطورة التوراتية عن النبي إيليا الذي عاش بقرب الأردن إبان جفاف شديد استمر سنوات طويلة، وكان الغراب يحمل إليه الخبز واللحم كل يوم.

(31) «... أمثال غاليليو وكوبرنيك، وشارلمان ونابوليون وبوشكين وشكسبير...» نيقولاي كوبرنيك (1473-1543) وغاليليو غاليلي (1564-1642) عالمان فلكيان عظيمان. وملك الفرنكيين شارلمان العظيم (742-814) والامبراطور نابوليون بونابرت الأول (1769-1821) قائدان عسكريان عظيمان. والشاعر الروسي ألكسندر بوشكين (1799-1837) والشاعر الإنجليزي وليام شكسبير (1564-1616) من عباقرة الشعر الروسي والإنجليزي.

(32) «إن فكرة بسمارك قد أصبحت عبقرية على الفور، وبسمارك نفسه أصبح رجلاً عبقرياً...» أوتو إدوارد ليوبولد بسمارك (1815-1898) أمير ورجل دولة بارز في بروسيا وألمانيا، ومن أكبر دبلوماسيي العصر الحديث. و«فكرة» بسمارك التي يقصدها أركادي دولجوروكي هي فكرة توحيد ألمانيا بقوة السلاح البروسي. وكان دوستويفسكي يبدي اهتماماً كبيراً بشخصية بسمارك الذي بلغ أوج مجده في سبعينات القرن الماضي. وكثيراً ما يتردد اسم بسمارك في «يوميات كاتب» لدوستويفسكي.

(33) «... إن جان جاك روسو، في كتابه «الاعترافات»...» جان جاك روسو (1712-1778) فيلسوف وكاتب ومنوّر فرنسي. وقد أثرت «اعترافاته» (1766-1769 والصادرة في 1782-1789) تأثيرا كبيراً على الأدب الأوروبي.

(34) «... صورة لـ«مادونا» درسدن...» صورة «العذراء السكستينية» لرافائيل (1483-1520) من أحب اللوحات إلى قلب دوستويفسكي. وقد علقت صورة فوتوغرافية لهذه اللوحة في آخر شقة سكنها الكاتب في بطرسبرج.

(35) « الأبواب البرونزية لكاتدرائية فلورنسا...» المقصود بوابة الكاتدرائية الشهيرة سانتا ماريا ديل فيوري (القرن 13) في فلورنسا. وكان دوستويفسكي يحلم بأن تكون لديه صورة كهذه.

(36) «من «أفكار جنيف» في نهاية القرن الماضي...» المقصود هنا الأفكار الديمقراطية والاشتراكية في نهاية القرن الثامن عشر والتي يرجعها دوستويفسكي إلى آراء

Twitter: @ketab_n

المنوّر الفرنسي جان جاك روسو الذي يرجع أصله إلى مدينة جنيف.

(37) في العالم كله وفي أماكن أخرى (بالإيطالية في الأصل).

(38) إيليسييف وباليه...» صاحبا محلات أطعمة كبيرة في موسكو وبطرسبرج.

(39) «أنسحب إلى الصحراء...» الشطر الأول من أغنية ذائعة آنذاك.

(40) «أحب حكايات كريلوف...» إيفان كريلوف (1769–1844) أديب وصحفي روسي وواضع حكايات عن الحيوانات والطيور. وقد أصبح كثير من سطور حكاياته يجري مجرى الأمثال بفضل بساطتها ودقة تعبيرها.

(41) تشاتسكي هو بطل المسرحية الشعرية «وذو العقل يشقى...» للشاعر والدبلوماسي الروسي ألكسندر جريبويدوف (1795–1829).

(42) «مذكرات صياد»...». هي صور أدبية من حياة الفلاحين الأقنان في روسيا القيصرية سجلتها ريشة الأديب إيفان تورجينيف (1818–1883).

(43) «... واحداً من المتعصبين للسلافية!» «الدعوة السلافية» هي تيار اجتماعي سياسي في أواسط القرن التاسع عشر، كان أصحابه يؤكدون على الأصالة والتفرد لتطور روسيا التاريخي على أساس النظام الأبوي والنزعة المحافظة والديانة الأرثوذكسية وينكرون إمكانية تطور روسيا حسب نموذج البلدان الأوروبية الغربية. والعبارة هنا تحمل معنى السخرية من أركادي.

(44) «... فلو أن «أوريا» القروي هذا قد أخذ يزعق ويصرخ فما عسى كان يحدث لي أنا «داود» الصغير...» أوريا، كما ورد في التوراة، محارب شجاع وشريف لدى الملك داود. وقد عشق الملك زوجة أوريا فأمر بإرساله إلى أخطر مواقع القتال حيث لقي أوريا حتفه. وقد حوّر الموضوع هنا بصورة ساخرة.

(45) بيت من قصيدة «فلاس» (1855) للشاعر الروسي نيقولاي نيكراسوف (1821–1878). وكان دوستويفسكي يهوى هذه القصيدة بصفة خاصة.

(46) «... ونموذج العهد البطرسبرجي» كان دوستويفسكي يقصد بـ «العهد البطرسبرجي» للتاريخ الروسي تلك الفترة التي تبدأ بإصلاحات القيصر بطرس الأكبر (1672–1725) الذي تولى الحكم عام 1682. وقد نقل بطرس الأكبر عاصمة روسيا من موسكو إلى المدينة التي بناها «سان - بطرسبرج» في عام 1703.

(47) «... تمثال الفارس الممتطي صهوة حصانه اللاهث المنهوك..» المقصود تمثال بطرس الأكبر في بطرسبرج (الفارس النحاسي) من صنع فالكوني (1716–1791).

(48) «فتاة فتانة كانت تلاطفني...» بيت من قصيدة بوشكين «الشال الأسود» (1820).

Twitter: @ketab_n

(49) الضاحية (Vorstadt بالألمانية).

(50) «... أعطي نصف طالر...» الطالر عملة فضية جرمانية توالى إصدارها من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر.

(51) «لقد انتحر كرافت في سبيل الفكرة، من أجل هيكوبا..» إيماءة إلى كلمات هاملت: «من أجل هيكوبا! ومن تكون له هيكوبا، ومن هو لهيكوبا حتى يبكي عليها؟» وهيكوبا في الأساطير الإغريقية هي زوجة بريام ملك الطرواديين.

(52) «ورب ابن شرعي يترك منزل أبيه إذا أوجب عليه الضمير والشرف ذلك. جاء هذا حتى في الكتاب المقدس.» يقصد آركادى هنا ما جاء في سفر التكوين: «لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته...» (سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآية 24).

(53) «أنا أمير، أنا سليل روريك...» حسب أساطير الأسفار الروسية يعتبر روريك أحد ثلاثة أشقاء (روريك وسنيوس وتروفور) كانوا قادة لفصائل من الورنك (قبائل اسكندينافية قديمة). وتدعي الأساطير أن سلافيي نوفجورود قد استدعوهم من وراء البحر لوقف الاقتتال فيما بينهم فأسسوا الدولة الروسية القديمة. وقد شغل أخلاف روريك مركز الصدارة بين حاشية البلاط الروسي العريقة.

(54) ستنام كملك صغير (بالفرنسية في الأصل).

(55)اقتباس ناقص من إنجيل متى (الإصحاح الخامس، الآيتان 25، 26).

(56) «... سيلادون متجولاً» سيلادون اسم بطل رواية «أستريا» (1610-1619) للأديب الفرنسي أونوري دورفيه (1568-1625). وقد أصبح رمزاً لزير النساء المرهف ولمرافق النساء اللبق.

(57) «... «كان ميتاً فبعث، وكان ضائعاً فرجع» » الإشارة هنا إلى أمثولة الابن الضال الواردة في الإنجيل.

(58) اقتباس من قصيدة بوشكين «البطل» (1830).

(59) «وهذه المطاعم أمثال مطعم بوريل». بوريل - أحد المطاعم الأرستقراطية الغالية في بطرسبرج.

(60) « عهد الإمبراطور الراحل». المقصود هنا القيصر نيقولاي الأول (1796-1855).

(61) خط سكة حديد تسارسكوي سيلو هو أول سكة حديدية في روسيا وكانت تربط بطرسبرج بتسارسكوي سيلو (مدينة بوشكين حالياً). وقد افتتحت عام 1838.

(62) «كان الأمير سوفوروف الإيطالي. من أخلاف القائد العسكري». يبدو أن الحديث

Twitter: @ketab_n

يدور عن حفيد القائد العسكري العظيم ألكسندر سوفروف (1729-1800)، مؤسس الفن الحربي الروسي.

(63) كان زوفيالوف مشهورا في أواسط القرن التاسع عشر بإنتاج السكاكين.

(64) «رؤيا ملك السويد». تقول الأسطورة إن ملك السويد كارل الحادي عشر قد رأى حلماً ينبىء بمصرع الملك القادم غوستاف الثالث (1746-1792).

(65)أسطورة تدعي أن القيصر نيقولاي الأول قد ركع على ركبتيه أمام الشيوخ الذين طالبوه بالتخلي عن العرش، وذلك إبان انتفاضة الديسمبريين عام 1825.

(66) كان تشرنيشيف (1785-1857) وزيرا للحربية في عهد القيصر نيقولاي الأول.

(67) يا للشيطان! (بالفرنسية في الأصل).

(68) «تبديل الحجارة خبزاً». الإشارة إلى ما جاء في الإنجيل عن ظهور الشيطان للمسيح في الصحراء واقتراحه عليه بأن «يحول الأحجار إلى خبز» ليطعم الجياع.

(69) «آراء جنيف... هي الفضيلة بغير يسوع المسيح». المقصود هنا إلحاد الإشتراكيين المعاصرين لدوستويفسكي.

(70) «كما فعل هوراسيو القديم ». الإشارة إلى الأسطورة التي تروي أن هوراسيو بعث بأبنائه التوائم الثلاثة لمنازلة توائم ثلاثة من آل كورياتسيا لحل النزاع حول الأولوية بين روما وألبا - لونغا.

(71) «بيلنسكي، الجزء الثاني!» المقصود هنا، فيما يبدو، الجزء الثاني من أعمال الناقد الروسي الكبير بيلينسكي (1811-1848).

(72) كان شارع ميليونايا الكبير (حالياً شارع خالتورين) يضم متاجر للملابس العصرية نصف الجاهزة وصالونات الخياطين الباهظي الثمن.

(73)المقصود هنا الغزو المغولي - التتري للإمارات الروسية في بداية القرن الثالث عشر. ولم تتحرر الدولة الروسية من ربقة هذا الاحتلال إلا في القرن الخامس عشر.

(74) إشارة إلى بَطَلي مسرحية شكسبير «عطيل» (1604).

(75) «كنت أقيم.... في عمارة كبيرة». كان الحي الذي يقطنه أركادى من أكثر أحياء بطرسبرج ازدحاما بالسكان حيث انتشرت فيه العمارات المشيدة بغرض التأجير.

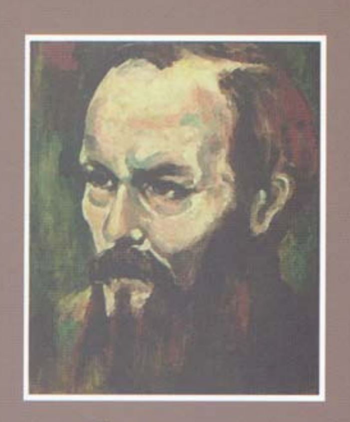
(76) « على ضفة القناة». قناة ايكاترينا، المسماة الآن قناة جريبويدوف.

(77) «وهذا اللحن النشاز من «لوسيا». «لوسيا دي لاميرمور» أوبرا للموسيقار الإيطالي دونيستي (1797-1848).

Twitter: @ketab_n

(78) «من دعوى المسيح أمام كبير الكهنة وبيلاطس». جاء في الإنجيل أن المسيح قدم للمحاكمة أمام الحاكم الروماني ليهوذا بيلاطس البنطي الذي حكم يهوذا في الفترة من 26 إلى 36 بعد الميلاد.

Twitter: @ketab_n



دوستويفسكي

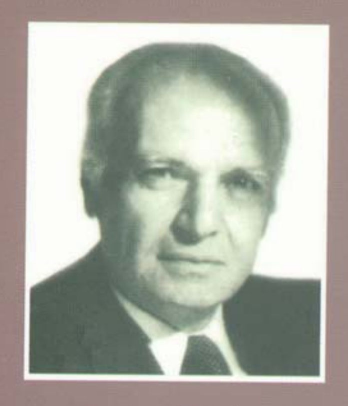
ولد فيدور مخائيلوفتش دوستويفسكي في موسكو في ١١/١١/١٨٢١ من أسرة مطبّب في مشفى للفقراء.

أرسله أبوه لدراسة الهندسة في بطرسبرج ولكن شغفه بالشعر والأدب وإحساسه الرهف تجاه ألم وعذاب الناس، جعله يرى عدم كمال "هذا العالم" فكانت أولى رواياته هي "المساكين" عام ١٨٤٥.

اعتقل عام ١٨٤٩ بسبب انضمامه إلى جماعة من الاشتراكيين الطوباويين، وحكم عليه بالإعدام. لكن خُفّف هذا الحكم بطلب من الإمبراطور. ليطلق سراحه بعد ١٠ سنوات. ويؤسس بعدها مع أخيه ميخائيل مجلة "الوقت" ثم مجلة العصر. وينطلق في الكتابة ويضع أهم رواياته التي صارت معلماً في الأدب الروسي والعالمي وخاصة: الجريمة والعقاب، الأبله، المراهق ثم الأخوة كارامازوف.

توفي دوستويفسكي في ٩ شباط/ فبراير من عام ١٨٨١، ولكن أعماله التي تُقرأ وتُقرأ تجعله حاضراً دائماً.

Twitter: @ketab_n



سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرة عام ١٩٦١.
* عمل مدرساً للفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد المهات (١٩٧٨).

Twitter: @ketab_n

يعتبر دوستويفسكي واحداً من أعظم كتّاب الرواية، فأعماله تتميز بقدرة على السرد تشدّ القارئ، وبتعبيرها القوي عن دزاخل النفس الإنسانية، وقد عبّر عن ذلك في عناوين رواياته التي تصف الإنسان في شتى مواقفه وتصرّفاته: المقامر-المراهق-مذلون مهانون-الجريمة والعقاب-الأبله...

ورواية "المراهق" تقدّم نموذجاً لشخصيّة "طالب" مراهق، بآماله وأوهامه المتعلقة بالحياة والثراء والحب. وتصف مشاعر الحبّ والكره، والاعتراف والانكار التي يمرّ بها مراهق تجاه والديه وعائلته ومحيطه.

يتتبع دوستويفسكي الصراعات التي يعيشها المراهق أركادي في أجواء عائلته وأوضاعه الحياتية التي يسعى للتمرّد عليها. فيضع نصب عينيه العمل على أن يصبح غنياً كروتشيلد، وينكر عائلته التي يعتبر أنها قصّرت في حقّه، ويسعى لعلاقات مع طبقة الأغنياء والأمراء.

يقدم دوستويفسكي عبر هذه الشخصيّات نماذج إنسانيّة غنيّة كاشفاً عن أهوائها ونزواتها كما عن طيبتها وجمال روحها.

"إنك تحلم بحياة لها دويّ، تحلم أن تحرق لا أدري ماذا، وأن تمزّق لا أدري ماذا، أن تسمو فوق روسيا كلها، أن تمرّ مرور سحابة ساطعة، أن تغرق العالم كله في الخوف والإعجاب، لذلك أرى من المفيد أن أحذّرك لأني أحمل لك عاطفة صادقة".

هذا هو المراهق كما يصفه دوستويفسكي على لسان والده.





